وجدي نجيب المصري

حقيقة لفائف البحر الميت

(مخطوطات قمران)

نصوص توراتية تثير جدلاً
حول أقدميتها واختلافها عن العهد القديم

فريق متميزون
E-BOOK

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

حقيقة لفائف البحر الميت

(مخطوطات قمران)

نصوص توراتية تثير جدلًا حول أقدميتها واختلافها عن العهد القديم

وجدي نجيب المصري

عن الكتاب..

يأتي هذا الكتاب بعد "البعد التوراتي للإرهاب الإسرائيلي" لوجدي المصري، ليتابع تشريح النصوص التوراتية والنصوص الأقدم التي استُلّت التوراة منها، طارحًا المزيد من الأسئلة ومقارنًا بين النصوص المتوفرة، ولا سيما مخطوطات قمران التي تعد من أقدم المخطوطات لكن أجزاء منها بقيت مخفية بعناية حتى القرن العشرين، وتضم نصوصًا ظهرت فيما بعد في الكتاب المقدس، وأخرى لم تعتمد في أي من الكتب السماوية الموجودة بين أيدينا. مرة أخرى، يتطرق الكاتب إلى مواضيع معتمٌ عليها عن قصد، ليضيء عليها ويربطها بما يحدث في بلادنا اليوم، مثيرًا موجة من الاستنفار لدى المؤسسات والجمعيات الصهيونية، التي حاولت جاهدة منع انتشار الكتاب السابق "البعد التوراتي للإرهاب الإسرائيلي" في العالم العربي والعالم كله، مستعينةً بثقلها الإعلامي والسياسي والمادي.

في هذا الكتاب حقائق دينية وتاريخية، وبرهان على أن باقي الديانات السماوية براءٌ ممّا ادّعته التوراة على صعيد القِيَم وسِيَر بعض الأنبياء، وبرهان أيضًا على ارتكاز الصهاينة على بطولات ملفّقة وأساطير، ومعارك لم تنشب، وشخصيات ملوك وأنبياء وحكّام لا وجود لها.

كتاب قدّم له وزير الإعلام السابق ملحم رياشي؛ نقتطف مما قاله: "قلّب الكاتب بثقة العالم، صفحات قمران، واكتشف فيها نكهةً جديدة هي مدعاة لإعادة نظر تاريخية، وأداة لمشرحة العلم والعلماء من جديد. تناول خلفية الخلْق والألوهة وحضارات الهلال الخصيب، وتناول مواضيعه بخصوبةٍ وموقف له، واضح منها".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

إهداءٌ خاص

إلى الهبة الأفضل والأسمى التي حلّت في الإنسان منذ أن كان، وأخذت بيده فأرشدته إلى طُرُق المعرفة والإبداع، وجعلته عاشقاً للجمال، متيّماً بالحق ومحبّاً للخير...

إلى العقل الذي وهبني قدرة الإدراك، والتقويم، والحكم...

أُهدي كلمات هذا الكتاب لعلّها تساعد عقول الآخرين على تلمّس الحقيقة.

وجدي نجيب المصري

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تقديم.. بقلم ملحم الرياشي..

وجدي المصري، المختلِف المختلَف!

كتاب أضواء على حقيقة لفائف البحر الميت (مخطوطات قمران) للصديق وجدي المصري، يفتح كوة خاصة ومختلفة، ومن وجهة نظر مخالفة للكثير من السائد على صفحات قمران، التي أخذت حيّزاً مهماً في عالم الأبحاث الأركيولوجية، وفي التاريخ الديني والأنثروبولوجيا.

أهمية صفحات وجدي المصري، أنها لا تمرّ مرور الكرام، بل تعمل على استفزاز المهتمين لتصبح كل صفحة مِن البحث مشغلاً جديداً للبحث؛

من تاريخ الكنيسة وعلاقة المسيح يسوع بمسيح التوراة، إلى النقد والنقض الواضح لتاريخ العهد القديم في مفاصله الأساسية، علماً أن الرمزية التي يرتكز عليها علماء الكنيسة تختلف عن نظرة وجدي، مما يُفيد أكثر فأكثر في تسعير جدلية فلسفية وتاريخية من نوعٍ آخر.

قلّب الكاتب بثقة العالِم، صفحات قمران، واكتشف فيها نكهة جديدة هي مدعاة لإعادة نظر تاريخية، وأداة لمشرحة العلم والعلماء من جديد. تناول خلفية الخلق والألوهة وحضارات الهلال الخصيب، وتناول مواضيعه بخصوبةٍ وموقفٍ له، واضحٍ منها.

استفاض وجدي المصري ليخلق حالات بحثٍ مختلفة، عارضاً النصوص في مقابل النصوص، لينتقل إلى خلاصات الدور للدعاية الصهيونية في الاستفادة والتوقيت وحتى النشر لتلك اللفائف.

وجدي لم يلحق نعجته لينقذها فاكتشف، بل هو عمل ويعمل بجهدٍ واضحٍ وجليٍّ وجهيد وفريد للإحاطة بقضايا شعبه وحماية انتمائه والتاريخ، واستعادة «نعجته الضالة» وحمايتها حتى الرمش من أي تشويه.

قد لا تتفق مع وجدي في بعض مقاربات أو تختلف معه في إسقاط بعض رمزيات، لكن لا يمكنك إلا أن تقرأ وتنهم في القراءة وبشغف الراغب في جديدٍ هادىءٍ ورصين، لم يعد يشبه أيامنا.

من القلب ومن العقل ومن صفحات لم تكتب بالكامل بعد، عن تاريخٍ ضارب في أقصى أعماق السنين، ألف تحية وتحية لمن قدّم كنزاً للمكتبة العربية والإنسانية... وللخلود: وجدي المصري!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

مقدّمة

«لا إمام سوى العقل»

أبو العلاء المعرّي

قد تكون مهمّة إقناع الناس بوجهة نظر محدّدة من أصعب المهمّات التي يواجهها الكاتب. فالإنسان منذ نشأته يتعرّض دماغه لموجات متتالية من الإيحاءات، التي لا يمكنه في طفولته أن يشذّبها من الشوائب؛ فيكبر وتزداد هذه الإيحاءات، ذات المنبع الواحد، حتّى يصبح من المستحيل إقصاؤها لاستبدالها بما يتوافق مع نمو الدماغ وتطوّر العقل، الذي يُصبح في سن معيّنة قادراً على ضبط إيقاعات المعارف المتراكمة. لن أغوص في بحث علمي عن الدماغ والعقل، وأترك للعلم مهمّة تعريف كلّ منهما. لكنّني، ومن حيث أنا مقتنع بإماميّة العقل، سأنقل هذا التعريف له عن موقع ويكيبيديا: «العقل هو مجموعة من القوى الإدراكيّة التي تتضمّن الوعي، المعرفة، التفكير، الحكم، اللغة والذاكرة... يملك العقل القدرة على التخيّل، التمييز والتقدير...». ومن هذا التعريف الحديث ندرك كم كان أبو العلاء المعرّي متقدّماً عندما جعل العقل الإمام الأوحد.

كذلك يلتقي هذا التعريف مع ما كتبه إخوان الصفاء في أحد فصول الرسالة الثالثة من النفسانيّات العقليّات، حيث نقرأ: «إنّه قوّة من قوى النفس الإنسانيّة التي من أفعالها التفكّر والرويّة والنطق والتمييز والصنائع وما شاكلها»(1).

وجاء تعريف الأمير السيّد جمال الدين عبد اللّه التنوخي أيضاً في هذا الإطار، فقد قال: «إنّه نور روحاني، به تُدرك النفس العلوم الروحانيّة والجسمانيّة، ومنه تستمدّ قوّة روحانيّة تقدر النفس بها إدراك المعارف، والتمييز بين الحسن والقبيح، والنقص والكمال، والخير والشر»(2).

ويكاد يكون هذا التعريف هو الأوضح لجهة إسناد عمليّة إدراك العلوم الروحانيّة إلى العقل، الذي يعود إليه وحده قبول هذه العلوم أو رذلها، لعدم صحة روحانيتها.

وبالاستناد إلى هذا التعريف الشامل، الذي يجعل من العقل متحكّماً في كلّ قوى الإدراك والمعرفة والتمييز والتقدير، يُصبح لزاماً علينا أن نلجأ إلى العقل لتحكيمه في كلّ ما وصل إلينا من الأقدمين، ويصل إلينا حالياً، وسيستمر في الوصول في الآتي من الأيام، من نتاج هذا العقل في كلّ ميادين المعرفة.

إنّ هذا الحصار الذي ساهمنا في إقامته حول العقل لكي نبقيه بعيداً عمّا أبدعه لنا في الماضي من الأيام، لا يمكن أن ينتج منه سوى تزوير وتحريف

للحقائق، التي تراكمت على رفوف الحضارة الإنسانيّة، في معظم الأوقات.

فعلى العقل أن يبقى البوصلة التي تحدّد لنا المسار، والميزان، الذي إن وضعنا في كفتيه معلومة ونقيضها، ترجحْ إحداهما على حساب الأخرى، انطلاقاً من قدرة العقل على التمييز والتقدير والحكم.

وليس كلّ ما وصلَنا، وكلّ ما نقرأه أو نسمعه في مختلف وسائل الإعلام، يتّسم بالصدقيّة، وبالتالي يصبح لزاماً علينا أن نصدّقه ونأخذ به.

ومن نافل القول أيضاً إنّ العدد ليس دليلاً على صحة معلومة ما. وهذا يعني أنّه إذا كانت أكثريّة ما مقتنعة بأمر محدّد، فهذا لا يؤكّد أبداً أنّ قناعتها صائبة. ولنا في الحقائق العلميّة، مثل كرويّة الأرض ودورانها حول الشمس، أهم مثال على ما أقول.

كثيراً ما نسمع أنّ التاريخ يقول كذا وكذا، وكأنّنا نجعل من كتَبة التاريخ أنبياء إلى جانب أنبياء الديانات، ونعصمهم عن الأهواء والأخطاء.

يقول ابن خلدون في مقدّمته: «اعلم أنّ فنّ التاريخ فنّ عزيز المذهب جمّ الفوائد شريف الغاية، فهو يوقعنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم. حتّى تجري فائدة الاقتداء بذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا... لأنّ الأخبار إذا اعتُمد فيها على مجرّد النقل، ولم تُحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنسانيّ... فربّما لم يؤمن فيها عن العثور، ومزلّة القدم والحيد عن جادّة الصدق. وكثيراً ما وقع للمؤرّخين والمفسّرين وأئمّة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرّد النقل غثاً أو سميناً، ولم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات، وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار، فضلّوا عن الحق، وتاهوا في بيداء الوهم والغلط»(3).

بعد هذا الكلام المتقدّم وعياً، حتّى على أفكار مثقّفي أيامنا هذه، ينتقل ابن خلدون مباشرة لنقدِ ما جاء في العهد القديم من مغالطات ومبالغات، حتّى قال إنّك «تجد زعمهم باطلاً ونقلهم كاذباً». ألا يدعونا هذا الكلام إلى التساؤل حول الأسباب التي دعت رجال الدين إلى تكفير كلّ من يفكّر بعرض كلام الكتب الدينية على العقل بالرغم من أنّ كثراً من العلماء يؤكّدون تعرّض بعض هذه الكتب إلى تدخّل الإنسان في نصوصها؟

«فالربّ» إله إسرائيل قال لنوح بعد الطوفان: «لن أعود إلى لعن الأرض بسبب الإنسان، لأنّ تكوين قلب الإنسان ضاع منذ شبابه. ولهذا لن أعود إلى

تدمير الكائنات الحيّة كلّها كما قد فعلت. ولكن سيحدث أنّني سأعاقب سكان الأرض عندما يُخطئون بالجوع أو بالسيف أو بالنار أو بالموت» (4).

فعقاب إله بني إسرائيل المتعدّد الوجوه يقود إلى موت الخاطئ أبشع ميتة. أمّا اللّه الكونيّ مع يسوع، فنجده إلهاً محبّاً، متسامحاً وغفوراً، ولا يرتاح لمجرّد تنسّمه رائحة الذبيحة، كما أعلن أكثر من مرّة إله بني إسرائيل، بل كان يريد «رحمة لا ذبيحة» العهد الجديد، إنجيل متّى 9: 13. وقال يسوع أيضاً: «لم آتِ لأدعو أبراراً، بل خطأة إلى التوبة» العهد الجديد، إنجيل مرقس 2: 17.

وبولس نقض بكلامه إلى الرجال الأثينويين حاجة اللّه إلى مسكن حين قال: «الإله الذي خلق العالم وكلّ ما فيه هذا إذ هو ربّ السماء والأرض، لا يسكن في هياكل مصنوعة بالأيدي. ولا يُخدم بأيدي الناس كأنّه محتاج إلى شيء... فالله الآن يأمر جميع الناس في كلّ مكان أن يتوبوا متغاضياً عن أزمنة الجهل» العهد الجديد، أعمال الرسل 17: 24، 25، 30.

يسوع ارتضى الصلب ليكفّر عن خطايا الناس، كلّ الناس، لأنّه كان يعلم حقّ العلم بأنّ الإنسان خاطئ بطبيعته، وليس معصوماً عن الخطأ، ومن يخطئ يُفتح له مجال التوبة، ولا يُحكم عليه بالموت جوعاً أو بالسيف أو بالنار. لذلك قال يوحنّا الرسول في رسالته الأولى: «يا أولادي أكتب إليكم هذا لكي لا تخطئوا. وإن أخطأ أحد فلنا شفيع عند الآب يسوع المسيح البار، وهو كفّارة لخطايانا. ليس لخطايانا فقط، بل لخطايا كلّ العالم أيضاً».

وها هو بولس في رسالته إلى تيطس يقول: «فلهذا السبب وبّخهم بصرامة لكي يكونوا أصحّاء في الإيمان، لا يُصغون إلى خرافات يهوديّة ووصايا أناس مرتدّين عن الحق» العهد الجديد: من رسالة بولس الرسول إلى تيطس 1: 13-14.

فأين وصيّة بولس اليوم لا تردع جموع المسيحيين عن تصديق خرافات اليهود وأكاذيبهم، وخاصّة تلك التي تتعلّق بوعد اللّه لهم بإعطائهم أرضنا بعد تهجيرنا منها، أو قتلنا وتدمير منازلنا.

وهذا القرآن الكريم قد أنكر على بني إسرائيل أن يكون كلام كتابهم، وهو كلام إلههم، صحيحاً لجهة اختيار هذا الإله إياهم شعباً خاصّاً به، مميّزاً إياهم من شعوب الأرض كلّها؛ فنقرأ من سورة البقرة: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. ونقرأ أيضاً: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

أمّا في ما يتعلّق بالقتل الذي دعا إليه يهوه، سواء كعقاب للمخطئين، أو لتطهير الأرض من سكّانها لكي يستولوا عليها تحقيقاً لوعد إلههم، فإنّ بعض آيات القرآن تدعو إلى القتل في سبيل اللّه دفاعاً عن النفس، أي عندما يحاول المشركون الهجوم على المؤمنين لقتلهم، فالدفاع هو من طبيعة النفس البشريّة. نقرأ من سورة البقرة أيضاً:

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (190) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ... وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ (193)... فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ (194) [البقرة 190-194].

والقرآن يؤكّد أنّ القتال أمر مكروه: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ [البقرة 216]. وهذه الآية تؤكّد أنّ على المؤمن ألّا يبادر إلى القتال أو الاعتداء على الغير. فالقتال واجب عليه فقط لمواجهة مَن يحاول الاعتداء عليه. والرأفة والرحمة رافقتا كلام النبي الكريم، فهو يقول: وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْلَمُونَ (6) [التوبة].

وقتال المشركين لم يكن مطلوباً على نحو دائم، بل وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [الأنفال].

والدليل أنّ القتال كان محصوراً بالمشركين الذين يبادرون إلى قتال المؤمنين هو الآية التي تحرّم قتل المؤمن: وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا (إلى أي دين انتمى) مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا [النساء].

فلماذا هذا الاختلاف بين الأديان بشأن القتل وتحليله في دين، ورفضه على نحو مطلق في دين سواه، وحصره بحالات معيّنة في آخر؟ ألا يستدعي منّا هذا الخلاف أن نترك للعقل مسألة الحكم، بدلاً من التسليم والقبول الأعمى؟

مسألة ثانية أودّ أن أشير إليها، وتختلف نظرة الأديان بشأنها. نقرأ من سِفر التكوين: «وابتدأ نوح يكون فلّاحاً وغرس كرماً. وشرب من الخمر فسكر وتعرّى داخل خبائه...» العهد القديم، سفر التكوين 9: 20-21. ونوح هذا كان بارّاً بالنسبة إلى الربّ، الذي قال لنوح «داخل أنت وجميع أهل بيتك إلى الفُلك. لأنّني إيّاك رأيت بارّاً لديّ في هذا الجيل» تكوين 7: 1.

ونوح البارّ زرع الكرمة وأنتج الخمر وشرب منه وسكِر، وظلّ في عيني إله بني إسرائيل، وعيون المؤمنين جميعاً، نبيّاً باراً، وهذا يعني أنّ إله بني

إسرائيل لم يحرّم الخمر.

والأمر نفسه حدث مع لوط، الذي هبط إليه ملاكا الربّ وأنقذاه مع أصهاره وبنيه وبناته من دمار سدوم وعمورة الأسطوريّ. فإذا بابنتيه تتفقان على أن تسقيا أباهما «خمراً ونضطجع معه. فنُحيي من أبينا نسلاً». فانصاع لهما وارتكبتا فعل الزنى معه وأنجبتا منه. وهذا يدلّ أيضاً على أنّ إله بني إسرائيل لم يحرّم شرب الخمر. وأتى يسوع فحوّل في عرس قانا الماء خمراً لكي لا يرتبك أهل العريس من نفاد الخمر قبل انتهاء العرس. وهذا أيضاً يعني أنّ يسوع لم يحرّم الخمر. فإذا ما جاء القرآن الكريم نزلت الآية التي تقول: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا} [البقرة 216].

وأنا لم أفهم من الآية تحريماً بل تحذيراً خشية الوقوع في الإثم. وأتت الآية التالية:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ [النساء 43]، لتؤكّد أنّ الخمر غير محرّم بالمطلق، إذ حرّمت أداء الصلاة بعد الإسراف في الشراب لأنّه يؤدّي إلى عدم وعي الإنسان لما يقول. أمّا إذا كان قد تناول القليل من الخمر غير ذي تأثير في الوعي، فلا ضرر من ذلك. هكذا أفهم أنا هذه الآيات. أمّا العلماء، فقد أفتوا بتحريمها، ما جعل من ذلك نقطة خلاف مع الدينين الآخرين.

ولماذا هذا الاختلاف بشأن تقديس كلّ منها ليوم من أيام الأسبوع. فإله اليهود طلب من بني إسرائيل تقديس يوم السبت، فأتى يسوع ليقول إنّ السبت للإنسان لا الإنسان للسبت، وورد في القرآن الكريم ما يأتي: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ [النساء 47].

وقل الشيء نفسه عن الختان، الذي كان عهداً بين إله بني إسرائيل وإبراهيم وذريّته (بني إسرائيل)؛ فجاء بولس الرسول ليقول لمريديه: «ها أنا بولس أقول لكم إنّه إن اختتنتم فلا ينفعكم المسيح شيئاً... لأنّه في المسيح يسوع لا الختان ينفع شيئاً، ولا الغُرلة، بل الإيمان العامل بالمحبّة» العهد الجديد، من رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية 5: 2-6.

أمّا في المحمّديّة، فليس هناك من آية تطلب أن يُختن الذكور، بل هناك حديث يُنسب إلى الرسول من دون إسناد وإثبات يقول: «فقد رُوي عن النبي (صلعم) أنّه قال: «إنّ من سُنّتي وسُنّة الأنبياء قبلي النكاح والختان والسواك والعطر». وهذه إحدى الفتاوى المنشورة على موقع www.Islam4u.com. وخالفه آخرون معتمدين على الآية القرآنيّة التي تقول: لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ

فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ [التين]، إذن فلا لزوم للختان. وهذه الآية تتفق مع ما ورد على لسان أحد الرسل، من أنّه لو كان الختان ينفع لخلقنا اللّه مختونين، وهو الذي يمتلك المعرفة الكلّية.

يبقى أن أشير إلى خلاف أساسيّ بين المسيحيّة والمحمّديّة يتعلّق بصلب المسيح وألوهيّته. وهاتان المسألتان تعدّان من أسس الإيمان المسيحيّ. ثمّ جاء القرآن لينكر ألوهيّة المسيح وواقعة الصلب، ويرى أنّ من شاهده، فإنّما شُبّه له. نقرأ من سورة المائدة: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ [المائدة 72]. ونقرأ أيضاً من سورة النساء: وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ [النساء 157].

وفي هذه الآية نفيٌ أيضاً لأن يكون عيسى ابن مريم هو الله، بل هو بحسب الآية رسول الله، ونفيٌ لأن يكون اليهود قد صلبوه فقتلوه.

هذه بعض الأمثلة التي تظهر اختلافاً واضحاً بين بعض النصوص الدينية، وهذا برأيي أمر بديهي نتج عن الظروف الإجتماعية التي انطلقت خلالها كلّ ديانة فأتت النصوص منسجمة مع أحوال الجماعة التي نشأت بينها هذه الديانات ففعلت فعلها بتغيير أحوالهم على مختلف الصعد.

فالإيحاء يكون عبر العقل لكلّ الناس، وبحسب مجالاتهم ومهمّاتهم.

فالرسل أوحى إليهم بالتعاليم الاجتماعيّة، والعلماء يوحي لهم بالاختراعات على الصعد كلها، والفنانون بالأعمال الباهرة في الفنون جميعها، كذلك يفعل مع الأدباء والشعراء والقصّاصين. فإذا كنّا نؤمن بأنّ اللّه قد ميّز الإنسان من بقيّة المخلوقات بالعقل، فلماذا نسلب من هذا العقل فعل الإبداع بوضع الشرائع الدينيّة، وننسب إليه كلّ الإبداعات الأخرى؟

يقول خزعل الماجدي: «وقد اتّخذ الرازي من تناقض الروايات في سير الأنبياء وآرائهم دليلاً على بطلان النبوّة، لأنّه يرى أنّ النبوّة تقوم على الإلهام والوحي من الله، ومصدرها واحد، إذ يجب ألّا تتناقض في تفاصيلها».

ويُكمل الماجدي قائلاً: إنّ الرازي أعطى أهميّة كبرى للعقل في مستهلّ كتابه الطبّ الروحانيّ حيث قال: «إنّ البارئ - عزّ اسمه- إنّما أعطانا العقل... وبالعقل أدركنا جميع ما ينفعنا، ويحسن ويطيب به عيشنا، وبه أدركنا الأمور الغامضة البعيدة منّا، الخفيّة المستورة عنا»(5).

وينتقل بعد ذلك الماجدي في دراسته عن الأديان؛ فيتحدّث عن مذهب «الربوبيّة»، فيقول عن هذا المذهب الفلسفيّ الدينيّ، الذي نشأ في القرن السابع عشر ما يأتي: «ترى هذه الفلسفة الدينيّة أنّ هناك خالقاً عظيماً للكون

هو الله، الذي هو المهندس العظيم، الذي بنى الكون، لكنّه لا يتدخّل في الشؤون الإنسانيّة، ولا يصنع للبشر المعجزات والوحي، لأنّه وهب الإنسان العقل والعلم الطبيعي، وهما يكشفان له الحقيقة، ولذلك هم يرفضون الوحي، ويؤمنون بالعقل والعلم، ويرفضون عصمة الكتب المقدّسة. فهم يرفضون جميع الأديان، ويرون أنّ كتبها المقدّسة من صنع الإنسان. فالله أعطى الإنسان العقل للوصول إلى الحقيقة عن طريق العلم والفكر»(6). ويرى مارسيا إلياد «أنّ الإنسان المعاصر يجب ألّا يرضخ لعبوديّة الأفكار الدينيّة في عصر، بل عليه أن يكشف حقيقتها وزيفها، ويقاومها. وأن يتصدّى لكلّ الخرافات والمظاهر الأسطوريّة التي تُرهب الآخرين»(7).

كلّ هذه الاختلافات في وجهات النظر، وتقويم الإنتاج الفكري للإنسان، تجعلنا مرغمين على اتّباع القواعد التي يفرضها العقل عند قراءتنا أيّ منتج فكريّ يصدر عنه. ودراستنا لهذه المخطوطات تندرج ضمن هذا السياق. ولعلّنا من القليلين الذين لم يسلّموا بقدسيّة مضمونها، وبالتالي كان لزاماً علينا أن نعرضها على العقل لتكون له وحده مهمّة التقدير، فالتقرير وإصدار الحكم.

يقول كامل النجار في مقال له على موقع «الحوار المتمدّن»: «جاءت التوراة (العهد القديم) بمفهوم ذلك العالم البدائيّ المحدود، وانحصرت قصصها في مصر وأرض كنعان واليمن. ونسبة لشحّ العلم في تلك الأيّام، جاءت فكرة خلق العالم والإنسان في التوراة كوصف لما رآه كاتب التوراة بالعين المجرّدة، وفي تلك المنطقة الجغرافيّة المحدودة. وبالطبع كان خيال كاتب التوراة محدوداً نسبة لمحدوديّة خبراته وعلمه».

ويمكننا أن نستخلص من هذا الكلام أنّ البيئتين الجغرافيّة والزمنيّة مثّلتا عاملاً أساسيّاً ببلورة تفكير الإنسان، وتركتا أثرهما الواضح في إنتاجه الفكريّ، كما تتّضح لنا قناعة الكاتب بأنّ العهد القديم صناعة إنسانيّة لا علاقة لله بها.

ويلاقي الأب سهيل قاشا الكاتب النجار فيقول: «إنّنا إذا أضفنا إلى تلك المستنسخات والمقتبسات ما يملأ النصوص التوراتيّة من التناقضات والخلط التاريخيّ والاختلافات ومجافاة الواقع وعبارات التميّز والفساد والعنف، فسنصل إلى الأمر الذي يعنينا هنا، وهو إذا كانت كلّ تلك المادّة غير الأصيلة والمسروقة أو المُختلقة قد أنشأت ديانة ما، وتحت أيّ اسم، فإنّها ليست ديانة سماويّة، ولا هي حتّى ديانة وضعها فلاسفة عقلاء ومصلحون، ممّا تشير إليه مادّتها في كثير من الوجوه»(8).

وانطلاقاً من هذه القناعة المستندة إلى المعايير العقليّة أقول: بالرغم من تقويمي السلبي لمضمون هذه المخطوطات المتماهي مع مضمون العهد القديم، فإنّني أحترم أيّ رأي مخالف شرط أن يكون قد اعتمد في دراسته

وتقويمه لهذه المخطوطات على المعايير العقليّة، لا على التفكير النمطي المتوارث، الذي يفرض على الدارس سلفاً موقفاً إيجابيّاً منها. فيكون بذلك قد عطّل تدخّل العقل، وشلّ قدرته التحكيميّة. ودور العقل في عمليّة التقويم لمضمون المخطوطات والعهد القديم على السواء، لم يرتكز مطلقاً على مسألة العداء السياسيّ لدولة الاحتلال، بل للفكر اللاهوتيّ الذي صُبغ بألوان الألوهيّة والقداسة، في الوقت الذي أثبتت فيه المكتشَفات الأثريّة والنظريّات العلميّة على السواء أنّ هذا المضمون ليس سوى مقتبسات، كما أكّد الأب سهيل قاشا، من نتاج الفكر الإنسانيّ السابق لبروز بني إسرائيل على مسرح الوجود.

وفي ختام هذه المقدّمة، أودّ الاعتذار من القارئ على التكرار الذي سيلاحظه في متن الكتاب، والذي شمل ثلاث مسائل تحديداً: الأولى هي التركيز على أنّ إله بني إسرائيل ليس إله الكون، الذي تعبده وتجلّه الغالبيّة العظمى من سكان الأرض؛ والثانية هي أنّ وصايا هذا الإله وكلّ أوامره غير مُلزِمة إلّا لبني إسرائيل، انطلاقاً من كون هذا الإله إلهاً خاصّاً بهذه الطائفة، ومن أنّه اختار أبناء هذه الطائفة وحدهم ليكونوا شعبه الخاص. وبذلك يكون قد حصر حكماً كلّ وصاياه وأوامره وشريعته بمن توجّه إليهم بالكلام دائماً؛ والثالثة هي الإشارة إلى أنّ مضمون المخطوطات، كما العهد القديم، ينقسم إلى قسمين: الأوّل مقتبسات ومستنسخات من أساطير شعوب بلاد ما بين النهرين وأرض كنعان ومصر الفرعونيّة، والثاني اختلاق لتاريخ وهميّ أراد كتّابه اختراع شعب انطلاقاً من التاريخ الملفّق، حيث تُحدّثنا الآثار عن شعوب تخبر آثارها عن تاريخها.

وأختم بما قاله المؤرّخ توماس ل. طومسون: «إنّ العهد القديم لم يكن تاريخاً تحوّل إلى خيال، بل كان خيالاً تحوّل إلى تاريخ»(9).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مدخل

الله لا يمكن أن يعطينا عقولاً ثمّ يعطينا شرائع مخالفة لها

ابن رشد

معظم الناس، وعلى مختلف أديانهم، يعتقدون اليوم أنّ اللَّه خلق العالم، في ستة أيام، وكان آخر خلقه الإنسان، واستراح في اليوم السابع.

طبعاً هذا الاعتقاد توارثته الأجيال بعد أن وصلت إليها أساطير العهد القديم. منذ ألفيتَين ونصف، كان الإنسان يحبو شاقّاً طريقه في الوعر الفكري، وقلة من الناس كانت في ذلك الزمن تعرف القراءة والكتابة، ومن عرف هذه النعمة استطاع أن يحثّ الخطى على طريق الوعي والمعرفة.

واليوم وبعد التطور الهائل الذي دخل إلى حياة الإنسان نتيجة مئات من السنين، التي شهدت تفاعلاً لعقل الإنسان مع البيئة الطبيعيّة التي وُجد فيها، بتنا ندرك حقيقة الظواهر الطبيعيّة ونحلّلها؛ بالاستناد إلى نظريات علمية استمدّت واقعيّتها من تجارب واختبارات لم تكن متوافرة في ما مضى من الأيام.

تقول الدكتورة سوزان غرينفيلد في كتابها المعنوَن تغيّر العقل إنّ الدماغ البشري «يتكيّف مع البيئة، والبيئة تتغيّر على نحو غير مسبوق، وبالتالي فإنّ الدماغ قد يتغيّر بدوره على نحو غير مسبوق»(10). وهذه المقولة تستند إلى الكثير من الأبحاث التي كان محورها الإنسان، من حيث كيفيّة وجوده على سطح الأرض، متى بدأ وكيف تطوّر، وظواهر التطور التي رافقت حياته اليوميّة، إن لجهة حياته الخاصة، أو لجهة تفاعله مع الآخر، وكيف ساهم هذا التفاعل في تسريع خطى التطوّر، وبالتالي بدء عملية الانتقال التدريجي من حالة الهمجيّة الحيوانيّة التي تشاركها الإنسان مع الحيوان، والتي دامت ملايين السنين، بحسب النظريات العلميّة الحديثة، وصولاً إلى بدء الوعي لحيثيّة الإنسان المختلفة عن حيثيّة الحيوان. هذه الحيثيّة التي اعتمدت على العقل وما بدأ يدركه من إمكانيّة التغيير على أكثر من صعيد. هذا التغيير الذي كان ولم يزل مرتبطاً بتطور العقل، ومدى استغلال هذا التطوّر لتحسين حياة الإنسان والارتقاء بها إلى عوالم لم يكن باستطاعته بلوغها عندما كان يخطو خطواته الأوّلى، وهي تبعد عنا اليوم بحسب التقويم العبري 5850 عاماً كمتوسّط بين نظريات مختلفة لم تَقِلّ عن هذا العدد، ولم تزد على سبعة آلاف عام، وتبعد بحسب النظريات العلميّة ما بين 20 مليون سنة و25 مليوناً، كما ورد في الصفحة 44 من كتاب أرنولد توينبي، الذي يقول: «فإذا حسبنا أنّ الإنسان قديم قِدَم الزمن، الذي أصبح فيه متعذّراً على أجدادنا أن يصبحوا

شيئاَ آخر سوى بشر، هذا إذا أرادوا أن يستمروا في البقاء، فإنّ هذا يعني أنّ الإنسان قد نشأ على شكل متميّز من أشكال الحياة، في الحقبة الوسطى، ومعنى هذا هو أنّ الإنسان قد مرّ على وجوده حتّى اليوم بين عشرين مليوناً من السنين وخمسة وعشرين مليوناً»(11).

لكن إذا حاولنا مناقشة هذا الفارق الهائل لعمر الإنسان على سطح الأرض بين المقولة الدينية والمقولة العلميّة، يترتّب علينا أن نعود إلى تطور عقل الإنسان الذي تقبّل أفكاراً خياليّة، سمّاها لاحقاً أسطوريّة، وهو لمّا يزل في طفولته الفكريّة، والذي أصبح يعتمد، بعد بلوغه سن الرشد الفكريّ، على النظريّات العلميّة المرتكزة على ما وصل إليه العقل من اكتشافات، أدّت إلى التصادم مع ورائيّات الكتب الدينيّة، وتحديداً ما ورد في العهد القديم، الذي جاءت بعض الآيات القرآنيّة لتؤيده، ولا نجد له أيّ تأييد في العهد الجديد، أي أناجيل المسيحيّة.

صحيح أنّ مطلع إنجيل متّى يشير إلى ميلادِ يسوع الذي يعيده بالنسب إلى إبراهيم في محاولة، منه جرى نقدها لاحقاً، للقول إنّ ولادة يسوع جاءت لتثبت ما ورد في التوراة عن مخلّص يأتي من ذريّة داود. وصحيح أيضاً أنّ لوقا في إنجيله قد أشار إلى نسب يسوع، لكن ما ذكره يختلف كليّاً مع ما ورد عند متّى. وصحيح أيضاً أنّ كُلاً من إنجيلي مرقس ويوحنا قد خلوَا من الإشارة إلى نسب يسوع، لكن ما يهمّنا أنّه لم ترد، في كلّ الأناجيل وأعمال الرسل، أيّ إشارة إلى ما جاء في العهد القديم عن قصة التكوين والخلق، التي قام بها اللّه في ستة أيام. كلّ ما جاء في ما كتبه الرسل لا يتعدّى الكلام عن أنّ اللّه هو خالق العالم وما فيه.

فبولس الرسول بلّغ مستمعيه أنّ «الله الحيّ صنع السماء والأرض والبحر وجميع ما فيها» العهد الجديد، أعمال الرسل 14: 15، ثمّ عاد ليقول: «إنّ الإله الذي صنع العالم وجميع ما فيه لا يسكن، إذ هو ربّ السماء والأرض، في هياكل صنعتها الأيدي...» أعمال الرسل 17: 24 ، وذلك رداً على ما جاء في العهد القديم من أنّ «اللّه» طلب من داود أن يبني له بيتاً لسكناه ثم عاد وعهد بهذه المهمة إلى ابنه سليمان، الذي أنجزها ببنائه الهيكل في القدس، الذي لم يستطع حتى اليوم أي من الأركيولوجيين العثور على حجر واحد يثبت وجوده.

وفي دراسة له منشورة على موقع منتدى التوحيد، كتب الدكتور مصطفى محمود عن قصة الخلق، كما وردت في القرآن الكريم، وفيها الكثير من الآيات التي تضمّنتها سور متعدّدة لم تُشر واحدة منها إلى قصة الخلق كما هي واردة في العهد القديم.

فقد أشارت الأناجيل والقرآن إلى اللّه خالق الكون، والسماء أو السماوات والأرض وما عليها، وضرورة عبادة هذا الخالق كما ورد في الآيتين 21 و22 من سورة البقرة: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22) .

ثمّ يشير في آيات أخرى إلى آدم وكيف علّمه الأسماء: وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا [البقرة 31]، وكيف أمره بأن يسكن الجنة مع زوجته من دون أن يقترب من الشجرة ويأكل من ثمرها: وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (35) [البقرة].

أما في سورة البقرة، فنقرأ الآية 117 وهي تقول: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (117) }. وهذا ما قال به أيضاً مذهب التوحيد، الذي يعتمد العقل شرعاً أعلى وينسب إلى اللّه، ككلّ الأديان، ما يُعرف منها بالسماويّة وما سبقها من ديانات، القدرة الكلّية اللامتناهية، فمن الطبيعيّ، وليس في ذلك مجافاة لا للعقل ولا للإيمان، أن يستطيع الخالق، سبب كلّ شيء، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد، خلق الكون لمجرّد حدوث الرغبة لديه في ذلك، فلماذا سيستغرق هذا، وبحسب العهد القديم ستة أيام، ولماذا خصّص اليوم السابع للاستراحة؟ فنحن نعلم أنّ الجسد يتعب من العمل فيستريح الإنسان لكي يستعيد قوّته ليستأنف عمله، فهل اللّه يتعب كالإنسان لكي يحتاج إلى الراحة؟ أليس في هذا الكلام انتقاص من قدرة الخالق، وبالتالي تجديف بحقّه؟

لكن، إذا استفضنا في الشرح، فإن بإمكاننا القول إنّ كاتب العهد القديم، الذي حدّد لله يوم السبت كيوم للراحة، كان قد اطّلع على تراث البابليين الذي يقول العلم الحديث إنّهم، أي البابليين، هم من اخترع التقسيم الستيني، أي الدقيقة 60 ثانية، والساعة 60 دقيقة، وهم من حدّدوا يوم السبت يوم عطلة بعد عمل ستة أيام في الأسبوع، لأنّهم هم من اخترع تقسيم السنة إلى أيام وأسابيع وشهور، وحدّد طولها بالأيام.

يقول ول ديورانت: «وكان الفلك هو العلم الذي امتاز به البابليون، وقد استطاعوا منذ العام 2000 ق.م أن يسجّلوا بدقة شروق الزهرة وغروبها بالنسبة إلى الشمس... وبعد أن قسّموا الدائرة إلى 360 درجة، عادوا فقسّموا الدرجة إلى ستين دقيقة، والدقيقة إلى ستين ثانية... وقسّموا السنة إلى اثني عشر شهراً قمريّاً... وقسّموا الشهر إلى أربعة أسابيع»(12).

ويضيف في الصفحة 373: «وقدّست الوصيّة الرابعة (من الوصايا العشر الموسويّة) يوم الراحة الأسبوعيّ: السبت. وهذه التسمية جاءتهم من البابليين».

أمّا خزعل الماجدي، فيعيد عطلة السبت إلى السومريين، أي إلى ما قبل البابليين. وهذا محتمل جدّاً، لأنّ «حضارة ما بين النهرين بدأت بسومر، وأتى البابليون وبنوا مداميك حضارتهم على بناء من سبقهم». وكانوا (أي السومريون) «يحتفلون في نهاية كلّ أسبوع باكتمال مرحلة من مراحل القمر، نسمّيه اليوم نهاية الأسبوع، وكان يوم السبت هو يوم الاحتفال والعطلة من العمل»(13).

واللّه خالق الكون، بكلّ ما فيه، لم يرد ذكره فقط في الكتب الدينيّة، بدءاً باليهوديّة مروراً بالمسيحيّة فالمحمديّة، بل نقرأ ذلك أيضاً في بعض النصوص الدينيّة التي سبقت ما يُعرف اليوم بالأديان السماويّة التوحيديّة.

ففي أنشودة للإله آتون المصري، يقول أخناتون: «إنّي آتي بالثناء على آتون، الحي، الإله الأوحد، ربّ التألّق، من يوجِد النور حين يُشرق في السماء، ومن يُضيء الأرضين. وحين أحيا كلّ مخلوقاته أبعد الظلمة. وحين يُرسل أشعته تمتلئ كلّ أرضه بحبّه. ينطلق أمامك الكلأ والأشجار، ويقفز أهل الماء عند شروقك، ويفيق الناس جميعاً في أماكنهم»(14).

ونقرأ من أنشودة أخرى: «أيّها الإله الأوحد الذي لا شبيه له، لقد خلقت الدنيا كما شئت عندما كنت وحدك، الناس والماشية والوحوش الضارية، وكلّ ما على الأرض يسعى على قدميه، وكلّ ما يرفع في السماء يطير بجناحيه».

هذا الكلام كُتب قبل سفر التكوين التوراتي، بما لا يقل عن سبعمئة سنة.

لكن إذا غُصنا في أعماق تاريخ الشعوب المدوّن، فإننا سنجد قصة التكوين في الأسطورة البابليّة «الأينوما إيليش»، أي «عندما في الأعالي»، التي سبقت التكوين التوراتي، بما لا يقل عن ألفيتين من السنين، والتي نختار منها هذين المقطعين:

«حين السماوات في الأعالي لم تكن قد دُعيت بعد،

ولا كان للأرض في الأسافل اسم يُطلَق عليها،

عندئذٍ، وُلد الآلهة في داخلهم (أي داخل أبي الواحد الأوّل وتيامة)

انبثق لحمو ولحامو وأعلنت أسماؤهم

وحالما نضجوا، واكتمل تكوينهم،

ولد أنشار وكيشار وتفوّقا عليهم، آنو أول مواليدهما،

فقد خلق أنشار ابنه آنو شبيهاً له،

كما أنجب آنو نوديمد على شاكلته...»(15).

أمّا عن خلق الإنسان، فنقرأ:

«عندما سمع مردوخ كلام الآلهة

عقد العزم على اجتراح المعجزات

وقال كلامه لإيا

وأطلعه على الخطة التي كان يدرسها

دعني أركّب دماً وأصنع عظاماً أيضاً

دعني أعدّ رجلاً بدائيّاً، وسيكون اسمه إنساناً»(16).

وفي كتابه مغامرة العقل الأوّلى ينقل فراس السوّاح عن كريمر صاحب كتاب الأسطورة السومرية مقاطع من هذه الأسطورة، وهي تقول عن خلق الإنسان ما يأتي:

«أي بنيّ انهض من مضجعك

واصنع أمراً حكيماً

اجعل للآلهة خدماً، يصنعوا لهم معاشهم...

فتأمّل أنكي (اسم الإله) ملياً في الأمر، ثم دعا الصنّاع الإلهيين المهرة وقال لأمّه نمّو:

«إنّ الكائنات التي ارتأيت خلقها ستظهر للوجود، ولسوف نعلّق عليها صورة الآلهة، امزجي حفنة طين من فوق مياه الأعماق

وسيتولّى الصنّاع الإلهيون المهرة تكثيف الطين وعجنه

ثمّ كوّني أنت له أعضاءه...»(17).

هذه الأمثلة حفظتها لنا مدوّنات الشعوب القديمة في بلاد ما بين النهرين، وهي على الرغم من كونها الأولى في عمارة الحضارة الإنسانيّة، التي أتت على ذكر الآلهة وعملية خلق الكون والإنسان، لم تُضفْ إلى ما دوّنته صفتي القداسة والألوهيّة كما شهدنا في الكتابات التوراتيّة ومن بعدها المسيحيّة فالمحمديّة، علماً أنّ هذه الكتابات كانت النبع الذي غرف منه كتبة العهد القديم، فأتى سفر التكوين بما حواهِ من أخبار خلق الكون والإنسان، ومن ثمّ

أخبار الطوفان، نسخة معدّلة عن أساطير الشعوب القديمة التي، وبالرغم من تدخّل الآلهة في مجرياتها، عُدّت أدباً شعبيّاً لا كلاماً إلهياً يحظّر التشكيك في صحّته.

يبقى أن أنوّه بأنّ القرآن أشار في بعض الآيات إلى أنّ ما ورد من أخبار الأوّلين، وتحديداً بني إسرائيل، هو قصص «للاجتهاد لا للاعتقاد»، كما قال الكاتب أسعد زيدان(18).

ففي الآية الثالثة من سورة يوسف، نقرأ: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ . كما نقرأ من سورة النساء: وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ [النساء 164].

وهذا يعني برأيي أنّ الآيات التي جاءت على ذكر الأوّلين إنّما تضمّنت قصصاً لبعض ما حدث معهم وما مرّ بهم، لكي يأخذ الناس العبرة. وجاءت هذه القصص كأمثلة لعلّها تكون كافية لمن يقرأها للاعتبار، وليس من الضرورة بمكان أن يشمل القرآن قصص حياة كلّ الرسل والأنبياء، فبعضها يغني عن بعضها الآخر لتشابهها أحياناً كثيرة.

وسورة القصص، التي تسرد أحداث ما ورد في العهد القديم عن موسى وفرعون مصر، يدلّ عنوانها على أنّ مضمونها ليس سوى قصص لجزء من تاريخ ما يُعرف ببني إسرائيل، دوّنه كتّابهم في أسفار كتابهم الديني، الذي ظلّ ردحاً من الزمن خارج نطاق المساءلة لتغليفه، كما أشرنا سابقاً، بغلاف إلهي، ما لبث أن بدأ يتهاوى مع بدء حركة التنقيب في بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام. فإذا بمكتنزات الأرض من تراث الشعوب القديمة تفضح ادعاءات العهد القديم، التي فرض اليهود على العالم ضرورة اعتبارها مضامين لأوّل ديانة «سماويّة» توحيديّة في العالم.

هذا استعراض سريع ومختصر للبواكير الفكريّة التي نتجت من تفاعل عقل الإنسان مع البيئة التي نشأ فيها، ما حتّم عليه، ليس فقط التعبير عن مكنوناته البدائيّة، بل جعل هذا التفاعل يتعدّى العواطف والمشاعر أيضاً، وهي المحرّك الأوّل للعقل، ليبحث في الظواهر الطبيعيّة التي كانت تحيط به بكل قسوتها وخروجها عن المألوف. فما كان منه إلّا أن ألقى مسؤوليّة هذه الظواهر على قوى غيبيّة لم يكن يعلم كنهها. وما هي إلّا بضع مئات من السنين، حتّى تطوّر عقله مع تطوّر حجم دماغه، فراودته فكرة إطلاق اسم على هذه القوى، وعبّر عن ذلك من خلال ما كتبه من قصص ضمّنها رؤيته في ذلك الزمن عمّا سماه آلهة، تعاونت أحياناً في ما بينها، وأحياناً أخرى تقاتلت بشراسة. فكانت نتيجة ذلك خلق السماء وما فيها من نجوم، مشدّداً في البداية على كوكبي الشمس

والقمر اللذين كانا الأكثر لفتاً لانتباهه، والأرض وما عليها من نبات وحيوان وإنسان.

وكان الإنسان بطبيعة الحال المخلوق الأوفر حظاً، الذي ظلّ يعد لفترة طويلة ذا أصول إلهيّة - إنسانيّة مشتركة. هذه القصص الشعبيّة إذن كانت بداية الإرهاصات الأوّلى للحضارة الإنسانيّة، التي انطلقت من سومر في بلاد ما بين النهرين، حيث رأى صموئيل نوح كريمر بناءً على هذه الحقائق، التي أظهرتها المكتشفات الأثريّة، أنّ التاريخ يبدأ من سومر، ولاقاه بذلك أرنولد توينبي، الذي أشار إلى «أنّ سومر، وهي السهول الرسوبيّة في الجزء المنخفض من وادي الرافدين، كانت مهد أقدم المدنيات»(19).

وفي الوقت الذي كان فيه التقدم الحضاري من مرحلة إلى مرحلة أخرى يستغرق مئات آلاف السنين، بدأت هذه المساحة الزمنيّة تقلّ تدريجيّاً، حتّى وصلنا إلى يومنا هذا، فأصبحنا نبيت على شيء، ونصحو على شيء آخر.

وجاء ابتكار اللغة ليقلّص هذه المساحة، لأنّ ابتكارها عُدّ «شأناً أساسيّاً في أدوات التفاعل الاجتماعيّ الإنسانيّ، حيث انعكست على مجريات الحياة كافّة»(20).

وهذا التطوّر وليد التفاعل، كما ذكرت سابقاً، من جهة، ووليد استعمال أكبر نسبة ممكنة من إمكانات العقل.

يقول الدكتور بشار خليف: «فتطوّر اليدين والدماغ كانا متعاصرين، وفي كلّ مرحلة كان هناك تفاعل بينهما. وهذا الأمر أدّى إلى تطوّر كلّ منهما. ويبدو أنّ تطوّر هذين العضوين معاً أدّى إلى استيقاظ وعي الإنسان»(21).

والإنسان الأوّل لم يكن يدرك العلاقة بين أعضاء الجسم، وكان عليه أن ينتظر العلوم الحديثة، التي ألقت ضوءاً دقيقاً على عمل كلّ عضو، وخاصة الدماغ، الذي يعطي الأوامر، وكأنّه رئيس ورشة لا يمكن أن ينتظم العمل فيها من دون إشرافه. وهذا الدماغ، كما ذكرت سابقاً، خضع لمراحل متعدّدة من التطوّر ارتبطت بحجمه، هذا الحجم حدّد قدرته التفاعليّة والإنتاجيّة.

يقول أنطون سعادة: «فإذا كان العقل نتيجة تطوُّرات الدماغ الفيزيائيّة، فالعقليّة الاجتماعيّة نتيجة تطوّرات التفاعل المادي لتأمين الحياة الاجتماعيّة(22).

وبالانتقال إلى المفاهيم العلميّة التي بدأت بأخذ مكانها الثابت في القرنين السابقين لعصرنا الحالي، نجد أنّ نظريّة الانفجار الكبير هي التي ما زالت تسود الأوساط العلميّة. وهي بطبيعة الحال لا تتفق لا من قريب ولا من بعيد مع ما ورد في العهد القديم عن خلق الكون وعمره، ولا عن تطوّر الإنسان،

الذي أدّى في مرحلة متأخرة من عمره على سطح الأرض إلى ابتكار اللغة التي ساهمت في الحفاظ على إنتاج الإنسان الفكريّ، الذي بات يُعرف بالحضارة.

فنظريّة الانفجار الكبير حدّدت حدوثه بخمسة عشر ملياراً من السنين، ونتجت منه مليارات من المجرّات. وقد احتوت كلّ مجرّة على مليارات من الكواكب، ولا تزال بعض الكواكب في طور التكوّن حتى الآن.

والمجموعة الشمسيّة، على سبيل المثال، تكوّنت منذ عشرة مليارات سنة، واستمر تكوّنها مدّة لا تقلّ عن خمسة مليارات سنة. وكان على الأرض أن تنتظر نصف مليار سنة لكي تتكوّن، واحتاجت إلى مليار ونصف مليار من السنين لكي تشهد بذور الحياة.

وبناءً على أسباب «جيولوجيّة، مناخيّة، بيئيّة، موضوعيّة، ظهرت النباتات البحريّة، تبعتها الحيوانات البحريّة اللافقارية. وحالما وصلت قيم التمايز والتطوّر إلى حدود 500 مليون سنة، بتنا أمام ظهور النباتات البريّة والحيوانات البريّة الفقاريّة. ومنذ 250 مليون سنة، ظهرت الثدييات، التي انبثقت عنها الرئيسيّات قبل 70 مليون سنة من الآن، هذه الرئيسيّات التي ينحدر منها الإنسان»(23).

ثمّ يشير الدكتور خليف، مستنداً إلى ما كتبه جان شالين في كتابه الإنسان نُشوؤه وارتقاؤه إلى «أنّ جميع الكائنات الحيّة التي تكوّن المحيط الحيوي من الكوكب الأرضي لم تظهر دفعة واحدة ولا تلقائيّاً، ولم تكن نشأتها منذ البداية على النحو الذي هي عليه الآن، وإنّما حاصل ارتقاءٍ طويل الأمد استغرق تدرّجه في الزمن دهوراً. فالمحيط الحيويّ لكُرتنا الأرضيّة في ترقّ مستمر، وكلّ فصيلة فيه لها تاريخ تطوّر يختلف زمنه من فصيلة إلى أخرى. والإنسان جزء متمّم لهذا المحيط، ويخضع لهذا القانون الأساسيّ، شأنه في ذلك شأن سائر المخلوقات الحيّة»(24).

وهذه النظريّة العلميّة تتناقض على نحو صريح مع ما ورد في العهد القديم عن خلق السماوات والأرض في ستة أيّام، بما في الأولى من كواكب، وعلى الثانيّة من نبات وحيوان وطائر وإنسان.

ويكفي أن نقرأ من العهد القديم الإصحاح الأوّل حتّى ندرك مدى الاختلاف مع النظريّة العلميّة، إذ إنّ اللّه قد خلق الإنسان، أي آدم بحسب الأسطورة، في اليوم السادس ووضعه مباشرة في جنّة عدن «ليعملها ويحفظها»، ومباشرة أيضاً بدأ اللّه بالحديث مع آدم، وهذا يعني أنّه قد خلقه رجلاً لا طفلاً، وخلقه ناطقاً. أمّا بأيّ لغة، فليس من الضرورة أن نعرف ذلك، لأنّ كاتب العهد

القديم هكذا قرّر وما علينا إلّا الموافقة على كلّ ما كتب باسم الألوهيّة والقداسة، وما علينا في سبيل ذلك إلّا أن نضع عقولنا في ثلّاجة التاريخ.

صحيح أنّ اللغة وُجدت قبل الكتابة، ولكن الصحيح أيضاً أنّ ملايين من السنين مرّت على وجود الإنسان، كما تؤكّد الدلائل العلميّة، خضع خلالها لعملية تطوّر أوصلتنا إلى ما نحن عليه اليوم.

يقول علي الألفي في تقديم لكتاب الجبتانا تحت عنوان «مقدّمة في الأنثروبولوجي وعلم النفس الاجتماعيّ» ما يأتي: «كان الحيوان البشريّ في ما قبل العصر الحجري القديم (الباليوليتي) يعيش في أُسر صغيرة كأسر الحيوانات الأخرى، وبالتالي كان يستخدم الإشارات، وقلّ استخدامه في ذلك العصر للرموز الصوتيّة، الأمر الذي أدّى إلى تحجيم العمليات العقليّة عنده، وذلك لأنّه كالأخرس لا يستخدم رموزاً كثيرة»(25).

يقول الدكتور بشار خليف: «فمصطلح البشر يُطلق على الرئيسيّات المصنّفة ضمن الجنس البشريّ المسمّى Homo، وداخل هذا الجنس نستطيع تلمّس مراحل تطوّريّة متتابعة مشوبة بتبدّلات واختلافات أدّت إلى تصنيف البشر وفق أصناف متعددة هي:

الإنسان الصانع: 4,4 ملايين سنة - 1,5 مليون سنة.

الإنسان المنتصب: 1,5 مليون سنة - 100 ألف سنة.

إنسان النياندرتال: (100؟ - 60) ألف سنة.

الإنسان العاقل: (100؟ - 60) ألف سنة»(26).

ويبدو أنّ إنسان النياندرتال قد تطوّر على نحو أسرع من سابقيه، وتحوّل إلى إنسان عاقل بدليل أنّ كليهما يحظيان بالتوقيت التاريخيّ الوجوديّ نفسه.

هذه النظريّات العلميّة تخضع بدورها للتطوّر، وذلك بسبب استمرار التنقيب في أكثر من منطقة، والعثور على هياكل عظمية بات من الممكن، مع تقدّم العلم، تحديد عمرها بدقّة. فبعد أن اعتقد الكثير من العلماء أنّ الإنسان الأوّل عاش في أفريقيا، وهذا أيضاً يتعارض مع ما جاء في العهد القديم، فقد وضع اللّه آدم بعد خلقه في جنّة عدن، التي لم يزل الدارسون يختلفون في تحديد موقعها، لكنّها ليست قطعاً في أفريقيا، ولا يتعدّى وجوده الستين ألف سنة. وقد جرى اكتشاف هياكل عظميّة في موقع ست مرخو في اللاذقيّة تعود إلى مليون سنة. وعُثر فيه على أدوات كان قد استخدمها الإنسان المنتصب، وهي عبارة عن فؤوس ومعاول وسواطير وشظايا وقواطع(27).

وأشار الدكتور خليف إلى أنّ «أحدث الدراسات تشير إلى حضور للإنسان العاقل في المشرق العربيّ منذ نحو 100 ألف سنة»(28).

وتشير الدراسات الأحدث إلى أنّ أوّل وجود إنسانيّ ظهر في أفريقيا، ويعود إلى أربعة ملايين وأربعمئة ألف سنة. أمّا عمليّة التطوّر السريع، التي تحدّث عنها العهد القديم في سفر التكوين، أي ولادة الإنسان وهو يتقن لغة محدّدة لم يذكر الكاتب ما هي، وبدؤه بتربية المواشي، والزراعة، وصناعة الخمر، وبناء المدن والسفن في فترة لا تتجاوز مئات السنين، فأمر لا يقبله العلم.

يقول إبراهيم ناصر: «بالرجوع إلى هذا المخطّط نجد أنّ الفترة الزمنيّة ما بين ولادة آدم وحدوث الطوفان هي 1656 سنة. خلال هذه الفترة الوجيزة جداً بالنسبة إلى التقدير العلميّ لتطوّر الإنسان، نجد أنّ الإنسان البدائيّ تقدّم وتطوّرت حياته نحو الأحسن وتحضّر بسرعة هائلة... تعلّم أشياء كثيرة... تربية الحيوانات بعد تدجينها، الزراعة، بناء البيوت والمدن، العزف على الآلات الموسيقيّة، اكتشاف الحديد والنحاس، صناعة السفن إلخ... وهذا لا يتّفق مع ما أثبتته البحوث العلميّة الموثّقة. إنّ جميع البحـوث والدراسات والاكتشافات الأثريّة تؤيّد أنّ تطوّر حياة الإنسان وانتقاله من مرحلة إلى مرحلة ثانية أكثر تطوّراً حدثا خلال آلاف السنين»(29).

إذن هذا الفارق الشّاسع في المساحة الزمنيّة لخلق العالم والإنسان، ما بين أسطورة العهد القديم والنظريّات العلميّة الحديثة، يقودنا أيضاً إلى مناقشة مسألتي اللغة والكتابة.

فبعد أن أفادنا العهد القديم كما ذكرت بأنّ الإنسان الأوّل، آدم، تحدّث إلى اللّٰه مباشرةً، وهكذا فعل ولده قايين بعد أن قتل أخاه هابيل، دار حوار بين اللّٰه وقايين مثبت في الإصحاح الرابع من سفر التكوين. وتحدّث اللّٰه إلى نوح في الإصحاح السادس. أمّا في الحادي عشر، فيقول كاتب العهد القديم إنّ: «الأرض كانت كلّها لساناً واحداً ولغة واحدة...» تكوين 11: 1.

ثم يشطح الكاتب بمخيّلته، فيجعل اللّٰه ينزل إلى الأرض عندما رأى أنّ بني آدم قد بنوا مدينة، فقال الربّ: «هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم وهذا ابتداؤهم بالعمل. والآن لا يمتنع عليهم كلّ ما ينوون أن يعملوه. هلمّ ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتّى لا يسمع بعضهم لسان بعض. فبدّدهم الربّ من هناك على وجه كلّ الأرض. فكفّوا عن بنيان المدينة. لذلك سُمّيت بابل. لأنّ الربّ هناك بلبل لسان كلّ الأرض. ومن هناك بدّدهم الربّ على وجه كلّ الأرض» تكوين 11: 5-9.

وعلى هذا الكلام لنا ملاحظات متعددة. أولاها لماذا غضب الربّ على بني آدم عندما شاهدهم يبنون المدينة؟ فالإنسان استغرق مئات الآلاف من السنين

قبل أن يبتكر الزراعة في الألف التاسع قبل الميلاد، التي أدّت إلى بدء التجمّع البشري وتوسيع رقعته لتبدأ المدن الأولى بالتكوّن.

وكلام كاتب العهد القديم ينسب هذا العمل إلى بني آدم بعد بضع مئات من السنين على خلق آدم، حيث لم يكن الإنسان بعد قد تكاثر بما يكفي لبناء المدن من جهة، ولم يكن قد اكتسب من الخبرات ما يخوّله البناء.

والملاحظة الثانية إذا كان بنو آدم يتكلّمون لغة واحدة، فلماذا أزعج ذلك الربّ فقرر أن يبلبل لسانهم حتّى لا يفهم بعضهم بعضاً؟ إذا كان اللّه محبة، ألم يكن تعاون الناس على بناء المدينة مدعاة لفلاحه، لأنّ ذلك يدلّ على محبة الناس بعضهم لبعض؟

وثالثة الملاحظات ماذا عنى الكاتب عندما قال: والآن لا يمتنع عليهم كلّ ما ينوون أن يعملوه؟ لماذا خاف الربّ من نيّة بني آدم؟ وهل كانت تخفى عليه نيات الإنسان؟ وألم يكن بمقدوره تغيير هذه النيات تجاه الأمور الحسنة؟ وماذا كان يتوقع من الإنسان أن يفعل؟ هل أدرك أنّ الإنسان مثلاً سيعمل على إنزاله عن عرشه ليُجلس عليه أحداً غيره؟

إنّها قصة سخيفة لتفسير تعدّد اللغات في العالم. هذه اللغات التي ابتدأ الإنسان يتكلّمها في كلّ بقعة وُجد فيها، وهي كانت بدايةً مجرد أصوات وحركات يقوم بها لا تختلف بشيء عن أصوات الحيوانات التي كانت تعيش في بيئته. «وربما كانت أولى الألفاظ الإنسانيّة صيحات تعبّر عن العواطف كما هي الحال عند الحيوان، ثمّ جاءت ألفاظ الإشارة في مرافقة للإشارة بالجسم لتدلّ على الاتجاه، ثمّ تلت ذلك أصوات مقلّدة جاءت في أوانها المناسب لتعبّر عن الأشياء والأفعال التي يمكن محاكاة أصواتها. ولا تزال كلّ لغة من لغات الأرض تحتوي على فئات من هذه الألفاظ التي تحاكي بأصواتها الأشياء والأفعال...»(30).

وأخذت هذه الأصوات عشرات الآلاف من السنين حتّى تمكّن العقل، مع تطوّر حجم الدماغ، من البدء بنقل هذه الأصوات إلى رموز صوّرها على رُقم طينيّة، مفتتحاً عصر الكتابة الذي لم يبتدئ قبل الألف الرابع قبل الميلاد، واحتاج إلى ألفيّتين لكي يطوّر كتابته البدائيّة إلى أبجديّة.

أمّا قول الكاتب إنّ المدينة دُعيت بابل لأن الربّ بلبل ألسنة من كانوا يبنونها، فإنّه أسخف كلام يُمكن أن يُقرأ في كتاب لم يزل كلّ المؤمنين يعدّونه كتاب الإنسانيّة الخالد، الذي ضمّ في طيّاته أقدم شريعة إلهيّة توحيديّة.

واليوم، وبفضل اكتشاف آثار مدينة بابل، بتنا نعلم أنّ هذه المدينة بُنيت قبل حكم الملك سرجون الأكدي، أي في أواخر الألف الثالث قبل المسيح،

ووصلت إلى قمة شهرتها أيّام الملك حمورابي، فقد كانت قد أصبحت في أيامه عاصمة للبابليين، وكان ذلك في القرن الثامن عشر قبل المسيح. وكلّ علماء اللّغات القديمة يُجمعون على أنّ اسمها يعني باب الإله. وكلّ هذه الحقائق تناقض ما جاء في العهد القديم. أمّا لماذا هذا الاختلاف؟ فلأنّه برأيي يعود إلى حقد كاتب التوراة على بابل، لأنّ الملك نبوخذ نصّر سيطر على أورشليم عام 587 ق.م، ونقل أهلها أو معظمهم إلى بابل عاصمة مملكته، كما درجت عادة الملوك المنتصرين في تلك الأيّام.

هذا الحدث أطلق عليه كاتب التوراة عبارة السبي البابلي، الذي عدّه اليهود حتى اليوم وصمة عار في تاريخهم، علماً أنّ كتابة العهد القديم بدأت في بابل على يد عزرا، الكاتب الذي كان قد اطّلع على مكتبة أشور بانيبال، التي كانت تحوي نحو مئة ألف لوح طينيّ، وعُدّت عصارة الحضارة الإنسانيّة، التي بدأت بسومر لتمرّ بأهم المحطات التاريخيّة لحضارة بلاد ما بين النهرين. وغرف من أساطيرها مستوحيّاً ما جاء فيها من أخبار الآلهة وخلقهم للعالم وللإنسان، مستنداً إلى قلّة من الذين يعرفون القراءة والكتابة في ذلك الزمن. فأضاف شيئاً من هنا وبدّل شيئاً من هناك، مدّعياً أنّ كلّ ما كُتب نقله عمّا كتبه موسى قبله بسبعة قرون إلى ثمانية قرون.

وهذا الحقد لازم اليهود حتى يومنا هذا، فسنحت لهم فرصة الانتقام من بلاد ما بين النهرين القديمة التي شهدت هزيمتهم العسكريّة والحضاريّة، فاستدرجوا الرئيس الأميركي جورج بوش لشنّ حرب على العراق بحجّة امتلاكه أسلحة الدمار الشامل، حيث كان العمل الأوّل الذي شنه الجيش الأميركيّ المسيّر من الاستخبارات الإسرائيليّة سرقة المتحف العراقيّ، الذي يضمّ الوثائق التاريخيّة التي تتحدّث عن هزيمة اليهود من جهة، والتي تحتوي على الأساطير التي نهل منها كاتب التوراة قصص الخلق والطوفان وربطها ببني إسرائيل.

ولم يخطر ببال هذا الكاتب أنّ هذا التراث الحضاريّ الخارق سيبقى مطموراً، وأنّه سيأتي اليوم الذي يجري فيه اكتشافه وإظهاره للعلن ليكشف كذب ما كتبه، وليُسقط صفتي الألوهيّة والقداسة عن مدوّنات بشريّة هزيلة إذا ما قورنت بما سبقها.

لقد أثبتت سابقاً بعض الأمثلة الأدبية السابقة للعهد القديم بمئات بل آلاف السنوات، التي كانت تحوي بذور المفاهيم الدينيّة التوحيديّة الصحيحة، والتي بدأت ظواهرها مع «تطوّر البنية الدماغيّة لدى الإنسان، التي أسهمت في تطوّر الحياة البشريّة بمناحيها الحضاريّة المختلفة... حتّى صار بإمكاننا القول إنّ الإنسان العاقل هو أوّل إنسان متديّن في التاريخ. ولا اعتقاد ولا تديّن في ثقافات ما قبل الزراعة، بمعنى آخر، لا تديّن قبل الألف العاشر قبل الميلاد، حيث إنّ بواكير الزراعة وتدجين الحيوان التي ظهرت في الألف التاسع قبل

الميلاد، تُعدّ المرحلة المفصليّة في انتقال الإدراك والوعي الإنسانيّ إلى بعد جديد، هو البعد الماورائيّ، وعلى نحو أدق في بواكير التفكير الاعتقاديّ»(31). وكان على الاعتقاد بمفهومه السماوي أن ينتظر بضعة آلاف من السنين، حتّى جرى اختراع الكتابة، وخاصّة بعد تطويرها من الطريقة المسماريّة التي اعتمدت الرموز، إلى لغة لها حروفها التي إنْ رُبط أحدها بالآخر تكوّنت كلمة، حيث أصبح لكلّ كلمة معنى. وهذا ما عُرف بالأبجديّة، التي كان لكنعان الفضل الأوّل في اختراعها.

ويُخطئ من يسلّم بصحة النظريّات التي تقول إنّ الشعوب القديمة، التي كانت صاحبة الحضارات الإنسانيّة الأولى، والتي عاشت في بيئة الهلال السوري الخصيب وبيئة وادي النيل، كانت شعوباً وثنيّة تعبد الأصنام.

«فالدين السومري كان الدين الأوّل للإنسان من حيث امتلاكه أنظمة لاهوتيّة وميثولوجيّة وشعائريّة متكاملة ومنسجمة في ما بينها... وكان البذرة التي ظهرت منها شجرة أديان العالم القديم بأكملها»(32).

ويشير الدكتور الماجدي إلى أنّ «اندماج فكرة الألوهيّة بالعلو والسماء في الذهن القديم ذو دلالة مهمّة على العلاقة المرهفة التي تربط الإنسان بالوجود الكونيّ البعيد. هذه العلاقة التي تعبّر عن ذاتها بالمشاعر اللاهوتيّة المشدودة دائماً نحو المطلق الكونيّ»(33). وفكرة الألوهة التي تفتّق عنها عقل الإنسان الواعي، الذي وصل إلى درجة متقدّمة من الإدراك، أهّلته لبدء ممارسة التفكير الماورائيّ، الذي يبحث في ماهيّة الكون والإنسان، التي جعلته يسند إلى الإله أو الآلهة عملية الخلق. وبالتالي حفّزته على فكرة تكريم هذه الآلهة، التي رأى أنّها ليست فقط مسؤولة عن وجوده بل أيضاً تتدخّل في تفاصيل حياته اليوميّة. فبدأ ببناء المعابد وكتابة الصلوات، التي اعتقد أنّه بتردادها يتقرّب من الآلهة، فتصبح أكثر جاهزيّة لمؤازرته وتحقيق أمنياته.

ويذكر الدكتور بشار خليف أنّ «التنقيبات الأثريّة العائدة إلى الثقافة العبيديّة (5500-4500 ق.م) أظهرت وجود معابد ضخمة... وكشفت عن أكبر معبد قديم وهو عبارة عن معبد - قصر. وقد بدأت في ذلك الزمن تتداخل سلطة الاعتقاد مع السلطة الزمنيّة، حيث تشير الوثائق المكتشَفة بعد ألفي عام إلى أنّ الملك كان هو الكاهن الأكبر»(34).

ومع بدء بناء المعابد بدأت الشعائر الدينيّة والطقوس بالظهور، ومنها على سبيل المثال تقديم القربان والأضاحي، التي عُدّت تقرّباً من الآلهة وكفيلةً بدرء المخاطر والتخفيف من الغضب الإلهيّ الآتي من الأعالي، أي من السماء. وكان ذلك باكورة الفكر الدينيّ الذي ربط وجود اللّه الواحد بالسماء، وجعل الإنسان حتى اليوم ينظر إلى السماء كمسكن للهِ، يرفع رأسه ويديه

نحوها عند الصلاة، ظنّاً منه أنّ اللّه ينظر إليه من فوق. كذلك طقس المسح بالزيت الذي مارسه السوريون القدماء، والذي أشار إليه ملك حلب ياريم ليم في رسالته إلى زمري ليم، وهي رسالة أوحى بها إليه الإله حدد، جاء فيها: «ألست أنا حدد سيد حلب، الذي فقّهك من بين الرعيّة، والذي أوصلك إلى العرش، وإلى منزل والدك، لقد مسحتك بزيت انتصاري»(35).

أما بشأن المعابد والطقوس في ذلك الزمن الموغل في القدم، فيمكن مراجعة كتاب الدكتور خزعل الماجدي الدين السومري، الذي يتضمّن شواهد متعددة على المعابد والشعائر والطقوس الدينيّة في بلاد ما بين النهرين.

إنّ الكلام عن فكرة الاعتقاد الماورائيّ، التي بدأت في بلاد الرافدين، أي العراق القديم، وتطوّر مفاهيمها، يثبت أنّ العهد القديم ليس الكتاب الدينيّ الأوّل على الإطلاق، ويُظهر أيضاً أنّ فكرة التوحيد بدأت في الهلال السوري الخصيب وفي وادي النيل على يد أخناتون، حيث يرى بعض الدارسين أنّ موسى أخذ التوحيد من تعاليم أخناتون، وإن كنت من معارضي هذه الفكرة، وأنّ كتبة التوراة، الذين عاشوا ما بين بلاد الرافدين وبلاد كنعان، أخذوا التوحيد من أهل هاتين البيئتين، لكنّهم لم يحافظوا عليه، لأنّهم آمنوا بإله خاصّ بهم، واعترفوا بآلهة الشعوب الأخرى، فهم وحّدوا إيمانهم بإله واحد، لكنّهم لم يسعوا إلى توحيد إيمان كلّ البشر بهذا الإله، وبذلك أشركوا وخرجوا عن التوحيد الذي سبقتهم إليه شعوب كثيرة.

حتّى أنّ أعداداً هائلة من سكّان العالم القديم لم يؤمنوا بإله واحد، أو قل هم لم يؤمنوا بوجود اللّه، وهم ما زالوا يتكاثرون في العالم، هؤلاء هم البوذيون الذين تجاوز تعدادهم الخمسمئة مليون في العالم.

فالبوذي «غير معنيّ إطلاقاً بمن خلق العالم وكيف، وجلّ همّه يتركّز في الكدح من أجل التحرّر وتخليص روحه من سلسلة التقمّصات في عالم لا يحمل إلّا الألم والشقاء. وهو في كدحه هذا، لا يستعين بأي كائن ما ورائيّ من أي نوع، بل يعتمد على قواه الذاتيّة وحدها. أمّا الآلهة، فليست، في حال وجودها، إلّا كائنات أقدر من الإنسان على التحكّم في عالم المادة، ولكنّها أسيرة مثله في عالم بائس عليها أن تخلّص نفسها منه أيضاً»(36).

وماذا نقول اليوم لأكثر من مليار إنسان لا ينتمون إلى أيّ ديانة من الديانات المعروفة؟ وما هو مصيرهم إذا لم يستطع عقلهم إقناعهم بضرورة الانتماء الدينيّ، أو أنّ عقلهم قد تجاوز هذا الإيمان إلى حقيقة وجوديّة تختلف عن الألوهيّة؟ وهل عدد المؤمنين باللّه هو الذي يؤكّد حقيقته، أم أنّ الحقيقة لا تخضع للنسبة العدديّة؟ وهل الإيمان باللّه هو الطريق الأوحد للسعادة والخلاص والراحة الأبديّة، أم أنّ أعمال الإنسان، حتّى ولو لم يؤمن باللّه، هي

وحدها التي تُدخله الجنة كما قال البابا فرانسيس؟ أمّا ارتباط هذه الأسئلة وما ورد في المدخل بموضوع الكتاب، فإنّه سيتكشّف لنا مع بدء مناقشتنا لمضمون اللفائف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الأول

الباب الأوّل

أضواء على الاكتشاف وعلى كتبة هذه المخطوطات وتاريخ كتابتها

كيف اكتُشفت المخطوطات؟

ذكرتُ في المقدّمة أنّ بلاد ما بين النهرين (العراق اليوم)، وبلاد الشام ومصر، شهدت أقدم الحضارات، وخاصة اختراع الكتابة. نعرف ذلك اليوم بعد أن بدأ علم الآثار يتبلور في القرن الثامن عشر، وانطلق بفاعليّة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ففي مصر، يعود الفضل بالكشف عن تراث الفراعنة إلى العالم الفرنسيّ جان فرنسوا شامبليون، الذي أسّس لعلم المصريات عام 1822. وكان على هذا العلم أن ينتظر بدء العالِم جيمس هنري برستد (1865 - 1935) بدراسة الكنوز الأثريّة المصريّة، التي لا تُحصى، والتي كُتبت بثلاثة أنواع من الخطوط اللغويّة وهي: الهيروغليفية والهيراطيقيّة والديموطيقيّة، فكتب مؤلّفات متعدّدة عن تاريخ مصر القديم(37).

أمّا في العراق، فكان الأمر مختلفاً لجهة الدوافع التي أعطت زخماً منقطع النظير لعمليّة التنقيب عن آثار المدن البائدة، وخاصّة تلك التي ورد ذكرها في العهد القديم.

إذن كان السبب الرئيس وراء البدء بعمليّات البحث والتنقيب هو التفتيش عن هذه المدن، لعلّها تساعد الدارسين المهتمّين بتأكيد صدقية ما ورد في العهد القديم. وازداد هذا الاهتمام مع بدء نشاط الحركة الصهيونيّة أواخر القرن التاسع عشر، التي أرادت أن تستخدم أيّ حجّة لتبرير دعواتها إلى ضرورة الموافقة على السماح لليهود بالسيطرة على فلسطين، لأنّها، برأيهم المستنِد إلى ما ورد في العهد القديم، كانت المسرح الأهم لتاريخ بني إسرائيل القديم، وفوق أرضها قامت مملكة إسرائيل. وهذا برأيهم مسوّغ كافٍ للمطالبة بأرض فلسطين كإرث من أجدادهم، الذين يخبرنا التاريخ أنّهم اضطروا إلى ترك فلسطين عام 70 م بعد أن هزمهم الرومان؛ فتشرّدوا في أصقاع الأرض. وبحسب دراسة منشورة على موقع ويكيبيديا، فقد: «ظهر الكثير من المغامرين الأوروبيّن والمستشرقين، بأعداد متزايدة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وحظيت باهتمام أسماء معروفة لكثير من هذه المواقع القديمة من العهد القديم. والكثير من العمل الميداني في وقت مبكر كان

بدافع من الرغبة في إثبات الدقّة التاريخيّة للكتاب المقدّس. ومن بين المغامرين، بول إميل بوتا القنصل الفرنسيّ في الموصل، الذي جمع بين دورَي الدبلوماسي وعالم الآثار الهاوي. وجاء هنري وستن لايارد الإنكليزي من بعده...»(38).

وكثر المنقّبون بعدهما، وكثر كذلك الدارسون وعلماء اللغات القديمة، الذين بدأوا بترجمة آلاف الرُقم التي بدأ الآثاريّون يكشفون النقاب عنها، وخاصّة مكتبة الملك أشور بانيبال.

يقول الأب الدكتور سهيل قاشا: «نينوى، عاصمة الدولة الأشوريّة، تقع على ضفة دجلة اليسرى، وكانت هذه المدينة قائمة منذ الألف الثالث قبل الميلاد... وقد كشفت الحفريات التي جرت منذ العام 1841م، عن أطلال القصر والسور ومكتبة أشور بانيبال المسماريّة على يد المنقّب العراقيّ نمرود رسّام. كان هذا القصر يحتوي على أكثر من ألفي نقش نافر، ونحو ثمانين غرفة من بينها المكتبة المحتوية على آلاف اللوحات المسماريّة»(39).

وبما أنّ كلّاً من العراق ومصر كانا غير مستقلين بعد، فقد ساهم الوضع السياسيّ في سرقة الكثير من آثارهما إلى أكثر من دولة أوروبيّة، وخاصّة إنكلترا وفرنسا وألمانيا، وإلى الولايات المتحدة الأميركيّة. ولم يُضبط الوضع في العراق إلّا بعد العام 1921. وكذلك حدث هذا في مصر. وبالرغم من القوانين التي صدرت في كلا البلدين، لم يزل تهريب الآثار جارياً وإن بوتيرة أخف. وفي المقابل نشهد قيام مؤسّسات في البلدين تسعى جاهدة لاسترداد ما يمكن استرداده بالمفاوضات مع الدول التي استقرّت فيها الآثار المنهوبة. وكانت آخر عمليّة نهب للآثار العراقيّة قد جرت عام 2003، على أثر الغزو «الحضاريّ» الأميركيّ للعراق.

ففي جريدة النهار اللبنانيّة، ورد الخبر الآتي في 4-12-2011: «يضم المتحف الوطني العراقيّ أقدم اللقى الأثريّة (أدوات وآلات حجريّة بدائيّة تتمثّل في فؤوس ونصال ومقاشط، يرجع تاريخها إلى العصر الحجريّ القديم الأدنى. وقد حُدّد تاريخها من 60 إلى 100 ألف سنة). جرت سرقة 15 ألف قطعة من المخازن، واستُعيدت 4679 قطعة»(40).

ويقول الأب سهيل قاشا: «المعلومات والأخبار تدلّ على تورّط الأميركيين في مساندة اليهود في مسألة الآثار العراقيّة».

أمّا مدير المتحف العراقيّ، فيقول «إنّ السارقين الذين دخلوا إلى المتحف كانوا على علم بالأشياء التي يريدون أخذها، فكانوا يتركون القطع المزوّرة أي المنسوخة، ويأخذون القطع الأصليّة، ودخلوا إلى صندوق محدّد وسرقوا أشياء محدّدة(41)».

وكان الهدف من سرقة متحف العراق، محاولة الحصول على كلّ ما يفضح ادعاءات اليهود، سواء لجهة ادعائهم أنّ ديانتهم هي الديانة التوحيديّة الأوّلى، ومنها غرفت كلّ من المسيحيّة والمحمديّة، أم لجهة ادعائهم أنّ ما ورد في العهد القديم من قصص التكوين وآدم والطوفان وسواها هو كلام اللّه، الذي لا يمكن للبشر مناقشته، وأقول «ادعاء» لأنّ الأساطير السومريّة والبابليّة تطرّقت إلى عمليّة خلق العالم والإنسان والطوفان، وعنها أخذ كاتب التوراة خلال ما سمّوه السبي البابليّ. والفارق الوحيد أنّ أصحاب الأساطير الأولى في تاريخ الحضارة البشريّة المكتوبة، لم يَعدّوا أساطيرهم مُنزلة، بل هي من إبداع إنسانهم المميّز. وبالتالي لم يُطلقوا عليها صفات القداسة والألوهيّة، ولم يروا أنّها دعوة إلى دين جديد، علماً أنّ ظاهرة الأنبياء والكهنة تجلّت عند هذه الشعوب الحضاريّة القديمة، ولم تكن قط إبداعاً يهوديّاً. التوراة ذاتها تذكر أنّ الإله يهوه لم يكن له مسكن، بل كان يحلّ في خيمة الاجتماع، والمسكن يعني المعبد، لأنّ اليهود كانوا قبائل بدويّة تعيش على الغزو والنهب والقتل، حتّى أنه لم يكن لهم ملك: «فاجتمع كلّ شيوخ إسرائيل وجاؤوا إلى صموئيل، إلى الرامة، وقالوا له هوذا أنت قد شخت وابناك لم يسيرا في طريقك. فالآن اجعل لنا ملكاً يقضي لنا كسائر الشعوب...» العهد القديم، سفر صموئيل الأوّل، 8: 4-6. وهذا أكبر دليل على بعدهم عن كلّ مظاهر الحضارة المعروفة في ذلك الوقت في العالم القديم، أي في الهلال السوريّ الخصيب، وفي وادي النيل. هاتان البيئتان اللتان أثبتت الحفريات الآثاريّة احتضانهما مئات المعابد من جهة، وتطوّر أنظمة الحكم فيهما، ومعرفتهما النظام الملكيّ قبل مئات السنين من قيام مملكة إسرائيل المزعومة، التي لم يقم عليها أيّ دليل أثريّ. وهكذا أيضاً حال هيكل سليمان في القدس.

واستمرت عمليات التنقيب، وهي ما زالت قائمة في أيامنا هذه. وصار لزاماً على البعثات الأجنبيّة الخضوع لقوانين الآثار التي أصدرتها الحكومات، وخاصّة بعد حصول كلّ من العراق وسوريا ومصر على الاستقلال. وتركّز نشاط الصهيونيّة، بعد نجاحها في السيطرة على معظم فلسطين بتواطؤ من معظم دول العالم، على التنقيب في الأراضي المحتلّة، وخاصّة تحت المسجد الأقصى، لاقتناعها بأنّ هذا المسجد قد بُني على أنقاض هيكل سليمان.

وها نحن بعد سبعين عاماً من الاحتلال واستمرار التنقيب، ما زلنا ننتظر أن نرى حجراً واحداً من الأحجار الضخمة، العاديّة والكريمة، التي استعملها البنّاؤون الذين سخّرهم سليمان لبناء الهيكل، من دون جدوى. وحاولت حكومات العدو المتعاقبة تسخير عدد كبير من علماء الآثار لعلّهم ينجحون في إيجاد أثر واحد يربطونه بالهيكل، ليؤكّدوا للعالم وجود مملكتهم التي تحدّث عنها العهد القديم بكثير من التعظيم، فلم ينجحوا حتى الآن. وبالرغم من ذلك، ما زالوا مستمرين في الحفر تحت الجامع الأقصى، غير آبهين للنتائج التي

توصّل إليها علماء الآثار، والتي تنفي وجود هذا الهيكل. ويمكننا في هذا المجال الاستشهاد بكلام لعالمة الآثار البريطانيّة كاتلين كانيون، التي استدعتها حكومة العدو الإسرائيليّ للتنقيب عن هيكل سليمان، والتي صرّحت بأنّه «حتّى إذا سمحت الظروف بالتنقيب تحت الحرم الشريف، وقبّة الصخرة، الذي سيكون من نتيجته تخريب مكان على غاية من الجمال والقداسة، فإنّ من المؤكّد أنّ المنقّبين لن يعثروا على شيء يُذكر...»(42).

وهنا لا بدّ أن نطرح السؤال الآتي: إذا كانت بلاد الشام، التي تتكوّن من فلسطين (بما فيها الأردن) ولبنان وسوريا، وتضم ست مدن من أصل أقدم عشر مدن في العالم، وهي بحسب قدمها: أريحا، جبيل، حلب، دمشق، صيدا، بيروت، وإذا كانت التنقيبات الأثريّة قد وجدت في هذه المدن آثاراً مختلفة ساهمت في التعرّف إلى زمنها التاريخيّ الموغل في القدم، إضافة إلى استخراج كنوز الحضارات القديمة من سومر، وأور، وبابل، ونينوى، وإيبلاّ، وأفاميا، وأوغاريت، ومئات المواقع الموزّعة في الهلال السوري الخصيب، فلماذا لم يستطع المنقّبون العثور على حجر واحد من أحجار هذا الهيكل، أو خشبة من أخشاب الأرز، «وأرز البيت من الداخل كان منقوراً على شكل قِثّاء وبراعم زهور» العهد القديم، سفر الملوك الأوّل 18:6، ولا حتّى على أيّ أثر للذهب الذي استُعمل بكثرة، «وغشّى سليمان البيت من الداخل بذهب خالص» ملوك أوّل 19:6، وكيف، حتى الآن، لم يجدوا بيت سليمان (قصره) الذي بناه لزوجته ابنة فرعون مصر، والذي بناه من «حجارة كريمة كقياس الحجارة المنحوتة المنشورة بمنشار من الداخل ومن الخارج من الأساس إلى الإفريز، ومن خارج الدار الكبيرة» ملوك أوّل 19:7؟ فأين ذهبت هذه الأحجار الكريمة؟ وكيف امتلكت قبائل العبريين في القرن العاشر قبل الميلاد مناشير لهذه الأحجار؟ وكيف لم يجد المنقّبون أثراً لها، في الوقت الذي وجدوا فيه أدوات اخترعها إنسان مدن الهلال السوري الخصيب الحضاريّة، التي يعود تاريخ أقدمها، أريحا، إلى أحد عشر ألفاً من السنين، وصولاً إلى الأحدث وهي بيروت، التي يعود تاريخها إلى خمسة آلاف سنة؟ لقد استطاع المنقّبون أن يجدوا في العراق عشرات الآلاف من الرُقم التي دوّنت عليها الشعوب القديمة بالخط المسماريّ، وصولاً إلى اكتشاف المخطوطات في أوغاريت، التي تثبت أنّ الكنعانيين هم من اخترع أوّل أبجديّة، والتي تولّى كنعانيّو الساحل الفينيقيون تعليمها لليونانيين وبعض شعوب البحر المتوسّط. كلّ هذه الكنوز كانت مطمورة تحت طبقات متعدّدة من الأتربة، فأين تختبئ حجارة الهيكل وقصر سليمان؟ هذا يثبت أنّ كاتب أسفار العهد القديم، الذي تأثّر على نحو كبير، ليس فقط بما قرأه من الأدب البابليّ، بل أيضاً بالفن الظاهر في عمارة القصور البابليّة، حاول أن يخترع مجداً لشعبه، فجاء كلّ

كلامه تخريفاً لم تثبته أيّ وثيقة تاريخيّة، على غرار تاريخ الفراعنة وشعوب بلاد ما بين النهرين، وأرض كنعان.

«إنّ بوابة عشتار، التي بناها نبوخذ نصّر عام 575 ق.م، عثر عليها الألمان أيام الدولة العثمانيّة، ونُقلت إلى ألمانيا ووُضعت في متحف بيرغامون في برلين... ويبلغ ارتفاع هذه البوابة مع الأبراج خمسين متراً، وعرضها ثمانية أمتار، وهي مكسوّة بكاملها بالمرمر الأزرق (اللازورد) والرخام الأبيض والقرميد الملوّن»(43)، في الوقت الذي كان فيه العبريّون يسكنون الخيم، وهم لم يتركوا وراءهم أثراً حضاريّاً واحداً، بل كانوا يستعينون، خلال إقامتهم في فلسطين، بالمهنيين الفلسطينيين والفينيقيين الكنعانيين، كما فعل سليمان ببناء الهيكل وقصره على ذمّة كاتب العهد القديم.

بوابة عشتار في مدينة بابل المرصعة بحجر اللازورد الأزرق، نقلها الألمان إلى متحف برلين

وكان للمصادفات، في بعض الأحيان، فضل في اكتشاف بعض الآثار المهمّة التي تركت بصمتها على أكثر من صعيد. وعلى سبيل المثال لا الحصر، كتبت سعاد مكرم في مقالة لها في مجلة العربي، مثبتة على موقع غوغل، أنّ «محض مصادفة قادت أحد المزارعين إلى نزع حجر من سقف مقبرة قديمة عند قرية (رأس شمرا - أوغاريت) الواقعة شمال مدينة اللاذقيّة في سوريا، ليكون عام 1929 بداية الطريق إلى كشف قبر قرب ميناء كان مجهولاً، تبيّن لاحقاً أنّه مرفأ مدينة أوغاريت... وخلال شهرين من البحث والتنقيب ظهر الكثير من الأنفاق، التي عُثر فيها على ألواح طينيّة بينها رقيم مكتوب عليه نصّ طويل بالخطّ المسماريّ، نحو 29 إشارة. هكذا جرى اكتشاف أوّل وأقدم أبجديّة عرفها العالم حتّى الآن»(44).

الاكتشاف الثاني كان في نجع حمّادي بمصر. فقد وجد المُزارع محمد السمّان جراراً مدفونة في أرضه، تبيّن أنّها تحتوي على مخطوطات كان «أهمّها نسخة من إنجيل توما، تُعدّ النسخة الوحيدة المكتملة من هذا الإنجيل». ويقول جيمس روبنسون إنّ هذه المخطوطات تنتمي إلى دير القدّيس باخوم، القريب من نجع حمّادي، ويبدو أنّها دُفنت بعد أن أدان البابا أثناسيوس الأوّل استخدام الكتب غير الكنسيّة في خطابه لعيد الفصح سنة 367 م»(45).

والاكتشاف الثالث، وهو موضوع دراستنا، الذي عُرف باسم لفائف البحر الميت، أو مخطوطات قمران، كان أيضاً وليد المصادفة.

يقول أسامة العيسة عن هذا الاكتشاف: «قبل سنوات قليلة (أي قبل عام 2003، تاريخ صدور الكتاب) توفي في أحد مخيّمات التهجير الفلسطينيّ في الأردن محمد الذيب: الصبي البدوي الذي عثر على مخطوطات البحر الميت في خربة قمران، قرب البحر الميت عام 1947،... كان محمد الذيب، الذي نُشرت صوره في المجلات العالميّة والمتخصّصة، يعاني من مرض لازمه سنوات... وكانت صوره قد ظهرت على بطاقات بريديّة وصفحات مجلات وكتب... ومن أكثر الذين افتقدوا محمد الذيب (بعد موته) شريك له في اكتشاف تلك المخطوطات، لم يحظ بتسليط الإعلام عليه، وهو محمد حامد...»(46). وبما أنّ محمد الذيب كان قد مات عندما وضع أسامة العيسة كتابه، فقد توجّه الكاتب على ما يبدو إلى الشريك محمد حامد، فوجده يعيش في جبل الخليفات ما بين مدينتي بيت ساحور وبيت لحم. يذكر أنّه كان له من العمر اثنا عشر عاماً، وشريكه محمد الذيب عشرة أعوام، وكانا من رعاة الغنم. وفي يوم من أيام ربيع العام 1947 وصلا «بالأغنام إلى وادي قمران، ووجدا كومة من الحجارة بينها فتحة، وعندما نظرا منها، قدّرا أنّها (أي الفتحة) تبعد عن الأرضيّة ثلاثة أمتار، وظنّا أنّها بئر. وعندما رميا حجارة صغيرة، في الداخل سمعا صوتاً يشبه الجرس، فظنّا أنّه ربما يوجد في الداخل ذهب»(47).

وتحايل الولدان للنزول إلى البئر بأن ربطا كوفيتيهما لتصبحا كالحبل، ونزل محمد الذيب من الفتحة ليجد نفسه في غرفة فيها العديد من الجرار الفخاريّة، التي تبيّن أنّها تحتوي على جلود غزلان ملفوفة وعليها كتابة، فأخذ بعضها وعاد إلى مضارب قبيلتهما (التعامرة)، ولم يبح بسرّه هذا إلّا بعد ثلاثة أشهر، فقد أخبر والدته عنها، فأخذتها إلى رجل اسمه أحمد سالم من قرية أرطاس لم يستطع قراءة ما هو مكتوب فيها. بعد ذلك توجّهوا إلى إسكافيّ سريانيّ في بيت لحم، فخبأها ووعدهم باستشارة أحد الرهبان بشأنها. وهنا بدأت عمليّة المتاجرة بهذه المخطوطات التي لم يعرف الوَلدان، ولا أم محمد الذيب، قيمتها، فقبلا القليل من المال، وباعا ما كان بحوزتهما منها. أمّا مجموعة: التوراة (كتابات ما بين العهدين) التي حقّقها أندريه دوبون - سومر ومارك فيلوننكو، فتذكر القصة ذاتها إلّا ما له علاقة بكومة الحجارة والفتحة، حيث أنّ الولدين فقدا معزاة من قطيعهما فوجداها في الحفرة. ولن أستفيض في ذكر بقيّة القصّة، إذ إنّها أصبحت متداولة في أكثر من كتاب، ووردت في أكثر من بحث على موقع غوغل.

المهم، كما ذكرت، أنّ من عرف قيمة هذه المخطوطات تاجر بها واستفاد منها. أمّا الولدان، فقد أخذتهما الحسرة طوال حياتهما لأنّهما، ولصغر سنّهما من جهة، وعدم معرفتهما القراءة من جهة أخرى، لم تأت عليهما هذه المخطوطات بالنفع الكثير. وسرعان ما ذاع صيتها. في ذلك الوقت كان «عمر

علم آثار (الأراضي المقدّسة) كما يُسمّى، أي المواقع المذكورة في العهدين القديم والجديد، قد شارف المئة عام»(48).

وبخصوص كيفيّة انتشار هذه المخطوطات، جاء في هذه المجموعة أنّ «بائعَين سوريين من المذهب الأرثوذكسي جاءا إلى مطرانهما مار أثناسيوس صموئيل بأحد المدارج التي كان البدو يقولون إنّهم اكتشفوها مصادفة في مغارة أثناء بحثهم عن ماعز ضلّت. وعندما اكتشف المطران أنّ النصوص المدوّنة في المدرج كُتبت بالعبريّة وعد بشراء مجموع المخطوطات»(49). وفي اليوم الذي وصلت فيه هذه المخطوطات إلى أستاذ في جامعة القدس العبريّة اسمه سكنيك، كانت الجمعية العامّة للأمم المتّحدة تصوّت على تقسيم فلسطين، وبالتالي اندلعت الحرب بين العصابات اليهوديّة من جهة، والفلسطينيين بداية، من جهة أخرى. وبعد أن سيطر اليهود على جزء من فلسطين ظلّ موقع المغارة في القسم الذي بقي تحت سيطرة المملكة الأردنية الهاشميّة. وفي «كانون الثاني من العام 1949، استطاع ضابط بلجيكيّ من الفيلق العربيّ الأردنيّ، تحديد موقع المغارة بمساعدة مجندين من هذا الفيلق. وعندئذ، قام مدير قسم آثاريات الأردن هاردينغ، والأب الدومينيكاني رولان دوفو، مدير مدرسة الآثار الفرنسيّة، المعروفة باسم المدرسة التوراتيّة في القدس، بتقنيات منهجيّة... وشكّ الأب دوفو في وجود مغاور أخرى...». وظلت التنقيبات مستمرّة، وقد عُثر على عشر مغاور أخرى كانت تحتوي على الكثير من المخطوطات التي بدأت تتناقلها أيدي التجّار والدارسين. «ولكن هذه ليست كلّ قصة المخطوطات، فقد أصدرت الحكومة الأردنيّة عام 1953، حين كانت الضفة الغربيّة تحت إدارتها، قراراً باقتناء مخطوطات قمران وشرائها. ثمّ صدر قرار آخر عام 1957 بحفظها في دائرة الآثار في عمّان. «وبعد جولة لها وعرضها في كلّ من الولايات المتحدة وبريطانيا وكندا، أعيدت إلى فلسطين لتُحفظ في «المتحف الفلسطيني / ركفلر» بمدينة القدس، الذي استولى عليه العدو الإسرائيليّ بعد استكمال احتلاله المدينة في العام 1967، ونقلها إلى متحف «بيت الكتاب» التابع لمتحف إسرائيل بالقدس المحتلّة»(50).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الباب الثاني
كتبة المخطوطات

تحت عنوان «القصّة الكاملة والمثيرة لاكتشاف مخطوطات البحر الميت» كتب أحدهم على موقع غوغل مقالة جاء فيها: «كثيراً ما قيل عن جماعة قمران إنّهم أسّينيّون، ولكن برغم الكثير من وجوه الشبه، مثل حياة الأديرة والتكريس الروحي، فإنّ هناك وجوه اختلاف واضحة بينهما. فجماعة قمران يختلفون عن الأسّينيين بممارستهم الزواج وتقديم الذبائح الحيوانيّة، كما أنّهم لم يكونوا مسالمين. وقد تجنّبوا كلّ اتّصال بالعالم الخارجيّ، ولو أنّ يوسيفوس قد ذكر أنّ كلمة أسّينيين كانت فضفاضة في استخدامها. ويحسن في الوقت الحاضر ألّا نعدّ جماعة قمران جماعة أسّينيّة بمعنى الكلمة، ذلك أنّهم قد يكونون أقرب جداً (إلى المغاريين) سكان الكهوف، الذين ظهروا في أوائل العصر المسيحي». ولا بدّ في هذا المجال من استعراض عدد من آراء الكتّاب والباحثين، فمثلا قالت الباحثة «الإسرائيليّة» ريتشل إليور لمحطة CNN عن أنّ «الأسّينيين الذين يُفترض أنّهم كتبوا نصوص مخطوطات البحر الميت، التي يرجع تاريخها إلى القرن الميلاديّ الأوّل، وتُعدّ أقدم الأدلّة المدوّنة للكتاب المقدّس، غير موجودين من الأساس، وهو الأمر الذي يناقض أساسيّات التاريخ الدينيّ للعهد القديم لدى المسيحيّين واليهود». ورأت هذه الباحثة، وهي أستاذة التصوّف اليهوديّ في الجامعة العبريّة في القدس المحتلّة، أنّ «المجموعة اليهوديّة المعروفة باسم الأسّينيين، التي يرى مؤرّخون أنّ أفرادها تولّوا تدوين مخطوطات البحر الميت، ما هي إلّا تلفيق دوّنه المؤرّخ الرومانيّ اليهوديّ (يوسيفوس)، خلال القرن الأوّل الميلاديّ». وأردفت قائلة إنّ «المخطوطات لم تذكر أيّ نوع من المعلومات عن المجموعة... لقد أضعنا ستين عاماً في محاولة العثور على معلومات عنهم (أي عن الأسّينيين). إنّها أساطير بُنيت على أساطير...». واعتمدت الباحثة في موقفها «الّذي هزّ الأوساط الأكاديميّة، على مواصفات الأسّينيين كما وردت في المصادر القديمة، ومنها امتناعهم عن التزاوج. فرأت أنّ من غير المعقول، وجود مجموعة يهوديّة تضم آلاف الأعضاء تمارس شعائر تناقض الدين اليهوديّ (الذي يحض على الزواج والإنجاب)، من دون أن تشير الكتب اليهوديّة الصادرة في تلك الفترة إليها»(51). أمّا الدكتور جوزيف زيتون، وفي بحث نشره على مدوّنته الرسمية والوحيدة، فيقول: «الرأي السائد أنّ أصحاب المخطوطات، ينتمون الى طائفة اليهود الأسّينيين، الذين عُرف عنهم حبّهم للسلام وكرههم للحرب وأدواتها. إلّا أنّ مفهوم حرب «نهاية الأزمنة»، الذي تتمحور حوله مخطوطاتِ البحر الميت، لا يتوافق مع «طابع المسالمة»

الذي اشتهر به الأسّينيّون وفقاً لمصادرهم... ورأى عدد آخر من الباحثين أنّ أصحاب المخطوطات هم من الغيورين الأصوليّين اليهود الذين يُعرفون بالزيلوت (أعضاء حزب يهوديّ متشدّد ومناوئ للرومان)». ويرى زيتون أنّ الأسّينيين «نشأوا بعد سنوات قليلة من ظهور المسيحيّة، أي نحو سنة 40 م... ويُحتمل أنّهم تحدّروا من فلول طائفة الحسّيديين، الذين سبقوهم في سكن ذلك الموقع (أي قمران)»(52).

إنّ هذا الاختلاف في الرأي بشأن مصدر هذه المخطوطات يذكّرنا بالاختلاف الذي برز حديثاً، بعد أن جرؤ بعض الباحثين على نقد العهد القديم، واعتبار معظم ما جاء فيه من وضع كتبة اخترعوا تاريخاً لقبائل بربريّة لم يكن لها شأن في التاريخ، وهو لا يعدو كونه مجموعة من الأساطير واختلاقاً لمعارك وهميّة ولطقوس غريبة وشريعة دمويّة، لم تعطنا آثار المدن البائدة، التي ورد ذكرها فيه أيّ إشارة إلى صحة المروّيات التي تضمّنها.

وكلّ هذا الخلاف برأيي لا جدوى منه. ولقد أوردتُ نماذج عنه للدلالة على البروباغندا اليهوديّة التي درجت على استغلال أيّ حدث للاستفادة منه بُغية التدليل على تاريخيّة بني إسرائيل، وأقدميتهم، وإبداعهم وحضارتهم، وهم من كلّ ذلك براء.

ولمّا كانت الدراسات بشأن هذه المخطوطات في ذلك الوقت محدودة، ولمّا كانت دولة الاحتلال غير متأكّدة بعد من مضمونها، فإنّها ماطلت في نشرها كي يتسنّى للدارسين اليهود والصهاينة الاطلاع عليها ودراستها بعناية، والتأكّد من أنّ محتواها لا يتناقض مع ما جاء في العهد القديم.

ونشط الدارسون لوضع الكتب عن هذه المخطوطات حتّى وصل عددها إلى 5,000 كتاب، و80,000 مقالة علميّة، بحسب دراسة وضعتها كليّة الآثار والأنثروبولوجيا في الأردن. أمّا في اللّغة العربيّة، فالدراسات قليلة جداً.

وإذا حاولنا معرفة من تولّى كتابتها، ولماذا جرت تخبئتها في هذه المغاور القريبة من البحر الميت، فسنجد أنّ معظم الباحثين قد نسبوها إلى طائفة من اليهود اعتزلت عن الآخرين نتيجة التباين بشأن نصوص العهد القديم، وبشأن بعض الممارسات، وأطلقوا على هذه الجماعة اسم الأسّينيين. فمن هم هؤلاء الأسّينيون؟

ينقل أسامة العيسة عن روجيه غارودي قوله إنّ الأسّينيين: «طائفة يهوديّة انفصلت عن العالم لتعيش في الأديرة على ملكيّة جماعيّة حياة الرهبنة، بما تقتضيه من التزامات أخلاقيّة صارمة مبنيّة على تفسير ثنائيّ، يعود إلى أصل فارسي، يقضي بالانقطاع عن العالم لتكوين: شعب اللّه الحقيقيّ والعيش

على أمل رؤيويّ في انتظار ربّ العدالة»(53) (من كتاب روجيه غارودي: فلسطين أرض الرسالات السماويّة).

أمّا الدكتور عبد الوهاب المسيري، فيقول: «الأسّينيون (في ما يبدو) جناح متطرف من الفرّيسيّين، وتقترب عقائدهم من عقائد ذلك الفريق. آمن الأسّينيون بخلود الروح والثواب والعقاب، وانسحبوا من الحياة العامّة. وقد قسّم الأسّينيون الناس إلى فريقين: البقية الصالحة من جماعة يسرائيل، وأبناء الظلام»(54).أمّا عن أصل التسمية، فيقول المسيري: «أسينيون من الكلمة الآراميّة آسيا ومعناها الطبيب أو المداوي، وهو من يؤاسي المريض... كان فكر الأسّينيّين متأثّراً بالفكر الهلّيني وأفكار فيثاغوروس، وآراء البراهمة البوذيين، وهو ما كان منتشراً في فلسطين. وكشفت مخطوطات البحر الميت عن كثير من عقائدهم»(55). ويشير الدكتور خزعل الماجدي إلى الأسّينيين بقوله: «هم رهبان يهود معتزلون كتبوا مخطوطات البحر الميت التي حفلت بالآراء الثيوصوفيّة والغنوصيّة»(56). وعاد الماجدي وأشار إلى الأسّينيين في كتابه كشف الحلقة المفقودة بين أديان التعدّد والتوحيد، فقد وصفهم بأنهم «فرقة غنوصيّة باطنيّة مبكرة ظهرت في الديانة اليهوديّة، وقاومت هيْلنة الدين اليهوديّ وجعله تابعاً للحكام الإغريق»(57).

ورأى الكاتب لورانس شيفمن «أنّ الأسّينيين هم من الصَدّوقيين، انسحبوا من القدس، بعد ثورة المكابيين، إلى الصحراء حيث حلّوا في قمران». ويرى أنّ المخطوطات الموضوعة باللغة الآراميّة بمعظمها كُتبت قبل وصول المجموعة التي نُسبت إليها، ولاقت هذه المخطوطات جدلاً واسعاً، وخاصّة بعد إبقائها مخفيّة عن الباحثين أربعين سنة»(58).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الباب الثالث
تاريخ وضع المخطوطات

وكما حدث خلاف بشأن من وضع المخطوطات، كذلك وقع هذا الخلاف بشأن تاريخ وضعها.

وقد جاء في دراسة نُشرت على موقع غوغل لمكتبة المهتدين الإسلاميّة لمقارنة الأديان ما يأتي: «لمّا كانت مخطوطات البحر الميت في أكثرها نصوصاً دينيّة، لم يؤرّخ الكتبة أيّاً منها. كما أنّ النصوص لا تتضمّن إشارات صريحة إلى أشخاص تاريخيّين، أو إلى أحداث تاريخيّة لتسهل نسبتها إلى فترة تاريخيّة معيّنة. وقد اعتمد الباحثون على أدوات مختلفة في تأريخ المخطوطات، من أهمّها الخط؛ فأرّخوها بحسب تطوّر الخط إلى فترة تبدأ في أواخر القرن الثالث ق.م، وتمتد إلى نحو العام 70م. وهذا التاريخ ناشئ عن الافتراض بأنّ النصوص خبّأها كاتبوها في كهوف قمران عندما فرّوا إلى الكهوف، هرباً من الجيش الرومانيّ بعد الثورة اليهوديّة الأوّلى في فلسطين، التي بدأت نحو العام 66م»(59).

وفي دراسة أخرى منشورة على موقع غوغل بعنوان: القصّة الكاملة والمثيرة لاكتشاف مخطوطات البحر الميت»، يقول الكاتب: «كانت رقوق الجلد ملفوفة في نسيج من الكتّان، الذي أُرسل إلى معهد الدراسات النوويّة بشيكاغو. وباستخدام مقياس جيجر، وُجد أنّه يرجع إلى زمان ما بين 167 ق.م. و233م»(60). وبما أنّ التنقيبات في منطقة قمران توسّعت لتشمل أحد عشر كهفاً، كما ذكرنا سابقاً، فقد جرى اكتشاف بعض القطع النقديّة وقطع الفخّار التي تعود إلى ثلاثة عهود «هي بالتقريب: من 31 ق.م إلى 11م، ومن 1 إلى 68م، ومن 1 إلى 66م. (هذا ما أثبته صاحب الدراسة الآنفة الذكر).

أمّا الدكتور جوزف زيتون، فقد أعاد تدوينها إلى ما بين 300 ق.م و70م. ويبقى الكلام الفصل في هذا الموضوع للعلم لا للتخمين أو مجرّد ربط الأمور بعضها ببعض والاستنتاج على هذا الأساس. حيث يمكن للاستنتاج أن يكون خاطئاً إذا ما استند إلى أسس خاطئة، مثال على ذلك عملية ربط هذه المخطوطات حكماً بالأسّينيين؛ حيث ذهب معظم الدارسين، الذين بدأوا يبحثون عن تاريخ الأسّينيين، ليربطوا تاريخ المخطوطات بتاريخهم.

لذلك سأعتمد ما ورد في كتاب جيمس فاندركام وبيتر فلنت، اللذين سعيا إلى اعتماد عدد من النظريّات العلميّة وأهمّها ثلاث: «الأولى وتعتمد على علم

الآثار، والثانية وتعتمد على العلم الذي يبحث في الخطوط القديمة، والثالثة وتعتمد على استعمال تقنيّة الكربون 14»(61).

ولقد أثبتت التنقيبات، التي عُثر خلالها على بعض القطع النقديّة في الكهوف التي وُجدت فيها اللفائف، أنّ تاريخها يعود إلى ما بين الربع الأخير من القرن الثاني قبل الميلاد، والربع الأخير من القرن الأوّل الميلاديّ.

أمّا علم الخطوط القديمة Paleography، فيقول إنّ هناك أنواعاً متعدّدة من الخط ما يؤكّد كتابتها على مراحل تاريخيّة متفاوتة. وأورد الكاتبان أنّ العالم أولبرايت أعاد تاريخ المخطوطات إلى خمس حقب زمنيّة تبدأ من العام 250 ق.م وتنتهي بالعام 68م.

وبناءً على دراسات أعدّها بعض الباحثين على عدد من المخطوطات من كهوف مختلفة، ما بين العامين 1994 و1995، فقد توصّلوا إلى تأريخها ما بين القرنين الرابع قبل الميلاد والثامن الميلادي (بالاعتماد على المعلومات الواردة في المصدر السابق)(62).

«لكنّ بعض الدارسين الآخرين يؤكّدون أنّ هذه المخطوطات لا يمكن أن تكون من وضع الأسّينيين، بل هي من وضع كتبة إمّا مسيحيين، وإما كتبة قبل نشوء المسيحيّة بقليل»(63).

وهناك عالمان بلجيكيّان خبيران في الأماكن الأثريّة «عادا عام 1988 إلى قمران لإعادة دراسة المكان، أعلنا، خلال مقابلة تلفزيونيّة على محطة (نوفا) المختصّة بالمخطوطات، أنّ المكان الذي عُثر فيه على المخطوطات ليس ديراً قديماً، بل هو فيلّا رومانيّة»(64). وعندما سُئلا عن الطاولات التي وجدها المنقّب دي فو قالا إنّ القاعة التي تحوي هذه الطاولات ليست سوى قاعة طعام لا قاعة للكتابة.

أمّا البروفسور نورمان غولب، فقد قال إنّ قمران ليست ديراً ولا فيلّا، بل هي قلعة عسكريّة.

وفي محاضرة له، قال الدكتور دريفر: «إنّ البيّنات الأثريّة الخارجيّة ليست مقنعة ولا يمكن الاستناد إلّا إلى البيّنات الذاتيّة للكتابة، كالتهجئة والخط واللّغة، إذا أردنا تحديد تاريخ المخطوطات. وعلى هذا الأساس، أحكم بأنّها تعود إلى القرن السادس أو السابع بعد الميلاد»(65).

وأورد محمود العابدي أيضاً رأياً آخر للدكتور دريفر، الذي كان قد صرف النظر عن «كلّ البيّنات الخارجيّة ليعتمد على التهجئة والخصائص اللغويّة لا على الخط. وعلى هذا الأساس، أعاد المخطوطات إلى الفترة ما بين 200 و500م»(66).

وكما قلت سابقاَ فإنّ هذه الاختلافات التي أحاطت بالمخطوطات، سواء لجهة لغتها، أم كتبتها، أم تاريخها، تؤكّد أنّها كما العهد القديم، وكما بَني إسرائيل وتاريخها الغامض، خليط من التناقض، والتنافر، والتكاذب، والتزوير لخدمة غرض سياسي بدأ مع كتبة العهد القديم، الذين شعروا بالغيرة من حضارة الشعوب القديمة؛ فاختلقوا تاريخاً وهميّاً لمجموعة من القبائل المتناحرة وغير المتجانسة، واختلقوا لهم مملكة وهميّة أيضاً ومعارك وأنبياء لا حصر لهم ولا عدّ. وجاءت الصهيونيّة الحديثة لتغرف من هذا التراث المنهوب لتبني عليه تاريخاً حديثاً لطائفة دينيّة ليس لديها مقوّمات الأمّة، على أنقاض تاريخ أمّة ظنّ أعداؤها أنّها ماتت إلى غير رجعة؛ ساعدهم على ذلك حكّام ورقيّون أوصلهم المستعمرون الداعمون للصهاينة إلى كراسي الحكم والاستبداد بالشعوب.

يكفي هنا، لتأكيد ما أقول ما أورده ول ديورانت في الجزء الثاني من موسوعته، حيث قال: «كلّ ما نستطيع أن نقوله عن أصل اليهود من ناحية جنسهم هو ذلك القول الغامض، وهو أنّهم ساميّون لا يتميّزون تميّزاً واضحاً، ولا يختلفون اختلافاً كبيراً عن غيرهم من الساميّين سكان آسيا الغربيّة، وأنّهم لم يُوجدوا تاريخهم، بل إنّ تاريخهم هو الذي أوجدهم»(67). ويردف ديورانت قائلاً: «ولم تتألّف من الغزاة في يوم من الأيّام أمّة موحّدة متماسكة»(68).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الباب الرابع
اللغة: الترجمة والتعريب-النشر وردود الفعل

أمّا اللغة التي كُتبت بها هذه المخطوطات، فيقول الدارسون إنّ معظمها كتب بالعبريّة وبعضها بالآراميّة. ويقول الدكتور جوزف زيتون في دراسة له عنها منشورة على موقع غوغل، في مدوّنة تحمل اسمه، إنّ بعضها، وهو قليل، مكتوب باليونانيّة القديمة. ويذكر أسامة العيسة في كتابه، نقلاً عن الدكتور لويس حزبون، أنّ أحد المخطوطات، وهو على شكل رقّ يبلغ طوله نحو سبعة أمتار وثلاثين سنتيمتراً، ويحتوي على 66 فصلاً مدوّنة بخط «عبري» قديم، وهو أقدم ملف للتوراة العبريّة، كتب في 54 عموداً بالخط المربّع، أو الحروف الآراميّة»(69).

نفهم من هذا الكلام أنّ الحروف آرامية، فكيف تكون لغة المخطوطات عبريّة؟ هذا الكلام يفرض علينا أن نذكر أنّ معظم دارسي اللغات القديمة يؤكّدون أنّ اللغة العبريّة هي لهجة تفرّعت عن الكنعانيّة.

كتب عبد اللَّه أبو علم، في مدوّنته على غوغل، أنّ «اليهود أنفسهم عندما وُجدوا وانتسبوا إلى موسى كانوا يقولون عن العبرية إنّها (لغة كنعان)، ثم انطوت العبرية الكنعانيّة في الآراميّة التي غلبت على القبائل جميعاً بين فلسطين وسوريا والعراق. وعندئذٍ أصبحت كلمة عبري تشمل جميع الآراميّين، وكلّهم عرب نزحوا من موطنهم الأصلي في جزيرة العرب، قبل أن يكون لليهود وجود».

أمّا فيليب حتّي، فقد كتب: «وإبراهيم نفسه كان يسمّى (آرامياً تائهاً)، وفي الترجمة اليونانيّة (سورياً تائهاً). ويبدو واضحاً أنّ آباء الشعب العبرانيّ جاؤوا مع الهجرة الآراميّة إلى سوريا، وكانوا يتكلّمون الآراميّة قبل توطّنهم في فلسطين. وبعد أن أقاموا في فلسطين تعلّموا اللسان الكنعانيّ، الذي أصبح فيما بعد اللغة العبريّة التي كُتبت بها أسفار العهد القديم... دخلت هذه القبائل (العبرانيون) البدويّة التي أصبحت فيما بعد الشعب العبراني بلاد كنعان كقبائل متجوّلة مغامرة. وحلّت بين الكنعانيين، الذين كانوا يفوقونها حضارة، فتعلّمت منهم طرق الزراعة، وتشييد البيوت والسكن فيها. وأهم شيء تعلّمته القراءة والكتابة. ثمّ إنها نسيت لهجتها الساميّة القديمة، وتعلّمت الكنعانيّة لغة البلاد»(70). وهذا الكلام يؤكّد أنّ قبائل العبرانيين الذين دخلوا بلاد كنعان كانوا قبائل بربريّة لا علاقة لهم بالحضارة، فاحتضنتهم أرض كنعان وعاملتهم على نحو إنسانيّ وحضاريّ بالرغم من همجيّتهم. وتفاعلهم مع الكنعانيين، وخاصّة

في فلسطين، أكسبهم بعض المعارف في مجالات شتّى، فتعلّموا الزراعة وبعض الحرف البسيطة، وقلّة منهم اكتسبت القراءة والكتابة بالأبجديّة الكنعانيّة، حتّى إذا سيطر الآراميون على بلاد كنعان، وكانوا لا يختلفون عن الكنعانيين بشيء، بسطت الآراميّة سيطرتها على كامل المنطقة، وكان ذلك سهلاً، لأنّ الآراميّة أيضاً كانت إحدى اللهجات الكنعانيّة.

وعندما نُقل اليهود من فلسطين إلى بابل على يد نبوخذ نصّر عام 587 ق.م، كان من الطبيعيّ أن يندمجوا مع أهل بابل. وخوّلتهم معرفتهم اللغة الآراميّة الاطّلاع على التراث البابليّ، لأنّ اللّغتين متقاربتان جداً. والتلمود الذي وصلتنا منه نسختان، واحدة سمّيت الفلسطينيّة، والثانية البابليّة، لاحظ فيه الدارسون اختلافاً لجهة «طريقة التعبير (اللّغة)؛ فهما تمثّلان لهجتين عاميّتين من اللغة الآراميّة»(71).

ولقد أشار الدكتور إبراهيم الحفني إلى أنّ «النصّ السّوري للعهد القديم هو الأسفار التي اعترف بها اليهود، وخاصّة في القرن الأوّل الميلادي بأنّها كتب مقدّسة، و(أسفار قانونيّة). هذه الأسفار كانت مكتوبة باللغة الأصليّة، التي هي الآراميّة، حيث نجد سفر دانيال مكتوباً بهذه اللغة، وبعض المقاطع من سفر عزرا»(72).

ويضيف في الصفحة 300 من الكتاب نفسه قائلاً: «إنّ اللغة العبريّة لم تُستعمل كلغة دارجة في بلاد السبي (بابل)، ولم يكن لها وجود حتّى في منطقة يهودا، أي القدس»(73).

أمّا في الصفحة 358، فيقول: «وكنعان منحت هؤلاء المهاجمين لغتها وأبجديّتها. وهذا كان واضحاً في كلّ الوثائق التاريخيّة. هؤلاء الذين عبروا إلى أرض كنعان كانت لهجتهم لهجة كلام فقط، ونقلوا الكتابة عن الكنعانيين»(74).

بالخلاصة فإنّ هذه القبائل سطت على تراث الشعوب التي تفاعلت معها بعد دخولها أرض كنعان، لأنّها كانت قبائل بربريّة غير حضاريّة، ولم يكفها السطو، بل أتبعته بادّعاء الإبداع والارتباط المباشر باللّه كشعب مختار له. وهذا الإله قَبِل هذا الخيار، ليس لأنّه اللّه الكونيّ الذي يؤمن به معظم النّاس، بل لأنّه إله قبلي من اختراع كاتب العهد القديم. من هنا أعتقد أنّ المخطوطات بمجملها مكتوبة باللغة الآراميّة، اللغة العالميّة في ذلك الزمن، لغة يسوع. أمّا الخلط بين اللغتين، فسهل جداً حيث، كما مرّ معنا، أن العبريّة لهجة كنعانيّة استعملت الأبجديّة الكنعانيّة كي تصبح لغة مكتوبة؛ وبالتالي، فإن التقارب بكتابة الحروف شيء طبيعيّ. يضاف إلى ذلك تجنّد عدد كبير من اليهود والمتصهينين لتزوير التاريخ، وما وصلنا من تراث الشعوب القديمة، ومحاولة

ربطه بالعبقريّة اليهوديّة. وبالرغم من كلّ ذلك يبقى المهمّ مضمون هذه المخطوطات لا اللّغة التي كتبت بها.

«في أواخر سنة 1965، كتب الأستاذ أنيس منصور في جريدة أخبار اليوم القاهريّة مقالاً عن أوراق البحر الميت التي يشاهدها الإنكليز، جاء فيه قوله: «ومن الغريب أنّ أكثر من ثلاثة آلاف كتاب قد ظهرت في أوروبا وأميركا لدراسة وترجمة ومناقشة هذه المخطوطات، التي يملكها الأردن، الذي عرضها في كندا وأميركا. ولكنّ كتاباً واحداً لم يظهر في اللغة العربيّة يتعرّض لها، أو يناقشها أو يُدلي فيها برأي»(75).

وبرأيي أن الأستاذ منصور مخطئ في هذا الرأي، إذ إنّ المؤرّخ أسد رستم وضع كتاباً عن المخطوطات. وبما أنّ رستم قد توفي في حزيران/يونيو 1965، فهذا يعني أنّ كتابه قد صدر قبل هذا التّاريخ، وربما لم يكن قد أصبح قيد التداول في ذلك التاريخ، وخاصّة أنّ موضوعه لا يلامس شغف قرّاء كثر. ويبقى أنّه على حق لجهة افتقار اللغة العربيّة إلى دراسة وافية عن المخطوطات. وهذا ما دفعني إلى تنكّب هذه المهمّة، مع الإشارة إلى كتب متعدّدة ظهرت في السنوات الماضية، وإلى الكثير من المقالات المنشورة على موقع غوغل.

إنّ الحديث عن ترجمة هذه المخطوطات، وتعريبها، يعني أوّلاً ترجمتها من اللغة التي كُتبت بها. وقد مرّ معنا أنّ معظمها، كما أفاد من وصلت إلى أيديهم، كُتب باللغة العبريّة، وبعضها باللغة الآراميّة، وقلّة منها باللغة اليونانيّة، التي كانت قد انتشرت في الهلال الخصيب، بعد أن اجتاحه الإسكندر المقدوني في النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد. لذلك كان على من يتولّى هذه المهمّة أن يكون ضليعاً باللغات القديمة، وخاصّة الآراميّة منها، وحتّى العبريّة، لأنّ عبريّة اليوم تختلف عن تلك التي كانت سائدة في القرون الأولى قبل الميلاد وبعده. وحالما بدأت هذه المخطوطات تتسرّب، قبل قيام دولة الاحتلال، لفتت أنظار العلماء، حيث كان المطران مار أثناسيوس صموئيل، كما مرّ معنا، قد أرسل ما كان بحوزته من هذه المخطوطات عام 1948 «إلى المدرسة الأميركيّة للبحوث الشرقيّة». وأرسلت صور لهذه المخطوطات إلى البروفسور ويليام ف. أولبرايت. ومع بداية العام 1950، بدأ بعض العلماء الأميركيين بترجمة هذه المخطوطات إلى الإنكليزيّة، ونشرها؛ ومنهم مولر بوروز، وجون تريفر، ووليم براونلي. وأنشأت أيضاً دائرة الآثار الأردنيّة عام 1953 فريق عمل دوليّاً من ثمانية أفراد «ليتولّى نشر النصوص المكتشفة في الأردن (فلسطين). وعُيّن الأب رولان دوفو، من الكليّة التوراتيّة في القدس، رئيساً للفريق. وبعد العام 1967 وضع الاحتلال الإسرائيليّ، خلافاً

للقانون الدوليّ، يده على هذه المخطوطات، وبدأت عندئذٍ المماطلة بنشرها»(76).

وهذا التدبير من سلطات الاحتلال حثّ البعض على إعلاء الصوت والقول: «إنّنا لا نعرف بدقّة ما هي طبيعة النصوص التي وقعت في أيدي بعض الباحثين، الأمر الذي أيقظ الشكوك بوجود أمر قد يمسّ المعتقدات الراسخة. والحقّ أنّه كان قد بدا واضحاً في تلك الآونة أنّ ثمّة خشية من نشر المخطوطات، وأنّ محاولات كانت تُبذل لمنع إعلان محتوياتها»(77). ويقول الكاتب موسى ديب الخوري إنّ «هذا الإهمال المتعمَّد، وغير المنتظر من علماء يُفترض أنّ لديهم حسّاً بالمسؤوليّة العلميّة، يجعلنا نتساءل عن الأيدي الغريبة والخفيّة التي كانت السبب الحقيقيّ في هذا التقصير، الذي كانت إسرائيل من دون شك وراءه»(78).

وفي كتابه عن المخطوطات، أورد أسامة العيسة رأياً للباحث جورج سمّور جاء فيه: «أهمّية المخطوطات تكمن في أنّها كشفت عن اختلافات بين النصوص المكتشفة والمعروفة حالياً (أي نصوص العهد القديم بنسخته المتداولة). وهذا هو سرّ المخطوطات، الذي يجعل بعضهم يتّهم «إسرائيل» بمحاولة إخفاء مضمون ما اكتُشف»(79).

ولاقت هذه المخطوطات ردود فعل مختلفة بدأت بالتشكّيك في صحتها وأقدميّتها، حتّى إذا ما تدخّل العلم الحديث تبيّن أنّها ليست مزيّفة. وقد تأخرت سلطات العدو الإسرائيليّ في نشر بقيّة المخطوطات التي سيطرت عليها، وأنا من المقتنعين بأنّ دولة الاحتلال لا يمكن أن تخطو خطوة واحدة من دون أن تكون متأكّدة من النتائج.

وبرأيي فإنّ الحكومة الإسرائيليّة تعاملت مع هذه المخطوطات من خلال مخطّط يقضي بإظهارها كأنّها لُقىً تاريخيّة لا مثيل لها، ومن شأنها أن تغيّر وجه العالم. ولكي يُظهروها على هذا النحو ويثيروا فضول الباحثين، احتفظوا بها مدّة لكي تثار حولها هذه الضجة الإعلاميّة الفكريّة، وأدخلوا الكنيسة في الموضوع من خلال ربطهم الدائم للفكر المسيحيّ بما يُسمّى الإبداع اليهوديّ؛ فانطلت الحيلة على الكنيسة وجمهرة كبيرة من المؤمنين النمطيّين، الذين لا يُعملون العقل متى ما كان الموضوع يتعلق بالدين، وخاصّة الدين اليهوديّ، لأنّهم يعلمون حقّ العلم مدى عدائيّة اليهود بهذا الشأن.

لكنّ حكومة العدو الإسرائيليّ اضطرت إلى الإفراج عن هذه المخطوطات ونشرها، لأنّها أحسّت بالضغوط الناتجة من شكوك الدارسين والباحثين في مضمونها.

يقول الباحث كينيث هانسن: «إنّ دائرة الآثار الإسرائيليّة بدأت تشعر بالضغط الشعبيّ الناشئ عن انتباه واهتمام الإعلام العالميّ، الذي كان بقوّة مع نشرها، فلم تعد تستطيع تخبئتها لمدة أطول»(80).

وكان على الدارسين والباحثين الانتظار حتى أواخر القرن العشرين. فقد رضخت حكومة الاحتلال للضغوط، وبدأت بالإفراج عن هذه المخطوطات، وبالتالي بدأت التراجم. وبعد اطّلاع جمهور الدارسين عليها بدأت الكتب عنها بالظهور بأعداد كبيرة. أمّا في اللغة العربيّة، فقد صدر تعريب لهذه المخطوطات على يد موسى ديب الخوري للمجموعة التي نشرها أندريه دوبون - سومر ومارك فيلوننكو عن دار الطليعة الجديدة بدمشق، وذلك عام 1998 في ثلاثة أجزاء، كما تولّى محمود العابدي تعريبها ونشرها عبر دار نون بمصر في العام 2009.

هذا باختصار شديد مجرى المراحل التي رافقت هذه المخطوطات من تاريخ الاكتشاف حتى تاريخ النشر. ولن أعلّق على هذا الموضوع كبير أهميّة، لأنّ ما يعنينا هو مضمون هذه المخطوطات، أمّا الباقي، فتفاصيل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الثاني

بشأن مسألة الأنبياء وصحّة تنبؤاتهم

في موسوعته عن تاريخ الأديان، يقول فراس السوّاح: «سيجد زائر أيّ جماعة بدائيّة أنّ القداسة هي السّمة الأوّلى للدلالة الدينيّة لأيّ مكان أو شخص أو شيء أو حدث. وهم ينظرون إلى كلّ ما هو مقدّس نظرة تجمع بين الاحترام والحذر في آنٍ واحد. ويرى الباحث رودولف أوتو في دراسته المعروفة «فكرة المقدّس» أنّ الخبرة بالمقدّس تقوم على مجابهة داخليّة مع قوّة لا تنتمي إلى عالم الظواهر. وهذه المجابهة تعطي إحساساً بالخوف والانجذاب في آنٍ واحد، وتأبى على الوصف من خلال المصطلحات العاديّة. وهو يرى أنّ الانقياد الإيجابيّ إلى هذه الخبرة أو التجربة، فكراً أو عملاً، هو الذي يكوّن الدين. لقد وجد أوتو وعياً بهذه التجربة في جميع الأديان برغم اختلاف درجة هذا الوعي من دين لآخر»(81).

ففكرة المقدّس إذن هي فكرة قديمة لامست عقل الإنسان في طفولته الحضاريّة، ولم تبدأ مطلقاً مع ما هو متعارف عليه اليوم بالأديان السماويّة، وقطعاً لم تبدأ مع الدين اليهوديّ.

ثمّ رافقت فكرة المقدّس فكرة أخرى، هي فكرة الحرص على هذا المقدّس وتعظيمه على نحو دائم. وهذه الفكرة خلقت الكهنة، وترافق خلق الكهنة مع فكرة إنشاء المعابد تكريماً للمقدّس. هذا المقدّس الذي أصبح يُعرف بالإله بعد التطوّر الذي حدث لدماغ الإنسان، والّذي استفزّ العقل لابتداع فكرة الألوهة.

ونتج من ذلك بعد فترة بزوغ ما يُعرف بالأنبياء. وارتبط الأنبياء بفكرة معرفة المستقبل وفكرة الوحي، أو ما أصبح يُعرف لاحقاً بالتنزيل.

فالنبي لا يختلق شيئاً من عندياته، بل هو يتلقّى الوحي من الإله، وما عليه إلّا أن ينقل ما أشار إليه الإله بنقله.

يقول الدكتور بشار خليف: «تزخر النصوص القديمة بذكر معلومات عن الوحي. والوحي هنا، ابتُكر وفق صيغة تربط الكاهن الأعلى بالإله، أو صيغة وحي تأتي عبر الحلم للإنسان الموحى له. وهي تؤشّر لمعيار مهمّ في سياق الذهنيّة المعتقديّة المشرقيّة لكونها مرتبطة على نحو واضح بعالم النبوءة والكهانة والعرافة، التي امتازت بها حضارة المشرق العربيّ القديم»(82).

ويرى أرنولد توينبي أنّ السوريين الذين اخترعوا الأبجديّة «كانوا قد أنتجوا أعمالاً أدبيّة ذات قيمة، بما في ذلك أقدم ما دُوّن من أقوال نبي»(83).

ويُفهم من هذا الكلام أنّ الشعوب القديمة، التي تسبق ظهور بني إسرائيل بآلاف السنين، قد عرفت فكرة الألوهة، وبالتالي الأنبياء الذين ارتبطوا بالإله.

ويؤكّد ذلك الدكتور بشار خليف، الذي أورد أنّ وثائق ماري السوريّة (2900 - 1760) ق.م «قدّمت أدلّة على وجود نوع من النبوءة. فقد كان الأنبياء يوصفون كأشخاص تعتريهم حالات من الانفعالات والاضطراب، وهم يتلقّون العلامات الخاصّة بنبوءتهم، أو ينطقون بالأجوبة عندما يُسألون، ويمكن أن يكونوا من غير حاشية المعبد وكهّانه»(84).

ولقد أدّى الكهنة أيضاً دوراً مهمّاً في حياة الشعوب القديمة وتطوّرها الفكريّ والدينيّ. حتّى أنّ الكاتب دونالد ريدفورد، وهو أحد علماء المصريات الكبار، ينسب إلى الكهنة كتابة أسفار التوراة الأساسيّة لا إلى موسى، كما هو متعارف عليه.

يقول: «وهذه التوراة التي جمعها كتبة - كهنة (في أرجح الاحتمالات وحرّروها ونسخوها على الأقل جزئيّاً، «تنزّلت» روحيّاً من لدن الصفوة الروحيّة في «أورشليم») تضم أربعة تقاليد كبرى تحتل مصر فيها مكانة بارزة، سواء كمؤثّر ثاقب، أو كمكوّن مباشر. وتتمثّل هذه التقاليد في قصص الخلق وجدول الأمم، والإقامة في مصر والخروج منها. ومن بين هذه التقاليد الأربعة نجد أنّ التقليدين الأوّل والثاني، من إنتاج الكهنة، إلى حد بعيد، وإن لم يكن بالكامل»(85).

واللافت للنظر أنّ هؤلاء الأنبياء، في بعض الأحيان، كانوا كمستشارين لدى الملوك. وهذا يعني أنّ عملهم لم يكن دينياً صرفاً. والواضح أنّه مع بني إسرائيل تزايد عدد الأنبياء على نحو لافت للنظر، وكثرت تنبؤاتهم التي تدلّ على حقد دفين تمثّل في تخيّلهم أنّ كلّ المدن التي هزمت بني إسرائيل يجب أن تزول من الوجود. وهذا ما لم يتحقّق، وبالتالي ما قيمة هذه التنبؤات؟ والبعض الآخر الذي تحقّق لم يكن في الواقع تنبؤاً، بل كان تسجيلاً لأمر حدث ذكره الكاتب، الذي وصله شفاهاً بعد عشرات أو مئات السنين، ونسبه إلى أحد الأنبياء، لكي يفاخر بأحد أبناء عشيرته المصطفى لحلول الوحي فيه.

وأصدق مثال على ما أقول هو ما ورد في سفر حزقيال الإصحاح السادس والعشرين. فقد كلّم الربّ حزقيال الذي دعا على مدينة صور بالخراب «لأنّ صور قالت على أورشليم هَهْ»!!! (سبب وجيه، ومبرّر مقنع لكي يُنزل الربّ الخراب بمدينة صور) الذي قال لحزقيال مبشّراً بمصير صور المروّع: «لا تُبنيْن بعدُ لأنّني أنا الربّ تكلّمت يقول السيّد الربّ» العهد القديم، سفر حزقيال 14:26.

هذا التنبؤ نقضته الأيّام، فها هي صور، التي واجهت الفتوحات والدمار أكثر من مرّة، قد بنيت من جديد، وهي اليوم قلعة مقاومة للغطرسة الصهيونيّة الحديثة.

وقد يقول قائل إنّ نبوءة حزقيال تحقّقت بمعظمها. فالخراب لحق بصور مرّات متعددة؛ فأقول إنّ هذا الكلام لا علاقة له بالتنبؤ، لأنّ الكاتب أتى بعد هذه الأحداث وذكرها على لسان نبيّه وكأنّها تنبؤ. فإذا كانت هذه الأمور قد انطلت على الناس في تلك الأيّام لبساطتهم وعدم معرفتهم القراءة والكتابة، فلست أدري كيف يبقى هذا الكلام مسيطراً على عقول الناس كأنّه حقائق مقدّسة لا يُسمح بمقاربتها ومناقشتها عقلانيّاً؟

كُثر من الدارسين في أيامنا هذه، خرجوا عن التفكير الدينيّ النمطيّ، وبدأوا بمناقشة ما ورد في الأناجيل على أنّه تنبؤات تحقّقت، وهم ينسبون هذا الكلام إلى تزوير يهوديّ لحق بالأناجيل لإثبات ما جاء في العهد القديم، ولكي يُظهروا للمؤمنين أنّ جذور المسيحيّة غائصة في تربة العهد القديم. وهذه مؤامرة اليهود على المسيحيّة.

لقد أورد سهيل التغلبي في كتابه اليهوديّة - الصهيونيّة تحرّف الكتاب المقدّس أمثالاً متعددة على عمليّة التحريف التي نفّذها اليهود لخدمة غاياتهم.

ففي الصفحة 66، أورد الكاتب نصّين من سفر دانيال، الأوّل هو النّصّ الرسميّ، والثاني هو النصّ المحرّف لما عدّه اليهود إحدى نبوءات دانيال التي تحقّقت، وهي تحقّقت نتيجة التحريف الذي أقدم عليه اليهود لكي يتوافق مع النبوءة.

ويثبت الكاتب كلاماً للبطريرك يعقوب الثالث (للسريان الأرثوذكس)، وفيه: «أُصبنا بخيبة الأمل حين راجعنا هذا النصّ في (الترجمة الكاثوليكيّة الأميركيّة الحديثة) طبعة القدّيس يوسف بنيويورك، التي أُنجزت بموافقة قداسة البابا بولس السادس في 18 أيلول 1970، وتصديق الكاردينال باتريك أوبويل P.D رئيس أساقفة واشنطن، ذاك أنّه ورد محرّفاً لمصلحة اليهود، وبعيداً كلّ البعد عن الحقيقة الراهنة»(86).

وكان الكاتب قد أورد أمثلة على الضغوط التي تمارسها الصهيونيّة على السدّة البابويّة، وخاصّة لجهة تبرئة اليهود من صلب يسوع، وكان لها ما أرادت. «وحالما حلّ العام 1970م... نشرت إسرائيل ترجمة محرّفة لأسفار العهد الجديد، أعادت فيها صياغة قصة الصلب وما سجّلته الأناجيل والرسائل المقدّسة من مشاحنات ومعارك جرت بين اليهود والسيّد المسيح وتلاميذه، بحيث تبرئ الصورة المحرّفة للعهد الجديد اليهود من كلّ ما سُجّل عليهم من شرور طوال تسعة عشر قرناً مضت»(87).

وفي اجتماع عُقد في مدينة سيلير بريج بسويسرا بين ممثّلي الهيئات الدينيّة اليهوديّة وبعض المتطرفين المسيحيّين، تقرّر «حذف الآيات والفصول الواردة في الإنجيل، بنوع أخص التي تصف اعتداء اليهود على السيّد المسيح وصلبه، لكي لا تطّلع الناشئة في الأجيال المقبلة على قصة العدوان اليهوديّ على المسيح والمسيحيّة»(88).

ويرى الكاتب سهيل التغلبي أنّ اليهود قد أدخلوا 636 تحريفاً على الأناجيل لكي يُزيلوا كلّ ما يشير إليهم بسوء. وسأُثبت مثالاً واحداً على هذا التحريف، ولمن يريد اطّلاعاً أوسع على هذا الموضوع، يمكنه مراجعة كتابَيْ سهيل التغلبي المثبتين في متن النصّ.

فمن إنجيل متّى يورد المثل الآتي: «حينئذٍ اجتمع رؤساء الكتبة والكهنة وشيوخ الشعب في دار رئيس الكهنة، الذي يدعى قيافا. وتشاوروا لكي يمسكوا يسوع بمكر ويقتلوه» العهد الجديد، إنجيل متى 26: 3-4. لكنّ النسخة الإسرائيليّة تحاول التخفيف من هدف المؤامرة على المسيح، فتحرّف كلمة (القتل) إلى (النفي) فتصبح الفقرة السابقة: وتشاوروا لكي يُمسكوا يسوع بمكر وينفوه»(89). وانطلاقاً من هذا التحريف نجحوا، وبضغوطهم على السدّة البابويّة، في استصدار وثيقة تبرئتهم من صلب المسيح.

وهذا الأمر ليس بجديد على اليهود؛ فقد فعلوا الشيء نفسه في تاريخهم القديم، بعد أن سرقوا تراث الشعوب التي سبقتهم أشواطاً على طريق الحضارة الإنسانيّة، ونسبوا هذا التراث إلى عبقريتهم وإبداعهم، حتّى إذا ما بدأ الآثاريون باستخراج الكنوز الحضاريّة لشعوب بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام ومصر، توضّحت الصورة، فأثبت العلماء أنّ كلّ ما ورد في العهد القديم من قصّة الخلق، وقصّة آدم، والطوفان، ويوسف وموسى له ما يشبهه في الأساطير القديمة، حتّى فكرة التوحيد التي ادّعوا أنّهم أوّل من نادى بها، تهافتت عندما بدأنا نقرأ تراث هذه الشعوب، التي توصّلت إلى التوحيد قبل بني إسرائيل بمئات بل آلاف السنين. وتبيّن لنا أنّ قولهم بالتوحيد ليس سوى ادّعاءٍ وخديعة، لأنّهم وحّدوا إيمانهم بإله واحد خاصّ بهم، وأبقوا للشعوب الأخرى آلهتها، وبذلك يكونون قد وقعوا في الإشراك، وفي ذلك يرى فرويد أنّ «الإله يهوه، الذي أهداه موسى المدياني شعباً جديداً، لم يكن كائناً أعلى، بل كان إلهاً محليّاً محدوداً وشرساً، عنيفاً ودمويّاً. بل ليس من المؤكّد أنّ ديانته كانت ديانة توحيديّة حقيقيّة»(90).

أمّا خزعل الماجدي، فيذهب أبعد من ذلك، ويرى أنّ الدين اليهوديّ هو دين تفريديّ لا توحيديّ، لذلك «يمكننا النظر إلى الإله (يهوه) على أنّه إله تفريديّ خاص باليهود»(91)، معرّفاً التفريديّة (Hénothéisme)، بأنّها ديانة «حيث يبرز

إله واحد من دون إلغاء بقيّة الآلهة، ويكون هو المسيطر على قطّاعه، أو على مجمع الآلهة كلّه»(92).

وهذا تحديداً هو وضع الإله يهوه، كما يصفه العهد القديم: «لا تسيروا وراء آلهة أخرى من آلهة الأمم التي حولكم. لأنّ الربّ إلهكم إله غيور...». «يا سيّدُ الربّ أنت قد ابتدأت تُري عبدك عظمتك ويدك الشديدة. فإنّه أي إله في السّماء وعلى الأرض يعمل كأعمالك وكجبروتك» العهد القديم، سفر التثنية 6: 14-15 و24:3. فأيّ كلام أوضح من هذا الكلام ليؤكّد ما قاله الماجدي عن هذا الإله بأنّه إله قبليّ منفرد بذاته لشعب خاص به، مع إقراره بوجود آلهة غيره، لكنّهم بالنسبة إلى بني إسرائيل لا يجارونه في جبروته!!!

ومن الضروري الإشارة إلى أنّ الكلام الوارد في الأناجيل عن حبل مريم من الروح القدس، الذي عُدّ تحقيقاً لنبوءة إشعيا القائلة: «ها العذراء تحبل وتلد ابناً وتدعو اسمه عِمّانوئيل» العهد القديم، سفر أشعيا 41:7، قد سفّهته الأسطورة الأوغاريتيّة الأقدم بأكثر من ألف سنة عن العهد القديم، حيث نقرأ من قصيدة عرس القمر الأوغاريتيّة السوريّة العبارة التالية: «صبيّة بتول تحبل بالابن المقدّس ويكون اسمه ابن اللّه أو ابن العلي». أورد ذلك المؤرّخ فايز المقدسي في دراسة له على موقعه. وهذا الابن الذي ألّهته الكنيسة بعد قرون من موته صلباً على أيدي اليهود، لم يقل عن نفسه خلال حياته إنّه إله أو نبي، بل وافق على قول تلاميذه إنّه معلّم. «فكثيرون من الجمع لمّا سمعوا هذا الكلام قالوا بالحقيقة هو النبي. آخرون قالوا هو المسيح...»، «أنتم تدعونني معلّماً وسيّداً وحسناً تقولون لأنّي أنا كذلك» العهد الجديد، إنجيل يوحنا 04:7 و31:31. فماذا نفهم من هذا الكلام؟ اليهود الذين كانوا ينتظرون المسيح الملك المخلّص اعتقدوا بأنّ يسوع هو من ينتظرون، ولكن عندما بدأ يعظ النّاس ويعلّمهم، اكتشف اليهود أنّه ليس المسيح الملك المنتظر، لأنّ كل أقواله جاءت لتنقض الشريعة لا لتكملها، لذلك يرى بعض الدارسين أنّ الجملة الواردة في إنجيل متّى، التي تقول: ما جئت لأنقض بل لأكمل، هي من التزوير اليهوديّ لكي يُدخلوا في عقول المؤمنين، كما أشرت سابقاً، أنّ يسوع غرف من الشريعة الموسويّة أمّ كلّ الديانات.

أمّا النبيّ الكريم، فرفض أن يقال عنه نبيّ. فإذا كان النبيّ هو من يعلم بالغيب ويعرف ماذا سيجري في المستقبل، كما فعل «أنبياء» اليهود، فإنّ محمداً قال: «ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسّني السوء»(93).

لذلك كان يُطلب من الذي يريد أن يدخل إلى الدين الجديد أن ينطق بالشهادتين، أي أن يقول: أشهد أنْ لا إله إلاّ اللّه وأشهد أنّ محمداً رسول اللّه، ولم يُطلب منه القول إنّ محمداً نبيّ اللّه.

وممّا يؤسف له أنّنا ما زلنا في القرن الحادي والعشرين نقرأ للكثير من الدارسين أنّ ما ورد في مخطوطات قمران هو «نتيجة لرؤى مذهلة نزلت على الأنبياء الجدد»(94). علماً أنّ هذه المخطوطات كما سنرى ليست سوى نسخ جديدة لأسفار التوراة. وعن ذلك يقول محمود العابدي إنّه «ليس لأيّ وثيقة من هذه الوثائق التي نحن بصددها (أي المخطوطات) صفة النبوّة أو الرؤيا اللاهوتيّة بالمعنى الصحيح، وكلّها تركّز اهتماماً بالغاً على نهاية العالم»(95)، الذي لم ينته بعد!!!

وبالمحصّلة لمسنا أنّ اليهود، هذه القبائل البربريّة التي لم يثبت لها تاريخ واضح لجهة النشأة والمصدر، والتي عاشت في زمن معيّن في بلاد كنعان، قُيّض لعدد من أبنائها أن يتفاعلوا مع حضارات الهلال الخصيب، ويغرفوا منها المعارف العلميّة والأدبيّة، ويطوّروا إحدى اللهجات الكنعانيّة لتصبح لغة لهم، فحاولوا تشويه الديانة الكنعانيّة لكي يقولوا للعالم نحن من أعطى الحضارة الإنسانيّة أثمن ما عندها، أي الديانة التوحيديّة. «فجاءت الألواح الفخاريّة من أوغاريت لتمحو الأخطاء عن هذه الديانة (الكنعانيّة)، ولا سيّما المقصودة منها، التي جاءت في كتابات العبرانيين وبدت عدائيّة واضحة تجاه الكنعانيين ومشوّهة لصورة ديانتهم»(96).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الثالث

مناقشة موضوعية لمحتوى المخطوطات

الباب الأوّل

حول نسبة المخطوطات إلى الأسّينيين

ذكرنا سابقاً أنّ هذه المخطوطات نُسبت، بناءً على رأي معظم الدارسين، إلى جماعة عُرفت باسم الأسّينيين، علماً أنّ المخطوطات لم تتضمن أيّ إشارة إلى هذه الجماعة. وعرّف الدارسون الأسّينيين بأنّهم إحدى الملل اليهودية التي اعتزلت مجموع اليهود الذين كانوا يعيشون في فلسطين، إلى مكان قاحل من أرض فلسطين، بعيد عن المدنيّة والعمران؛ وعاشوا حياة تقشُّف في كهوف قريبة من البحر الميت في ناحية تُسمى قُمران. ويقول محمود العابدي إنّه «يُخيّل لقارئ أخبار هذه المخطوطات أنّ اليهود همّ أهل هذه البلاد، وأنّهم أقاموا فيها دهوراً طويلة متلاحقة، وهذا يخالف الواقع التاريخيّ. إذ إنّ اليهود لم يُقيموا في فلسطين إلّا لفترة قصيرة جداً من تاريخها»(97). وإذا بحثنا في الوثائق القديمة التي تعود إلى الممالك الشرقيّة العظيمة وصولاً إلى وثائق مصر القديمة الفرعونيّة التي وثّقت لكلّ الأسر، بنسب متفاوتة، فلن نستطيع أن نجد أيّ وثيقة تشير إلى بني إسرائيل، حتّى ولا إلى مملكة داود وسليمان، التي تعد العصر الذهبي لإسرائيل القديمة: «فبعد مرور أكثر من قرن على بدء التنقيبات الآثاريّة المبرمجة في أرض فلسطين، التي لم تترك حجراً من دون أن تقلبه، أو تلّاً من غير أن تحفر فيه، أو مبنىً قديماً من دون تفحّصه، فإنّها لم تتمكّن من تقديم دليل آثاريّ واحد يؤيّد وجهة النظر التقليديّة عن احتضان تلك البلاد (فلسطين) التجربة التاريخيّة والدينيّة لبني إسرائيل، أو حتّى يؤيّد صحة أيّ من الروايات التوراتيّة»(98).

هذا رأي للباحث زياد منى، الذي توافق مع آراء كمال الصليبي القائلة بأن أحداث العهد القديم لم تجر في فلسطين، بل في الجزيرة العربيّة، وحيث حدّد دارسون آخرون أنّها جرت في بلاد اليمن تحديداً. ولكن، بغضّ النظر عن صحة هذه النظريّات أو عدم صحتها، فنحن نوافق على الشق الآخر من النظريّة، الذي يقول بما ورد في العهد القديم عن إبراهيم ورحلته من أور الكلدانيين إلى حاران ثمّ فلسطين، التي لم تكن بعد قد سُمّيت بهذا الاسم، بل كانت تُسمّى أرض كنعان، علماً أنّ كاتب التوراة الذي حرّر الأسفار الأوّلى إبّان النفي إلى بابل في القرن السادس ق. م، ارتكب خطأً فادحاً عندما قال: «وتغرّب إبراهيم في أرض الفلسطينيين أياماً كثيرة» تكوين 24:21، لأنّ الذين

يعتقدون أنّ إبراهيم رجل تاريخيّ يحدّدون زمن ظهوره على مسرح الأحداث في منتصف القرن التاسع عشر ق. م (سنة 1850 ق.م بحسب المنجد)، فيما يؤكد جمهور المؤرّخين أنّ شعوب البحر الذين غزوا أرض كنعان، ومنهم الفلستيّون الذين سمّوا الأرض التي استقروا فيها باسمهم، وفدوا إليها في القرن الثاني عشر ق. م. وهذا ما يذكره أيضاً المنجد، الذي يحدّد زمن استقرار الفلسطينيين في نواحي الكرمل، وبدء المواجهة مع العبرانيّين بعام 1190 ق.م.

وهذا الكلام يعني أيضاً أنّ العبرانيّين كانوا موجودين في فلسطين قبل وصول الفلسطينيين من جهة، وأنّ الفارق الزمني، بين ما كتبه محرّر التوراة عن وجود إبراهيم في أرض الفلسطينيين، واستقرار الفلسطينيين فعليّاً في هذه الأرض يبلغ 660 سنة. وهذا يثبت منذ البداية أنّ ما ورد في هذا «الكتاب الخالد» لا يمتّ إلى الحقائق التاريخيّة بأيّ صلة، ولا حتّى إلى الحقائق الإلهيّة كما سنرى.

فكلّ ما دوّنه كتبة التوراة لا يعدو كونه خيالاً جامحاً، أراد أصحابه التعويض عن عقدة نقص حضاريّة كانوا يرزحون تحتها؛ فاختلقوا قصصاً تضمّنت ملاحم تُصوّر بطولاتهم المدعّمة بإرادة إلهيّة، واخترعوا أعداء وهميّين، مثل فرعون وشعوب كنعان وملوك ممالكها، وصنعوا تاريخاً لشعب غير موجود، بل هو مجرّد قبائل هي عبارة عن قطّاع طرق استعان بهم ملوك تلك الأرض لينصروهم على أعدائهم، وكانوا يبيعون مجهودهم الحربيّ لمن يكون أكثر سخاءً.

ففي الملحوظة الرقم 1 من الصفحة 54 من كتابه اللاهوت العربيّ وأصول العنف الدينيّ يقول يوسف زيدان: «في النصوص المصريّة القديمة، على كثرتها التي تكاد تخرج بها عن الحصر، لم ترد أيّ إشارة أو تلميح، إلى أنّ اليهود (العبرانيّين) كانوا يسكنون في مصر القديمة. والإشارة الوحيدة غير الواضحة، الواردة في لوح مرنبتاح تفيد بأنّ هذا الفرعون أدّب العبرانيّين الساكنين في الصحراء الجرداء المجاورة لمصر (أي صحراء سيناء)»(99).

ويؤكّد المؤرّخ دونالد ريدفورد أنّه «لم تظهر إلى الوجود (حتى الآن) أيّ نصوص جديدة، بل ولم يظهر حتّى اسما داود وسليمان في أيّ نقوش، سواء أكانت مصريّة أو ساميّة غربيّة»(100). فكيف يمكن أن تخلو الوثائق المصريّة من أيّ إشارة إلى سليمان الذي تزوّج، بحسب ما تقول التوراة، بابنة فرعون مصر، من دون أن يذكر محرّر التوراة اسم هذا الفرعون، وكأنّ اسم سليمان، ملك مملكة إسرائيل الصغيرة إذا ما قيست بمصر الفراعنة، أهمّ من اسم الفرعون.

أمّا الأثر الوحيد، أي لوحة مرنبتاح، التي ظنّ الدارسون أنّ إسرائيل قد ذُكرت فيها، واعتُمدت للدلالة على وجود مملكة إسرائيل، فإنّه أثر باهت اختلف بشأنه المحقّقون، حتّى أنّ الدارسين الموضوعيين أسقطوه من حساباتهم، لأنّه لا يمثل رابطاً رسميّاً وتاريخيّاً ببني إسرائيل.

وهذه اللوحة موجودة حاليّاً في المتحف المصريّ، وقد نقش عليها بداية الفرعون أمنحوتب الثالث (1405 - 1367 ق.م) ثمّ استخدمها من بعده الفرعون مرنبتاح (1224-1214 ق.م) ليسجّل عليها انتصاراته.

لقد استغلّ اليهود هذه اللوحة أقصى استغلال، لأنّها برأيهم تؤكّد وجود مملكة إسرائيل. ولكن مملكة إسرائيل المزعومة قامت بعد مرنبتاح بقرنين من جهة، ومن جهة ثانية، فإنّ مرنبتاح سجّل انتصاراته على الليبيين، فكيف جرى حشر إسرائيل في هذه الوثيقة؟

إنّ اختلافات الترجمة ما بين عالم وآخر تؤكّد أنّ هذه الكلمة التي ترجمها علماء اللغات القديمة على أنّها إسرائيل، قد تعني شيئاً آخر.

وفي دراسة منشورة على موقع غوغل للكاتب والباحث في التاريخ أحمد الدبش بعنوان «مسألة إسرائيل في لوحة مرنبتاح» يقول: «إنّ قراءة النصّ بالهيروغليفيّة تُبيّن أنّ الكلمة هي يسيرارو أو يزيرارو لا إسرائيل. ويمكن أن تُقرأ «يزريل». وعندئذ يُفهم أنّها قد تعني مرج ابن عامر في فلسطين، وحيث إنّ عالم الآثار المصريّة جيمس هنري برستد قد ترجم الجملة على النحو الآتي: إسرائيل أقفرت وليس فيها بذرة، فقد رأى الباحث الدبش أنّ اللفظة ليست إسرائيل، بل هي يزريل، أي سهل مرج ابن عامر، أي إنّ الفاتح قد جعل السهل خراباً غير قابل لأن تنبت فيه البذور ثانية.

ومهما يكن من شأن هذه اللوحة، فإنّ أثراً واحداً لشعب يدّعي أنّه يملك أرض فلسطين منذ ثلاثة آلاف سنة، وأقام فيها حضارته المزعومة، لا يُثبت تاريخيّة ما جاء في العهد القديم من قصص لا تمتّ إلى الحقيقة بصلة، بل هي شطحات خياليّة بعيدة عن الواقع.

هل يُفهم من هذا الكلام أنّ العبرانيّين لم يكن لهم وجود عبر التاريخ؟ وإذا كان الجواب بالسلب، إذن فكيف نبرّر وجودهم أيام يسوع، وصلبهم له، وانتصار الرومان عليهم، وتشتّتهم في أصقاع الدنيا، وأخيراً عودتهم بالقوّة إلى ما عدّوه أرض الأجداد؟ وكيف نفسّر وجود هذه المخطوطات قرب البحر الميت، وهي تحتوي على أسفار العهد القديم ذاتها ما عدا سفر أستير، وكتابات أخرى نُسبت إلى الأسّينيين؟ وبما أنّ معظم الدارسين متّفقون على أنّ الأسّينيين الذين تركوا لنا هذه المخطوطات هم ملّة من ملل اليهود، ألا يعني هذا أنّ اليهود كانوا موجودين في فلسطين في ذلك التاريخ؟ وإجابة عن

هذه الأسئلة، أقول إنّ لبني إسرائيل = العبرانيين = اليهود من دون شك حضوراً في فلسطين، لكنّه لم يكن في وقت من الأوقات كما صوّره كتبة العهد القديم.

معظم الدارسين الموضوعيّين اليوم، وبينهم يهود، يؤكّدون أنّ بني إسرائيل لم يكن لهم وجود في مصر، (العهد القديم يذكر أنّهم عاشوا في مصر 430 سنة من زمن يوسف إلى زمن موسى)، وهم بالتالي لم يخرجوا منها، ولم يدخلوا أرض كنعان بالقوّة، ولم يشنّوا حرب إبادة على شعوب كنعان، وخاصّة على سكان فلسطين. كلّ ما ورد عن هذه الأحداث لا يعدو كونه قصصاً شعبيّاً من خيال الكاتب.

وفي هذا المجال يقول الباحث ماير: «إنّ التراث الذي استمدت منه المصادر الوثائقيّة كان في الأصل مرويّات شفهيّة ومجموعات من القصص التي تألّفت من الحكايات الشعبيّة والأساطير والملاحم. كما رأى أنّ حكايات سفر التكوين فيها القليل ممّا له علاقة بالتاريخ، بل هي تنتمي إلى عالم الخيال». ويُكمل طومسون الذي أورد هذا القول بأنّ «العهد القديم لم يكن تاريخاً تحوّل إلى خيال، بل خيالاً تحوّل إلى تاريخ»(101). وهذا ما أكّده أيضاً الكاتب والمؤرّخ اليهوديّ شلومو ساند، فقد قال: «وبما أنّ المعطيات على أرض الواقع أشارت بوضوح وعلى نحو قاطع إلى أنّ خروج مصر لم يحدث قط، وإلى أنّ أرض كنعان لم تُحتّل بالمرّة على نحو مفاجئ في الفترة المذكورة في التناخ (التوراة)، فقد غلب الاعتقاد، وبحق، بأنّ رواية الرعب عن القتل الجماعيّ (الوارد في سفر يشوع) هي اختراع من محض المصادفة»(102).

وأصبح من المؤكّد أنّ المصادر التاريخيّة القديمة لم تأتِ على ذكر القبائل الإسرائيليّة. لذلك رأى بعض الدارسين أنّ هذه القبائل هي قبائل كنعانيّة وضيعة، أرادت أن تخلق لنفسها كياناً، فقيّض لها بعض أبنائها ممّن تأثّر بالتراث الحضاريّ الكنعانيّ، فتبنّى أحد آلهة الكنعانيين يهوه، وحوّله إلى إله شرس يعشق رائحة اللحم والدّم، وجعله لا ينطق إلّا بكلمات القتل والتحريم (أي الإبادة الجماعيّة)، وجعله يتبنّى القبائل كشعب خاص مختار، ثم استفاد من وجوده في بابل، بعد تغلّب نبوخذ نصّر على هذه القبائل، من الاطّلاع على الأساطير البابليّة، فاستفاد منها لخلق هوية شعب جديد ربط ذريّته بإبراهيم المرتبطة بنوح فآدم على نحو سخيف، وهو كان يعلم ذلك، فأضفى صفة القداسة والألوهيّة على هذه الأساطير لكي يصدّقها النّاس ولا يحاولوا مناقشتها.

والحديث عن مملكة إسرائيليّة عظيمة هو أيضاً حديث خرافة. فالملوك الذين طالب بنو إسرائيل بأن يتولّوا أمورهم ليسوا إلّا شيوخ القبائل الذين أيضاً كانوا يتصارعون في ما بينهم. يقول تِوماس ل. طومسون: «ويمكن اعتبار عمل

ألستروم وإيدلمان ملحقاً ضرورياً لعمل ليمخي. وكما ورد في عمل ليمخي، فإنّ مسألة تحديد المكان الذي جاء منه المستوطنون الإسرائيليّون بدقّة، لم تُحلّ بأيّ شكل كان، سوى بوصفهم عموماً بأنّهم محليّون في فلسطين ولا يتميّزون من الكنعانيين»(103).

وهذا هو التفسير الأرجح لهذه الجماعة، التي لا نجد لها أيّ ذكر في أيّ وثائق تاريخيّة، إلّا في كتابها الدينيّ الذي لا يمتّ إلى التاريخ بأيّ صلة، كما مرّ معنا.

ويقول طومسون أيضاً إنّ «أصول شعب إسرائيل ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتواريخ هذه المستوطنات الإقليميّة المتميّزة على نحو واضح. وبهذه الملاحظة، تندمج أصول إسرائيل بتاريخ فلسطين وهي مندمجة بالفعل»(104). وانطلاقاً من هذا الكلام الواضح لأشهر بحّاثة، موضوعيّ متجرّد، في تاريخ بني إسرائيل، يمكننا القول إنّ هذه القبائل التي اتفقت على عبادة إله قبليّ واحد، يهوه، قد عاشت في البيئة الجغرافيّة المعروفة بالهلال الخصيب، وغرفَ عدد منها، من الذين تفاعلوا مع حضارة هذه البيئة، من ينابيعها الثقافيّة، وخاصّة الروحيّة منها والاجتماعيّة، فأسّسوا ديانة استقت شريعتها من قوانين حمورابي الوضعيّة، وأنتجت أدباً متأثّراً بتراث شعوب البلاد السابقة لهم. وبفعل التطوّر، دخل الخلاف على أفراد هذه الجماعة الدينيّة، ونتج منه بروز جماعات داخل الجماعة الواحدة نتيجة الاختلاف بتفسير الشريعة من جهة، والتفاعل مع التطوّرات الحضاريّة التي نشأت عن خضوع هذه البيئة لليونانيين أوّلاً، ومن ثمّ للرومان، ودخولها مرحلة الهلينية، أي الثقافة الناتجة من تفاعل حضارتنا السوريّة مع الحضارتين اليونانيّة والرومانيّة من جهة أخرى. وانطلاقاً من هذا الواقع يكون الأسّينيون جماعة من اليهود، لا يتجاوز عددهم الخمسة آلاف نسمة، بحسب معظم المراجع، ترسّخت لديهم بعض القناعات التي ترتكز على شريعة العهد القديم عموماً، وتتميّز منها بأمور أخرى برزت في ما ضمّنوه في مخطوطاتهم، وخاصّة عن مسلكهم الحياتيّ اليوميّ. فالمخطوطات إذن قسمان: الأوّل ليس سوى نسخ جديدة عن أسفار العهد القديم الأصليّة منها والمنحولة، والثاني وهو كتب خاصّة بالجماعة أعطاها الدارسون عناوين تتلاءم مع محتواها، وأطلقوا عليها اسم الكتب الأسّينية وهي: مدرج دستور الجماعة، وهو يتضمّن دستوراً ملحقاً للرعيّة، وكتاب التبريكات، مدرج الهيكل، كتاب دمشق، تنظيم الحرب، فضلاً عن شروح توراتيّة لبعض الأسفار والمزامير والأناشيد، وموضوعات أخرى متفرّقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الباب الثاني
دستور الجماعة

سنعتمد في مناقشتنا لمحتويات المخطوطات على أخذ أمثلة والتعليق عليها، إذ إنّنا لو أردنا أن نناقش كلّ جملة وردت فيها لَتطلّب منّا ذلك سنوات من الكتابة تنتج عنها مجلّدات لن تجتذب القارئ الذي يريد اطّلاعاً بسيطاً على مضمونها.

الملاحظة الأوّلى التي يمكن أن نستشفّها من الأسطر الأوّلى تفيدنا بأنّ الجماعة متقيّدة بما تعتقده قد وصل إليها عن موسى بواسطة الأنبياء الأتقياء، وفيه دعوة إلى الابتعاد عن السوء، والتعلّق بالأعمال الصالحة إلى آخره، ما يمثّل تقيّداً بوصايا اللَّه، فنقرأ:

لكي يبحثوا عن اللَّه من كلّ قلوبهم وبكلّ ضمائرهم

ولكي يقوموا بكلّ ما هو حسن ومستقيم أمامه

بحسب ما قد أوصى بواسطة موسى

وبواسطة أتقيائه الأنبياء كافّة

ولكي يُحبّوا كلّ ما اصطفى،

ولكي يُبغضوا كلّ ما ازدرى

لكي يبتعدوا عن كلّ سوء

ولكي يتعلّقوا بكلّ الأعمال الصالحة،

ولكي يمارسوا الحقّ والعدل والاستقامة على الأرض

ومن أجل إدخال جميع المريدين

أولئك الذين يريدون ممارسة وصايا اللَّه

حتّى يصبحوا موحّدين في ميثاق اللَّه...

إنّ من يقرأ هذه العبارات لا بدّ أن يكون تأثيرها فيه إيجابيّاً، إذ إنّ ظاهرها يوحي بأنّها تعاليم تدعو إلى الاستقامة والبحث عن اللَّه في القلوب، والابتعاد عن البغض، وممارسة كلّ ما يتفّق مع قيم الحقّ والعدل، وصولاً إلى التوحيد باللَّه نتيجة التقيّد بميثاقه.

وقد نفهم أيضاَ من هذا الكلام أنّه موجّه إلى كلّ الناس، لعلّهم يهتدون إلى كلّ ما هو حسن ومستقيم. لكنّنا، وبعد جمل قليلة، يلفتنا قول الكاتب إنّ إله إسرائيل وملاك حقيقته سيهبّان لنجدة أبناء النور، الذين يحاول ملاك الظلمات أن يُضرّ بهم ويضيّق عليهم نتيجة عدوانيّته. وهذا إن دلّنا على شيء، فإنّما يدلّ على أنّ هذه الشريعة ليست إنسانيّة كونيّة، بل هي مخصّصة لهذه الجماعة المحدّدة التي اخترعت، أو قل تبنّت، إلهاً خاصّاً بها، وجعلته يبادلها بالمثل، أي أن يتبنّاها لتكون شعبه الخاص. وهنا برأيّي تنتفي عن هذه الشريعة أيّ قيمة حضاريّة إنسانيّة.

ومقارنةً بما جاء في العهد القديم نجد توافقاً تاماً لجهة التشديد على أنّ إله الجماعة لم يكن مهتمّاً إلّا بها!! لكي يُعطي الوقت الكافي لوكيله في أرض كنعان كي يُنهي عمله بالقضاء على كلّ من يعدّهم أعداءه. «حينئذٍ كلّم يشوع الربّ يوم أسلم الربّ الأموريّين أمام بني إسرائيل، وقال أمام عيون إسرائيل يا شمس دومي على جبعون ويا قمر على وادي أيلّون. فدامت الشمس ووقف القمر حتّى انتقم الشعب من أعدائه» العهد القديم، سفر يشوع 10: 12-13.

فكيف لنا أن نسلّم بهذا الكلام لمجرد وروده في كتاب قال عنه من آمنوا به إنّه كلام اللّه؟ وهل يُعقل أن يقوم هذا اللّه، وكرمى لعيون جماعة قليلة من مخلوقاته بإيقاف الشمس والقمر، لكي تقتل هذه الجماعة كلّ نسمة حياة، بشريّة كانت أم حيوانيّة؟ وحتّى لو قال لنا المؤمنون إنّ اللّه على كلّ شيء قدير، وإنّ هذه واحدة من معجزاته، ألا يجعلنا ذلك نكفر بهذا «اللّه» الذي ميّز هذه الجماعة القليلة على حساب بقيّة كلّ الناس؟ وحتّى لو آمنّا بإمكانيّة حدوث مثل هذه المعجزة أليس تناقضاً فاضحاً القول إنّ اللّه أوقف الشمس والقمر فوق منطقة واحدة؟ وما فائدة القمر بوجود الشمس؟ وهل يمكن للقمر أن يضيء المكان نفسه في الوقت الذي تُشرق عليه الشمس؟

أمّا عن تأكيدنا أنّ هذا الإله هو إله خاصّ ببني إسرائيل، وهذا واضح في كلّ أسفار التوراة، فيكفي أن نأخذ مثالاً واحداً من سفر العدد، حيث نقرأ في نصف صفحة فقط ما يأتي: «وكلّم الربّ موسى قائلاً أن ينفوا من المحلّة كلّ أبرص وكلّ ذي سيل وكلّ متنجّس، لميت»، «وكلّم الربّ موسى قائلاً قل لبني إسرائيل إذا عمل رجل أو امرأة شيئاً من جميع خطايا الإنسان وخان خيانة بالرّبّ فقد أذنبت تلك النفس...»، «وكلّم الرّبّ موسى قائلاً كلّم بني إسرائيل وقل لهم...» العهد القديم، سفر العدد 5: 1-5، 11. ونحن، وإن سلّمنا جدلاً بأنّ هذه الوصايا راقية وهي لخير الإنسان، ألا يحقّ لنا أن نتساءل لنقول أين تكمن قيمتها، وهي اليوم تحديداً، تتوجّه إلى عشرين مليوناً فقط من سكان الأرض، غير آبهة لما يقارب الثمانية مليارات منهم؟ وإذا ما سلّمنا أيضاً

بأنّ هذا الإله هو إله كونيّ، فما هي مسؤوليّة الناس عن عدم سلوك دربه وهو لم يدعهم إلى هذا الدرب القويم، بل اكتفى بدعوة شرذمة تائهة منهم؟

ونكمل لنقرأ الآتي: «وسيدخل جميع الذين يقرّرون الانتساب إلى دستور الجماعة في الميثاق بحضور اللّه، ملتزمين العمل وفق كلّ ما قضى به، وعدم التراجع عنه بتأثير خوف أو رعب أو تجربة مهما كانت، إذا ما خضعوا لوسواس إمبراطوريّة بلعال».

نتوقّف مباشرة عند قول الكاتب «بحضور اللَّه»، ونحن غير ملزمين أن نلجأ إلى التأويل، لأنّ التأويل يجب ألّا يطاول ما اتُّفق على تسميّته كلام اللّه، أو حتّى كلام الأنبياء الأصفياء الأنقياء، لأنّ كلام اللَّه وأنبيائه ورسله يجب أن يكون واضحاً محدّداً وصريحاً غير قابل للتأويل، ولأنّ التأويل أحدث شرخاً في كلّ الديانات، وتمثّل هذا الشرخ بتعدّد المذاهب. فقد دعا كلّ مؤوّلٍ جماعة من طائفته للسير معه في ما يقول، وكان له ما أراد. ونتيجة لذلك كثرت في زمننا الأديان «التي يبلغ عددها في حدود 4000 دين... ولعلّ السمة الغالبة على أديان الحاضر أنّها لا تتحاور، (وإن فعلت فشكليّاً فقط)، بل تصطرع هنا وهناك، ولكنّها جميعاً، مغلقة على نفسها، ويرى كلّ دين فيها أنّه هو الدين الذي يملك الحقيقة الكاملة... وطبقاً للموسوعة المسيحيّة العالميّة (باريت، طبعة 2001) يوجد في العالم عشرة آلاف دين متميّز...»(105). وبالعودة إلى كلام الكاتب بشأن حضور اللّه اجتماعات الانتساب إلى ميثاق الجماعة، فهو يعني أنّ اللَّه كان بالنسبة إلى هذه الجماعة شيخ قبيلة يجلس في خيمة الاجتماع ليعطي أوامره ويلقي مواعظه.

وقد أشار إلى ذلك كثير من دارسي العهد القديم، الذين أكّدوا أنّ يهوه، إله بني إسرائيل، ليس سوى شيخ القبيلة أو الشيخ الأكبر لجميع قبائل العبرانيين، لذلك أسند إليه الكتبة صفات إنسانيّة كالتعب والغضب والندم وحب رائحة الشواء، وسواها من الصفات التي لا تليق بالخالق الكونيّ.

والملاحظة الثانية هي بشأن إمبراطوريّة بلعال، فمن هو هذا البلعال؟ هل هو بلعام العهد القديم الوارد ذكره في سفر العدد؟ أم أنّه شخصيّة أخرى؟ ما يُفهم من كلام الكاتب، ربّما، أنّ بلعال هذا هو الشيطان صاحب الإمبراطوريّة الكبيرة. إذ برأي هذه الجماعة الصغيرة هم وحدهم أبناء النور، وبقيّة الناس هم أبناء الظلام الذين يوسوس بلعال في عقولهم ونفوسهم فيحرفهم عن الصراط المستقيم. وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا كلّ هذا الغموض. ويلفتنا كلام الكاتب بعد ذلك عندما يقول:

«وسيلعن اللاويون جميع الذين من حصة بلعال

ملعوناً فلتكن، دون شفقة،

بحسب ضلال أعمالك!

ألا ولتكن هالكاً في ليل النار الأبديّة».

نفهم من هذا الكلام أنّ جماعة الأسّينيين، الذين نُسبت إليهم هذه المخطوطات، هم من سبط لاوي، أحد الأسباط الاثني عشر أولاد يعقوب، وهم يعدّون أنفسهم أنّهم الوحيدون الذين يملكون الحقيقة، كما قال خزعل الماجدي آنفاً، والآخرون كلّهم إلى الهلاك الأبديّ مصيرهم محتوم. وكيف يكون ذلك ولم يتسنّ لهم من يدعوهم إلى هذه التعاليم الجديدة الوحيدة!!! التي تؤمّن لهم الخلود والراحة الأبديّة؟

وتتوالى الدعوات إلى اللَّه للانتقام من الآخرين:

«ألا فليحرقه غضب اللَّه وحمية أحكامه في الهلاك الأبديّ،

وليبقه اللَّه معزولاً في الشقاء،

وليكن مقصيّاً عن وسط جميع أبناء النور

لأنّه حاد عن اللَّه».

فأين رحمة اللَّه وتسامحه وغفرانه ومحبّته التي جاءت تعاليم يسوع مستندة إليها لكي تنقض الشريعة الموسويّة التي تدعو إلى العكس تماماً؟ وما أثبتناه آنفاً ليس إلّا مثالاً من هذه الملّة اليهوديّة التي ادّعت زوراً أنّها مسالمة، وأنّها تستقبح الشهوات وتعدّها جريمة، وأنّها تهتم بكبح جماح النفس وقمع ثورة الهوى. فإذا كان اليهود كذلك فلماذا كلّ هذا الحقد على الآخر؟ ولماذا هذا الانغلاق وهذا الانعزال؟ وما فضل المنعزل الذي يدّعي العفّة في كلّ شيء، وقد نأى بنفسه عن التفاعل مع النّاس، أي ابتعد عن كلّ المغريات التي تدفع الإنسان إلى التجربة، وإن أخطأ فإلى التوبة وطلب الغفران. وكيف يدّعون المسالمة ولديهم مدرج عن تنظيم الحرب؟ وهذا ما دفع الدكتور جوزف زيتون أن يكتب في مدوّنته «الرأي السائد أنّ أصحاب المخطوطات، هم من طائفة اليهود الأسّينيين الذين عُرف عنهم حبّهم للسلام وكرههم للحرب وأدواتها. إلّا أنّ مفهوم الحرب «نهاية الأزمنة» الذي تتمحور حوله مخطوطات البحر الميت، لا يتوافق مع «طابع المسالمة» الذي اشتهر به الأسّينيون وفقاً لمصادرهم». ويقول آخرون، بحسب الدكتور زيتون، إنّه قد تبيّن بعد دراسة هذه المخطوطات «أنّ أصحابها من اليهود الغيورين على الشريعة، الذين يعتقدون أنّ نهاية الأيام قد أتت، فراحوا يستعدّون، من خلال فترة جيل واحد من الزمن لشن حرب مقدّسة ضدّ المحتل الغريب (الرومان)، وضدّ الأمم والشعوب كافّة، وخاصّة ضدّ مخالفي الشريعة الموسويّة. وقد اعتقدوا أنّه، خلال تلك الحرب، سيأتي المسيح المنتظر ليملك على العالم»(106). وما

زالوا حتّى هذه اللحظة ينتظرون مسيحهم، يهوه الجديد، الذي سيساعدهم على الانتصار على أعدائهم في معركة أرمجدون، حيث سيتمكّنون من حكم العالم لألفيّة كاملة سعيدة، وكأنّهم لا يحكمون عالمنا التعيس اليوم!!!

أمّا فقرة «الإحصاء السنويّ» من دستور الجماعة، فإنّها تؤكّد، كما العهد القديم، أنّ كلّ هذه التعاليم والتنظيمات تخصّ بني إسرائيل وحدهم على نحو عام، وأنّ فئة محدودة من بني إسرائيل ستحظى بشرف الدخول مع «جماعة الحقيقة والتواضع الصالح والمحبة العطوفة والعدالة المدقّقة»، ولكي يتم ذلك ستقوم الجماعة «سنة بعد سنة وطيلة فترة سيطرة بلعال!!؟؟: سيمرّ الكهنة أوّلاً، ضمن النظام، بحسب درجة توقّد أذهانهم، والواحد خلف الآخر، وسيمر اللاويون بعدهم، وسيمر الشعب كلّه في المرحلة الثالثة، ضمن النظام، الواحد إثر الآخر، بالآلاف والمئات والخمسينات والعشرات، بحيث يعرف كلّ من رجال إسرائيل المكانة التي عليه أن يشغلها في جماعة اللّه، مكانة المقام الخالد، ولن ينزل أحد تحت المركز الذي يجب أن يحتلّه، كما لن يرتفع فوق المكان الذي تعيّنه له قسمته».

فلماذا هذا التركيز على اللاويين؟ ومن هم اللاويّون؟ بالعودة إلى العهد القديم نجد أنّ لاوي هو أحد أبناء يعقوب، وذريته كلّفها «الربّ» خدمته في خيمة الاجتماع. واستمرّت هذه الخدمة بعد بناء الهيكل المزعوم. ولقد تغيّرت مهمّاتهم بين عهد وعهد. «فيربعام طردهم من مملكته. أمّا أيام حزّقيا، فكانوا في مقدّمة الحركة التي أعادت برنامج داود في العبادة الروحيّة، ولم ترشح أيّ معلومات عنهم أيام السبي إلى بابل»(107).

ولتأكيد أهميّتهم، كتب محرّر التوراة سفراً خاصّاً باسمهم، هو الثالث بعد التكوين والخروج، لأنّ اللاويين سارعوا إلى تلبية نداء «الرب» عندما «وقف موسى في باب المحلّة. وقال من للربّ فإليّ، فاجتمع إليه جميع بني لاوي. فقال لهم. هكذا قال الربّ إله إسرائيل فليضع كلّ واحد سيفه على فخذه ومرّوا وارجعوا من باب إلى باب في المحلّة وليقتل كلّ واحد أخاه، وكلّ واحد صاحبه وكلّ واحد قريبه. ففعل بنو لاوي بحسب قول موسى. ووقع من الشعب (بني إسرائيل) في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل» خروج 32: 26-28.

إذن كافأهم موسى، لأنّهم كانوا أكثر إجراماً فتقيّدوا بأوامره، وقتلوا إخوتهم وأصحابهم وأقرباءهم. يا له من إنجاز حضاريّ إنسانيّ. لذلك استمرت هذه النزعة الإجراميّة في ذريّتهم، التي يُستشفّ من المخطوطات أنّ المجموعة التي كتبتها لم تكن من الأسّينيين، بل من اللاويين، إلّا إذا كان الأسّينيّون هم أنفسهم اللاويّون الذين كانوا يُظهرون غير ما يُبطنون.

أمّا عن قول الكاتب إنّ الجماعة سيُحصون طيلة فترة «سيطرة بلعال»، فيبقى كلاماً سخيفاً غامضاً، لأنه إذا كان بلعال هو الشيطان، فسيبقى إلى الأبد لكون وجوده مرتبطاً بوجود اللّه، وزواله يلغي فكرة التضادّ بين الخير والشرّ. هذه الفكرة الأزليّة الأبديّة، التي لاحظها الإنسان حالما بدأ عقله يدرك مفهوم الخير والشرّ، النور والظلمة، العدل والظلم، الحقد والتسامح.

ونكمل القراءة لنصل إلى عنوان جديد: «التعليم حول الروحين». وتحت عنوان فرعي حول اللّه والخلق، نقرأ كلاماً جيّداً كقول الكاتب:

«من اللّه ربّ المعارف يتأتّى كلّ ما هو كائن وما سيكون

وقبل أن تكون الكائنات صمّم مخطّطها كلّه،

وعندما أصبحت موجودة، فإنّها من خلال قوانينها، الموافقة لمخطّطه المجيد،

تتمّ وظيفتها من دون تغيير أيّ شيء فيها».

بعد ذلك ينتقل إلى الكلام عن الروحَين والإنسان فيرى أن:

«الروحين الاثنين للحقّ والضّلال،

فمن منهل النور أصل الحقيقة،

ومن نبع الظلمات أصل الضلال»

ثمّ يعود إلى الحديث عن ملاك الظلمات من دون الحديث عن بلعال، فيقول:

إنّه بسبب ملاك الظلمات إنّما يضلّ جميع أبناء العدل...

وإنّ جميع أرواح حصّته لعاملة على تعثير أبناء النور.

لكنّ إله إسرائيل، كما وملاك حقيقته، يأتيان لمساعدة جميع أبناء النور».

فالمقطع الأوّل يحكي عن الربّ العارف الذي يصدر عنه كلّ ما هو كائن في الماضي، وكلّ ما سيكون في المستقبل. وعندما يصف الربّ بالعارف كأنّه يقول عنه إنّه العقل، لأنّ المعرفة مرتبطة بالعقل. ومن هذا العقل الكلّي فاضت عقول جزئيّة هي العقول البشريّة. فإذا كان اللّه هو العقل الكليّ، الذي صمّم الكائنات فأوجدها لمجرّد أنّه فكّر بها، وأوجد لها في الوقت نفسه قوانينها، لتتم وظيفتها من دون تغيير أيّ شيء فيها، يكون الكاتب بهذا قد سلب الإنسان إمكانيّة التطوّر وإحداث أي تغيير في سير هذه الأحداث، وكأنّه روبوت مسيّر يتلقى توجيهات أوتوماتيكيّة ويتفاعل معها إيجابيّاً، بمعنى أنّه ينفّذها حتّى ولو تعارضت مع الخير العام، أو مع العدل على سبيل المثال. وأنا أفهم أنّ الإنسان الذي خلقه اللّه على «صورته ومثاله» كما جاء في سفر

التكوين، إنّما يشبهه لجهة تمتّعه بالعقل الذي فاض إليه من الخالق أي العقل الكليّ، لا على شكل اللّه، لأنّ اللّه لا شكل له ولا صورة. وبالانتقال إلى المقطع الثاني الذي يتحدّث فيه الكاتب عن الروحين نراه وقد عاد إلى الكلام عن الطريق، أي الحق والضلال. وهذا جيّد، لأنّ كلّ شيء في حياة الإنسان يرتكز على فكرة جدليّة صراع الأضداد، وينسب أصل الحقيقة إلى منهل النور، لأنّ العقل النيّر يتلمّس طريقه إلى الحقيقة منقاداً بنور المعرفة، كما يُنسب أصل الضلال إلى نبع الظلمات، حيث يحجب ظلام الجهل الحقيقة عن العقل فيسقط في الضلال.

والغريب في هذا الكلام، على صحته، أنّ بني إسرائيل، وتحديداً الجماعة التي حفظت لنا هذه المخطوطات، أثبتوا أنّهم هم أبناء الضلال والظلمات، منذ أن اخترعوا لهم إلهاً، وأجبروه على أن يُعلنهم شعبه الخاصّ المختار، ويسير أمامهم ليحارب عنهم للقضاء على كل الشعوب ومن تبقى منهم يُعدّون عبيداً، يُسخَّرون لخدمة من اصطفاهم هذا الإله، أي بني إسرائيل.

أيّ تناقض هو هذا، بين الكلام الأوّل الذي يُفهم منه أنّ الربّ هو خالق كلّ الكائنات بمن فيهم الإنسان، والقول في آخر المقطع إنّ إله إسرائيل وملاك حقيقته يأتيان لمساعدة جميع أبناء النور؟ إذ لا يمكن أن نفهم من تعبير جميع أبناء النور أولئك المهتدين بنور العقل من كافّة الشعوب، لأنّ الكاتب، وبعد أن تكلّم على الربّ إله الكون، وفي هذا توحيد واضح، عاد ليحصر عمليّة مساعدة أبناء النور بإله بني إسرائيل؛ فانتقل من التوحيد إلى التفريد، كما قال خزعل الماجدي، وهو على حق مطلق بذلك.

إله بني إسرائيل الذي اصطفى هذه القبيلة، من بين كلّ الناس الذين خلقهم، لتكون شعبه المختار، لن يأتي لمساعدة الآخرين بل شعبه فقط. وبناءً على تعاليم هذه الملّة فهو لن يساعد حتّى كلّ شعبه، بل فقط أبناء النور منهم. فمن يحدّد أنّهم بالفعل وحدهم أبناء النور؟ ومن الذي يحدّد أنّهم وحدهم وبعقولهم العارفة قد توصّلوا إلى معرفة الحقيقة وابتعدوا عن الضلال؟ ولماذا إله بني إسرائيل وبعد أن كال التهديدات لشعبه، «ذوي الرقاب الغليظة»، بأنّه سينتقم من كلّ من لا يتقيّد بوصاياه، يعود عن تهديداته ويسامحهم، لكنّه غير مستعد لأن يسامح الشعوب الأخرى التي حضنتهم وعلّمتهم الحضارة بعد أن كانوا برابرة؟

إنّ نظرة واحدة إلى سفر الملوك الأوّل، الإصحاح الخامس عشر، تعطينا فكرة واضحة عن شرور بني إسرائيل التي تغاضى عنها هذا الإله القبلي، إذ يقول المحرّر عن الملك ناداب بن يربعام إنّه «عمل الشر في عيني الرب» ملوك أوَّل 26:15، وبعشا بن أخيّا عندما ملك على جميع إسرائيل «عمل الشرّ في عيني الربّ» ملوك أوَّل 24:15، وزمري ملك سبعة أيام فقط، «وعمل

الشرّ في عيني الرب» ملوك أوَّل 19:16، وملك عُمري على إسرائيل اثنتي عشرة سنة «وعمل عُمري الشرّ في عيني الربّ» ملوك أوَّل 25:16، «وعمل أخزيا بن عمري الشر في عيني الربّ أكثر من جميع الذين قبله» ملوك أوّل 30:16. وهذا هو «أخزيا ابن آخاب ملك على إسرائيل في السامرة في السنة السابعة عشرة ليهوشافاط ملك يهوذا. ملك على إسرائيل سنتين. وعمل الشرّ في عيني الربّ» ملوك أوّل 22:51-52. وحتّى داود الملك النبي لم يسلم من غضب الربّ عليه، لأنّه سلب أوريا الحثّي زوجته، ثمّ بعث به ليكون في الخط الحربيّ الأوّل، ليُقتل؛ فيضم زوجته إلى سراريه. وهكذا كان فتزوجها وولدت له سليمان الملك الحكيم. فصبّ الربّ غضبه على رجله داود وقال له: «هأنذا أقيم عليك الشرّ من بيتك وآخذ نساءك أمام عينيك وأعطيهنّ لقريبك فيضطجع مع نسائك في عين هذه الشمس» صموئيل ثانٍ 11:12، فيا له من عقاب أخلاقيّ إنسانيّ حضاريّ.

ولقد نفّذ الربّ وعيده؛ فسلّط على نساء داود ابنه أبشالوم فاضطجع معهن جميعاً على سطح البيت وعلى مرأى من الناس. «وقال أبشالوم (ابن داود) لأخيتوفل أعطوا مشورة ماذا نفعل. فقال أخيتوفل لأبشالوم ادخل إلى سراري أبيك اللواتي تركهنّ لحفظ البيت، وترك الملك عشر نساء سراريّ لحفظ البيت صموئيل ثانٍ، 16:15، فتسمع كلّ إسرائيل أنّك قد صرت مكروهاً من أبيك فتشدّد أيدي جميع الذين معك. فنصبوا لأبشالوم الخيمة على السطح ودخل أبشالوم إلى سراريّ أبيه أمام جميع إسرائيل» صموئيل ثانٍ 16: 2022-. وكان قبل ذلك ابن داود أمنون قد اضطجع عنوة مع أخته، بنت داود من زوجة أخرى غير والدة أمنون، «فأمسكها وقال لها تعالي اضطجعي معي يا أختي» صموئيل ثانٍ 11:13. وهكذا نرى أنّ ولدي داود، وبناءً على طلب من «الربّ» الذي غضب عليه، نفّذا أمر هذا الربّ، حيث اضطجع واحد مع بنت داود (أي أخته)، واضطجع الثاني مع عشرٍ من نساء داود. ألا يتحتّم علينا أن ندرّس هذا العقاب الإلهيّ لأولادنا لكي لا يخطئوا، فيعاقبهم اللّه بأن يبيح نساءهم لأقاربهم؟ وهل إذا قلنا إنّ هذا العقاب غير أخلاقيّ، ولا يمكن أن يصدر عن الخالق المتسامح الكليّ المحبة، نكون نحن الكفرة، لأنّنا خالفنا تعاليم الشريعة الموسويّة، وأوامر إله بني إسرائيل لا إله الكون؟

ومثلما أعطينا أمثلة قليلة على الشرور التي ارتكبها ملوك إسرائيل، والتي تحفل التوراة بالكثير منها، يُمكننا أن نعطي الكثير من الأمثلة على الشرّ الذي ارتكبه بنو إسرائيل كلّهم، والذي أورده محرّر التوراة في أكثر من سفر.

يقول في سفر القضاة: «وفعل بنو إسرائيل الشرّ في عيني الربّ وعبدوا البعليم وتركوا الربّ إله آبائهم...» العهد القديم، سفر القضاة 11:2، «وعاد بنو إسرائيل يعملون الشرّ في عيني الربّ...» قضاة 12:3، وعاد بنو إسرائيل

يعملون الشرّ في عيني الربّ بعد موت إهود...» قضاة 1:4، «وعمل بنو إسرائيل الشرّ في عيني الربّ فدفعهم الربّ ليد مديان سبع سنين...» قضاة 1:6، «وعاد بنو إسرائيل يعملون الشرّ في عيني الربّ وعبدوا البعليم والعشتاروت وآلهة آرام وآلهة صيدون وآلهة موآب وآلهة بني عمّون وآلهة الفلسطينيين، وتركوا الربّ ولم يعبدوه...» قضاة 6:10، «ثم عاد بنو إسرائيل يعملون الشرّ في عيني الربّ، فدفعهم الرب ليد الفلسطينيين أربعين سنة» قضاة 1:13.

ماذا نفهم من كلّ هذا الكلام الذي ورد في سفر واحد عن بني إسرائيل؟ أوّلاً نفهم أنّهم قوم خطأة لم يتقيّدوا بتعاليم إلههم، علماً أنّ هذه التعاليم لا تشرّف الإنسانيّة. ثانياً العقاب الذي كان ربّهم يُنزله بهم مرّة بعد مرّة لم يكن يردعهم عن ارتكاب الخطأ ذاته. ثالثاً أنّهم كانوا يرتدّون عن عبادة إله آبائهم ويعبدون آلهة الشعوب الأخرى، التي كانوا يعيشون معها في بيئةٍ جغرافيّة واحدة. ورابعاً أنّ انتقام إلههم، معظم الأحيان، كان بتسليمهم إلى أيدي أعدائهم، أي إعطاء القوّة لأعدائهم لكي ينتصروا عليهم في الحرب. خامساً نلاحظ أنّ الشعوب القاطنة في أرض كنعان لم تُمح عن وجه البسيطة، كما ادّعى الكاتب في سفر يشوع؛ حيث كان إذا ما دخل مدينة حرّم (أيْ قتل) كلّ نفس فيها: «وصعد الشعب إلى المدينة كلّ رجل مع وجهه وأخذوا المدينة. وحرّموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحدّ السيف» يشوع 6: 20-21. وهذه المدينة هي أريحا في فلسطين، أقدم مدينة مأهولة في العالم كما مرّ معنا، حتى اليوم. وفلسطين في ذلك الوقت كانت جزءاً من أرض كنعان، وبالتالي فإنّ سكّانها كنعانيون. فكيف يناقض الكاتب نفسه فيقول، بعد صفحات متعددة، ضمّنها مغامرات يشوع الوهميّة، «فلم يطردوا الكنعانيين الساكنين في جازر. فسكن الكنعانيون في وسط أفرايم إلى هذا اليوم...» يشوع 10:16. والدليل على أنّ فلسطين كانت مأهولة بالكنعانيين قول الكاتب في سفر القضاة: «وحارب بنو يهوذا أورشليم وأخذوها وضربوها بحدّ السيف وأشعلوا المدينة بالنار. وبعد ذلك نزل بنو يهوذا لمحاربة الكنعانيين سكّان الجبل والجنوب والسهل» قضاة 8:1، «فسكن الأشيريّون (أبناء أشير أحد أبناء يعقوب) في وسط الكنعانيين سكّان الأرض، لأنّهم لم يطردوهم» قضاة 22:1. وإذا كانت أورشليم قد أُحرقت بالنار، فهذا يعني أنّها لم تعد صالحة للسكن، لسببين: أوّلاً لأنّ جميع سكانها قد قُتلوا، وثانياً لأنّ جميع منازلها قد أُحرقت، ولم يعد هناك مكان للسكن فيها، حتّى لو بقي أحد من سكانها حيّاً. فكيف يقول الكاتب في الإصحاح 19 من سفر القضاة، الذي ذكر في بدايته حرق أورشليم وقتل جميع أهلها، إنّ رجلاً من اللاويين «قام وذهب وجاء إلى مقابل يبوس، هي أورشليم، ومعه حماران مشدودان وسريّته معه. وفيما هم عند يبوس والنهار قد انحدر جداً قال الغلام

لسيّده تعال نمِل إلى مدينة اليبّوسيين هذه ونبِت فيها. فقال له سيّده تعال نمِل إلى مدينة غريبة حيث ليس أحد من بني إسرائيل هنا» قضاة 19: 10-12؟. لم يقل له سيّده إنّ المدينة محروقة وسكّانها قد قُتلوا، بل قال ليس أحد من بني إسرائيل فيها، فكيف يكون بنو إسرائيل قد دخلوها وأحرقوها بعد أن قتلوا سكّانها؟ هي معارك وهميّة، وتلفيقات لا أساس لها من الصحة. وما ورد عن بقاء الكنعانيين في الأرض يثبت نظريّة الدارسين، التي أوردناها سابقاً، والتي تقول إنّ بني إسرائيل كانوا قبائل تعيش في أرض كنعان ولم تأتِ لا من مصر ولا من سواها؛ وبالتّالي لم يدخلوا أرض كنعان بقيادة يشوع بعد موسى، ولم تجرِ معارك إبادة على أيديهم بحق سكّان مدن كنعان. قد أكون استطردت لشرح هذه النقاط المهمّة، لأقول إنّه يجب علينا أن نخرج من تأثير التفكير الدينيّ النمطيّ، لنؤكّد أنّ كلّ ما كُتب في العهد القديم وفي لفائف البحر الميت، ليس سوى نوع من الأدب الشعبيّ المستقي من تراث الشعوب القديمة. هذا التراث الذي لم تزده الكتابات التوراتيّة رقياً إنسانيّاً بل هي أسفّت به عن الأصل.

ونكمل مع محرّر اللفائف، فنقرأ كلاماً عن روح الخير، حيث يتكلّم عن العدالة الحقة، والتواضع، والرحمة، والمحبة وبساطة السلوك، ليخلص إلى القول إنّ هذه «هي نصائح الروح لأبناء الحقيقة في العالم»، ونظن للوهلة الأوّلى أنّ هذه الكلمات الواضحة إنّما هي موجّهة إلى أبناء كلّ الشعوب المتفرّقة في كلّ العالم. ولكنّنا، وكما مرّ معنا سابقاً، نجد أنّ الكاتب يعود ليذكّرنا أنّه عندما يتحدّث عن اللّه فإنّما هو يعني إله بني إسرائيل. وبالتالي نفهم أنّ أبناء الحقيقة في العالم همّ فئة قليلة من بني إسرائيل. أمّا الآخرون الذين يمضون في دروب الظلمة، فهم «يقبعون» في الألم الحزين الأعظم، والشقاء الممضّ الأكبر، في نكبات الظلام، حتّى يهلكوا من دون أن ينجو أحد منهم أو يُفلت.

هذه الأفكار تتطابق مع فكرة الثواب والعقاب التي لم يكن يؤمن بها بنو إسرائيل. وإن آمنت بها هذه الجماعة التي أنتجت المخطوطات، فهذا يدلّ على التفاعل مع تراث الشعوب الأخرى، وخاصّة التراث الهليني، الذي كان قد انتشر في بلاد الشام؛ فطوّرت هذه الجماعة بعض المفاهيم اليهوديّة. وعندما فعلت ذلك اشتدّ عليها الضغط من الجماعات الأخرى المتشدّدة، فاعتزلت عنهم إلى منطقة قمران، حيث أخذت تمارس قناعاتها الخاصّة من دون أن تتخلّى عن الأساس، أي الشريعة التي تضمّنها العهد القديم.

وعلى سبيل المثال، يلاحظ أنّ قول الكاتب:

«في يده توجد قوانين الكائنات كلّها، (أي في يد الله)

وأنّه هو الذي يسندها في كلّ حاجاتها

وأنّه هو الذي خلق الإنسان

لتكون له السيادة على الأرض».

يتلاقى مع ما جاء في التوراة عن خلق الإنسان، حيث قال اللَّه: «نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا. فيتسلّطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كلّ الأرض وعلى جميع الدبّابات التي تدبّ على الأرض» تكوين 26:1. وهناك نصوص كثيرة تتوافق مع نصوص سفر الجامعة، وأخرى مع سفر إشعيا.

وبالانتقال إلى الجزء الثاني من دستور الجماعة، أي دستور ملحق للرعيّة، نجد أنّ الجملة الأوّلى تحدّد أنّ هذا الدستور هو لكلّ رعية إسرائيل في انتهاء الأيّام. أي أوّلاً أنّ هذا الدستور التنظيميّ المرتبط بإعداد الجماعة لحياة جديدة هو محدّد لبني إسرائيل فقط. وثانياً نفهم من تعبير «انتهاء الأيّام»، أنّه لمواجهة الآخرة حيث الثواب لأبناء النور والعقاب لأبناء الظلمة. وهذه الحياة تمرّ عبر مراحل خاضعة لتقدّم المريد بالسنّ. ثم يعود ليركّز على دور اللاويين الذين أعطتهم التوراة أيضاً دوراً مهمّاً ذكرناه سابقاً. ويلفت النظر قول الكاتب إنّه «عندما يُعطي الأمر بجمع المحفل كلّه لإحقاق العدل أو من أجل اجتماع الجماعة أو من أجل التعبئة العسكريّة...»، لابُدّ أن نتساءل أوّلاً عن المغزى من التعبئة العسكريّة لجماعة تؤمن بالسلام، وثانياً نتساءل ضدّ من ستوجّه هذه التعبئة العسكريّة؟ أمّا في المقطع المعنون «حقوق التصدّر في محفل الجماعة»، فنجد أنّ أدوناي قد حلّ محل الربّ وهم ينتظرون منه خلق المسيح. فهل هذا المسيح هو يسوع كما حاول المتهوّدون زرع ذلك في أذهان المؤمنين؟ في الحاشيّة الرقم 12، يقول محقّق المخطوطات: «المسيح كما يبدو هنا هو «مسيح إسرائيل»، أي المسيح الملك، المسيح الدنيويّ»(108). ومن الخطأ أيضاً إطلاق لقب المسيح على يسوع لسببين: الأوّل هو أنّ اليهود الذين عدّوا يسوع مسيحهم المنتظر عادوا فصلبوه وتخلّصوا منه بعدما وجدوا أنّ تعاليمه تناقض شريعتهم. وثانياً كلمة المسيح تطلق، ليس على الرسول الهادي المعلّم ابن اللّه، بل على الملك الذي يمسحه بالزيت الكاهن الأعلى فور إعلانه ملكاً، واليهود كانوا ينتظرون المسيح الملك المخلّص، لكنّ يسوع قال لهم «مملكتي ليست من هذا العالم» يوحنا 26:18. أمّا إحلال أدوناي محل الرب، فعدّه البعض تحاشيّاً للفظ اسم يهوه (إله إسرائيل)، الذي لم يكن بنو إسرائيل قد عرفوه بهذا الاسم، وأنّهم احتراماً له بدأوا يلفظون اسمه أدوناي. وأعتقد أنّ هذا التفسير بعيد عن الحقيقة، لأنّ أدون هو أحد آلهة الكنعانيين، الذي أصبح عند اليونانيين أدونيس. والإتيان على ذكر أدون في

مخطوطات قمران لإحدى الملل اليهوديّة يدلّ على تأثّر هذه الملّة بآلهة الكنعانيين كما مرّ معنا وأثبتناه بجمل من العهد القديم. يقول الكاتب:

«ألا فليباركك أدوناي من سكنه القدسيّ

ألا فليرفعنّ أدوناي طلعته نحوك

ألا فليرفعنّك أدوناي حتّى الارتفاع الخالد».

ولا بدّ لي هنا، ولو وقعت بالتكرار، أن أذكّر بأنّ كلّ هذا الكلام موجّه تحديداً إلى الفئة المقبلة على الانخراط في سلك الجماعة. هذه الجماعة التي استنّت لنفسها قوانين ونُظماً عُدّت متشدّدة، وهي في الوقت نفسه مغايرة في بعضها للشريعة الموسويّة، ومستندة في بعضها الآخر إلى أسس هذه الشريعة.

ننتقل لمناقشة ما جاء في مدرج الهيكل، إذ يطالعنا الكاتب بنص مأخوذ من العهد القديم، وتحديداً من سفر الخروج. وسأثبت ما جاء في سفر الخروج ومثيله في مدرج الهيكل لنرى أنّه، على نحو عام، لا فرق بين محتوى المخطوطات والتوراة: «ها أنذا أطرد من أمامك العمّوري، والكنعانيّ، والحثّيّ والجرغاشيّ والفرزيّ والحويّ واليبوسيّ. فاحذر أن تقطع عهداً مع أهل الأرض، التي أنت داخل إليها، خشية أن يصبحوا فخاً في وسطكم. بل تدمّرون مذابحهم وتحطّمون أنصابهم... فإنّك لا تسجد لإله آخر، لأنّ يهوه اسمه الغيور، إنّه إله غيور»(109).

يقابل هذا الكلام كلام مشابه، بل يكاد يكون حرفيّاً من سفر الخروج: «ها أنا طارد من قدّامك الأمّوريّين والكنعانيّين والحثيّين والفرزيّين والحويّين واليبوسيّين (زاد عليهم في نصّ المخطوطات الجرغاشيين). احترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض، التي أنت آتٍ إليها لئلّا يصيروا فخاً في وسطك. بل تهدمون مذابحهم وتكسّرون أنصابهم وتقطعون سواريهم. فإنّك لا تسجد لإله آخر. لأنّ الربّ اسمه غيور (زاد كلمة يهوه في المخطوطات). إله غيور هو» خروج 34: 11-14.

إنّ هذين النصّين لا يحتاجان إلى مقارنة، إذ إنّهما متطابقان بنسبة كبيرة، ويُظهران أنّ إله بني إسرائيل هو ذاته إله الجماعة، وهو إله غيور!!! فكيف يمكن أن تُطلق صفة كهذه على الخالق؟ وهو أيضاً لا يُعطي درساً أخلاقيّاً إنسانيّاً لأتباعه، بل درساً بالغدر وعدم الثقة. فكيف لنا أن نصدّق أنّ الجماعة التي كتبت هذه المخطوطات هي جماعة مسالمة؟ وكيف لنا أن نصدّق ما أُشيع عن المخطوطات بأن مضمونها لا يتوافق مع مضمون العهد القديم «الأمر الذي أيقظ الشكوك بشأن وجود أمر قد يمسّ المعتقدات الرّاسخة»،

وأنّ الباحث اليغرو هو الوحيد «الذي نشر حصّته كاملة وانتقد زملاءه لتأخرّهم بالنشر، ثمّ أخذ يُلمّح شيئاً فشيئاً إلى إمكانيّة تكتمهم (السلطات الإسرائيليّة) على وثائق خطيرة تمسّ الإيمان»(110).

إنّها البروباغندا الإسرائيليّة، كما أشرت سابقاً، التي سعت من وراء التأخّر في نشر المخطوطات، إلى إحداث ضجّة حولها وإثارة فضول الباحثين والدارسين والرأي العامّ على السواء، حتّى إذا ما نُشرت تهافت الجميع إلى شراء الكتب المترجمة عن النصّ الأصليّ، كما إلى شراء جميع الكتب، وهي من يهود أو متهوّدين، الموضوعة حولها. وهذا ما حدث بالفعل، إذ لا شك في أنّ الكتب الموضوعة حول هذه المخطوطات قد تجاوزت اليوم الخمسة آلاف كتاب. ولكن ما يهمّنا ويثير انتباهنا، هو تلك الأوامر الإلهيّة التي تثبت أنّها لا يمكن أن تكون صادرة عن الخالق، إله الكون الأوحد، بل هي صادرة عن إله قبليّ، غيور، يفرض على أتباعه عدم الصدق، وعدم الوفاء، بأيّ تعهدات أو مواثيق. ولقد التزم بنو إسرائيل هذه الأوامر. وسأعطي مثالاً واحداً من العهد القديم على ذلك، ولنا في ما تفعله دولة العدو الإسرائيليّ هذه الأيام، ألف دليل على التزامهم حتّى يومنا هذا بهذه الأوامر البربريّة. فعندما اضطجع شكيم ابن حمور الحويّ مع دينة ابنة يعقوب وليئة، وعلم أهلها ثارت ثائرتهم وأرادوا الاقتصاص من شكيم، وكان هذا الأخير قد أحبّ دينة وطلب من والده أن يطلبها له من يعقوب، ففعل. فاشترط أهلها أن يختتن جميع ذكور مدينتهم «فأتى حمور وشكيم ابنه إلى باب مدينتهما وكلّما أهل مدينتهما قائلين. هؤلاء القوم مسالمون لنا. فليسكنوا في الأرض ويتّجروا فيها. وهوذا الأرض واسعة الطرفين أمامهم. نأخذ لنا بناتهم زوجات ونعطيهم بناتنا...»، «فحدث في اليوم الثالث إذ كانوا متوجّعين (سكان مدينة حمور وشكيم بعد إجراء الختان للذكور) أنّ ابنَي يعقوب شمعون ولاوي أخوي دينة أخذا كلّ واحد سيفه وأتيا على المدينة بأمن وقتلا كلّ ذكر. وقتلا حمور وشكيم ابنه بحدّ السيف... ثمّ أتى بنو يعقوب على القتلى ونهبوا المدينة... وسبَوا ونهبوا كلّ ثروتهم وكلّ أطفالهم ونسائهم وكلّ ما في البيوت. فقال يعقوب لشمعون ولاوي كدّرتماني بتكريهكما إياي عند سكّان الأرض الكنعانيين والفرزيّين وأنا نفر قليل. فيجتمعون عليّ ويضربونني فأبيد أنا وبيتي. فقالا أنظير زانية يفعل بأختنا» تكوين 34: 20-31.

وعلى هذه الواقعة لنا ملاحظات متعددة. أوّلاً نفهم، بلا شكّ، عقليّة أبناء القبائل بشأن ما يسمّى الشرف، التي لم تزل قائمة حتى أيامنا هذه. ولكن ما لا نفهمه هو أن يُقدم ولدا يعقوب على فعلتهما بعد أن تقدّم والد شكيم لطلب يدّ دينة ابنة يعقوب رسميّاً، فيكون ابنه بذلك قد أنقذ سمعة البنت. وما لا نفهمه أيضاً أن يُقدم ولدا يعقوب على قتل كلّ ذكور المدينة، وعلى سبي النساء والأطفال ونهب محتوِيّات كلّ البيوت، إذ ما ذنب الجميع في إثم ارتكبه

واحد منهم؟ ولا نفهم أيضاً هذه النفسيّة المريضة اللاأخلاقيّة مقابل نفسيّة أهل تلك المدينة، وخاصّة حمور الحوّي رئيس الأرض، الذي أقنع سكّان مدينته بأنّ يسمحوا ليعقوب وأولاده بالسكن فوق أراضيهم، وهذا دليل على كرمهم، وعلى ترحيبهم بالغريب وانفتاحهم عليه. ولا نفهم أيضاً ردّة فعل يعقوب التي لم تكن مطلقاً بمستوى الحدث، كما أنّنا لا نفهم كيف استطاع اثنان فقط قتل كلّ ذكور المدينة حتّى ولو كانوا يتوجّعون، ولا نفهم أيضاً كيف أنّ لاوي، ابن يعقوب الذي اشترك مع أخيه شمعون في تلك المجزرة، يصطفيه ربّ إسرائيل هو وذريّته ليكون خادم بيته، كما مرّ معنا. وبذلك يُعطى لاوي، القاتل الجزّار، شرف الاهتمام بكلّ الطقوس داخل خيمة الاجتماع وبعدها في الهيكل. ولا عجب في ذلك برأيّي، لأنّ هذا الإله القبليّ الذي أراده الكاتب ناصراً لبني إسرائيل على أعدائهم، كان قد اصطفى، قبل لاوي، موسى بحدّ ذاته ليعطيه لَوْحَي الشهادة ثمّ الشريعة، وهو يعلم أنّ موسى قاتل أيضاً: «وحدث في تلك الأيام لمّا كبر موسى أنّه خرج إلى إخوته لينظر في أثقالهم. فرأى رجلاً مصريّاً يضرب رجلاً عبرانيّاً من إخوته. فالتفت إلى هنا وهناك ورأى أن ليس أحد فقتل المصريّ وطمره في الرمل» خروج 2: 11-12. نفهم شيئاً واحداً أن نفسيّة هذا الشعب القائمة على الغدر وعدم احترام المواثيق كرّستها أوامر إلهه، الذي قال لموسى بعد ذلك بما يقرب من 450 سنة من حادثة ولدي يعقوب: «احترز من أن تقطع عهداً مع سكّان الأرض»(111). ونحن إن كنّا لا نعتقد بصحة هذه القصّة وتاريخها، فإنّنا ننظر إليها على أنّها تجسيد لنفسيّة هذه القبائل البربريّة، التي فرضت على إلهها، بواسطة كتبة هذه الأسفار، أن يعطيها الأوامر التي تتناسب مع هذه النفسيّة، والدليل أنّ ما قام به ولدا يعقوب كان قبل صدور أمر الإله بعدم إعطاء العهد للأغراب، وعدم التزامها إذا أُعطيت. وهذا الإله هو نفسه إله جماعة قمران، فكيف ستصدر عنه أوامر تخالف ما جاء في العهد القديم؟

وننتقل إلى عنوان جديد هو «فتح المدن» وهو مؤلّف من ثمانية أسطر فقط، سأثبتها كما جاءت في المخطوط وأقارنها بما جاء في التوراة. يقول الكاتب: «عندما تقترب من مدينة لتقاتلها، فادعُها للسلم. فإذا أجابتك: «فلنُقِم السلم» وفتحت لك أبوابها، فإنّ الشعب كلّه الذي يوجد فيها لك عليه السخرة والخدمة. وإذا لم تُقِم السلم معك، بل الحرب، فأقم الحصار عليها، وسأسلّمها ليديك، فتضرب سكّانها الذكور بحد السيف. وأمّا النساء والأطفال الصغار والبهائم وكلّ ما يكون في المدينة، فتأخذه كغنيمة، وتأكل الغنيمة المسلوبة من هؤلاء الأعداء التي سأسلّمك إياها. هكذا تصنع بالمدن البعيدة جداً عنك، التي لا تنتمي إلى تلك الشعوب. أمّا المدن التي تخصّ الشعوب، والتي أُعطيك إيّاها ميراثاً، فلا تستبقِ حيّاً فيها، أيّ كائن حيّ... والحقّ أنّه لن يفوتك أن تحرّم الحثّي والعموّري والكنعانيّ والحوّي واليبوسيّ والجرغشيّ

والفرزيّ كما أمرتك، بحيث لا يعلّمونك تقليد كل القبائح التي يصنعونها لآلهتهم»(112). يقابل هذا الكلام الوارد في مخطوطة مدرج الهيكل كلام مماثل ومطابق في سفر التثنية، حيث نقرأ: «حين تقترب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح. فإن أجابتك إليه وفتحت لك، فكلّ الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويُستعبد لك. وإن لم تسالمك، بل عملت معك حرباً فحاصرها. وإذا دفعها الربّ إلهك إلى يدك، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأمّا النساء والأطفال والبهائم وكلّ ما في المدينة، كل غنيمتها، فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الربّ إلهك. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدّاً التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا. وأمّا مدن الشعوب التي يعطيك الربّ إلهك نصيباً، فلا تستبقِ منها نسمة ما. بل تحرّمها تحريماً الحثّيين والأمّوريين والكنعانيين والفرزيين والحوّيين واليبوسيين كما أمرك الربّ إلهك لكي لا يعلّموكم أن تعملوا بحسب جميع أرجاسهم التي عملوا لآلهتهم فتخطئوا إلى الربّ إلهكم» العهد القديم، سفر التثنية 20: 10-18.

ليس أوضح من هذا الكلام الذي يؤكّد أنّ هذه الجماعة لا تختلف في أساسيّات الشريعة عن غيرها من الملل اليهوديّة. فهي لم ترتقِ مع إلهها إلى مستوى الإله الواحد الكونيّ. لذلك لا يمكن أن نأخذ كلامهم عن العدل والرحمة وما إلى ذلك من القيم والمثل الاجتماعيّة على محمل الجدّ، كما يدّعي معظم الدارسين المتهوّدين، بل لا يعدو ذلك الكلام كونه موجّهاً فقط إلى بني إسرائيل. يؤكّد ذلك ما ورد في هذا المقطع، وفي سواه أيضاً، من أنّ ما هو مطلوب فعله هو «أمر الربّ إلهك». وعندما يحدّد الكاتب ذلك، فهو يقول إنّ هذا الإله هو إله بني إسرائيل، لا إله الكون، وأوامره لا تعني سوى بني إسرائيل. وبنو إسرائيل هم، بحسب ما تروي التوراة، من اقتحم أرض كنعان التي كانت تنعم بالسلام، وهم الذين رأوا أنّ كلّ الشعوب التي عدّدها أعداء، علماً أنّ هذه الشعوب، وكما تروي التوراة أيضاً، استقبلت بني إسرائيل بالترحاب، وجاء الغدر منهم كما أمرهم إلههم أيضاً. ولا بد أن نلاحظ فرقاً واحداً بين المقطعين يكمن في تعداد الشعوب. فقد أضاف كاتب المخطوطة الجرغشيّين الذين لم يرد اسمهم في التوراة. ويلفت نظرنا أيضاً إجرام هذا الإله، الذي يطلب من «شعبه المختار» ألّا يترك حيّاً إلا ويقتله، وما ذنب هؤلاء الأحياء سوى دفاعهم عن أنفسهم، عن أرضهم وأملاكهم. وهذا ما لم يزل الإسرائيليّون يتقيّدون به حتى اليوم. فطوبى للذين استُشهدوا في الماضي السحيق، إن نحن صدّقنا هذه الروايات التي يناقض بعضها بعضاً، والذين يُستشهدون هذه الأيّام على أيدي عصابات الإله البربريّ يهوه.

وعندما نكمل قراءة نصوص «مدرج الهيكل»، نجدها تتوافق مع ما ورد في سفر الخروج، وتثنية الاشتراع وصموئيل الثاني والملوك الأوّل إلخ... التي

تتناول موضوع ملابس اللاويّين الذين سيهتمون بخدمة الربّ ويسهرون على تابوت العهد، وعلى المعادن التي يجب أن تُصنع منها المشاجب والأقداح والمشكاة والمذبح إلخ...، ثمّ قياسات الهيكل الذي سيُبنى للربّ، وتجهيز قدس الأقداس وأثاث الهيكل، كلّها تتوافق على نحو كلّي مع ما جاء في العهد القديم. هذه الأمور الماديّة التي لا علاقة لها بالإيمان، ولا بالألوهيّة أو القداسة، والتي لا يمكن للخالق أن يطلبها من المخلوق، الذي لم يطلب منه أساساً أن يعبده، فكيف ببناء مسكن له من الحجارة الكريمة والذهب والفضة. وأعطي مثالاً على ذلك من وصف ما جاء في تجهيز قدس الأقداس، وأثاث الهيكل، حيث نقرأ من المخطوطات ما يأتي: «ولتصنع مشكاة من الذهب النقي، من قطعة واحدة ستُصنع المشكاة، قاعدتها وجذعها. ولتُشكّل كؤوسها وأزرارها وأزهارها كتلة واحدة معها. ولتخرج منها ستة فروع من الجانبين، ثلاث سيقان من المشكاة من أحد الجوانب، ومن الجانب الآخر ثلاث. ثلاث كؤوس لوز على ساق، مع زر وزهرة، وثلاث كؤوس لوز على الساق الأخرى مع زر وزهرة...»(113).

ونقرأ من سفر الخروج: «وتصنع منارة (مشكاة) من ذهب نقي. عمل الخراطة تصنع المنارة قاعدتها وساقها. تكون كاساتها وعجرها وأزهارها منها. وست شعاب خارجة من جانبيها. من جانبها الواحد ثلاث شعاب منارة. ومن جانبها الثاني ثلاث شعاب منارة. في الشعبة الواحدة ثلاث كاسات لوزية بعجرة وزهر. وفي الشعبة الثانية ثلاث كاسات لوزيّة بعجرة وزهر. وهكذا إلى الشعب الستّ الخارجة من المنارة...» خروج 25: 31-33. هذا هو كلام «الربّ» إلى موسى، فما علاقة كلّ هذه التوصيفات بالتعبّد، وما حاجة اللّٰه إلى بيت، أو هيكل، أو حتى معبد مزخرف بالذهب والفضّة وكلّ هذه الآنية التي لا تقدّم ولا تؤخّر في عبادة المؤمن لخالقه، الذي لم يطلب أصلاً من مخلوقاته العاقلة (أي الإنسان) أن تعبده ولا أن تبني له المعابد والهياكل والكنائس والمساجد. هو الإنسان من اخترع هذه الطقوس وكلّف الكهنة السهر على تنفيذها، فاستغلّوها لكي يتحكّموا برقاب النّاس، وذلك ليس من العبادة في شيء. وهذا يدلّ على أنّ المؤمن البسيط العادي لم يستطع التسامي بعبادته لكي يتّحد مع الله، فظلّ إيمانه شكليّاً ملتصقاً بالقشور، من هنا نفهم قول الصوفي بايزيد البسطامي: «دخل اللّٰه عقول خلقه فوجدها عاجزة عن إدراكه فصرفها لعبادته».

وإذا استعرضنا ما تبقّى من عناوين المدرج فسنجدها كلّها تدور حول المظاهر الماديّة. فمن قياسات المذبح وما يجب أن يقدَّم عليه من قرابين، إلى مبنى الخزّان، إلى مستودع الآنية، إلى المسلخ، إلى الرواق الغربي، إلى الفناء الداخلي، إلى الفناء الانتقالي فالفناء الخارجي، كلّها نجد ما يتوافق معها في أسفار التوراة من الأخبار الأوّل والثاني، إلى نحميا والملوك الأوّل، ومن

حزقيال إلى المكابيين. كما يتطرّق مدرج الهيكل إلى الفصح وعيد الأسابيع، وعيد الخمرة الجديدة، وعيد الزيت الجديد، وعيد تقدمة الخشب ويوم التكفير وعيد الأكواخ، فمعظم ما كُتب حولها يمكن أن يتماهى مع ما ورد في سفر أو أكثر من أسفار التوراة، وهي برأيي لا تستأهل أن يناقشها الباحث لخلوّها من أيّ فكرة فلسفيّة، أو نفحة ألوهيّة حقيقيّة.

أمّا ما ورد تحت عنوان «لمس الميت» لجهة النجاسة التي تلحق بالإسرائيليّ الذي يلمس ميتاً، ففيه ما يكفي من التحجّر، وهو أيضاً مستند إلى ما ورد في العهد القديم بهذا الشأن في سفر العدد، حيث نقرأ: «هذه هي الشريعة. إذا مات إنسان في خيمة (لم يكن لديهم بيوت) فكلّ من دخل الخيمة، وكلّ من كان في الخيمة يكون نجساً سبعة أيّام... أمّا الإنسان الذي يتنجّس ولا يتطهّر، فتُباد تلك النفس من بين الجماعة، لأنّه نجّس مَقدِس الربّ». لا يمكن لعقل أن يستوعب هذا الكلام. إذ كيف يمكن أن يُترك من دون أن يقترب منه أحد لتجهيز الجسد الذي فارقته الروح، وبالتالي لم يعد يساوي شيئاً؟ ولماذا سيبقى الإنسان الذي شاهد الميت في الخيمة منجّساً لسبعة أيّام؟ إنّ كلّ الطقوس المتّبعة في مثل هذه الحالة تدلّ على أنّ قبائل العبرانيين لم تكن على شيء من الحضارة، التي كان عليها الكنعانيون الذين كانوا يدفنون موتاهم في أماكن مخصّصة للقبور، مع ما يستدعيه ذلك من مراسم اجتماعيّة واحترام للميت، من دون أن تساور أحداً من الأقرباء شكوك في أنّ من يكون مع الميت سيتنجّس ويتنجّس أيضاً كلّ من يكون على اتصال به. وهذا يذكّرنا بما قاله يسوع عن النجاسة، مخالفاً بذلك الشريعة الموسويّة لجهة بعض المأكولات التي كان اليهود يعدّونها نجسة، فدعا «الجمع وقال لهم اسمعوا وافهموا، ليس ما يدخل الفم يُنجّس الإنسان، بل ما يخرج من الفم هذا يُنجّسه. ألا تفهمون بعدُ أنّ كلّ ما يدخل الفم يمضي إلى الجوف ويندفع إلى المخرج. وأمّا ما يخرج من الفم، فمن القلب يصدر. وذاك ينجّس الإنسان...» متى 10:15 و17.

نفهم من كلام يسوع أنّه كان ضدّ المظاهر والطقوس المتحجّرة، وكان مع الإيمان الصادق النابع من القلب النقي، وشتّان ما بين شريعة اليهود وتعاليم يسوع. وأتعجّب من خضوع الكنيسة لضغوط اليهود، وجعلها تضم العهد القديم إلى الأناجيل، لتمثّل جميعها ما يُعرف بالكتاب المقدّس، في الوقت الذي لا يحتوي فيه العهد القديم إلّا النجاسة بدل القداسة، والحقد بدل المحبة، والإرهاب بدل السلام، والظلم بدل العدل. فكيف للكنيسة أن تسكت، بفعل الضغوط اليهوديّة، عمّا يفعله اليهود في فلسطين من إرهاب وظلم وقتل ونهب، في الوقت الذي تتعالى فيه، ومن فلسطين، أصوات الكثير من الكهنة، وبينهم مطارنة، للتنديد بما تفعله دولة الاحتلال، وفضح المؤامرة التي تستهدف السيطرة على ما تبقى من الأرض الفلسطينيّة بعد تهجير من بقي

من أهلها، وقاوم واستُشهد من أجل بقائه في أرضه ومواجهة البربريّة اليهوديّة تحت أنظار العالم المتهوّر بأسره؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الباب الثّالث
كتاب دمشق

يقول محمود العابدي إنّ العلّامة شختر، وبعد دراسته مخطوطين عُثر عليهما في مخزن كنيس إسرائيليّ في الجيزة قرب القاهرة، خرج «بنتيجة أنّهما لجماعة من اليهود أطلقوا على أنفسهم اسم أبناء صادوق، وهو الكاهن صاحب الاعتبار الرفيع أيام الملك داود، وقد اعتقدوا أنّ اللّه أرسل إليهم النجم الذي سمّوه معلّم الحق ليخلّصهم من ذنوبهم، واتفقوا على أن يبتعدوا عمّا سمّوه إلحاداً وزندقة بين رجال الكهنة في هيكل بيت المقدس، فخرجوا مهاجرين إلى دمشق. ولذلك أُطلق على هذه المخطوطة اسم علميّ هو «الوثيقة الدمشقيّة»، بينما يسميها البعض مخطوطة القاهرة أو المخطوطة الصدّوقية. وسمّوا أنفسهم أبناء العهد الجديد في أرض دمشق. وليس لدينا أيّ دليل على أنّهم وصلوا إلى دمشق»(114).

هاتان المخطوطتان عُثر عليهما عام 1896. «ونشر العلّامة شختر الأجزاء العبريّة لهذه الوثيقة عام 1915»(115). ومهما أطلقنا من تسميات على هذه اللقية، مخطوطة أو وثيقة لا فرق، فالمهم أنّ الدارسين ربطوا مضمون هاتين المخطوطتين بمضمون مخطوطات البحر الميت، علماً أنّ مخطوطتي الجيزة كُتبتا ما بين القرنين العاشر والثاني عشر الميلاديين، أمّا مخطوطات البحر الميت، فكُتبت ما بين القرن الثاني قبل الميلاد والثاني بعده، كما مرّ معنا.

من هنا نستطيع الاستنتاج أنّ كتبة مخطوطتي الجيزة أخذوا عن مخطوطات البحر الميت لأنّها الأقدم. لكنّ الاختلاف يقع بين الدارسين لجهة نسبة هذه المخطوطات، التي ردّها معظمهم إلى الأسّينيين، بينما رأى شختر أنّ مخطوطتي الجيزة تعودان إلى أبناء صادوق. وهذا الاختلاف، كما أشرت سابقاً، قد لحق، ليس فقط بالمخطوطات، بل أيضاً بأسفار العهد القديم، ولم يُعثر على أيّ وثيقة تاريخيّة حقيقيّة، غير التوراة والمخطوطات، تشير إلى أسماء الكتبة الحقيقيّين، أو إلى زمن الكتابة، لافتقاد هذين الأثرين إلى أيّ تاريخ مكتوب.

ولفت نظري ما كتبه محمود العابدي عن أنّه لا دليل على أنّ هذه الجماعة قد وصلت إلى دمشق، سواء أكانت جماعة من الأسّينيين أم من الصدّوقيين. ولا يعدو كون الأمر سوى تخمين حتى تُكتشف وثائق تؤكّده أو تنقضه. ولنا أمثلة أخرى تدلّ على عدم الصدقيّة التاريخيّة لما هو وارد في التوراة. وسأعطي على ذلك مثالين، الأوّل هو ما ورد في العهد القديم من قول الكاتب عن أنّ

الملك داود ضرب «هددعزر ملك صوبة في حماه حين ذهب ليقيم سلطته عند نهر الفرات... فجاء أرام دمشق لنجدة هددعزر ملك صوبة فضرب داود من آرام اثنين وعشرين ألف رجل. وجعل داود محافظين في آرام دمشق، وصار الآراميون لداود عبيداً يقدّمون هدايا...» العهد القديم، سفر أخبار الأيام الأوّل 18: 2-6.

لقد عدنا إلى الكثير من المراجع التاريخيّة ولم نجد أيّ تأييد لمزاعم كاتب، أو كتبة، العهد القديم. وفي دراسة له عن تاريخ آرام ودمشق وإسرائيل، يقول المؤرّخ والباحث فراس السّواح تعليقاً على حرب داود على صوبة ودمشق ما يأتي: «لقد سكب المؤرّخون أطناناً من الحبر حتى الآن لإعادة ترتيب هذه الأخبار المختصرة الغامضة ووضعها في إطار تاريخ مقبول، فأخرجوا ممالك من العدم، وأسبغوا عليها الطابع التاريخيّ، ورسموا حدودها ووصفوا علاقاتها مع الممالك الوهمية الأخرى، استناداً إلى الرواية التوراتيّة وحدها. في ما يتعلّق بمملكة صوبة احتار الباحثون بشأن موقعها وحدودها، وخرجوا باستنتاجات واهية من شأنها خلق صورة مضخّمة عن هذه المملكة... أمّا المصادر الخارجيّة، فصامتة تماماً عن ذكر هذه المملكة وعن ذكر ملكها هددعزر، الذي لم يرِد له ذكر خارج النصّ التوراتي.

ونحن نعجب كيف تكون مملكة صوبة في القرن العاشر قبل الميلاد «أقوى وأهم دولة في وسط سوريا وجنوبها (كما يقول وين ت. بيتارد في كتابه دمشق القديمة) ثم لا تحفل النصوص الأشوريّة والنصوص الآراميّة بذكرها». ويتابع السوّاح قائلاً: «أما عن تبعيّة دمشق لداود وعن أولئك المحافظين الذين عيّنهم لإدارتها، فإنّ نص سفر الملوك الأوّل، الذي يرصد أخبار الملك سليمان يُخبرنا في ما بعد، أنّ أحد رجالات هددعزر المدعو روزن بن أليداع قد استقل عن سيّده وجاء إلى دمشق فملك فيها... وأغلب الظن أنّ هذه الحروب المفترضة بين داود ودمشق انعكاس للأخبار المتأخّرة عن حروب ملوك دمشق وملوك السامرة ويهوذا، بعد ذلك بأكثر من قرنين من الزمان»(116).

والمثال الثاني أسوقه من سفر أخبار الأيّام الثاني، الذي جاء فيه: «بنى سليمان المدن التي أعطاها حورام لسليمان وأسكن فيها بني إسرائيل. وبنى تدمر في البريّة وجميع مدن المخازن التي بناها في حماه» أخبار أيام ثانٍ، 8: 2-4.

على المثال الذي سقته عن حروب داود الوهميّة، استعنت بما كتبه المؤرّخ فراس السوّاح، الذي أثبت وسفّه كلّ ما هو وارد في العهد القديم، وأكّد عدم صدقيّته التاريخيّة. أمّا في ما خصّ المثال الثاني عن سليمان، فأستشهد بدايةً بما جاء في العهد القديم نفسه، الذي يتناقض مع الفقرة التي أثبتناها وهي من سفر أخبار الأيام الثاني.

فلقد جاء في سفر الملوك الأوّل، الذي يسبق سفر أخبار الأيام الثاني ما يأتي: «وكان حيرام ملك صور قد ساعف سليمان بخشب أرزٍ وخشب سروٍ وذهب بحسب كلّ مسرّته. أعطى حينئذٍ سليمان حيرام عشرين مدينة في أرض الجليل. فخرج حيرام من صور ليرى المدن التي أعطاه إيّاها سليمان فلم تحسن في عينيه...» ملوك أوّل 9: 11-12.

ففي هذا المقطع، نجد أنّ سليمان هو من أعطى حيرام عشرين مدينة، فكيف انقلب الوضع في سفر أخبار الأيّام الثاني فأصبح حيرام هو الذي أعطى سليمان المدن؟ في سفر الملوك الأول ورد الاسم «حيرام». أمّا في سفر أخبار الأيّام الثاني، فقد ورد حورام، ويبدو أنّ من كَتب الأوّل هو غير من كتب الثاني، ولم يكلّف الكاتب الثاني نفسه التأكّد ممّا كتبه الأوّل، فعكس الخبر ليثبّت مسألة التناقض الدائم في مرويّات العهد القديم.

أمّا إذا انتقلنا إلى ما ذكره الكاتب في سفر الملوك الأوّل عن أنّ سليمان بنى مدينة تدمر، فنجد أنّ المرويّات التاريخيّة تدحض هذا الادعاء.

ففي دراسة معنونة: من بنى مدينة تدمر، منشورة على موقع غوغل في 27 كانون الأوّل 2018، تقول الكاتبة غادة الحلايقة، ما يأتي: «نزل الإنسان القديم محيط مدينة تدمر، حيث تعود أقدم آثار لقاطني تدمر إلى العصر الحجريّ القديم، أي بُنيت تدمر كمستوطنة بالقرب من واحة في وسط الصحراء في العصر الحجريّ. وبعد ذلك، أصبحت مستعمرة لبلاد ما بين النهرين تحت الحكم الآراميّ. نزل العرب مدينة تدمر في الألفيّة الأوّلى قبل الميلاد... وقد استخدم العرب اللغة الآراميّة كالنبطيين»، وبدأت مدينة تدمر تتّخذ أهميّة كبيرة «في عهد الدولة السلوقيّة (312 - 64 ق. م). وجاء في قاموس المنجد: «استولى عليها الإمبراطور أورليان عام 272 م. وأسر ملكتها زنوبيا (باللغة الآراميّة السائدة في ذلك الوقت (باث زبّاي)».

ويذكر أسد الأشقر في كتابه تاريخ سوريا أنّ «أوّل ذكر لتدمر في المدوّنات الأثريّة يأتي في رقيم وُجد في كبادوكيا في الأناضول. فقد ذكر اسم بولزور - إيشتار التدمري... وفي عهد حمورابي (1728-1685 ق.م) ثبت «وجود تدمر في رسالتين كُتبتا بالأحرف المسماريّة، ووُجدتا في مخطوطات ماري»(117).

أمّا في معجم البلدان لياقوت الحموي، فإنّنا نقرأ تحت عنوان باب تدمر: «وأهل تدمر يزعمون أنّ ذلك البناء قبل سليمان بن داود بأكثر ممّا بيننا وبين سليمان، ولكنّ الناس إذا رأوا بناءً عجيباً جهلوا بانيه، أضافوه إلى سليمان وإلى الجن»(118).

وفي بحث آخر على موقع غوغل، يعيد سكن الإنسان القديم في تدمر إلى 75000 سنة. ويشير إلى أنّه إضافةً إلى ورود اسمها في رقيم كبادوكيا من

القرن التاسع عشر قبل الميلاد، فقد ورد أيضاً في نصوص مدينة ماري العائدة إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد. ونصوص إيمار في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، كما ذُكرت في حوليات الملك الأشوري تفلات بلاصر العائدة إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

فكلّ هذه الوثائق عن تدمر تدحض ما ورد في العهد القديم عن بناء سليمان بن داود (970 - 931 ق. م) هذه المدينة. وأنا أميل إلى ما قاله ياقوت الحموي بشأن تفكير الناس البسطاء، الذين هم حتى اليوم، يعتقدون بالخوارق التي أتى بها سليمان، فيسندون إليه إنجاز كلّ ما يجهلون، أو إلى الجن. وكان لا بدّ من هذه المقدّمة قبل الدخول إلى نصوص سفر دمشق، أو وثيقة دمشق، فقد وجدتُ اختلافاً في الترجمة ما بين محمود العابدي في كتابه مخطوطات البحر الميت، وكتاب التوراة: كتابات ما بين العهدين، تحقيق وإشراف أندريه دوبون - سومر ومارك فيلوننكو. لكنّ هذا الاختلاف لا يؤثّر في المضمون العامّ. وبرأيي فإنّ هذه المخطوطات لا علاقة لها بدمشق لا من قريب ولا من بعيد، إلّا إذا كانت الجماعة التي كتبتها قد هاجرت بالفعل إلى دمشق، وهذا مستبعد كما مرّ معنا. وإذا كان كتبة هذه المخطوطة من المتشدّدين، فهذا يعني أنّه لا يُعقل أن يكونوا قد انتقلوا للسكن في دمشق، حيث لا نفوذ ولا حضور لليهود بكثافة، يضمن لهم الإقامة بسلام، إلّا في حالة واحدة لم تُشر إليها هذه المخطوطة، وهي أن تكون دمشق في ذلك الوقت واحة للحريّة والسلام، يلجأ إليها كلّ من يشعر بثقل الظلم الناتج عن عدم تقبّل الآخر.

ويبقى أن نشير، قبل البدء بمناقشة مضمون هذه المخطوطة، إلى أنّ ما وصل إلينا من وثائق دمشق التاريخيّة الثابتة لا يتضمّن أيّ إشارة إلى مثل هذه المجموعة ونشاطها الدينيّ والثقافيّ، ما يؤكّد الشكوك في صدقيّتها.

تنقسم هذه المخطوطة إلى قسمين: العظة والتعاليم.

تبدأ العظة بكلام موجّه إلى الذين يعرفون العدل، ثم ينتقل الكاتب إلى الحديث عن الخونة، أي الذين هجروا اللّه. ولا يطول بنا الوقت كالعادة، حتّى نكتشف أنّ اللّه الذي يتحدّث عنه الكاتب، أيضاً كالعادة، هو إله بني إسرائيل، الذي غضب على الخونة، الذين ابتعدوا عنه، من بني إسرائيل «فأخفى وجهه عن إسرائيل ومعبده، وأسلمهم للسيف، لكنّه إذ تذكّر ميثاق الآباء، ترك بقيّة إسرائيل، ولم يدعهم للهلاك»(119).

يؤكّد هذا المقطع صفتين ثابتتين لهذا الإله القبلي: الأولى محبته لسفك الدم، حتى لو كان المسفوك دمه جزءاً من شعبه، والثانية ندمه بعد أن تعود إليه الذاكرة التي تجعله يصبّ غضبه على فئة معيّنة من شعبه، فيُنقذ الفئة الأخرى انطلاقاً من تمسُّكه بالميثاق الذي أخذه على نفسه، والذي يقضي بمساندة

شعبه الخاصّ، ذريّة إبراهيم، فقد كان قد أبرم الميثاق معه ومع إسحق ويعقوب وصولاً إلى موسى ويشوع ومئات الآلاف من بني إسرائيل، الذين تكاثروا من 70 نفراً فقط وخلال أربعمئة وثلاثين سنة من إقامتهم في مصر (من يوسف إلى موسى) إلى ما يزيد على المليون.

ثم يشير الكاتب إلى هزيمة اليهود على يد نبوخذ نصّر، ملك بابل، التي يعدّها، كما عدّها كاتب العهد القديم، انتقاماً من إلههم منهم لأنّهم لم يلتزموا الشريعة.

وهكذا رأى الكتبة أن جميع هزائم اليهود انتقام إلهيّ، فهل هذا يعني أنّ اللَّه كان راضياً عن الشعوب التي هزمتهم؟ بالطبع لا، لأنّ الإله الذي أنزل بهم الهزيمة هو إلههم وحدهم، لا الإله الكونيّ المسؤول عن خلق البشر أجمعين، هذا الإله الذي التزم وعده لإبراهيم والقاضي بأن ينصره على كلّ الشعوب التي تقطن أرض كنعان، والذي، وبكلّ بساطة، سمح لنفسه بمساعدة شعبه الخاص للقضاء على هذه الشعوب، وتسليم أرضهم لشعبه المختار، غير آبه للظلم الذي يُلحقه بهذه الشعوب الحضاريّة الآمنة.

هي أسطورة التفوّق، المدعوم من الإله، المعروفة لدى كلّ الشعوب القديمة، التي كانت تقدّم القرابين إلى آلهتها لاسترضائها والحصول على دعمها. وبهذا لا يكون كاتب التوراة، ولا كاتب المخطوطات، قد أبدع شيئاً جديداً لم تعرفه الحضارات القديمة، بل هو استنتسخ على نحو مشوّه الإنتاج الإنسانيّ الراقي لهذه الحضارات.

إشارة أخرى إلى أنّ هذا الكاتب، كما أنبياء العهد القديم، كان يتكلّم عن أحداث جرت قبل قرون. فانتصار نبوخذ نصّر على أورشليم حدث عام 587 ق. م، وقد رأينا أنّ الدارسين حدّدوا تقريباً عمر الوثائق ما بين القرنين الأوّل والثاني قبل الميلاد والأوّل والثاني بعده.

ثمّ يعود إلى جماعة الخونة فيحدّدهم بأنّهم:

«أولئك الذين انحرفوا عن الدرب،

وذاك هو الزمان الذي كتب عنه:

(مثل عجلة جموح هكذا تمرّد إسرائيل)

عندما ظهر رجل الهزء

الذي أغرق إسرائيل بتنبؤاته بالكذب

وأضلّهم في صحراء تيماء

وحطّ من سموّهم الرفيع

مُقصياً إيّاهم عن دروب العدل...»(120).

كلام غامض!! إذ من يكون رجل الهزء هذا؟ وكيف نوافق على استنتاج مدقّق ترجمة هذه المخطوطات الذي يرى أنّ رجل الهزء هذا هو الكاهن الأكبر في أورشليم، ويشير إلى أنّ هذا الكاهن هو هيركانوس الثاني. كيف توصّل إلى هذا الاستنتاج من دون أن تحمل المخطوطة أيّ تاريخ يشير إلى زمن هيركانوس، علماً أنّنا قد أشرنا إلى أنّ الدارسين لم يستطيعوا، بعد إخضاعهم هذه المخطوطات لكلّ الأساليب العلميّة لتحديد تاريخها، أنّ يحدّدوا سنة كتابتها، بل قالوا بين سنة كذا وسنة كذا، والفارق كان أحياناً عشرات السنين، ما يعني أنّ تحديد الشخص المقصود مجرّد تخمين ليس أكثر.

وعندما ينسب إلى رجل الهزء إغراق إسرائيل بتنبؤاته الكاذبة، فهو إنّما يشير إلى ما ورد في التوراة عن الأنبياء المزوّرين، الذين لا يمكن الركون إلى كلامهم، وما أكثرهم.

ولقد نبّه كاتب العهد القديم غير مرّة من الأنبياء الكذبة. فنقرأ من سفر التثنية ما يأتي: «إذ قام في وسطِكَ (أي إسرائيل) نبيّ أو حالم حلماً وأعطاك آية أو أعجوبة ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التي كلّمك عنها قائلاً لنذهب وراء آلهة أخرى لم تعرفها وتعبدها فلا تسمع لكلام ذلك النبيّ أو الحالم ذلك الحلم، لأنّ الربّ إلهكم يمتحنكم لكي يعلم هل تحبون الربّ إلهكم من كلّ قلوبكم ومن كلّ أنفسكم... وذلك النبيّ أو الحالم ذلك الحلم يُقتل، لأنّه تكلّم بالزيغ من وراء الربّ إلهكم...» تثنية 13: 1-5.

ثمّ يقول في سفر التثنية أيضاً: «وأمّا النبيّ الذي يُطغي، فيتكلّم باسمي كلاماً لم أوصه بأن يتكلّم به، أو الذي يتكلّم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبيّ» تثنية 18: 20. نستنتج من كلام يهوه عن الأنبياء ما يأتي: أوّلاً هو يعني أنبياء الشعوب الأخرى، وبالتالي فإنّ هذه الشعوب عرفت الأنبياء قبل بني إسرائيل، والنبوّة لم تكن وقفاً عليهم. وغضب يهوه على هؤلاء الأنبياء ليس لأنّ تنبؤهم لم يصحّ، بدليل قوله «ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التي كلّمك عنها»، فهو غير مستعد للاعتراف بأيّ نبوءة خارج بني إسرائيل، وذلك نتيجة خوفه من أن ينفضّوا عنه، ويتّبعوا آلهة الشعوب الأخرى، وهم قد فعلوا ذلك بالفعل. ثانياً: عندما يقول: «ذلك النبيّ أو الحالم، فهو يجعل النبيّ بمستوى الحالم، أي الذي يرى أحلاماً، وكثر هم أنبياء العهد القديم الذين لم تكن تنبؤاتهم غير أحلام، ولنا في كلام حزقيال وما تنبّأه عن أدوم وصور (لا تُبنين بعدُ لأنّي أنا الربّ تكلّمت، يقول السيّد الربّ)، وصيدون ومصر (وتكون أرض مصر مقفرة وخربة فيعلمون أنّي أنا الربّ). فكلّ كلام حزقيال هذا لم يتحقّق،

فلماذا لم ينتقم هذا الربّ من حزقيال فيُميته كما وعد. وأمثلة أخرى من عاموس تفيدنا بأن لا شيء من أقوال عاموس قد تحقّق، إلّا إذا استعملنا التأويل كما فعل بعض الرسل، الذين كتبوا الأناجيل، فقد أخذوا بعض ما جاء من أقوال أنبياء العهد القديم وأسقطوها على بعض الأحداث أيام يسوع، فصدّقها المؤمنون. فها هو عاموس ومن شدّة حقده على دمشق التي واجهت وانتصرت على جلعاد، يُقوّل ربّه ما تمنّاه من إرسال النار «على بيت حزّائيل فتأكل قصور بنهدد (في دمشق) وأكسّر مغلاق دمشق وأقطع الساكن من بقعة آون وماسك القضيب من بيت عدْنٍ ويُسبى شعب آرام إلى قير قال الربّ» العهد القديم، سفر عاموس 1: 4-5.

وكذلك هذه التنبؤات، والأصح كما قال يهوه الأحلام لم تتحقّق وإذا بها أضغاث أحلام ليس إلّا، ولم يتخذ يهوه أيّ إجراء بحق هذين الحالمين. أمّا ما قاله إيليّا وما فعله بأنبياء البعل، برغم عدم تصديقنا لهذا الخبر، فهو لا يصحّ أن يُنسب إلى نبيّ حتّى ولو كان نبيّ شعب آخر، لأنّ صفات الأنبياء يجب أن تسمو عن صفات البشر العاديين، ويجب أن تتميّز بالعدل، والمحبّة، والرحمة والغفران.

يقول كاتب العهد القديم ما يأتي: «ثمّ قال إيليّا للشعب أنا بقيت نبيّاً للربّ (طبعاً ربّ بني إسرائيل فقط) وحدي وأنبياء البعل أربع مئة وخمسون رجلاً... فقال لهم إيليّا أمسكوا أنبياء البعل ولا يُفلت منهم رجل. فأمسكوهم فنزل بهم إيليّا إلى نهر قيشون وذبحهم هناك» ملوك أوّل 18: 22، 40.

فإيليّا هذا هو نبيّ داعشي يُنفّذ بدقّة تعاليم إلهه، ربّ الجنود، الإله الغيور الذي لا يتقبّل وجود غيره إلهاً، ولا وجود لأنبياء إلّا لأنبيائه المزعومين. ولو كان النبيّ إيليّا قد اكتفى بذبح أنبياء البعل لأنّهم برأيه يعبدون إلهاً أو آلهة آخرين لقلنا إنّها مسألة فيها نظر، لأنّه يريد التخلّص من أنبياء الوثنيّين لمصلحة إلهه التفريدي. ولكن ماذا يمكننا أن نقول عن هذا النبيّ، الذي أغضبه صبيان قرية نادوه بالأقرع، «فالتفت إلى ورائه ونظر إليهم ولعنهم باسم الربّ، فخرجت دبّتان من الوعر وافترستا اثنين وأربعين ولداً» ملوك ثانٍ، 2: 24.

فهنيئاً لهذا الشعب بهذا الإله وبهؤلاء الأنبياء الذين لا يعرفون سوى إطلاق الدعوات على المدن العامرة والحضاريّة بالخراب، وعلى الناس بالموت ذبحاً أو ابتلاعاً من قبل الدببة، أليست هذه طريقة جديدة ومثيرة للانتقام؟؟؟!!!

ويبدو أنّ الأنبياء الكذبة كانوا برأي إله بني إسرائيل من الأمم الأخرى، بدليل قول كاتب العهد القديم في سفر زكريا إنّ ربّ الجنود (أي إله بني إسرائيل يهوه) يقول: «إنّي أقطع أسماء الأصنام من الأرض. فلا تُذكر بعد، وأزيل الأنبياء أيضاً والروح النجس من الأرض. ويكون إذا تنبّأ أحد بعدُ أنّ أباه وأمّه والديه يقولان له لا تعيش لأنّك تكلّمت بالكذب باسم الربّ. فيطعنه أبوه وأمّه

والداه عندما يتنبّأ. ويكون في ذلك اليوم أنّ الأنبياء يخزون كلّ واحد من رؤياه إذا تنبّأ، ولا يلبسون ثوب شعر لأجل الغشّ. بل يقول لست أنانيّاً» زكريا، 13: 3-5.

وقول ربّ الجنود هذا لم يتحقّق منه شيء، إذ لا كاتب التوراة، ولا كتبة المخطوطات، ولا مؤرخّو تلك الأزمنة، قد أوردوا حادثة تشير إلى تحقّق هذا الكلام. إنّه مجرّد ثرثرة لا تفيض منها رائحة القداسة والألوهيّة، بل نشتمّ منها حقداً لا يوصف على أنبياء الشعوب الأخرى.

وبالعودة إلى وثيقة دمشق، نقرأ تحت عنوان: معاملة اللَّه للمختارين والكافرين ما يأتي:

«الله يحبّ المعرفة،

فالحكمة والمشورة جعلهما ماثلتين أمامه،

والحصانة والمعرفة هما وزيراه،

والحلم قائم بين يديه،

كما وفيض من التسامح،

لكي يغفر للذين اقترفوا الخطيئة، لكنّه يصبّ قوّته وقدرته وجلّ غضبه،

في ألسنة النار، عبر وساطة جميع ملائكة الدمار،

على الذين حادوا عن الدرب

وازدروا الشريعة،

حتّى لا يبقى منهم باقٍ ولا ينجو أحد»(121).

وعلى هذا الكلام أيضاً لنا ملاحظتان. الأوّلى: من هو الذي يحدّد المختارين المرضيّ عنهم والكافرين المغضوب عليهم؟ إنّه طبعاً الخالق الذي لا يحتاج إلى من يرشده إلى كلا الفريقين. والثانية: نرى أنّ الكاتب يحدّد بعض صفات الله، وصفاته فوق الإدراك، فيجعله يحب المعرفة، وهو كلّي المعرفة، ويجعله يحب المشورة، فمع من يا تُرى يتشاور، كما يجعل التسامح يفيض منه لكي يستطيع ممارسة المغفرة مع الذين اقترفوا الخطيئة. وللوهلة الأوّلى يستشفّ القارئ أنّ هذه الأوصاف تتوافق مع الأوصاف التي أطلقتها الديانات الأخرى على الخالق، لكنّه سرعان ما يُصدم إذا ما أكمل القراءة، إذ يجد أنّ هذا الإله لا يمكن أن يرحم الأمم الأخرى، الذين حادوا عن الدرب وازدروا الشريعة، وبالتالي يحكم عليهم بالموت.

وحدهم بنو إسرائيل، وبالرغم من كلّ الشرور التي ارتكبوها على مختلف أجيالهم، والتي وثّقها كاتب التوراة، يحصلون على معاملة مميّزة من هذا الإله لأنّهم المختارون، وهو «راعي إسرائيل» العهد القديم، سفر المزامير 80: 1، ولأنّ «الربّ إله عظيم ملك كبير على كلّ الآلهة» مزامير 95: 2، ولأنّه «مبارك الربّ إله إسرائيل من الأوّل وإلى الأبد» مزامير 106: 48.

وها هو هذا الإله يؤكّد أنّ شعبه (أي بني إسرائيل) كانوا «لعنة بين الأمم» وبالرغم من ذلك «أخلّصكم فتكونون بركة فلا تخافوا... هكذا عدت وفكّرت في هذه الأيام في أن أحسن إلى أورشليم وبيت يهوذا. لا تخافوا».

هذا الإله إذن يفكّر ويغيّر رأيه ويتراجع دائماً عن قراراته بمعاقبة القوم الذين اختارهم ليكونوا شعبه، فلم يتقيّدوا بوصاياه وشريعته، لكنّه وفيّ للوعود التي أخذها على نفسه مع الآباء الأوائل، لذلك لا بأس إن هو غضب فقرّر ثم ندم فتراجع.

وكنا قد قرأنا في سفر التثنية كلاماً واضحاً جداً من هذا الإله بحق الشعب الذي اختاره، لكنّه أعطى سببين لتبرير دعمه الدائم لشعبه، أي بني إسرائيل. يخاطبهم قائلاً: «اسمع يا إسرائيل... ليس لأجل برّك وعدالة قلبك تدخل لتملك أرضهم، بل لأجل إثم أولئك الشعوب يطردهم الربّ إلهك من أمامك، ولكي يفي بالكلام الذي أقسم الربّ عليه لآبائك إبراهيم وإسحق ويعقوب... لأنّك شعب صُلب الرقبة. اذكر ولا تنسَ كيف أسخطت الربّ إلهك في البريّة. من اليوم الذي خرجت فيه من أرض مصر حتّى أتيتم إلى هذا المكان كنتم تقاومون الربّ» تثنية 9: 1، 5-7.

فماذا نفهم من هذا الكلام غير ساديّة هذا الإله؟ هو يطرد شعوباً من أرضها لأجل الإثم الذي اقترفته، أمّا ما هو هذا الإثم؟ فليس على الكاتب، ولا على هذا الإله أن يذكره لنا، يكفي أنّه قرّر ذلك.

وبالرغم من إقراره بأنّ شعبه «صُلب الرقبة»، أيّ إنّه شعب عنيد لا ينفّذ أوامر إلهه القبليّ على الرغم من تكرار الطلب عشرات بل مئات المرّات، يستمرّ في مخالفة الوصايا والشريعة وعلى مدى سنوات طوال، منذ الخروج من مصر، والتيه لأربعين سنة، والوصول إلى كنعان، وهذا الشعب يُسخط إلهه، هذا الإله الذي حاول جاهداً إخافة شعبه، «قال لي الربّ (أي لموسى) اجمع الشعب لي فأسمعهم كلامي لكيّ يتعلّموا أن يخافوني» تثنية 4: 10، لم ينجح في تحقيق مبتغاه، فكان يبرّر استمرار دعمه لهذا الشعب بأنّه ملتزم الوعود التي قطعها لآبائه إبراهيم ويعقوب وإسحق، هذا الإله الذي يقول «فأسمعهم كلامي» يعني أنّه مجرّد شيخ قبيلة يجمع أبناءها ويؤنّبهم على أفعالهم الخاطئة. وهذا ما أكّدته المخطوطات، حيث نقرأ: «وتذكّر اللّه ميثاق

الآباء» فهل اللّه ينسى لكي يتذكّر؟ أم هو الكاتب قوّل اللّه ما تشتهيه نفسه، وما جاء به خياله؟

فكلّ ما يدور في العهد القديم وفي هذه المخطوطات إنّما يدور حول فرضيتين: الأولى وجود هذا الإله القبلي الخاص ببني إسرائيل، واختياره بالفعل إيّاهم ليكونوا شعبه المختار. وهاتان الفرضيّتان هما اللّتان استغلّتهما الصهيونيّة الحديثة لإقناع العالم بأنّ هذا الإله القبليّ هو اللَّه الخالق للكون وللبشر، وأنّه هو من ميّز بني إسرائيل من غيرهم من مخلوقاته، فقام بوظيفة أسوأ مكتب عقاريّ، فطرد شعباً من أرضه التي استقرّ فيها لآلاف السنين، ومنحها لشعبه البربريّ الهمجيّ المشرّد.

غضب إله إسرائيل الذي وصفه كاتب التوراة بدقة في أكثر من سفر، نقرأه أيضاً في هذه المخطوطات، حيث لا نلمس أيّ اختلاف بشأن تعاطي هذا الإله المخيف مع الذين يحتقرون وصاياه فلا يلتزمونها: «لكنّ جميع الذين يحتقرون الوصايا، عندما سيعاين اللَّه الأرض، سيحمّلون أنفسهم عقاب الكافرين»، وعندما تأتي الكلمة المدوّنة في عبارات النبي إشعيا، ابن عاموس، الذي قال: «ستأتي عليك وعلى شعبك وعلى بيت أبيك أيّام لم يأت مثلها منذ اليوم الذي انفصل فيه أفرائيم عن يهوذا»(122)، فماذا قال النبيّ إشعيا، وبماذا وعد الذين يحتقرون وصايا يهوه؟

نُكمل القراءة من سفر إشعيا في العهد القديم، إذ يقول: «ويكون في ذلك اليوم أنّ الربّ (طبعاً ربّ بني إسرائيل) يصفر للذباب الذي في أقصى تُرع مصر، وللنّحل الذي في أرض أشور، فتأتي وتحلّ جميعها في الأودية الخربة وفي شقوق الصخور وفي كلّ غاب الشّوك وفي كلّ المراعي. في ذلك اليوم يحلق السيد بموسى مستأجرة في عبر النهر بملك أشور الرأس وشعر الرجلين وتُنزع اللحية أيضاً» إشعيا 7: 18-20. ألا يحق لنا أن نتساءل كمؤمنين عن معنى هذا الكلام السخيف الصادر عن «النبيّ» إشعيا؟

أمّا كتبة المخطوطات، فإنّهم يتجاوزون ما ذكره إشعيا، ويرون أنّ «جميع الذين انهزموا سُلّموا لحدّ السيف»، لكي يتماهوا مع انتقام ربّهم يهوه، الذي كان دائماً يأمر قادة قومه بأن يقتلوا كلّ كائن حي، وألّا يُبقوا نسمة حياة واحدة، ويبدو أنّ هذه الملّة التي خلّفت لنا هذه المخطوطات، والتي قال عنها الدارسون إنّها ملّة الأسّينيين، التي تحلّت بالميل إلى السلام والتسامح، لم تكن سوى ملّة يهوديّة مشبعة بتعاليم الحقد، وكره الآخر، والتعالي وحبّ الانتقام.

ثمّ يُتحفنا الكاتب بتتمّة لمقطع «عقاب الأعضاء الخونة» ليُطلق تأويلات غير منطقيّة، فيقول:

«فكُتب الشريعة تلكم هي كوخ الملك،
كما قال الربّ: سأقيم كوخ داود الذي سقط،
والملك هو الجماعة،
وإخلاص الصور، تلكم هي كتب الأنبياء
الذين احتقر بنو إسرائيل كلامهم،
والنجمة هي الباحث عن الشريعة،
الذي جاء إلى دمشق، كما هو مكتوب:
يخرج نجم من يعقوب، ويقوم صولجان من إسرائيل.
والصولجان هو أمير الجماعة كلّها
وعند ظهوره سيضرب جميع أبناء شيث»(123).

يقول محقّقا هذه المخطوطات أندريه دوبون - سومر ومارك فيلوننكو إنّ كاتب هذا المقطع من المخطوطة استند إلى ما هو وارد في سفر عاموس عن كوخ داود، حيث نقرأ: «في ذلك اليوم أقيمُ مظلة داود الساقطة وأحصّن شقوقها وأقيم ردمها وأبنيها كأيّام الدهر». عاموس 9: 19، ونحن حتى لو وافقنا معهما على تشابه المقطعين، فإننا نتساءل عن علاقة مظلة داود أو كوخه بكتب الشريعة. وما معنى قول كاتب المخطوطات إنّ الملك هو الجماعة؟ وكيف يمكن أن يتماهى هذا الكلام مع ما ورد في عاموس عندما قال: «بل حملتم خيمة ملكومكم وتمثال أصنامكم نجم إلهكم الذي صنعتم لنفوسكم»؟ عاموس 5: 26، فماذا يمكن أن نفهم من هذا الكلام غير الغموض الذي لا معنى له؟

ويرى المدقّقان أنّ الباحث عن الشريعة هو معلّم الحق، والأَولى بنظري أن يكون معلّم الحق شارحاً وملقّناً للشريعة لا باحثاً عنها، فإن كان هو معلّم الحق، فهذا يعني أنّه مقتنع بهذه الشريعة، ومسؤوليته أن يُقنع بها الآخرين.

وإذا كان الكاتب قد شرح لنا أنّ قيام صولجان من إسرائيل يعني أمير الجماعة كلّها، فإنّنا لا يمكن أن نفهم لماذا سيضرب هذا الصولجان = الأمير عند ظهوره جميع أبناء شيث.

وشيث هذا هو ابن آدم، الذي وُلد له بعد قايين وهابيل. وعن شيث هذا يقول لنا العهد القديم إنّه: «عاش مئة وخمس سنين وولد أنوش»، (أمّا من هي زوجة شيث هذا، وكم كان لها من العمر عندما ولدت له أنوش (شيث كان بعمر 105) فلا ضرورة لذلك «وعاش شيث بعدما ولد أنوش ثماني مئة وسبع

سنين وولَد بنين وبنات». تكوين 4: 25، و5: 6-8. ومن هم هؤلاء البنون والبنات؟ وكيف وُلدوا له وهو بهذا العمر المتقدّم؟ أيضاً لا ضرورة إلى أن نعرف. ولماذا وقع غضب كاتب المخطوطة على جميع أبناء شيث؟ فيتحفنا الكاتب بالسبب الآتي: «هؤلاء كانوا قد أُنقذوا في زمن الزيارة الأوّلى». ويفسّر المدقّقان الزيارة الأولى بأنّها «العقاب الذي أصاب اليهود غير المؤمنين عام 63 ق.م، وكان كمقدّمة للزيارة الثانية، أي مجيء نهاية الأزمنة».

ولك أخي المؤمن أن تجد بنفسك العلاقة بين هذه الأحداث، هذا إن كنت من أصحاب العقول الخارقة. فما علاقة أبناء شيث، الذين لم يرد لهم أيّ ذكر في العهد القديم، باليهود الذين عوقبوا عام 63 ق. م؟ وعام 63 ق. م كما يقول لنا التاريخ هو العام الذي حاصر فيه بومبي الروماني القدس فسقطت المدينة بيده. ولم يذكر لنا التاريخ أنّ بومبي قد اقترف مجزرة بحق اليهود، بل جلّ ما فعله كان إلحاق فلسطين بروما، وتعيين الرومان حاكماً عليها. لكنّ اليهود الذين رفضوا حكم الرومان ظلّوا يتحيّنون الفرص للثورة عليهم واستعادة حكم فلسطين. ونتيجة لثورتهم غير مرة على الحكّام الرومان، وبعد تلقّيه خبر مقتل نيرون، عاد القائد الروماني فسبسيانوس إلى روما، تاركاً ولده القائد تيتوس ليكمل الحصار على أورشليم. هذا الحصار الذي استمرّ ستة أشهر، سقطت على أثره أورشليم عام 70م ودُمّر الهيكل، وهو ليس هيكل سليمان المزعوم، بل هيكل هيرودس. وعلى يد تيتوس قُتل الكثير من اليهود الثائرين، وتشرّد قسم كبير منهم، ومن بقي في فلسطين تأقلم مع الأحداث الجديدة، وما أدّت إليه من انتهاء أيّ تأثير سياسيّ لليهود في فلسطين وكامل سوريا.

من هنا نرى أنّ هذه المخطوطات، كما العهد القديم، تفتقر إلى الصدقيّة التاريخيّة، وأنّ كتبتها، كما كتبة العهد القديم، دوّنوا ما كانوا يحلمون به لا الواقع كما هو.

ثمّ يعود الكاتب ليذكّرنا، بما سقناه من موقف يهوه من شعبه المختار، أي إنّ محبته للآباء، إبراهيم ويعقوب وإسحق، جعلته يلتزم الميثاق الذي بموجبه أعطى أرض كنعان لذريّة إبراهيم غير آبه لكل ما فعلته هذه الذريّة من شرور ومعاصٍ، وما سبّبته من غضب يهوه عليها. لكنّ يهوه، كما مرّ معنا، وبالرغم من غضبه على أصحاب الرقاب الصلبة من شعبه، كان دائماً يفضّلهم على أبناء الشعوب الأخرى.

ولا بدّ أن نتوقف عند قسم من المخطوط الثاني، وفي المقطع المعنون: حرم الأعضاء الخونة، لنقرأ:

«والأمر نفسه ينطبق على كلّ من يحتقر وصايا اللّه،

ويتخلّى عنها وينحرف في خلال قلبه وبالمثل،

فإنّ جميع الأفراد الذين دخلوا في الميثاق الجديد في بلاد دمشق،

إنّما رجعوا عنه ونكثوا به

وحادوا عن بئر الماء الحيّ،

لن يُعدّوا في مجمع الشعب

ولن يُسجّلوا في سجلّهم

من اليوم الذي رُفع فيه المعلم الأوحد

حتى مجيء المسيح سليل هارون وإسرائيل»(124).

فإشارة الكاتب إلى الذين دخلوا الميثاق الجديد في بلاد دمشق لها برأيي معنى واحد، وهو أنّ هذه الملّة التي دوّنت ما عُرف بوثيقة دمشق لمجرّد أنّ كلمة دمشق مذكورة فيها، لم تذهب إلى دمشق كما مرّ معنا. وتعبير بلاد دمشق الوارد في المقطع المثبت آنفاً ليس إلّا منطقة في فلسطين، يرجّح أن تكون قمران قرب البحر الميت، لأنّ فلسطين في ذلك الوقت كانت قد أصبحت ولاية سورية رومانيّة مرتبطة بالحاكم الرومانيّ لدمشق.

ويبدو أنّ الذين دخلوا في الميثاق الجديد، أي ميثاق الملّة التي كتب أتباعها هذه المخطوطات، عادوا وتراجعوا ونكثوا بالميثاق الذي أخذوه على أنفسهم تجاه هذه الملّة، ربّما بعد أن خبروا نفسيّة أتباعها وأهدافهم.

ولا بدّ من التوقّف عند بعض العبارات التي ستلتبس حكماً على القرّاء المؤمنين، وهي التي تأتي على ذكر المعلّم الأوحد والمسيح.

فالمعلّم الأوحد هو معلّم الحقّ ومؤسّس هذه الملّة ومشرّع مبادئها وقوانينها، الذي رأى المدقّقان أنّه مات وملّته تنتظر عودته في نهاية الأزمنة. وهذه الفكرة تتماهى مع ما يعتقده قسم من اليهود، والمسيحيين المتهوّدين، من انتظار مجيء المسيح الملك المخلّص وانتصاره على أعدائه في معركة أرمجدون، الذي سيحكم العالم بعد هذا الانتصار لألفيّة سعيدة من السنوات.

أمّا ما يجب أن نؤكّده، فهو أنّ المسيح سليل هارون وإسرائيل لا علاقة له بيسوع، لأنّ يسوع ليس مسيحاً، وليس ملكاً. فالملوك وحدهم يُمسحون بالزيت عند اليهود، وهو تقليد لم يخترعوه، بل انتقل إليهم من الشعوب القديمة كما مرّ معنا.

هذا من جهة. ومن جهة ثانية، فإنّ اليهود اعتقدوا أنّ يسوع هو المسيح الملك المخلّص، من ذريّة داود، لكنّهم فوجئوا عندما أنكر يسوع أنّه من نسل داود،

وأنّ مملكته ليست من هذا العالم. ولذلك تآمروا عليه حتّى صلبوه، فقد تأكّدوا أنّه ليس المسيح المخلّص الذي ينتظرون، وسيطول انتظارهم، ولا أعتقد أنّه سيكون له نهاية، لأنّ هذا الاعتقاد ليس إلّا فكرة لاهوتيّة موجودة لدى كلّ الأديان بكلّ مذاهبها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الباب الرابع
القوانين

يُطالعنا الكاتب بالقانون الأوّل من قوانينه التي تعتمد برأينا على أوامر يهوه، التي ترتكز على القتل. فكيف لنا أن نصدّق أنّ ملّة الأسّينيين هي التي حرّرت هذه المخطوطات، وأنّ هذه الملّة اشتُهرت بالزهد والتقوى والابتعاد عن مباهج الدنيا، وما يترتّب عليها من الانحراف عن درب الله؟

يقول الكاتب في السطر الأوّل من هذه القوانين ما يأتي:

«في كافة الحالات التي يُطلق فيها حكم اللعنة على رجل، فبأمر من «المشركين» إنّما يُعدم هذا الرجل»(125).

وعلينا هنا التساؤل من يُطلق حكم اللعنة؟ فالكاتب أورد كلمة «يُطلق» في صيغة المجهول، وأكمل بإلصاق أمر الإعدام بالمشركين، فمن هم هؤلاء المشركون؟ هل هم الملل اليهوديّة الأخرى، أم الشعوب الأخرى التي تعبد آلهة غير يهوه؟ وأغلب الظنّ أنّه يقصد الملل اليهوديّة الأخرى، لأنّ يهوه لم تكن له سيطرة إيمانيّة إلّا على بني إسرائيل، الذين ضلّ قسم منهم طريق الصواب، فلم يلتزموا الشريعة بحسب رأي المذاهب الأخرى، هذه المذاهب التي كانت تدّعي، ككّل المذاهب في كلّ الأديان، أنّها وحدها تملك الحقيقة، وكلّ من خالفها الرأي، فهو من المغضوب عليهم والضالين، الذين يستحقّون اللعنة، وبالتالي الأمر بالإعدام.

وبالانتقال إلى المقطع الثاني، يتأكّد لنا بما لا يقبل الشك، أنّ هذه القوانين، كما الوصايا العشر، لا تتعلّق إلّا ببني إسرائيل.

يقول الكاتب: «وفي ما خصّ ما قاله الربّ: «ولا تنتقم ولا تحقد على أبناء شعبك»، فكلّ رجل من بين أعضاء الميثاق يدّعي على قريبه من دون أن يكون قد عنّفه أمام شهود، أو يقدّم هذه الدعوى في فورة غضبه، أو يقصّ الأمر على شيوخه لكي يفضحه، فإنّه شخص يثأر لنفسه ويحفظ الضغينة، إلّا أنّه مكتوب فقط: هو (الله) ينتقم من خصومه وهو يحقد على أعدائه»(126).

فعندما يقول الكاتب إنّ الربّ قال: «لا تنتقم ولا تحقد على أبناء شعبك»، فهو إنّما يؤكّد أنّ هذه القوانين لا تُلزم إلّا بني إسرائيل. وبالتالي، فإنّ الربّ الذي وجّه هذا الكلام إلى بني إسرائيل، شعبه المختار، ليس ربّ الكون، وخالق كلّ ما فيه، بل هو، كما ذكرت مراراً، إله قبلي خاصّ بقلّة من الناس، اخترع لهم كهنتهم هذا الإله بعدما تفاعلوا مع الشعوب الأخرى، ووجدوا أنّها تؤمن بآلهة،

في الوقت الذي كانت فيه هذه القبائل البربريّة المتنقّلة تؤمن بالعجل، وبقيت كذلك حتى بعد أن دعاهم موسى إلى عبادة يهوه. وهذا اليهوه لا يهتمّ إلّا بشعبه الخاصّ، لذلك فإنّ الوصايا العشر التي يردّدها العالم أجمع على أنّها أسس الشريعة الموسويّة الإنسانيّة، وركّزت عليها المؤسّسات الدينيّة غير اليهوديّة، ليست وصايا إنسانيّة شاملة وعامّة، بل هي تختصّ ببني إسرائيل، ويهوه حدّد أنّها للتطبيق مع القريب فقط: «لا تقتل. ولا تزن. ولا تسرق. ولا تشهد على قريبك شهادة زور. ولا تشتهِ امرأة قريبك ولا تشته بيت قريبك ولا حقله ولا عبده ولا أمَته ولا ثوره ولا حماره ولا كلّ ما لقريبك» تثنية 5: 18-21. صحيح أنّه في الوصايا الثلاث الأوّلى كان الأمر عاماً، حيث يُخيّل للقارئ أنّ هذا الإله يأمر بعدم القتل، وعدم الزنى، وعدم السرقة، ولكن حالما نُكمل بقيّة الوصايا، وهي الموجّهة إلى بني إسرائيل، ونقرأ تركيزه على القريب، تتّضح الصورة بأنّ المقصود في جميع الوصايا هو كيفيّة تعامل بني إسرائيل بعضهم مع بعض، ولا تنسحب طريقة التعامل على الآخرين. والدليل على ذلك أن يهوه بذاته أمر بني إسرائيل بأن يسرقوا المصريين قبل خروجهم من مصر. وها هو يأمر موسى بأن يطلب من شعبه ألّا يخرج من مصر فارغ اليدين، «بل تطلب كلّ امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة أو أمتعة ذهب وثياباً وتضعونها على بنيكم وبناتكم. فتسلبون المصريّين».

وفعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى (وموسى هذا كان يتلقّى الأوامر من يهوه). طلبوا من المصريين أمتعة فضةٍ وأمتعة ذهب وثياباً، «وأعطى الربّ نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم. فسلبوا المصريين» خروج 3: 22. ويهوه أيضاً أمر بالزنى، فها هو يقول لهوشع: «اذهب خذ لنفسك امرأة زنى وأولاد زنى لأنّ الأرض قد زنت زنى تاركة الربّ» خروج 12: 25-26.

فأيّ تبرير هذا الذي ساقه «الربّ» يهوه فأمر أحد أنبيائه، هوشع، لكي يتّخذ لنفسه امرأة زنى؟ أمّا قول الكاتب إنّ الأرض (وهو يعني سكّان الأرض) قد زنت، فهو ليس كلاماً منطقيّاً، إذ لا يعقل أن يكون كلّ سكان الأرض زناة، وهم حتّى لو كانوا كذلك، فلا يمكن لله، الذي وجد واحداً لم يزن بعد، أن يأمره بالزنى لكي يصبح كالآخرين.

عندما باشر يسوع تعاليمه بدأ بنقض الناموس لا بإكماله، كما جاء في متّى، وخاصّة نقض الوصايا العشر التي كانت موجّهة فقط إلى بني إسرائيل. فقال كلاماً سامياً، إنسانيّاً راقيّاً انطلاقاً من كونه وليد حضارة إنسانيّة راقية، قال: «لقد سمعتم أنّه قيل للقدماء لا تزنوا، وأمّا أنا، فأقول لكم إنّ كلّ من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى في قلبه» متى 5: 27.

يهوه حرّم الزنى في وصاياه بين أبناء إسرائيل، أمّا يسوع، فلم يحدّد أنّ كلامه موجّه فقط إلى الذين يتحدث إليهم، وهو لم يحدّد، بعكس ما اعتقد البعض،

رسالته أنّها فقط لخراف بني إسرائيل الضالّة. وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا طلب من رسله أن يكرزوا بين الأمم لينقلوا إليها التعاليم الجديدة المُحيية؟

أمّا عن وصيّة القتل، فلا داعي إلى أن أسوق الأمثلة، إذ إنّ المتصفّح للعهد القديم يقع عليها في كلّ صفحة من كلّ سفر وفي كلّ إصحاح. ويبقى أن أشير إلى ما أورده كاتب هذه المخطوطة من أنّ اللّه وحده «ينتقم من خصومه وهو يحقد على أعدائه»، فكيف يكون إلهاً من يتّصف بروح الانتقام والحقد؟ لا يمكن أن تكون هاتان الصفتان من صفات الله، الذي وصفته بقيّة الأديان بأنّه المحب، الرحوم، المتسامح، العادل والغفور. وهذا دليل آخر يضاف إلى سابقيه على أنّ إله بني إسرائيل ليس إلهاً كونيّاً أحداً صمداً، بل هو إله قبليّ تفريديّ مخوف، غضوب، حقود، منتقم، «نار آكلة».

فطوبى لكم هذا الإله الذي ما زال يلهمكم يا بني إسرائيل أن تفعلوا كلّ الشرّ، ليس في فلسطين فقط، بل في العالم أجمع أيضاً، وعسى أن يستفيق هذا العالم على حقيقتكم المروّعة.

أنتقل إلى عنوان آخر، من جملة عناوين عن الشهود والقضاة والتطهّر بالماء، وهو عنوان مهمّ له علاقة بيوم السبت، وكلّنا نعلم أنّ هذا اليوم هو اليوم الذي تعب فيه «الربّ» من خلق الأرض والسماء وكلّ ما على الأرض فاستراح، وطلب من شعبه الخاص، بني إسرائيل، أن يقدّسوا هذا اليوم الذي باركه الله.

نقرأ من العهد القديم: «وفرغ اللّه في اليوم السابع من عمله الذي عمل: فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل. وبارك اللّه اليوم السابع وقدّسه» تكوين 2: 2-3. وواضح أنّ الملّة التي تركت لنا هذه المخطوطات ترتكز، كما ذكرت سابقاً، بكلّ تعاليمها على العهد القديم.

وفي هذا المقطع الذي يتكلّم فيه الكاتب عن واجبات العضو الملتحق بالجماعة، أو المريد المقبل على الالتحاق بها، تفصيل لما يجب على أعضاء الجماعة الامتناع عن القيام به من أفعال حتى يكون التقيد بالوصايا تاماً.

وسأنتقي بعض هذه الممنوعات وأتناولها بالتعليق. من حيث المبدأ، وكما ذكرت سابقاً، يتنافى هذا الكلام مع العلم الذي يؤكّد أنّ الإنسان الأوّل لم يكن على دراية بالزمن والوقت، وأن عقله لم يكن قد تطوّر بعد ليكتشف قوانين الطبيعة، إضافة إلى ذلك لم تخوّله قدراته العقليّة اختراع اللغة فور وجوده على سطح الأرض.

وذكرنا أيضاً أنّ خالق هذا الكون ذا القدرة اللامتناهية لا يحتاج إلى ستة أيام ليخلق الكون والمخلوقات التي تعيش على هذه الأرض، لأنّنا حتى الآن نجهل طبيعة مليارات الكواكب التي تتكوّن منها مليارات المجرّات، وهذه الأيّام

الستّة التي ذكرها الكاتب تعدّ انتقاصاَ من قدرة الله. إضافة إلى أنّ الإنسان أيضاً لا يمكن أن يكون قد اخترع الأعداد حال وجوده. الاكتشافات الأثريّة أفادتنا بأنّ قصّة التكوين هذه سومريّة الأصل، بابليّة التطوير، كنعانيّة الانتشار، وتفيدنا أيضاً بتاريخ نشوء اللّغات، وعلم الفلك، والأرقام، وتقسيم السنة إلى أشهر، والشهر إلى أسابيع، والأسبوع إلى أيّام، واليوم إلى ساعات، والساعة إلى دقائق، والدقيقة إلى ثوانٍ.

ولم يعد بخافٍ على المثقفين أنّ كلّ ذلك بدأ على أيدي السومريين وأكمله البابليون. وهؤلاء الأخيرون هم من أشار، قبل أن يخترع كتبة العهد القديم إلههم، إلى يوم السبت كيوم راحة للإنسان لا للآلهة. لكنّهم لم يمنعوا الإنسان من القيام بأعمال عاديّة ضروريّة لحياته اليوميّة، وهم أيضاً لم يُصدروا فتاوى تحريم وقتل لكلّ من يخالف هذه الوصيّة. وهذا يدلّ على ارتقائهم الحضاريّ الذي لم يستطع بنو إسرائيل مجاراتهم به. نقرأ من المقطع المخصّص لتحريمات يوم السبت:

«ألّا يعمل أحد أي عمل في اليوم السادس بدءاً من اللحظة التي يكون فيها قرص الشمس بعيداً في كماله عن الباب الذي يغيب فيه، لأنّه هذا ما قاله الربّ: احفظ يوم السبت لتقدّسه.

وفي يوم السبت لا نتلفّظ بعبارة خرقاء أو باطلة...

ولا يتنزّه أحد في الحقل ليقضي حاجته يوم السبت...

ولا يؤكل في يوم السبت إلّا ما كان قد جُهّز بالأمس...

ولا يُفتح إناء مغلق بالغراء يوم السبت

ولا يضع أحد العطور على جسمه في ذهابه وإيابه يوم السبت

والمرضع لا تحمل رضيعها في ذهابها وإيابها يوم السبت

لا يساعد أحد حيواناً على الإنتاج (أو الوضع) في يوم السبت

وإذا وقع في خزّان أو حفرة فلا يُرفع يوم السبت

ولا يقدّم أحد شيئاً على مذبح يوم السبت غير محرقة السبت،

لأنّه هكذا مكتوب: ما عدا سبوتكم»(127).

قد يعتقد من يقرأ هذه الوصايا أنّها تدل على التزام أخلاقي راقٍ، ولكن إذا أمعن فيها جيّداً فسيجدها نصوصاً حجريّة بعيدة كلّ البعد عن الرقي.

ويتبادر إلى أذهاننا أنّه إذا كان «الربّ» بالفعل قد قدّس يوم السبت، فلماذا لم يأتِ تأكيد لذلك في الديانات التي تلت، التي نعرف أنّ اللّه هو مصدرها الأوحد؟ إذ كما يعلم الجميع، فالمسيحيّة عدّت يوم الأحد يوم عبادة لتوافقه مع قيامة يسوع، لذلك تقام الصلوات يوم الأحد، حيث يؤمّ الكنائس أكبر عدد من المؤمنين، وبالتالي أصبح يوم عطلة، إذ اعتبر أنّه نهاية أسبوع العمل.

وحديثاً وبعد التقدّم الذي جرى على جميع الصعد، بدأت بعض الدول تخفض ساعات العمل، فأصبحت العطلة الأسبوعيّة يومي السبت والأحد، لكنّ المسيحيّة لم تُصدر أيّ حرم على الذين يعملون يوم الأحد، ولم تحدّد الممنوعات وتُصدر الفتاوى حولها.

أمّا بالنسبة إلى المسلمين واختيارهم يوم الجمعة ليكون نهاية الأسبوع، وبالتالي يوم عطلة، ففيه أقوال متعددة، منها ما كتبه رأفت الحامد العدني، على موقع ملتقى أهل الحديث، قال: «إنّ الأصل في يوم الجمعة أن يكون يوم عمل - غير إجباري- لأنّ عمل الصحابة جرى على ذلك»، ثمّ أردف شارحاً موقف الفقهاء من هذه المسألة، فقال: «منهم من رأى ذلك تشبهاً بالنصارى واليهود إذا كان على وجه التعبّد والتعظيم كما يفعله أهل الكتابين، فكره ترك الشغل يوم الجمعة خيفة التشبّه باليهود في السبت، وبالنصارى في الأحد»، ثمّ أورد هذا القول لمالك: «بلغني أنّ بعض أصحاب رسول اللّه (صلعم) كانوا يكرهون أن يترك الرجل العمل يوم الجمعة»، ثمّ أردف بقول لمالك أيضاً: جاء فيه: «ينبغي للإمام ألّا يمنع أهل الأسواق من البيع يوم الجمعة».

ثمّ أعطى الكاتب رأي فقهاء آخرين، فقال: «منهم من رأى أنّه يوم يطالَب فيه المسلمون بالتهيّؤ لصلاة الجمعة، وأجاز فقهاء المالكية ترك العمل فيه للاستراحة». وهذا يعني كما ورد سابقاً أنّه لا إلزام بذلك. ومنهم من استشهد بالآية الرقم 8 من سورة الجمعة التي تقول: «يا أيّها الذين آمنوا إذا نُودي للصلاة من يوم الجمعة، فاسعوا إلى ذكر اللّه، وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون».

فالحال بين المسيحيّة والإسلام بالنسبة إلى يوم العطلة الأسبوعيّ واحد، أي إنّ هذا اليوم بالأصل هو يوم للصلاة والعبادة؛ ثم مع مرور الزمن ونشوء الدول الحديثة جرى الاتفاق في الدول ذات الأغلبيّة المسيحيّة على أن يكون الأحد يوم عطلة، وفي الدول ذات الأغلبية الإسلاميّة أن يكون الجمعة هو يوم العطلة الأسبوعيّ، من دون أن تفرض السلطتان الدينيّتان أيّ عقوبات على الذين يمارسون أيّ عمل في هذين اليومين.

لا يمكننا أن نمرّ على مسألة تقديس يوم السبت وما تبع ذلك من تحريم للعمل، ولإنقاذ من تعثّر فسقط في حفرة أو بئر، وعدم جواز الطهو، أو التنزّه

لأكثر من مسافة معيّنة إلخ... من دون أن نقف على رأي يسوع، الذي ورد في أكثر من إنجيل.

ففي إنجيل متّى، وتحديداً الإصحاح الثاني عشر، يذكر هذا الرسول أنّ يسوع ذهب في السبت بين الزروع، وإذا بتلاميذه قد بدأوا يقطفون سنابل القمح ويأكلون، واليهود يحرّمون الأكل يوم السبت إلّا مما جُهّز من اليوم السابق (ولا يؤكل في يوم السبت إلّا ما كان قد جُهّز بالأمس)؛ فقال الفرّيسيّون ليسوع «هوذا تلاميذك يفعلون ما لا يحلّ فعله يوم السبت... فقال لهم أوما قرأتم في التوراة أنّ الكهنة في السبت في الهيكل يدنّسون السبت وهم أبرياء. ولكن أقول لكم إنّ ههنا أعظم من الهيكل. فلو علمتم ما هو. إنّي أريد رحمة لا ذبيحة. لما حكمتم على الأبرياء. فإنّ ابن الإنسان هو ربّ السبت أيضاً» متى 12: 2-5-8. ثمّ أعطى يسوع مثالاً آخر ردّ فيه على قول الشريعة الموسويّة: «لا يساعد أحد حيواناً على الإنتاج (أو الوضع) في يوم السبت، وإذا وقع في خزانٍ أو حفرة، فلا يُرفع يوم السبت»، فقال للفرّيسيّين: «أيّ إنسان منكم يكون له خروف واحد فإن سقط هذا في السبت في حفرة أفما يمسكه ويقيمه. فالإنسان كم هو أفضل من الخروف. إذاً يحلّ فعل الخير في السبوت» متى 12: 11-12.

كلام يسوع هذا، الذي نقض فيه شريعة اليهود، كان أحد أسباب نقمتهم عليه، لأنّه عارضهم في أقدس مقدساتهم، بل في كلام إلههم الذي أوصاهم: «وأمّا اليوم السابع، ففيه يكون لكم سبت عطلة مقدّس للربّ. كلّ من يعمل فيه عملاً يُقتل» خروج 35: 2.

فيهوه كان أشدّ وأقسى من معلّم الحق لدى الجماعة، أسّينيّة كانت أم مغائريّة أم...، لأنّه أمر بقتل الإنسان إذا قام بأيّ عمل بالمطلق. والعمل كما هو معروف تشريف لحياة الإنسان، حتى لو كان في يوم عطلة، فكيف يجوز قتل من يعمل؟ ولقد أكّد يهوه ضرورة قتل من يعمل في أكثر من موضع. فها هو يأمر بقتل رجل كان يجمع حطباً يوم السبت، ومن دون أن يستجوب الرجل عن حاجته للحطب، هل لتدفئة أطفاله أم لكي يجهّز لهم طعامهم «فقال الربّ لموسى قتلاً يُقتل الرجل» عدد 15: 25. أمّا يسوع، فقد قال لهم: «السبت إنّما جُعل لأجل الإنسان، لا الإنسان لأجل السبت» مرقس 2: 27، في إشارة منه إلى أنّ السبت هو يوم كبقيّة أيام الأسبوع التي اخترعها الإنسان لكي ينظّم حياته. قد يقول قائل: لا يجوز لك أن تنتقد أو تجادل طائفة تتّبع ديناً محدّداً إذا كنت غير مقتنع ببعض ما جاء في كتابهم. فأقول إنّ هذا كلام صحيح لو اكتفى أصحاب هذا الدين بممارسة شعائرهم وقناعاتهم في ما بينهم. لكن إذا حاولوا، كما فعل اليهود ويفعلون حتى الآن، أن يفرضوا على الآخرين قناعاتهم، وما جاء في كتابهم على أنّه كلام اللّه الذي لا أحد يمكنه

مناقشته، فإنّني عندئذ سأمارس حقّي بالمناقشة والمجادلة والانتقاد، وخاصّة بعدما تبيّن بالأدلّة، وكما يجاهرون بأنفسهم، أنّ هذا الإله الذي أعطاهم هذه الشريعة هو إله خاصّ بهم، وما يصدر عنه لا يشمل غيرهم من البشر. وبالتالي كيف يمكننا أن نوافق معهم على حقّهم بأرض فلسطين، لا بل بأرض الهلال الخصيب كلّها، لمجرّد أنّ هذا الإله الخاصّ قد وعدهم بها وبقتل كلّ الشعوب التي تسكنها كرمى لهم.

لا مجال للمناقشة بأنّه مطلوب من كلّ إنسان، مؤمناً كان أو غير مؤمن، أن يحترم إيمان الآخرين حتى لو كانوا يؤمنون بحجر، وهذا ما أنا ألتزمه، لكنّني أيضاً ملتزم قدرة العقل على التمييز بين الحقيقي والخيال، بين الكلام المنطقيّ والكلام الخارج عن كلّ منطق وموضوعيّة، بين الكلام المطابق للتاريخ والكلام المناقض له، بين الكلام المفعم بروح المحبة والتسامح والغفران، والكلام المشبع بالكره والحقد وحب الانتقام.

ومن هذا المنطلق، أردّد دائماً مقولة ابن رشد، الذي يؤكّد من خلالها أنّه «لا يمكن لله أن يعطينا عقولاً ثم يعطينا شرائع مخالفة لها». كما أردّد مقولة فولتير، الذي يؤكّد أيضاً حق الإنسان في أن يقول رأيه بحريّة حتى لو اختلف عن رأي الناس، وعن ضرورة دفاع الإنسان أيضاً عن حق الآخرين بحريّة الرأي، حتى لو كان مختلفاً معهم في رأي معيّن.

وبالعودة إلى محرّمات يوم السبت نقول إنّه لمن الجيّد أن يتجنّب الإنسان التلفّظ بعبارات نابية، ولكن أن يكون هذا التجنّب محرّماً فقط يوم السبت، ومسموحاً به في بقيّة الأيام، فإنّه لَعمري أمر لا يقبله عقل. وماذا يضرّ الإنسان إذا ما أقدم على فتح إناء مغلق، ما هو الإثم الكبير الذي ينتج من هذا العمل؟ وما هو الإثم إنْ تعطّر الإنسان يوم السبت المقدّس؟ أليس من الأفضل للقداسة أن تضوع من المؤمن رائحة زكيّة بدلاً من رائحة تزكم الأنوف؟ أمّا عن المحرقات والأضاحي، فحدّث ولا حرج، فيكفي أن نقول إنّ إله بني إسرائيل يحبّ رائحة الشواء. ونوح عندما نزل مع عائلته من السفينة بعدما هدأت مياه الطوفان وبانت اليابسة «بنى مذبحاً للربّ وأخذ من كلّ البهائم الطاهرة؟ ومن كلّ الطيور الطاهرة؟ وأصعد محرقات على المذبح. فتنسّم الربّ رائحة الرضى» تكوين 8: 20-21. بينما يخبرنا غلغامش في الأسطورة البابليّة عن الطوفان، التي سبقت أسطورة نوح التوراتيّة بما لا يقلّ عن ألفي سنة، أنّه بعد أن انحسرت المياه، ونزل إلى اليابسة، قام بواجبه تجاه الآلهة على الوجه الآتي:

وسكبت الماء المقدّس على قمة زقورة (معبد) الجبل

ونصبت سبعة وسبعة قدور للقربان

وكدّست تحتها القصب الحلو وخشب الأرز والآس

فتنسّم الآلهة عُرْفها (شذاها)

أجل تشمّم الآلهة عُرفها الطيّب»(128).

أيّ فرق عظيم بين حضارتكِ الراقيّة يا بابل، وإسفاف حضارتك يا يهوه المتعطّش دائماً إلى الدم. ففكرة القربان، كما هو واضح، لم يخترعها بنو إسرائيل، بل قلّدوا بها الشعوب الحضاريّة التي سبقتهم، وخاصّة البابليين، لكنّهم بدلاً من أن يتعلّموا سموّ الحضارة البابليّة، أخذوا منها القشور، كضرورة تقديم القرابين إلى الآلهة لإرضائها. لكنّهم بدلاً من استعمال ما جاءت به الطبيعة من أعشاب ونباتات وأشجار، إذا ما أُحرقت ملأت الجو بعطر فوّاح، استعملوا الحيوانات فذبحوها وأحرقوها لكي يرضى الإله يهوه.

هذا الإله الذي، منذ أن خلق آدم بدأ عملية التمييز بين خلقه، فإذا به يخلق حواء، بحسب العهد القديم، من أحد أضلاع آدم، بعد أن أنزل عليه سباتاً عميقاً، جاعلاً بذلك المرأة غير مساوية للرجل.

ثمّ أتبع ذلك بعمله التمييزي الثاني، الذي تمثّل بنظر هذا «الربّ» في قربان هابيل المكوّن من أبكار الغنم وسمانها. أمّا إلى قايين، فلم ينظر، وإذا تساءلنا لماذا؟ فإن الجواب يأتينا بأنّ قربان قايين كان من أثمار الأرض. وكان نتيجة ذلك أنّ قايين اغتاظ من قرار «الربّ» الذي، ونتيجة لتمييزه غير العادل، فضّل الماشية على ثمار الأرض، فأقدم على قتل أخيه. والتمييز الثالث جاء على يد هذا «الربّ» عندما أعلن أنّ ذريّة إبراهيم فقط ستكون شعبه الخاص ويكون لها إلهاً، غير آبه لجميع الشعوب الأخرى من مخلوقاته. وحتى تنبُّؤات هذا الإله، كما تنبُّؤات أنبيائه، لم تتحقّق، إذ قال لإبراهيم، «انظر إلى السماء وعدّ النجوم إن استطعت أن تعدّها. وقال له هكذا يكون نسلك» تكوين 15: 5.

ثمّ جدّد الربّ وعده لإبراهيم قائلاً له: «أباركك مباركة وأكثّر نسلك تكثيراً كنجوم السماء وكالرّمل الذي على شاطئ البحر». تكوين 22: 17. والكلام ذاته عاد «الربّ» وقاله ليعقوب بن إسحق، مؤكّداً له أنّ نسله سيكون: «كتراب الأرض وتمتد غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً» تكوين 28: 14. فماذا تَحقّق من هذا الوعد؟ اليهود اليوم، وبعد ما يقارب ثلاثة آلاف وثمانمئة سنة، بحسب التوراة، لم يتجاوز تعدادهم في العالم العشرين مليوناً. وهذا يعني أنّهم لا يمثّلون أكثر من 0,2 % من سكّان العالم. وهذا يعني أيضاً أنّ عددهم لم يرقَ إلى جزء صغير من عدد النجوم، ولا إلى ذرّة من عدد رمل البحر.

لكن إذا قال متفذلك إنّ كلام «الربّ» هذا يجب ألّا يؤخذ بحرفيّته، فأجيبه أنّ كلام الربّ وحده يجب أن يؤخذ بحرفيّته، متى كان بالفعل هذا الكلام كلام

الربّ، لأنّ المبالغة هي من صفات الإنسان. لكنّنا، إذا قرأنا العهد القديم على نحو موضوعيّ متجرّد فسنجد أنّ هذا «الربّ» قد أصبح بفعل خيال الكاتب واحداً من البشر، يُجري الأحاديث مع أيّ إنسان، يندم، يغضب، يحقد، يثور، يتراجع عن قراراته، يأمر بالقتل والسرقة والزنى، فكيف سنؤوّل كلّ هذه الصفات؟

وبالانتقال إلى عنوان جديد، وهو «تنظيم المعسكرات»، نجد أنفسنا أمام ميليشيا تستعد للحرب، لا جماعة انعزلت عن قومها لتستغرق في الصلاة والزهد والتعبّد. وهذا يجعلنا نوافق الدكتور جوزيف زيتون، الذي أشار في بحثه، الذي استشهدنا به سابقاً، إلى أنّ أصحاب المخطوطات هم «من اليهود الغيورين على الشريعة (أي الأصوليين)، الذين يعتقدون أنّ نهاية الأيّام قد أتت، فراحوا يستعدّون، خلال فترة جيل واحد من الزمن لشن حرب مقدّسة ضد المحتل الغريب وضدّ الأمم والشعوب كافّة، وخاصّة ضدّ مخالفي الشريعة الموسويّة. وقد اعتقدوا أنّه، خلال تلك الحرب، سيأتي المسيح المنتظر ليملك على العالم»(129). وأنا أعتقد بأنّ هذه الجماعة تظاهرت بالصلاح والزهد والتقوى وانعزلت، ليكون ذلك لها ستاراً لنشاطها العسكري، الذي يظهر واضحاً من النصّ الذي حمل عنوان تنظيم المخيّمات، والذي يليه نص آخر، سنتوقّف عنده، تحت عنوان «في تنظيم مجمل العسكر». وما يؤكّد رأي الدكتور زيتون، هو ما ورد في مطلع هذا المقطع حيث نقرأ:

«وتلكم هي القاعدة المتعلّقة بتأسيس المعسكرات. الذين يسيرون وفق هذه الأوامر خلال زمن الكفر وحتّى مجيء مسيح هارون وإسرائيل، فليكونوا ضمن مجموعات من عشرة رجال على الأقل...»(130).

فالكاتب هنا حدّد كيفيّة تنظيم الجماعات في مجموعات مقاتلة، حيث يكون أقلّها عشرة، لتكون جاهزة للقتال. حتّى إذا ما جاء مسيح بني إسرائيل الملك، هبّوا لمحاربة الكافرين في نهاية الأزمنة، بحيث أنّ هذه التعاليم «ستكون بالنسبة إلى الإنسان الذكي، لكي يسير على هديها برفقة كلّ حي، حتّى يزور اللّٰه الأرض، كما قال الربّ: «سيأتي عليك وعلى شعبك وعلى بيت أبيك أيام لم يأت مثلها منذ اليوم الذي انفصل فيه إفراييم عن يهوذا». وفي ما يخصّ جميع الذين يسلكون وفق هذه التعاليم، فإنّ ميثاق اللّٰه هو بالنسبة إليهم الضمان أنّ الربّ سينقذهم من كافّة فخاخ الشرك، لكنّ الحمقى سيعاقبون»(131). فلننتبه إلى أنّ الكاتب قال إنّ هذه التعاليم ستكون للإنسان الذكي لا المؤمن، وفي نهاية المقطع يقول إنّ الحمقى، لا الكفّار، سيعاقَبون. ويجب أن ننتبه أيضاً إلى قوله (حتّى يزور اللّٰه الأرض)، لأنّهم يؤمنون بما قاله لهم إلههم عن أنّه سيسير أمامهم ليقاتل عنهم أعداءهم، من جهة، ومن جهة ثانية لأنّ زيارته تؤكّد أنّه لم يزل ملتزماً الميثاق الذي أخذه

على نفسه، هذا الميثاق الذي بموجبه كان الوعد لإبراهيم وإسحق ويعقوب وكلّ من أتى بعدهم، بأنّ الأرض التي أُدخلهم إليها ستكون لهم ولذريّتهم من بعدهم، «في ذلك اليوم قطع الربّ مع أبرام ميثاقاً قائلاً: لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات» تكوين، 15: 18.

بعد ذلك، ينتقل كاتب الجماعة لتثبيت «تنظيم مجمل العسكر». فحالما نقرأ الفقرة الأوّلى تتّضح صورة هذه الجماعة المزيّفة، وندرك فوراً أنّها ليست معزولة أبداً عن باقي بني إسرائيل. ولكن على ما يبدو، فإنّ هذه المجموعة كانت تخطّط لمحاربة الرومان، ولا ضير من ذلك أبداً؛ فقد اكتشفوا أمرها، فهربت إلى منطقة قمران الغنيّة بالمغاور الطبيعيّة فاختبأوا فيها. ولما طال انتظارهم بدأوا بكتابة هذه المخطوطات، كلّ كاتب بحسب ما يتذكّره من التوراة، إذ على ما يبدو كان هروبهم على عجل، فلم يستطيعوا حمل ما يجب من كتبهم الدينيّة. وبالرغم من ذلك وصل إليهم الرومان وحاصروهم، وقبل أن يستسلموا، أودعوا ما كتبوه الجرار الفخاريّة وتركوها في الكهوف.

يبدأ الكاتب هذا المقطع بما يأتي:

«وقاعدة خاصّة بتشكيل المخيّمات فليكن الجميع معدودين بالاسم. الكهنة أولاً، واللاويّون ثانياً وأبناء إسرائيل ثالثاً، والأنصار رابعاً...»(132). فالكاتب هنا قدّم الكهنة على اللاويين أوّلاً، وأشرك كلّ بني إسرائيل ثانياً. وهذا يعني أنّه تجاوز مقولة «أبناء النور» ليعود إلى مقولة بني إسرائيل، وأشرك أيضاً الأنصار الذين لم يرد لهم ذكر من قبل، فمن هم هؤلاء الأنصار؟

بعد ذلك تتحدّث الوثيقة عن الأموال التي تُخصّص لأعمال البرّ. هذا هو العنوان، أمّا عند التفصيل، فنقرأ ما يأتي: «وهاكم القاعدة الخاصّة بالكثيرين لتأمين كافة احتياجاتهم. أجر يومين على الأقل في كلّ شهر، إنّما عليهم أن يدفعوه للمفتّش والقضاة، ويخصّصوا جزءاً من هذه المبالغ للأيتام، وبالجزء الباقي يساعدون الفقير والمحتاج، المسنّ على فراش الموت، وعابر السبيل، الذي اقتيد أسيراً إلى أمّة أجنبيّة، والعذراء التي ليس لها قريب، والمرأة الشابة التي لم يطلبها أحد للزواج...»(133). أمّا إذا وضعنا جانباً ما ورد في السطر الأوّل، بشأن اقتطاع أجر يومين على الأقل في كلّ شهر لكي يدفعوا للمفتش وللقضاة، إذ ليس في ذلك أيّ نوع من عمل البرّ، وتأملنا بمن ذكرهم الكاتب، الذين ستشملهم أعمال البرّ فسنجد أنّ ذلك جيّد لا محالة. ولكن إذا ما عدنا إلى حياة هذه الجماعة التي تركت لنا هذه المخطوطات، أي الأسّينيين، وقرأنا ما ذكره عنهم الدارسون، فسيأخذنا العجب.

لقد عُرف عن هذه الجماعة أنّها لم تقم بأيّ عمل مأجور، بل كان أعضاؤها يأكلون مما يزرعون ومن المواشي التي يربّونها، وكان عملهم جماعياً، بمعنى

أنّه على كلّ عضو من الجماعة أن يقوم بعمل ما يُكمل عمل الآخرين، بحيث تصبّ جهود الفرد في مصلحة الجماعة، لكي لا تحتاج إلى أيّ اتصال بالخارج، ولا أيّ مساعدة. وهذا يعني أنّهم لم يكونوا يتقاضون أجوراً بدل؛ فمَن سيسدّد إليهم مرتّباتهم الشهرية لكي يتمكّنوا من اقتطاع قيمة عمل يومين على الأقل وإيداعها في صندوق خاصّ بحيث تُصرف الأموال المودعة فيه على أعمال البرّ، وخاصّة أنّ لائحة المستفيدين طويلة. كما عُرف عن الأسّينيين «كبح جماح النفس وقمع ثورة الهوى، لا يتأهّلون حبّاً بالتعفف من النساء...»(134). فإذن لم يكن بينهم نساء وهم يعيشون منعزلين عن بني قومهم، فعن أيّ فقراء ومحتاجين يتكلّمون؟ وعن أيّ عابر سبيل؟ والمسنّ بينهم ما حاجته إلى المال؟ وكيف يؤسر منهم أحد على يد أمّة أجنبيّة إذا لم يخوضوا حرباً ضدها؟ ومن أين ستدخل العذراء إلى وسطهم؟ وكيف ستكون امرأة شابّة لم يطلبها أحد للزواج لا تزال تعيش بينهم؟ كلّ هذه الأسئلة تؤكّد أمرين: إمّا أنّ هذه الجماعة ليست جماعة الأسّينيين الذين لا ينطبق عليهم هذا الكلام، وإمّا، كما قلت سابقاً، أنّ جماعة الأسّينيين، هذه كانت تتظاهر بحياة الزهد والورع والتقوى، أمّا في السرّ، فكانت تمارس حياة مدنيّة عاديّة كباقي بني إسرائيل، وتُعدّ العدّة لمخطّطها الذي ذكرناه سابقاً نقلاً عن الدكتور زيتون، الذي يضيف أنّ «هناك عملية تزوير كبرى للتاريخ، بدأ بها الأسّينيون أنفسهم، وجاراهم في ريائهم «فيلون الإسكندري»، الذي عاصر نشأتهم، واشتهر بدفاعه عن اليهود في تلك الفترة المضطربة من تاريخهم».

وننتقل إلى عنوان جديد يتحدّث تحته الكاتب عن «لعنات الميثاق»، وقد استوقفني قوله: «وفي اليوم الذي يتعهّد فيه الشخص بنفسه العمل وفق شريعة موسى، فإنّ ملاك العداوة سيبتعد عنه إذا وفى بوعوده»(135). فمن هاتين الجملتين نستشفّ أولاً ضرورة تقيّد عضو الجماعة بشريعة موسى تقيّداً تاماً، وثانياً لا يضمن العضو الخلاص إلّا إذا وفى بوعوده. وفي حال عدم وفائه، فإنّ ملاك العداوة سيقضي عليه. لكنّنا ومن خلال مطالعتنا للعهد القديم، وجدنا أنّ الميثاق قد خُرق من الإله ومن شعبه الخاصّ مرات متعددة. وحتى ملوك بني إسرائيل فعلوا الشرّ بعين الله، كما مرّ معنا سابقاً. وهذا الإله الذي هدّد شعبه غير مرّة بالإبادة إذا لم ينفّذ وصاياه، كان يندم فيتراجع عن قراره بمبرّرات غير مقنعة. ولم يأبه كاتب العهد القديم لهذه التناقضات التي وقع فيها، إذ إنّ كلّ شيء مسموح به، ومبرّر لهذا الإله. فهو الآمر الناهي، وهو الذي اختار له شعباً خاصاً دون كلّ شعوب العالم، وبالتالي فعليه أن يكون وفيّاً لالتزامه مع هذا الشعب، بغض النظر عن كلّ الشرور التي يرتكبها، وأعمال القتل والسرقة والزنى والفجور، وهو مجبر على ألّا يُنزل العقاب بشعبه الخاصّ، لأنّه كان ينفّذ أوامر إلهه، وقد أوردنا أمثلة على أوامر

السرقة، والزنى، والقتل التي كان يُبلغها لشعبه مباشرة، وإمّا بواسطة أحد وكلائه كموسى، ويشوع، وداود وسليمان إلخ...

واستوقفني أيضاً العنوان الأخير في هذه الوثيقة، الذي يتناول «قسم المرأة»، إذ كيف يُفرد الكاتب قسماً من هذه الوثيقة للكلام عن علاقة المرأة بالرجل، كزوجة له. والدارسون أكّدوا، كما مرّ معنا أيضاً، أنّ الأسّينيين كانوا «يتبنّون أولاد غيرهم وهم في سن الصغر، فيربّونهم كفلذ أكبادهم»(136). إنّ هذا التناقض بين النظريّة والممارسة يجعلنا نميل إلى رأي الدارسين القائل إنّه لا علاقة للأسّينيين بهذه المخطوطات، برغم وجود بعض النصوص التي تتوافق مع تعاليمهم وطريقة حياتهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الباب الخامس

تنظيم الحرب

يُرجع المحقّقان أندريه دوبون - سومر ومارك فيلوننكو تاريخ هذه المخطوطة إلى العام 63 قبل الميلاد. وقد اكتُشفت أجزاؤها في الكهف الأوّل. وبعد أن توالت اكتشافات هذه المخطوطات في أكثر من كهف، وعلى أثر جمعها ودراستها وترجمتها، تبيّن أنّ الكهف رقم 4 أيضاً يحتوي على النصّ ذاته. وأعتقد أنّ ذلك يؤكّد أنّ كتبة هذه المخطوطات كانوا كثراً من جهة، وكانوا من جهة أخرى ينسخون ما يكتبون نقلاً عن مخطوطات موضوعة سابقاً. ونفهم من هذا العنوان أنّ الحرب ليست عسكريّة، بل هي حرب دينيّة، فكريّة، عقائديّة. فأبناء النور هم الملتزمون الشريعة الموسويّة، وأبناء الظلام هم الذين حادوا عن طريق الربّ، إله بني إسرائيل. ونلاحظ أيضاً أنّ هذه الحرب ليست محصورة في الطوائف المتعدّدة التي انقسم إليها بنو إسرائيل، بل هي تطاول أيضاً الشعوب المجاورة، حيث حدّدهم الكاتب كما يأتي:

«إنّ معركة أبناء النور ستكون بالدرجة الأوّلى

ضدّ تجمّع أبناء الظلام، ضدّ جيش بلعال،

ضدّ عصبة إيدوم وموآب وأبناء عمون

وكثرة أبناء الشرق وفيليستيا،

وضدّ عصابات الكيتيم الآشوريّة وشعوبها،

الذين سيأتون لنجدة الكفرة بالميثاق،

أبناء لاوي وأبناء يهوذا وأبناء بنيامين»(137).

بدايةً علينا أن نلقي الضوء على أدوم وموآب وعمّون، فمن هم هؤلاء؟ إذا ما عدنا إلى العهد القديم، فإننا نستطيع التعرّف إلى هؤلاء الثلاثة الذين أعطوا اسمهم، ودائماً بحسب العهد القديم، إلى ذريّتهم. فأدوم هو عيسو ابن اسحق وشقيق يعقوب الذي بدّل «الربّ» اسمه إلى إسرائيل. وهذا يعني أنّ الأدوميين هم أبناء عمومة بني إسرائيل. أمّا موآب وعمّون، فهما ولدا ابنتي لوط (البار!!!)، اللّتين سقتا خمراً لأبيهما واضطجعتا معه، كلّ واحدة بدورها، فأنجبت الكبرى صبيّاً سمّته «موآب، وهو أبو الموآبيين حتى اليوم. والصغيرة أيضاً ولدت ابناً سمّته بنْ عمّي، وهو أبو بني عمّون حتى اليوم» تكوين، 19: 27. فهاتان القبيلتان تعدّان من أولاد الزنى لأنّ لوط أنجبهما من ابنتيه، ودائماً بحسب الرواية التوراتيّة، التي نرى أنّها مجرّد قصص مِن خِيال الكتبة. ولكن

المؤسف أنّ المؤمنين، حتى اليوم، يعدّون لوط شخصاً بارّاً كنوح الذي سكر فتعرى، وغضب على ابنه حام عندما أفاق وعلم أنّ حام قد رآه عرياناً وضحك، فأسقط نوح اللعنة على كنعان ابن حام من دون أن يكون لهذا الأخير أيّ علاقة بما جرى. ولوط كما تخبرنا التوراة هو ابن أخي إبراهيم، هاران. وهذا يعني أيضاً أنّ ذريّة أولاد لوط تُعدّ من أبناء عمومة بني إسرائيل، بناءً على اعتقاد بني إسرائيل بأنّهم يعودون بالنسب إلى إبراهيم، لكونهم من ذريّة يعقوب، ويعقوب هو ابن إسحق بن إبراهيم. فإذا كانت كلّ هذه القبائل أبناء عمومة، فلماذا هذا الحقد إذن من بني إسرائيل على أبناء عمومتهم؟ ولماذا لم يُدعَ أبناء العمومة للالتحاق بهذا الدين «الحضاري» الجديد؟ السبب بسيط جداً ويتمثّل في أنّ كاتب العهد القديم ليس سوى روائي فاشل، حاول في قصّته أن يُظهر صورة بني إسرائيل كأنّهم مميّزون من باقي البشر. هو بدأ قصّة الخلق مع آدم، وبدأ التركيز على ذكر واحد من كلّ أب (يمكن مراجعة سفر التكوين) وتجاهل كلّ الذكور الذين يمكن أن يكون هذا الأب قد أنجبهم.

وعلى سبيل المثال نقرأ من سفر التكوين أنّ آدم، الذي ضاجع حواء بالطبع، قد رُزق قايين وهابيل، وبعد أن قتل قايين هابيل عرف امرأته، فمن أين أتت هذه المرأة والكاتب لم يأت على ذكرها؟ وإذا ما افترضنا أنّ النساء لم يكنّ يُذكَرن كالرجال، فلماذا إذن ذكر الكاتب اسم امرأتي لامك «اسم إحداهما عادة واسم الأخرى صلّة، ولامك هذا هو ابن متوثائيل، وهذا الأخير هو ابن محويائيل بن عيراد بن حنوك بن قايين. فهل يُعقل أنّ كلّ واحد من هؤلاء أنجب ابناً واحداً. وإذا ما وافقنا على هذه السلسلة الوهميّة من الأوّلاد لأب وهميّ، فلماذا اختفوا ولم يعد الكاتب إلى ذكرهم؟ ثمّ يُتحفنا بأنّ آدم عاد فعرف امرأته (أي ضاجعها) فولدت له صبيّاً دعاه شيث، ومن شيث هذا أوصلنا الكاتب عبر ذكر واحد لنسله إلى نوح، الذي ولد له سام وحام ويافث، ولم يركّز، من بين الثلاثة، إلّا على سام، الذي قال عنه الكاتب إنّه «أبو كلّ بني عابر وأخو يافث الكبير ووُلد له أيضاً بنون. بنو سام عيلام وأشور وأرفكشاد ولود وأرام» تكوين 10: 21-22. ومن كان له عقل فليفهم، فماذا يعني قول الكاتب إنّ سام هو أبو كلّ بني عابر، أخو يافث الكبير؟ من هو يافث الكبير هذا؟ الكاتب أعلمنا أنّ أولاد نوح هم سام وحام ويافث، ولم يأتِ على ذكر يافث الكبير، أمّا إذا كانت كلمة الكبير صفة أطلقها الكاتب على يافث ابن نوح، فلماذا أدخل يافث وبنيه في ذريّة سام؟ وعندما يقول إنّ بني سام هم عيلام وأشور وأرفكشاد ولود وأرام، فهذا يعني أنّ العيلاميّين والأشوريّين والآراميّين سكّان الهلال الخصيب هم ساميّون. وإذا رأى الكاتب أنّ كلّ بني عابر هم من أولاد سام أيضاً، وأن بني عابر هؤلاء هم العبرانيّون = الإسرائيليّون = اليهود، فهذا يعني أنّ بني إسرائيل هم أبناء عمومة العيلاميّين والأشوريّين والآراميّين. ومن أجل ذلك ذكر كاتب العهد القديم أنّ والد إبراهيم

كان آراميّاً تائهاً، فلماذا إذن كلّ هذا الحقد على هذه الشعوب التي لهم صلة قرابة بها؟ ولماذا انتقى الكاتب من كلّ هذه الأنسال يعقوب فقط ليغيّر اسمه فيصبح إسرائيل، وبالتالي لكي تُعرف ذريّته ببني إسرائيل؟ إنّها تلفيقة غريبة عجيبة أراد منها الكاتب أن يخترع، كما قال العالم توماس طومسون، تاريخاً وهميّاً لشعب وهميّ ليس إلّا كناية عن قبائل وُجدت في زمن معين، وفي بيئة حضاريّة راقية؛ فوجدت هذه القبائل نفسها قاصرة عن الارتقاء إلى مصافّ هذه الشعوب الحضاريّة، فزوّرت التاريخ وحقائقه، وسرقت التراث الحضاريّ لهذه الشعوب وادّعت أنّه من إبداعها للتعويض عن عقدة النقص التي كانت تلاحقها في حلّها وترحالها. وجاءت الصهيونيّة الحديثة لترى أنّ اليهود وحدهم ساميّون، وأنّ كلّ من يتعرّض لهم هو ضدّ الساميّة، وأصبحت هذه المسألة على أيديهم جُرماً، أجبروا العالم على إدانته. وما الساميّة إلّا بدعة استندت إلى وهم، إذ إنّ العلم اليوم لم يعد يقبل قصّة آدم وحواء، وبالتالي فإنّ كلّ ذريّة آدم ليست إلّا وهماً لا يمكن الاستناد إليه بكلّ ما يتعلّق بالتاريخ أو علم الإنسان أو نشأة الشعوب والأمم.

وإذا ما أكملنا التعليق على المقطع الأوّل من هذه الوثيقة، فإننا سنجد أنّ الجماعة أيضاً قد رأت أنّ الذين كفروا بالميثاق هم أبناء لاوي، وأبناء يهوذا وأبناء بنيامين، وهؤلاء الثلاثة هم من الأسباط الاثني عشر، أولاد يعقوب. واللاويّون اختارهم الإله يهوه تحديداً ليكونوا عبر أجيالهم خَدَمته، في خيمته أوّلاً ثمّ في هيكله. فكيف يصبحون من الكفرة، أبناء الظلمة، ووحدها هذه الجماعة القليلة، التي لم يتجاوز عددها الخمسة آلاف، هي التي تمثّل أبناء النور؟ وقبل الانتقال إلى فقرة أخرى، لابدّ من الإشارة إلى التخبّط التاريخيّ الذي وقع فيه كتبة هذه المخطوطات، تماماً كما كتبة العهد القديم، إذ أشار الكاتب إلى عصابات الكيتيم الآشوريّة. ولمّا كنّا قد أشرنا إلى أنّ تاريخ كتابة هذه المخطوطة قد حدّده الدارسون بالعام 63 ق. م، فكيف يقول الكاتب إنّ معركة أبناء النور ستكون ضدّ «عصابات الكيتيم الآشوريّة وشعوبها»، والإمبراطوريّة الآشوريّة كانت قد انتهت عام 612 ق. م على يد التحالف الميدي - البابلي؟ ثمّ من هم هؤلاء الكيتيم؟ هذه التسميّة شغلت الدارسين واختلفوا في الرأي بشأنها، إذ كان لكلّ منهم استنتاج يختلف عن استنتاج الآخر، حتّى أن بعضهم توصّل إلى القول إنّهم الرومان. إنّ هذا الغموض سمة عامّة طبعت فصولاً كثيرة من هذه المخطوطات، وبالتالي فقد فقدت الكثير من قيمتها التي تُعدّ أيضاً مجالاً واسعاً لاختلاف الدارسين.

وفي المقطع الثاني يبشّرنا الكاتب، وأيضاً بغموض واضح، بسحق قوّة الأعداء وبدء «عهد السلام لشعب الله... والإبادة النهائيّة لمجمل عصبة بلعال، وسيكون ثمّة اضطراب عظيم بالنسبة إلى أبناء يافث، وستسقط آشور من دون أن يأتي أحد لنجدتها...»(138). والسلام لم يحلّ على شعب الله، أي بني

إسرائيل. وإذا كان الكاتب يعني ببلعال الشيطان، فإننا نبشرّه بأنّه ما زال موجوداً وناشطاً أكثر بكثير من ذي قبل. أمّا استعادته لذكر أبناء يافث، فلا أعرف في الحقيقة كيف تُفسَّر، لأنّ التوراة نفسها قد تجاهلتهم وركّزت كما قلنا على سام وبعده ذريّته، متجاهلةً أخويه حام ويافث وذريّتهما. وفي تكوين الإصحاح الحادي عشر يقول الكاتب: (هذه مواليد سام) ولم يذكر من مواليد سام الذين كان قد ذكرهم في الإصحاح العاشر وعدّد منهم خمسة، إلّا واحداً هو أرفكشاد، ولا يذكر من أولاده إلّا اسم ذكر واحد، وهكذا دواليك وصولاً إلى الجيل التاسع، أي إلى تارح الذي ولد أبرام (إبراهيم فيما بعد) وناحور وهاران. لقد اتّبع الكاتب في قصّته طريقة المحطات. فإذا ما رأينا أنّ آدم هو المحطة الأوّلى، نجد أنّ المحطة الثانية كانت شيث، أي الولد الثالث لآدم لا بكره قايين، والمحطة الثالثة كانت نوح، والمحطة الرابعة كانت سام بن نوح، ثم أوصلنا إلى محطّته الخامسة أي إبراهيم من ذريّة سام. ومن ذريّة إبراهيم اختار إسحق لا إسماعيل، لأنّ هذا الأخير هو ابن جارية، وجعل سارة العاقر تلد إسحق وهي في الثمانين من عمرها، وإسحق الذي كانت امرأته رفقة أيضاً عاقراً، أنجبت له توأماً استجابة لصلواته، والذي خرج أوّلاً وعُدّ البكر هو عيسو، والثاني هو يعقوب. وبما أنّ المتعارف عليه في تلك الأزمنة كان أن يُعطي الأب البركة للبكر، وبما أنّ والدة التوأم أحبّت يعقوب أكثر من عيسو على عكس إسحق، فقد احتالت على إسحق فأعطى البركة ليعقوب، كلّ ذلك لأنّ الكاتب، وبحبكته القصصيّة، كان قد هيّأ ليعقوب المحطّة الأهم، إذ جعله يتعارك مع اللّه ويتغلّب عليه، نعم، وتصديق ذلك عائد إلى رجاحة عقلكم، فأبدل اللّه اسمه من يعقوب إلى إسرائيل، ومن هنا يبدأ التشويق في القصّة.

وفي هذا المقطع أيضاً، يعود الكاتب ليتنبأ بسقوط أشور، التي كانت قد سقطت منذ قرون ستة. ثمّ ينتقل في مقطع آخر ليؤكّد هزيمة الكيتيم!!! حيث ستكون «معركة ومذبحة قاسية بحضور إله إسرائيل لأنّه سيكون اليوم الذي عيّنه هو (أي إله إسرائيل) منذ القدم لأجل حرب إبادة أبناء الظلام، ألم يقل لهم هذا «الربّ»: «رجل واحد منكم يطرد ألفاً لأنّ الربّ إلهكم هو المحارب عنكم كما كلّمكم» يشوع 23: 10؟ ألم يقل كاتب التوراة إنّ هذا «الربّ» كان «يسير أمامهم نهاراً في عمود سحاب ليهديهم في الطريق وليلاً في عمود نار ليضيء لهم». خروج 13: 21. إنّه الإله الحاضر متى استدعاه الكاتب، ولأنّ الكاتب لم يستعن به في بريّة سيناء، تاه بنو إسرائيل لأربعين سنة، وذلك لغياب عمود السحاب نهاراً، وعمود النار ليلاً». هل يُعقل أن يبقى مؤمن واحد في القرن الحادي والعشرين مصدّقاً لهذا الكلام؟ أليس هذا الكلام شبيهاً بأسطورة بابا نويل التي تستهوي الأطفال حتّى إذا ما كبروا استسخفوا أنفسهم كيف كانوا يصدّقونها؟ أما آن الأوان لكلّ هذه الترّهات أن تتوقف، ويقف المؤمنون وقفة واحدة بوجه التزوير اليهوديّ، الذي تستمر مفاعيله

حتى اليوم على يد الصهيونيّة المؤيَّدة من قوى الشرّ والظلام؟ ألا يجب علينا بعد رسالتي يسوع ومحمد أن نكشف صنميّة هذه التعاليم، ونمنع استمرار المؤامرة على المسيحيّة والمحمديّة، ونضع حدّاً لضغوط الصهاينة، التي أدّت إلى تحريف واضح في الأناجيل، وتؤدّي حديثاً إلى استغلال الدين للضغط على السياسيين لعدم الوقوف بوجه مشيئة الربّ، ربّ اليهود؟ وإلى متى سنسمح لهذا الإله القبلي البربري بارتكاب المذابح بحق من يعدّهم اليهود، حتى اليوم، حيوانات يجب أن تُسخّر لخدمتهم؟ إلى متى سنُبقي عقولنا مخدّرة بحقن الإيمان الأعمى؟؟؟!!!

ويبدو أنّ الكاتب كان يأمل أن يتبع كلّ بني إسرائيل ملّته، ملّة أبناء النور، لأنّه، وتحت عنوان «التنظيم الأساسيّ» في الخدمة الإلهيّة والقيادة، يعدّد من سيكون في خدمة اللّه الدائمة، فيقول: «وأمّا في ما يخصّ قادة الكهنة، فيأمرون بعد رئيس الكهنة ونائبه. وسيكون اثنا عشر قائداً من الكهنة في الخدمة الدائمة أمام الله. وسيكون رؤساء الرتب الستة والعشرون مع صفوفهم في الخدمة، وبعدهم سيكون قادة اللاويّين في الخدمة الدائمة وعددهم اثنا عشر: واحد لكلّ سبط وقادة صفوفهم، كلّ في دوره، سيكونون في الخدمة. وبعدهم قادة الأسباط وقادة العائلات في الجماعة سيكونون دائماً في وظيفتهم أمام أبواب المعبد»(139).

واللافت للنظر أنّ الكاتب قدّم الكهنة ورؤساء الرتب على قادة اللاويّين. واللاويّون، كما مرّ معنا، اختارهم يهوه لخدمته، فكانوا السبط المبارك. ولكنّه عندما يقول: وبعدهم قادة الأسباط وقادة العائلات، يجعلنا نعتقد أنّ أفراد هذه الجماعة كانوا خليطاً من جميع أسباط بني إسرائيل.

وفي مقطع من ثلاثة أسطر تحت عنوان «وفي التعبئة»، نرى أنّ قادة العائلات «وفي المجمع سيكونون محاربين لأجل أراضي الأمم كلّها، وسيُختارون من بين جميع أسباط بني إسرائيل». فعين هذه الجماعة المسالمة على أرض كلّ الأمم «سيحشدون لهم الرجال الأصحّاء لكي يلتحقوا بالجيش وفقاً لتعليمات الحرب، سنة بسنة، ولكن في سنوات الإبراء فلا يحشدون أحداً للذهاب إلى الجيش لأنّه سبت راحة لإسرائيل».

وكان الكاتب قد عدّد في مقطع سابق الأمم التي سيشنون الحرب عليها؛ فتخطّى إسرائيل الكبرى بكاملها ليصل بعدائيّته إلى فارس والصحراء الكبرى، أي إلى بلاد العرب. ولم ينس في طريقه شنّ الحرب، التي ستستغرق تسعاً وعشرين سنة بعد أن يكون قد جرى الإعداد لها لست سنوات، على أولاد عمومتهم أبناء إسماعيل وقطورة، وإسماعيل هو ابن جدّهم إبراهيم وشقيق إسحق من أمّ ثانية. وبالطبع لن ينسى أبناء يافث «في البلاد التي يسكنون فيها». أمّا أين تقع تلك البلاد وما هو اسمها، فليس من الضرورة أن نعرف.

وهذا المخطّط يؤكّد بما لا يقبل الشك أنّ هذه الجماعة لا تختلف بشيء عن قومها الأساسيّ، أي بني إسرائيل، فهم لهم التعاليم والوصايا نفسها التي لقّنها يهوه لموسى وبعده يشوع، وكلّ ملوك مملكة إسرائيل المزعومة وقادتها، ولهم الغايات التوسّعيّة ذاتها، ولهم الخلفيّة الأخلاقيّة ذاتها أيضاً. ولست أدري كيف غفل الدارسون عن هذه الحقائق الواضحة؛ فتبادر إلى أذهانهم أنّ مضمون هذه المخطوطات يختلف عن مضمون العهد القديم من جهة، وأنّها تمثّل كنزاً لا يثمّن يضاف إلى كنوز الحضارة الإنسانيّة، لا بل يتفرّد عن غيره بتميّزه.

كيف يمكن لبعض رجال العلم والأبحاث أن ينجرفوا وراء غرائزهم؟ وكيف يمكن لبعضهم الآخر أن يستجيب لضغوط الصهاينة، فيسخّر علمه ومعارفه كي يخدم مصلحة هذه المنظّمة السياسيّة، التي استغلّت مضامين كتاب العهد القديم أسوأ استغلال، ناسبةً كلّ ما جاء فيه زوراً إلى الله.

ويستمرّ الكاتب في تنظيماته الحربيّة مستعملاً الأبواق والرايات وعصا القيادة، والترس والحربة والسيف. أمّا عن الأبواق، فإنّما أراد منها أن يكون لها دور في إسقاط جدران الأسوار، كما حدث مع يشوع في حصاره لأريحا، إذ طلب من الشعب عند سماع صوت البوق أن يهتف هتافاً عظيماً فيسقط سور المدينة، «وكان حين سمع الشعب صوت البوق أن هتف هتافاً عظيماً فسقط السور في مكانه» يشوع 6: 20.

إنّها نظريّة حربيّة في غاية الإبداع تاهت عن بال القادة العسكريين في أيامنا، وكان عليهم الاستفادة منها وتدريسها في كليّاتهم الحربية!!! ويأخذنا العجب عندما يصف الكاتب الترس، فيقول: «وسيحاط الترس بضفيرة على أطرافه على شكل سلاسل، وهي من صنع حرفيّ من الذهب والفضّة والبرونز المجدولين، وسيزيّن بالحجارة الكريمة المتعدّدة الألوان، من صنع صائغ حاذق»(140). فهل هو ترس للحرب أم للزينة والعرض في المتاحف؟ وهل الدفاع عن النفس بهذا الترس المميّز سيضمن للمحارب النجاة، والموت لخصمه؟ إنّها لَعمري ثرثرة لا تمتّ إلى الدين بأيّ صلة. وكان أحرى بهذه الجماعة أن تطلق على نفسها اسم ميليشيا أو عصابة، فيهابها الناس، من دون حاجتها إلى صرف الأموال الطائلة على تزيين التروس، وهي التي وضعت نظام اقتطاع جزء من المرتّب الشهري من أجل البرّ والإحسان، ويبدو أنّ جلّ اهتمامهم الفعليّ كان منصبّاً، كما أسلافهم، على القتل والاستيلاء على أراضي الآخرين.

ويبدو أنّ الجماعة لم تكن تخطّط للبقاء معزولة في منطقة قمران، بل كانوا يعتقدون أنّهم، كأبناء النور، سيسيطرون مجدّداً على أورشليم ومنها تكون انطلاقتهم للحرب على الآخرين، وبالطبع فإنّ «ملائكة القداسة سيرافقون

جيوشهم»(141). فكيف يمكن للملائكة وللقداسة تغطية الحروب، بما فيها من قتل ونهب واعتداءات على الأعراض؟ ألم ننشأ على مفهوم أنّ الملائكة رُسل الرحمة والمحبة، ومسؤوليّتهم إلقاء الطمأنينة في القلوب؟

ونرافق الكاتب الذي أتحفنا بعظة «الكاهن الأكبر قبل القتال»، ليؤكّد لنا أنّ هذه الديانة إنّما نشأت، ليس على قواعد إيمانيّة ترتكز على المحبة والتسامح والغفران، بل على القتل ورفض الآخر بدل دعوته إلى الإيمان بالله الواحد، لو كان هذا اللّٰه الذي عبدوه إلهاً واحداً كونيّاً.

هو يتوجّه إلى هذا الإله العظيم والرهيب بقوله: «عند اقترابكم إلى الحرب يقف الكاهن ويخاطب الشعب: اسمع يا إسرائيل أنتم اليوم مقتربون إلى حرب أعدائكم. فلا تخافوا، ولا تتراخ قلوبكم، لا تضطربوا، ولا ترتعدوا أمامهم، لأنّ إلهكم يسير معكم ليحارب أعداءكم من أجلكم، ليخلّصكم... وأنت الذي قلت بواسطة موسى: عندما يصبح القتال في أرضكم ضد العدو الذي يهدّدكم، فانفخوا في الأبواق، فتُذكرون أمام الربّ إلهكم، وتُنقذون من أعدائكم»(142).

فمهمّة الكاهن إذن ليست دينيّة، بل هي مهمّة تشجيع بني إسرائيل على القتال، وذلك عبر تذكيرهم بأنّ إله آبائهم هو الذي سيحارب عنهم ويساعدهم على قهر أعدائهم. واللافت للنظر هو تركيز الكاتب دائماً، كما فعل كاتب العهد القديم، على تعبير «الأعداء»، علماً أنّ كلّ الشعوب، كما ذكرت سابقاً، التي حلّ بينها العبرانيون، أو من الأصح القول كلّ القبائل والعائلات التي كانت تكوّن الشعب الكنعانيّ، أحسنت وفادة العبرانيّين، وعاملتهم بكرم وحسن ضيافة، لكنّ كاتب العهد القديم، كما كاتب المخطوطات، استعدى عن قصد سكان البلاد الأصليّين، لأنّ إلهه أمره بذلك. أمّا قول الكاتب «عندما يصبح القتال في أرضكم ضدّ العدو الذي يهدّدكم»، فليس إلّا تزويراً للتاريخ وللحقيقة، لأنّ أرض كنعان على نحو عامّ، وأرض فلسطين على نحو خاصّ، لم تكن يوماً ملكاً لبني إسرائيل، وسكّانها لم يهدّدوا يوماً بني إسرائيل، بل العكس هو ما حدث، وهذا تحديداً ما يرويه العهد القديم. فيبدو واضحاً أنّ مهمّة هؤلاء الكتبة تركّزت على التزوير، هذه الصفة التي تميّز بها كتبة العهد القديم يبدو أنّها انتقلت إلى كتبة المخطوطات، وكانت النبع الذي شرب منه الصهاينة، وما زالوا حتّى اليوم؛ إذ إنّ كلّ ما تعلنه سلطات الاحتلال الإسرائيليّة اليوم، سواء عن الفلسطينيّين، أو الإيرانيّين، أو المقاومة المتمثلة بحزب اللّٰه وسواه من الأحزاب الوطنيّة، ليس سوى أكاذيب لذرّ الرماد في العيون، وحمل كلّ من يدعم هذا الفريق على التفكير ملياً قبل إكمال الطريق. ولقد نجحت البروباغندا الإسرائيليّة في ذلك، وها هي معظم الدول العربيّة قد تخلّت عن دعم الفلسطينيّين، وتخلّت في الوقت نفسه عن اعتبار

إسرائيل دولة عدوّة، وها هي تتسابق للتطبيع معها وإقامة أفضل العلاقات على كل الصعد. وأصبحت إيران هي التي تقود محور الشرّ، على قاعدة الخلاف المذهبي السني - الشيعي، فأعطوا إسرائيل بذلك، ومن ورائها الولايات المتحدّة، المبرّر لتتجاوز كلّ محظور، فتدوس المقدّسات، وتضمّ الأراضي، غير آبهة لكلّ القرارات الدوليّة، التي بقيت حبراً على ورق طوال عشرات السنين.

ومن هذا الكلام، ومن الكلام الذي أتى بعده، الذي سأثبته بعد هذه الفكرة، يتبيّن لنا مدى كذب هذه الجماعة التي خدعت من كان يعيش في زمانها، كما خدعت الدارسين في أيامنا هذه، لأنّها بمضمون مخطوطاتها لم تأتِ بجديد، بل ما نقله كتبتها لا يتجاوز ما جاء في العهد القديم، حتّى لو اختلفت طريقة التعبير. وليس صحيحاً أبداً أنّها كانت جماعة مسالمة وزاهدة، بل هي مجموعة خافت أن تنكشف مخطّطاتها الرامية إلى محاربة الرومان تحديداً؛ فانعزلت في هذه المنطقة الوعرة من أرض فلسطين، وبدأت تدريب أتباعها على القتال والمواجهة، مستعينة بما ورد في العهد القديم عن تولّي إلههم المحاربة عنهم. فأسندوا إلى الكهنة مهمة رفع معنويات الرجال المحاربين وطمأنتهم إلى أنّهم منتصرون لأنّ إلههم، الذي نصرهم في الماضي على «أعدائهم»، سينصرهم أيضاً على أعدائهم الجدد.

وتبيّن لاحقاً، أي عندما علم الرومان بأمرهم، أنّ إلههم هذه المرّة لم يفِ بوعده، فانهزموا أمام الرومان عام 70 للميلاد، وتشتّتوا، لا بالقوّة، بل من الخوف. وجاءهم في القرن التاسع عشر من عرف كيف يلعب لعبة استغلال الدين لتحقيق المصالح السياسيّة، هذه اللعبة التي ما زالت مستمرّة حتّى يومنا هذا، وستبقى ما دام العالم قد استغنى عن العقل لمصلحة الإيمان الأعمى. إليك أيّها القارئ الكريم ما أتحفنا به خيال كاتب هذه المخطوطات، الذي يأبى أن يتحدّث إلّا عن إله إسرائيل وبني إسرائيل. أمّا الشعوب الأخرى، فليست ذات قيمة لكي يلتفت إليها، كلّ همّه أن يصبّ عليها جام غضبه وحقده، كرمى لعيون شعبه الخاص التي تنضح بالغضب والحقد ذاتهما. يقول:

«من إذن مثلك، يا إله إسرائيل، في السماء وعلى الأرض،

فيُتم أعمالاً كأعمالك العظيمة، وكقوّتك الشّديدة؟

ومن مثل شعبك إسرائيل،

هو الذي اخترته لنفسك من بين شعوب البلاد كلّها

شعب قدّيسي الميثاق والذين تعلّموا الوصيّة...»(143).

لا أعتقد أنّ هناك كلاماً أوضح من هذا الكلام الذي يدلّ، كما ذكرت ذلك سابقاً وأجد لزاماً عليّ تكراره حتّى لا يبقى أيّ لبس في أذهان المؤمنين، على أنّ هذه الشريعة لا علاقة لها بالتوحيد، أو بالقداسة والألوهيّة الكونيّة الحقّة، لأنّها شريعة أراد منها واضعها أن تكون وسيلة للتعبئة النفسيّة لجماعة وضيعة، علّ رجالها، في ذلك الزمن البدائي، يقتنعون بأنّ هذا الإله الخاصّ هو الذي سيسلّم لهم شعوب الأرض لكي يتحكّموا فيها ويسخّروها فيكونوا لهم عبيداً، كما ورد في العهد القديم. وأنا أرى أنّ حلم هذا الشعب يتحقّق. فهو، وإن لم يستطع السيطرة العسكريّة على أراضي ما يُعرف بإسرائيل الكبرى، إلّا أنّه استطاع بخبثه واستخدامه لكلّ الوسائل غير الأخلاقيّة، التي لا تمتّ إلى الإنسانيّة بصلة، أن يسيطر على مفاصل الحياة السياسيّة في العالم من خلال سيطرته على الاقتصاد والإعلام. وأجد من المفيد أن أذكر واقعة الضغوط التي مورست من اليهود على صانع السيّارات الأميركي هنري فورد بعد صدور كتابه «اليهوديّ العالميّ»، الذي استفزّ اليهود لما فيه من الحقائق التي تفضح تآمرهم على البشريّة جمعاء.

قال فورد عندما سُئل إن كان مقتنعاً بأنّ ما نُشر عن بروتوكولات حكماء صهيون حقيقيّ، أم أنه مجرّد اختلاقات من أعداء الصهيونيّة، أو الساميّة، كما روّج اليهود؟ فكان يقول لأصدقائه: «مهما تكن حقيقة هذه التعاليم، فإنّها تتفق مع ما هو واقع الآن»(144).

هذا ما كتبه جيرالد. كي. سميث في المقدّمة التي تصدّرت الكتاب. فإذا كان هذا ما صرّح به هنري فورد في أوائل الأربعينات من القرن الماضي، فماذا نقول نحن اليوم، وخاصّة ونحن نعيش في منطقتنا أحداثاً خطيرة كشفت تصريحات كبار السياسيّين في العالم أنّ أصابع الصهيونيّة وراءها؟ كيف لا نلمس أنّ مضمون هذه البروتوكولات يتحقّق بالفعل، عبر السيطرة على حكومات العالم، وها هو رئيس أكبر وأقوى دولة في العالم، أعني بالطبع دونالد ترامب رئيس الولايات المتحدة الأميركيّة، الذي ألغى منفرداً مفاعيل كلّ القرارات الصادرة عن الجمعيّة العامّة للأمم المتحدة ومجلس الأمن، فأعلن القدس عاصمة لدولة الاحتلال، وبعد ذلك بأشهر قليلة، أعلن اعترافه بهضبة الجولان المحتلّة أراضيَ إسرائيليّة؟ وكيف لا نلمس تحقّق هذه البروتوكولات التي ينصّ أحدها على أنّهم، أي اليهود، سيعملون على السيطرة على الإعلام، إذ هل من وسيلة إعلاميّة عالميّة تستطيع أن تنتقد سياسات إسرائيل اللاإنسانيّة ضدّ الفلسطينيّين، وخاصّة في قطاع غزة؟ وهل يُمكن ألّا نلمس تأثير اللوبي اليهوديّ في معظم الدول الغربيّة، وحالياً العربيّة، في الشأن الاقتصاديّ وخاصّة لجهة التلاعب بأسواق الأسهم العالميّة الكبرى؟ وكيف يمكننا ألّا نلمس بصمات الاستخبارات الإسرائيليّة، وبالمشاركة مع الاستخبارات الأميركيّة، وأخيراً بعض استخبارات الدول العربيّة، على معظم

الأعمال الإرهابيّة التي تحدث في العالم؟ إذا كنّا بالفعل لم نلاحظ حتّى الآن أنّ مضمون هذه البروتوكولات يتحقّق، فهذا يعني أنّ المؤامرة اليهوديّة على البشريّة جمعاء تسير من نجاح إلى نجاح، وأنّ العالم يتلهّى بما ترميه إليه الصهيونيّة من عظام النفاق والتزوير.

ونلاحظ أنّ تكملة هذا المقطع الذي يمجّد فيه الكاتب إله إسرائيل من جهة، وبني إسرائيل من جهة أخرى، يأتي متوافقاً مع ما ورد في سفر التكوين بشأن خلق اللّه للسماء، والأرض الخصيبة، والمخلوقات الحيوانيّة والكائنات المجنّحة، وشكل الإنسان، وبلبلة الألسن، وتبعثر الشعوب. ثم ينتقل للإشارة إلى أسطورة جوليات المقاتل الفلسطينيّ الجبّار، الذي صرعه داود بحجر واحد من مقلاعه، وصولاً إلى ذكره أنّ داود قد صرع الفيليستيين مرّات متعدّدة باسم الإله القدّوس. وهذا يعني أنّ الفيليستيين، كانوا سكان الأرض الحقيقيّين قبل أن يأتي بنو إسرائيل. صحيح أنّ الفيليستيين هم من شعوب البحر التي هاجمت أرض كنعان في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وانتصروا على الكنعانيّين سكّان الأرض الأصليّين. لكنّ الصحيح أيضاً أنّ الفيليستيين، ككلّ الهجرات، استطاعوا وفي فترة وجيزة التأقلم والتفاعل مع أهل البلاد، فأخذوا لغتهم وحضارتهم، ولم يدّعوا يوماً أنّ إلههم وعدهم بهذه الأرض، وأمرهم بأن يقضوا على جميع الشعوب التي تعيش فوقها. وصحيح أيضاً أنّ هذا الجزء الجنوبيّ من أرض كنعان قد حمل اسم فلسطين نسبةً إلى الفليستيين الذين حلّوا فيها، لكنّها ظلّت تُعرف بأنّها مقاطعة من كنعان، وفي التواريخ اللاحقة عُرفت تحت اسم سوريا الجنوبيّة، كما في تاريخ هيرودوتس اليونانيّ، الذي يعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد.

ويلي هذا المقطع كلام خياليّ عن جيش الملائكة، والمختارين من الشعب المقدّس، الذين ستحل عليهم بركات إله إسرائيل، الذي يتوجّه إليه الكاتب بقوله:

«وأنت، فإنّك إله مريع في مجدك الملكيّ،

ومجمع قدّيسيك قائم في وسطنا لكي يقدّم عوناً حاسماً

فثمّة بيننا نحن، المحتقرون بالنّسبة للملوك

وضعاء وسخرية بالنسبة للشجعان

لأنّ أدوناي مقدّس،

وملك المجد معنا، ومعه القدّيسون،

وقدرات جيش الملائكة هي بين رجالنا المعدودين...

قم أيّها البطل، قُد أسراك، أيّها الرجل العظيم!
وأتمّ نهبك، آه أيّها المقدام!
ضع يدك على رقاب أعدائك
وقدمك على كومة من القتلى!
اضرب الأمم، أعداءك،
املأ بلدك بالمجد
وميراثك بالبركة!
بأنواع الماشية (املأ) مراعيك
وبالفضّة والذهب والحجارة الكريمة قصورك!
آه يا صهيون، ألا فاغتبط بشدّة!
وأظهري وسط صرخات الفرح، يا أورشليم!
وأظهري نفسك، آه يا مدن يهوذا كلّها!
وافتحي أبوابك باستمرار
لتُدخلي إليك كنوز الأمم!
وليخدمك ملوكهم،
ولينحنِ أمامك جميع مضطهديك،
وليلحسوا غبار قدميك!...»(145).

إنّها مناجاة، قد تبدو للبسطاء وجدانيّة، لكنّنا إذا ما أمعنّا في كلماتها فإننا سنجد أنّها لا تنمّ إلّا عن روح الحقد على الأمم الأغيار، وعلى دعوة بني إسرائيل إلى الاستقواء بإلههم البربري لكي يساعدهم على إتمام نهبهم لثروات الشعوب، من ماشية وفضّة وذهب وأحجار كريمة. وهي دعوة دائمة إلى الانتقام من الأغيار وإذلال ملوكهم، ألم يقل لهم إلههم: «وكلّ الفضّة والذهب وآنية النحاس والحديد تكون قدساً للربّ وتدخل في خزانة الربّ» يشوع 6: 16. «وكان لمّا أخرجوا أولئك الملوك إلى يشوع، أنّه دعا كلّ رجال إسرائيل وقال لقوّاد رجال الحرب الذين ساروا معه «تقدّموا وضعوا أرجلكم على أعناق هؤلاء الملوك. فتقدّموا ووضعوا أرجلهم على أعناقهم» يشوع 10: 24.

أليس كلام كاتب المخطوطات متوافقاً مع كلام إله بني إسرائيل وأوامره، لرجاله المصطفين بدءاً بإبراهيم مروراً بإسحق ويعقوب وموسى ويشوع، وصولاً إلى داود وسليمان ومن أتى بعدهم من ملوك؟ كيف لم يلحظ الدارسون هذا التطابق بين مضمون المخطوطات، وخاصّة التي حدّدوا أنّها لجماعة قمران، ومضمون العهد القديم؟ وكيف حاول بعضهم تزوير الحقائق ليوهم الناس أنّ هذه المخطوطات قد تكون التوراة الحقيقيّة، التي ستقلب المقاييس وتغيّر الحقائق التي وصمت العهد القديم بالأسطوريّة، ووصمت إله بني إسرائيل بالبربريّة وجوعه الدائم إلى الدم، ودعوته إلى القتل والنهب والزنى؟ لقد ركّز كاتب العهد القديم، كما كاتب هذه المخطوطات، على شغف إله بني إسرائيل بالذهب والفضّة والحجارة الكريمة، وعلى ضرورة نهبها من الشعوب التي ينتصرون عليها وإيداعها في خزانة الربّ. فأين القداسة في هذه الدعوة؟ وما حاجة الربّ إلى تجميع هذه الكنوز في خزانته؟ ألم يقل يسوع: «لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض، حيث يفسد السوس والصدأ... بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء، حيث لا يفسد سوس ولا صدأ» متى 6: 19؟ أليس كلام يسوع مناقضاً لكلام يهوه؟ ألم يكن تركيز يهوه، في ما كان يبلّغه لمن اختارهم وتحدّث إليهم، منصبّاً على الأمور الماديّة، فيما أتى كلام يسوع كلّه منصباً على الأمور الروحيّة؟

كفانا مداراة لأتباع هذه الديانة، الذين يحمّلون العالم أوزار ما حلّ بهم في الماضي (كذبة سبيهم إلى بابل)، وما حلّ بهم بالأمس القريب على يد هتلر (كذبة الإبادة)، ويتجاهلون ما فعلوا هم من موبقات ألّبت عليهم كلّ الشعوب التي حلّوا بينها وتسبّبوا لها بالكثير من الويلات. آن الأوان لكي يستيقظ العالم على حقيقة هذه المجموعة العنصريّة المتعالية، ذات الأفكار الماورائيّة الغريبة، والطقوس الأقرب إلى الوثنيّة منها إلى التوحيد، فيكشف مخطّطها ويمنعها من تنفيذه، قبل أن يقع المحظور حيث لا ينفع الندم. فماذا يُفهم من قول كاتب هذه المخطوطة مخاطباً إلهه:

«أمّا نحن، فشعب خالد

وقد عقدت ميثاقاً مع آبائنا

وأقمته مع ذريتهم

على مدى الأزمنة الخالدة»(146).

إنّه التعالي على كلّ أمم الأرض، والتباهي بهذا الميثاق الخياليّ المزعوم، الذي وعد بموجبه إلههم يهوه أن يعطي إبراهيم وذرّيّته كلّ الأرض الممتدة من النيل إلى الفرات، ومن ضمنها لبنان، الذي أورده كاتب العهد القديم حرفيّاً وفي أكثر من موضع. وبالرغم من ذلك نسمع أصواتاً تنادي بالتطبيع مع

العدو الإسرائيليّ. وهذه الأصوات لغبائها لا تعلم بأنّ هذا العدو سيبتلع لبنان حرباً أو سلماً، إن لم تتّحد كيانات الهلال الخصيب، التي وللمفارقة تكوّن إسرائيل الكبرى، لمواجهة هذه الهجرة الجديدة لبني إسرائيل إلى فلسطين، الجزء الجنوبيّ من سوريا، واحتلالها بالقوّة، والاستمرار في قضم أراضي الدول المجاورة، والامتناع عن الرضوخ لأصوات دوليّة متعددة مطالبة بتحقيق السلام العادل، لأنّ دولة الاحتلال الإسرائيليّ لا تؤمن بالسلام، ولم تضمّن دستورها حدوداً نهائيّة؛ لأنّها ما زالت تعمل، كما ذكرت سابقاً، على تحقيق إسرائيل اليهودية الكبرى من النيل إلى الفرات.

سيبتلع هذا العدو، ليس لبنان فقط، بل كيانات الهلال الخصيب جميعها أيضاً، إذا لم تتّحد هذه الكيانات لتصد هذه «الهجرة الخطرة التي لا يمكن أن تُهضم، لأنّها هجرة شعب اختلط مع شعوب كثيرة، فهو خليط متنافر خطر وله عقائد غريبة جامدة...»(147). وحتّى لا يعتقد أحدهم بأنّ أنطون سعادة رأى أنّ اليهود يمثّلون شعباً، وبالتالي هم أمّة ولهم الحقّ في أن يتجمّعوا في بقعة جغرافيّة واحدة لكي يمارسوا حيثيّة وجودهم، نُحيلهم إلى ما كتبه سعادة في مؤلّفه العلمي «نشوء الأمم»، حيث يقول: «أمّا ما ذهب إليه إسرائيل زنغويل من أنّ الشعب اليهوديّ تمكّن من الاحتفاظ بنفسه من دون بلاد (أي أرض) فمن الأغلاط الاجتماعيّة الفاضحة. فاليهود قد احتفظوا بيهوديّتهم الجامدة من حيث هم مذهب ديني. وقد أكسبهم دينهم الشخصي عصبيّة لا تلتبس بالعصبيّة القوميّة إلّا على البسطاء والمتغرّضين. اليهود ليسوا أمّة أكثر مما هم سلالة (وهم ليسوا سلاسة مطلقاً) إنّهم كنيس وثقافة»(148).

وفي مقطع حمل عنوان «البركات واللعنات التي تُلفظ أثناء القتال» قال الكاتب: التبريكات لربّ إسرائيل وأتباعه من أبناء النور، وعاد إلى ذكر بلعال لاعناً إيّاه مع جميع أرواح حصّته، مؤكّداً مقولته الدائمة عن أنّ الإله الذي يتكلّم عنه ليس إلّا إله بني إسرائيل، إله الآباء، الذي عقد معهم الميثاق، وأنّ بني إسرائيل وحدهم هم الشعب الخالد مدى الأزمنة الخالدة. فطوبى لهم هذا الإله وهذا الخلود. ثمّ نقرأ لهذا الكاتب مقطعاً آخر عن (نشيد النعمة بعد القتال)، حيث نجده أيضاً يشدّد على الميثاق، وعلى النعمة التي وقعت عليهم نتيجة إبادتهم لتجمّع الأمم، ويرى الكاتب أنّ الجماعة ستبقى تسبّح باسم هذا الإله، الذي حفظ ميثاق الآباء فأنزل نعمته على بقيّة شعبه التي لم تبتعد عن هذا الميثاق.

ثمّ نجد أنّ الكاتب قد حرّر وثيقة أخرى ألحقها بوثيقة تنظيم الحرب، وعدّها دستوراً ملحقاً مكمّلاً لما جاء في الوثيقة الأساسيّة. وإذا كان مضمون الوثيقة الأساسيّة قد اشتمل على كيفية الاستعداد للحرب وتنظيم الجماعة، فإنّه بدأ الملحق عن إعلان الحرب، مشيراً إلى:

«أنّ هذا زمن الضيق بالنسبة لإسرائيل

والأوان المحدّد للحرب ضدّ جميع الأمم

وحصّة اللَّه في الخلاص النهائي،

والهلاك (مقرّر) لكلّ أمّة كافرة»(149).

وإذا انطلقنا إلى ما ورد معنا سابقاً عن أبناء النور وأبناء الظلمة، فسيتبيّن لنا أنّ هذه الجماعة تعتقد جازمة، برغم قلّة عددها، أنّها وحدها تختزل أبناء النور، وأنّ أبناء الظلمة هم جميع الأمم. ثم يعود الكاتب إلى التشديد على أهميّة عظة الكاهن الأكبر، التي ترى بالطبع، أنّ أبناء جميع الأمم أرواحهم كافرة، لذلك فهي يجب ألّا تمثّل مدعاة للخوف، فيأتي كلام الكاهن الأكبر ليشدّد من عزائمهم فيقول لهم:

«كونوا أقوياء، كونوا أشدّاء، واظهروا رجالاً بواسل!

لا تخافوا، ولا تهلعوا، ولا يضعفنّ قلبكم!

لا ترتعدوا! لا ترتعبوا أمامهم!

ولا ترجعوا إلى الوراء! لا [ ]!

لأنّهم جموع كافرة...

إنّ ربّ إسرائيل يرفع يده [بقدرته] الرائعة

على جميع أرواح [الكفر]»(150).

إنّ قدرة اللَّه من دون شك لا متناهية، وهذا ما قلناه عن عدم حاجته إلى ستة أيام لإتمام عمليّة الخلق، إذ إنّ الخالق قادر على أن يُنهي عملية الخلق بقوله كن فيكون، لكن أن يستعمل الخالق هذه القدرة ليقتل من يعتقدهم بنو إسرائيل أعداءهم، فمسألة لا يقبلها العقل، كما أنّ العقل لا يقبل، حتى للربّ الذي اخترعه بنو إسرائيل، أن تكون له يد تُبيد ملايين البشر لمجرّد رفعها. وهنا نعود إلى ما يمكن أن يهمس به البعض، وهو ضرورة التأويل، إذ إنّ معنى يد ربّ إسرائيل هو قدرته على اجتراح المعجزات. وإذا ما جارينا أصحاب هذا القول فإننا نتساءل: إذا كانت يد الربّ تعني قدرته، فلماذا أتبع كلمة يد بكلمة «قدرته الرائعة»؟ وكيف نفسّر قول كاتب العهد القديم في وصفه لحرب موسى ويشوع ضد عماليق في رفيديم: «وكان إذا رفع موسى يده أنّ إسرائيل يغلب، وإذا خفض يده أنّ عماليق يغلب. فلمّا صارت يدا موسى ثقيلتين أخذا حجراً ووضعاه تحته فجلس عليه. ودعم هرون وحور يديه الواحد

من هنا والآخر من هناك. فكانت يداه ثابتتين حتى غروب الشمس. فهزم يشوع عماليق وقومه بحدّ السيف» خروج 17: 11-13.

فمسألة رفع اليد ربّما يكون لها معنى لاهوتيّ، إذا ما فسحنا المجال للتأويل، وربّما مجرّد شطحات خيال، وهذا الأرجح، أراد منها الكاتب تثبيت عزيمة شعبه انطلاقاً من إظهار قدرة ربّ هذا الشعب ومن اختاره للقيادة (موسى- يشوع - داود - سليمان إلخ...) وإلقاء الرعب في قلوب من عدّهم بنو إسرائيل أعداءهم، ولنا أكثر من دليل على ذلك نثبته من نصوص العهد القديم، ونعطي عليه مثالاً واحداً.

يقول كاتب العهد القديم: «وعندما سمع جميع ملوك الأمّوريين الذين في عبر الأردن غرباً، وجميع ملوك الكنعانيين الذين على البحر أنّ الربّ قد يبّس مياه الأردن من أمام بني إسرائيل حتّى عبرنا ذابت قلوبهم، ولم تبق فيهم روح بعدُ من جرّاء بني إسرائيل» يشوع 5: 1.

وعن الهجوم الأوّل الذي يلي عظة الكاهن الأكبر، يقول كاتب المخطوطة إنّ رجال حربهم سيتّخذون «مواقعهم في مواجهة معسكر الكيتيم». وهنا نعود إلى التساؤل عن هؤلاء الكيتيم، إذ لم يرد لهم اسم في أيّ وثيقة تاريخيّة وصلتنا عن تلك الحقبة. وهذا ما فسح المجال، كما مرّ معنا، لكثرة الاستنتاجات، ولكنّني أميل إلى القول إنّ هذه الكلمة تعني كلّ الأمم الذين عدّتهم هذه الجماعة كفرة يجب القضاء عليهم، حيث كان الكاتب قد عدّدهم في مقطع سابق، ولا أعتقد أنّ من حصر معنى الكلمة بالرومان كان مصيباً في استنتاجه.

وينتقل الكاتب بعد ذلك إلى شيء من التفصيل التنظيميّ لجهة كيفيّة دعم الصفوف التي تتعرّض للخسارة، نافخاً في روح رجال الجماعة الثقة بإله إسرائيل، الذي سيُخضع ويُذلّ رئيس مملكة الكفر. وبعدئذٍ يبدأ تنظيم الهجوم الثاني الذي يستند إلى نفخ الكهنة الأبواق، «فيحمل رجال المشاة بيدهم على جيش الكيتيم، وفيما يرتفع ضجيج الصرخة، يبدأون بإسقاط قتلى الكيتيم بأيديهم. ويتوقّف الفوج كلّه عن الضجيج والصراخ، وينفخ الكهنة في أبواق المذبحة»(151). إنّه صوت الأبواق إذن، الذي أسقط أسوار أريحا عندما حاصرها يشوع، يفعل فعله في حرب هذه الجماعة مع الكيتيم، بحيث لا يحتاجون إلى استعمال الأسلحة، بل تأتيهم قوّة خارقة من أصوات الأبواق يستطيعون بها قتل رجال الكيتيم بأيديهم. فإذا كانت هذه الجماعة تعلم مدى القوّة التي تُمدّهم بها أصوات الأبواق، فما حاجتهم إذن إلى كلّ الأسلحة التي عدّدها الكاتب، وخاصّة التروس المزخرفة بالأحجار الكريمة والفضّة والذهب؟ ألا يُعدّ هذا الكلام كلّه من قبيل الأدب الشعبيّ الذي يدغدغ مشاعر الناس ويستفزّ غرائزهم؟ ثمّ يكرّر الكاتب عظة الكاهن، التي يطلب فيها من إله بني

إسرائيل أن يقود أسرى العدو، ويكمل نهبه للماشية والفضة والذهب والأحجار الكريمة، كما يؤكّد الكاتب حقده الدفين على ملوك الأمم الذين، برأيه السموح المتواضع، يجب أن ينحنوا أمام أورشليمه، ويلحسوا غبار قدميها.

ويُنهي هذه المخطوطة بترنيمة فعل النعمة التي يجب أن تُتلى صباح اليوم التالي للانتصار، فيشرح في أسطر قليلة ما يجب فعله، فيعود إلى ذكر جموع آشور، وجيش جميع الأمم، إضافةً إلى الكيتيم الذين يكونون قد وقعوا بسيف الله.

ويبدو أنّ نهاية المخطوطة غير مقروءة، لهذا السبب لم يتسنّ للعلماء نقل مضمون الترنيمة. كما يظهر أيضاً أنّ كلّ ما أورده الكاتب لا يعدو كونه تمنّياً لما تُضمره هذه الجماعة لكلّ الأمم التي تحيط بها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الباب السادس
شروح حول بعض الأسفار

ننتقل في هذا الباب مع الكاتب إلى شروح كتبها عن بعض الأسفار. ويقول المدقِّقان اللذان نشرا هذه المخطوطات، وهما أندريه دوبون - سومر ومارك فيلوننكو في التوطئة لهذه الشروح، إنّها كُتبت في منتصف القرن الأوّل، ووُجدت في المغارة الأولى.

وتبدأ هذه الشروح بسفر حبقوق. ولست أدري كيف سمح المدقِّقان لأنفسهما بأن يَعدّا كلام حبقوق متماهياً مع ما حدث لجماعة قمران من «اضطهاد عنيف قاده كاهن الكفر ضدّ معلِّم الحق، واغتصابات مدمرة للمجتاحين الرومان، الكيتيم، واستيلائهم على أورشليم في أيلول من العام 63 ق.م ، حيث دخل الجيش الروماني بقيادة بومبي وقضى على حكم المكابيين؟ وحبقوق هذا، وبحسب المنجد، هو «من أنبياء اليهود قبل الجلاء. تنبّأ في أواخر القرن السابع ق.م. في مملكة يهوذا فأنّب الشعب وأنذره بمجيء الكلدانيين قصاصاً لهم»(152).

فإذا سلّمنا جدلاً بأنّ حبقوق شخصيّة تاريخيّة، مع أنه لم يأت أحد على ذكره، فكلامه واضح وكان يحذّر من خلاله بني إسرائيل، الذين دأبوا على فعل الشرّ بعيني ربّهم، كما مرّ معنا، أنّه، وفي حال استمرارهم في فعل الشر فسيعمل «عملاً في أيامكم لا تصدّقون به إن أُخبرَ به. فهأنذا مقيم الكلدانيين الأمّة المرّة القاحمة السالكة في رحاب الأرض لتملك مساكن ليست لها» العهد القديم، سفر حبقوق 1: 6، فيتحوّل الكلدانيّون بقدرة قادر إلى الكيتيم «السريعين والمندفعين للقتال، لإهلاك الكثير من الناس»(153). والكيتيم كما مرّ معنا، وبحسب استنتاج بعض الدارسين هم الرومان. ومعلوم أنّ الرومان دخلوا إلى أورشليم للمرّة الأولى عام 63 قبل الميلاد، فهل يُعقل أنّ حبقوق قد تنبّأ بما سيحلّ ببني إسرائيل قبل ستة قرون من تحقّق نبوءاته؟ ألا يعني هذا الكلام أنّ فسح المجال أمام التأويل سيُدخلنا في متاهات أقلّ ما يقال فيها إنّها خارجة عن كلّ منطق؟ وحتى إذا ما أخذنا كلام حبقوق وحاولنا تطبيقه على ما حدث لأورشليم على يد نبوخذ نصّر عام 587 ق. م، بعد ما يقارب عقدين من الزمن، فسيأتي كلامنا أيضاً في سياق تصديق المؤمن التلقائي لكلّ ما ورد في ما يعدّه كتاباً مقدّساً يحتوي على كلام الله. أمّا بالنسبة إلينا، فلا إثبات أنّ حبقوق رجل حقيقي، بل من كتب هذه النبؤات هو عزرا الكاتب، ودوّنها بعد وقوعها، لأنّه بدأ الكتابة بعد ما يُعرف بالسبي إلى بابل، فقد كان من جملة المسبّيين، حيث استفاد، كما ذكرنا غير مرّة، من

كنوز مكتبة أشوربانيبال، فاطّلع على أساطير السومريين والبابليين ونسج على منوالها، في ما أثبته من قصص الخلق والطوفان، ثمّ تفرّد باختلاق تاريخ لقبيلته ما اضطره إلى اختلاق أشخاص أسطوريين لضرورات أحداث القصة.

إنّ كاتب المخطوطة المعنونة «شرح حبقوق»، نسخ السِفر بتصرّف. ورأى أنّ مضمونه يتطابق مع مجريات الأمور التي كانت تحيط بالجماعة، وخاصّة لجهة فعلهم الشرّ بعيني ربّهم ليذكّرهم أنّه سيُصيبهم ما أصاب أجدادهم إن هم استمروا في عدم التزام الشريعة. ويبدو أنّ أبناء النور، ومعلّم الحق، لم ينتصروا، بل كان المنتصر أبناء الظلمة، وبقي هذا الحلم أسير نياتهم لمدّة ألفي سنة. وسأسوق مثالاً مقارناً بين ما جاء في سفر حبقوق الأساسي، وما يقابله مما جاء في مخطوطة الجماعة. الوحي الذي رآه النبيّ حبقوق:

«إلى متى، آه يا يهوه، أطلب الغوث من دون أن تسمعني، وأصرخ باتجاهك بشدّة، من دون أن تخلّص؟ لماذا تريني الإثم وتتأمّل البليّة؟ والدمار والعنف أمامي، وتحدث النزاعات وينشأ الخلاف، لهذا تكاد الشريعة تموت، والحق لا يرى النور أبداً، إنّهم احتقروا شريعة الله، لأنّ الكافر يحاصر البارّ، لهذا فإنّ الحق يخرج مموّجاً، انظروا الخونة وأبصروا، وستُدهشون متعجبين لأنّه يُتم عملاً في أيامكم: لن تصدّقوا عندما يروى لكم»(154).

ونقرأ من العهد القديم في بداية سفر حبقوق:

الوحي الذي رآه حبقوق النبيّ:

«حتّى متى يا ربّ أدعو وأنت لا تسمع، أصرخ إليك من الظلم وأنت لا تخلّص. لمَ تريني إثماً وتبصر جوراً. وقدّامي اغتصاب وظلم ويحدث خصام وترفع المخاصمة نفسها. لذلك جمدت الشريعة ولا يخرج الحكم بتّة لأنّ الشرير يحيط بالصدّيق فلذلك يخرج الحكم معوّجاً. انظروا بين الأمم وأبصروا وتحيّروا حيرة. لأني عامل عملاً في أيّامكم لا تصدّقون به إن أُخبرَ به» حبقوق 1: 1-5.

كأني بكاتب المخطوطات، وهو المؤمن بالعهد القديم، قد فقد نسخته من هذا الكتاب، عندما على عجل، خرج مع الجماعة من أورشليم هرباً من الرومان، فحاول إعادة كتابة هذا السِفر الذي تشبه ظروف كتابته ظروف الجماعة، فلم تسعفه ذاكرته أن يعيد الكتابة حرفيّاً وبدقة، محاولاً التأثير في جماعته من خلال إقناعها بأنّها الجماعة المصطفاة، أبناء النور، والآخرون كلّهم أبناء الظلمة. ولأبناء النور هؤلاء أرسل يهوه من يثابر على هديهم وهو معلّم الحق (موسى الجديد)، الذي من مسؤولياته مواجهة كاهن الكفر - بلعال.

وسأكتفي بهذا القدر كمثال يؤكّد عدم اختلاف المخطوطات عن نصوص العهد القديم. والسفر الأصلي في العهد القديم لا يتجاوز الصفحات الأربع. ولكن،

وقبل الانتقال إلى شرح سفر آخر، لابدّ من الإشارة إلى جملة وردت في كلّ من العهد القديم والمخطوطات، وأجد أنّها جملة اعتراضيّة خارجة عن سياق النصّ، وإليكها عزيزي القارئ:

لأنّ ظلم لبنان يغطّيك، واغتصاب البهائم الذي روّعها، لأجل دماء الناس وظلم الأرض والمدينة وجميع الساكنين فيها» حبقوق 2: 17.

ومن المخطوطات نقرأ: «لأنّ العنف في لبنان يغطّيك، وقتل البهائم سيؤجّج النار، سبب دمار البشر والعنف الممارس في الأرض وفي المدينة وعلى جميع سكّانها»(155).

ونقرأ التفسير الذي أثبته كاتب المخطوطة على هذا الكلام:

«تفسير هذا الكلام يتعلّق بالكاهن الكافر، بقدر ما سيدفع له تعويضاً لما فعله للفقراء - لأنّ لبنان، هو مجمع الجماعة ونصيحتها، والبهائم هم بسطاء يهوذا الذين يطبّقون الشريعة، لأنّ اللّه سيحكم عليه بالهلاك...»(156).

وأرى أنّ هذا التفسير جاء على طريقة الذي يفسّر الماء بالماء. والملاحظ أنّ كاتب شرح حبقوق في المخطوطات أقحم اسم لبنان من دون أيّ مسوّغ، مستعملاً كلمة العنف زاعماً أنّه غطى لبنان. أمّا كاتب سفر حبقوق في العهد القديم، وبعد إقحامه اسم لبنان، فلا يأتي على ذكر العنف بل الظلم، والفرق كبير بين الكلمتين، ما يُفقد النصّين الصدقيّة. ويلفت نظرنا أمر ثانٍ وهو قول كاتب سفر حبقوق في العهد القديم «واغتصاب البهائم»، وهذه الفعلة الشنيعة كان يمارسها بنو إسرائيل بدليل نهي إلههم لهم للتوقف عن ممارستها وإلصاق ذلك بالشعوب الأخرى. أمّا في المخطوطات، ففعل الاغتصاب يتحوّل إلى القتل. ولا بدّ من التساؤل عن علاقة اغتصاب البهائم أو قتلها بدماء الناس وظلم الأرض وتأجيج النار وما إلى ذلك من تعابير غامضة لا عمل لها سوى ملء الصفحات؟ أمّا عن العنف والظلم في لبنان، فلا أجد تفسيراً لإقحامهما إلّا إذا أوّلنا هذا الكلام، وقلنا إنّ حبقوق كان يتنبّأ بأحداث الحرب الأهليّة التي حدثت في لبنان في الربع الأخير من القرن الماضي، وعلى الظلم اللاحق بشعب لبنان على يد سياسيّيه في الربع الأوّل من القرن الحالي. وفي كلتا الحالّتين لا نملك إلّا أن نقول: لله درّك يا حبقوق، فلقد تحقّقت نبوءتك ويا ليتك أكثرت من تنبؤاتك عن لبنان، إذن لكنّا قد استعنّا بها على بني إسرائيل أولاً، لأنّهم هم من خطط لأحداث لبنان، وهم من كان يزيد سعير الحرب الأهليّة بين أبنائه تحقيقاً لمشروع كيسنجر، القاضي بإجراء تقسيم آخر لكيانات الهلال الخصيب يقوم على أساس طائفيّ ومذهبيّ يمهّد لإعلان إسرائيل دولة اليهود في العالم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الباب السابع
شرح ناحوم

هذه المخطوطة التي تحمل عنوان «شرح ناحوم» ليست، كما يؤكّد المدقّقان، إلّا نسخة مختصرة عن سفر ناحوم التوراتي. ولقد تعرّض قسم منها للتلف، لذلك فهي لا تمثّل أكثر من ثلث السفر التوراتي.

ويقول المدقّقان أيضاً، أو من ترجمها، إنّ «هذه الوثيقة تحمل، على الرغم من جزئيّتها، معلومات تاريخيّة ذات أهميّة استثنائيّة تتعلّق بالملّتيْن اليهوديتين الأخريين، الفرّيسيّة والصدّوقيّة، وتشهد على صراعهما الضاري من وجهة نظر أسّينيّة. ويُفهم من هذا الكلام أنّ من ترجم هذه المخطوطات، ومن دقّقها، يؤمن جازماً أنّ كتبتها هم الأسّينيون. وعلينا أن نشير، إلى ما ذكرناه سابقاً، من أنّ مضمون هذه المخطوطات لا يتوافق مع ما نُقل عن أخلاق الأسّينيين وزهدهم ومسالمتهم، إلّا إذا كانت هذه الجماعة قد مارست التقيّة، أي كانت تُظهر عكس ما تُبطن. أمّا بالنسبة إلينا، فليس من كتبها ما يثير اهتمامنا، بل مضمونها هو ما نحاول أن نسبر أغواره، حيث تبيّن لنا، حتى الآن، أنّ معتقدات هذه الجماعة لا تختلف أبداً عن نصوص العهد القديم، وهذه المخطوطات لا تتعدّى كونها أقدم نسخ عن هذا العهد وصلت إلينا، لأنّ النسخة الأقدم من كتاب العهد القديم، الملصق بأناجيل العهد الجديد، بحيث يكوّنان الكتاب المقدّس، تعود إلى ما بين العامين 1155 و1225 بعد الميلاد ، بحسب ما أعلنه البروفسور الإيطالي في جامعة بولونيا ماورو بيراني.

ويقول الخبر الذي أوردته صحيفة النهار اللبنانيّة في عددها الصادر بتاريخ 31 أيار/مايو 2013، إنّ الاعتقاد كان سائداً بأنّ هذه النسخة كانت تعود إلى القرن السابع عشر. ولكن بعد إخضاعها للتحاليل العلمية تبيّن أنّها تعود إلى تاريخ أقدم. وكان موقع الخليج أونلاين قد أورد خبراً في العاشر من آذار/مارس 2017، يفيد بأنّ السلطات التونسيّة أحبطت محاولة لتهريب نسخة نادرة من التوراة، مكتوبة بخط اليد على جلد ثور، تعود إلى القرن الخامس عشر الميلادي. ولست أدري لماذا استعمل كاتبها جلد الثور، لأنّ الورق في ذلك العصر، وقبله بكثير، كان قيد الاستعمال. وهذا يعني أنّ لفائف البحر الميت أقدم من مخطوطتي التوراة بما لا يقلّ عن ألف عام، وهنا برأيي، تكمن أهميتها الوحيدة.

يبدأ سفر ناحوم بهذه الجملة: «وحي على نينوى. سفر رؤيا ناحوم الألقوشي». وتبدأ المخطوطة بالجملة التالية: «وحي على نينوى. كتاب رؤيا ناحوم الألقوشي». وإذا ما أكملنا القراءة نجد توافقاً تاماً بين السفر

والمخطوطة، مع فارق أنّ كاتب السفر، أو بتعبير أدق، من ترجم العهد القديم استعمل لفظة «رب»، بينما نجد أنّ كاتب المخطوطة استعمل الاسم الذي أطلقه إله بني إسرائيل على نفسه، أي «يهوه». وأنا اعتقد أنّ معرّبي العهد القديم تقصّدوا استعمال كلمة الربّ ليوهموا المؤمنين بأنّ إله بني إسرائيل هو إله الكون الذي يعبده كلّ الناس. في الوقت الذي استعمل فيه كاتب المخطوطة لفظة يهوه لتأكيد أنّ هذا الإله هو إله بني إسرائيل فقط، علماً أنّ كاتب أو كتبة المخطوطات استعملوا تعابير مختلفة، منها إله إسرائيل، وربّ إسرائيل، والربّ ويهوه. ويبقى أن نشير إلى عدم دقة الترجمات، التي كان يتقصّد أصحابها التزوير لغايات سياسيّة. وما يهمّنا أنّ هذا الإله أو هذا الربّ يتحلّى، في كلا نصوص العهد القديم ونصوص المخطوطات، بالصفات ذاتها، وهاكم مثالاً على ذلك:

«الربّ إله غيور ومنتقم. الربّ منتقم وذو سخط. الربّ منتقم من مبغضيه وحافظ غضبه على أعدائه. الربّ بطيء الغضب وعظيم القدرة، ولكنّه لا يبرّئ البتة. الربّ في الزوبعة وفي العاصفة طريقه والسحاب غبار رجليه، ينتهر البحر فينشّفه ويجفّف جميع الأنهار. يذبل باشان والكرمل وزهر لبنان يذبل» العهد القديم، سفر ناحوم، 1: 2-3. «يهوه إله غيور ومنتقم، يهوه منتقم وممتلىء غضباً. في العاصفة والإعصار يمشي، والغمام والغبار قدماه. إنّه يزجر البحر فيجفّفه. ويُنضب جميع الأنهار. الباشان والكرمل ذبلا، ونبات لبنان ذبل»(157).

وقبل البدء بتحليل رؤيا ناحوم على نينوى، لا بدّ أن أشير الى أنّ ناحوم عاش في القرن السابع قبل الميلاد، بحسب ويكيبيديا، من دون تحديد سنة ميلاده أو سنة وفاته. ولست أدري كيف توصّل الدارسون إلى القول إنّه عاش في القرن السابع قبل الميلاد، وكلّ المصادر التاريخيّة لذلك الزمن تخلو من أي ذكر لهذا النبي، في الوقت الذي تحدّد فيه هذه المصادر تواريخ حكم الملوك الأقدم في بلاد ما بين النهرين، الذين سبقوا ناحوم بما لا يقلّ عن ألفيتين.

لذلك نحن نعتقد، بأنّ هذا السفر التوراتي كُتب في القرن السادس أو الخامس قبل الميلاد، أي بعد سقوط نينوى، ونسبه الكاتب إلى شخصيّة مفترضة أنّها عاشت في القرن السابع وقبل سقوط نينوى، لكي يُعطي هذه الشخصيّة أهميّة كبرى تستند إلى النبوءة، أي معرفة المستقبل.

والشيء الغريب واللافت للنظر أنّ تنبّؤات أنبياء بني إسرائيل كلّها انصبّت على رؤىً خياليّة، أحلام، عن الدمار الذي سيقع على كبريات المدن الحضاريّة في بلاد ما بين النهرين وأرض كنعان. وهذا إن دلّ على شيء، فإنّما يدلّ على حقد هؤلاء الأنبياء على هذه المدن التي كانت من أهم الحواضر في ذلك

الزمن، حيث لم يُعجب ذلك قبائل إسرائيل الهمجيّة، التي ساءها أن ترى وضاعتها قياساً على حضارة تلك المدن المهمة.

وسأثبت بعض الأمثلة التي تؤكّد أنّ هذه الأحلام الرؤى ليست سوى رغبات دفينة لدى هؤلاء «الأنبياء»، دوّنها الكتبة على ألسنتهم، بعد حدوث التخريب الذي لحق بهذه المدن، مثلها مثل كلّ المدن القديمة في العالم، التي لم يبق منها سوى الأطلال. ولم يصل إلى أيدينا أنّ نبياً، رومانياً أو يونانياً، قد أطلق على مدن روما أو أثينا، التي أصابها الدمار كما مدن الرافدين وكنعان، مثل هذه التنبؤات، فهل كان التنبؤ محصوراً فقط ببني إسرائيل؟

نقرأ ما تنبّأ به حزقيال على صور: «هأنذا عليك يا صور فأُصعد عليك أمماً كثيرة كما يعلّي البحر أمواجه. فيخرّبون أسوار صور ويهدمون أبراجها وأسحي ترابها عنها وأصيّرها ضحّ الصخر. لا تُبنين بعد لأنّي أنا الربّ تكلّمت يقول السيّد الربّ. ويرفعون عليك مرثاة ويقولون لك كيف بِدْتِ يا معمورة من البحار، المدينة الشهيرة التي كانت قويّة في البحر هي وسكّانها الذين أوقعوا رعبهم على جميع جيرانها» حزقيال 26: 3، 4، 14، 17. كلّ هذا الحقد والتمنّي بالدمار فقط لأنّ صور كانت مشهورة وقويّة، وتناسى نبيّنا الكريم أنّ ملك صور هذه هو من استعان به ملك إسرائيل سليمان، بحسب الأسطورة التوراتيّة، فبنى له الهيكل والقصر من خشب أرز جبال لبنان، يوم كان بنو إسرائيل يعيشون في الخيام، ولا يعلمون من الحِرَف التي كان الكنعانيّون يتقنونها شيئاً.

وها هو نبيّ آخر يختار مدينة أخرى من بلاد كنعان هي دمشق لكي يصبّ عليها غضب إلهه، فيقول: «هكذا قال الربّ. من أجل ذنوب دمشق الثلاثة والأربعة لا أرجع عنه لأنّهم داسوا جلعاد بنوارج من حديد. فأرسل ناراً على بيت حزّائيل فتأكل قصور بنهدد. وأكسّر مغلاق دمشق وأقطع الساكن من بقعة آون وماسك القضيب من بيت عدْن ويُسبى شعب آرام إلى قير قال الربّ» عاموس 1: 3-5.

وهكذا قوّل الكاتب «ربّه» فجعله أيضاً يرسل «ناراً على سور غزة فتأكل قصورها. وأقطع الساكن من أشدود وماسك القضيب من أشقلون وأردّ يدي على عقرون فتهلك بقيّة الفلسطينيين قال السيّد الربّ» عاموس 1: 7-8.

وتتكرّر الرؤيا على غزّة من قبل النبي صفنيا، فيقول الكاتب على لسانه: «لأنّ غزّة تكون متروكة وأشقلون للخراب. أشدود عند الظهيرة يطردونها وعقرون تُستأصل. ويل لسكّان ساحل البحر أمّة الكريتيين. كلمة الربّ عليكم. يا كنعان أرض الفلسطينيين إنّي أخربك بلا ساكن» العهد القديم، سفر صفنيا 2: 4-5.

طوبى لك أيّها النبيّ الكريم لأنّك ما زلت تلهم «النبيّ نتنياهو» ليكمل المهمّة بتدمير غزة وقتل أبنائها، وطوبى للمجتمع الدولي الذي يشارك في هذه المؤامرة التي تُخزي الإنسانيّة.

ويتكرّم علينا النبي زكريا، فيبشّرنا بما يتمناه للبنان قائلاً: «افتح أبوابك يا لبنان فتأكل النار أرزك» زكريا 11: 1.

هي أمثلة تُظهر نفسيّة كتبة العهد القديم، الذين أوردوا ما يعتمل في داخلهم من أحقاد على ألسنة أنبياء، فشوّهوا معنى النبوّة، وأتت كتاباتهم خالية من الروحانيّات الساميّة التي يجب أن تكون السمة الطاغيّة على كلامهم. ولا بدّ أن نذكر أنّ النبي يونان، الذي عاش، بحسب ويكيبيديا، في القرن الثامن قبل الميلاد، كان قد سبق ناحوم، بناءً على طلب يهوه، بتنبؤاته عن نينوى. أمّا بالعودة إلى مخطوطة شرح ناحوم، فلا بدّ أن يأخذنا العجب من التأويلات التي وضعها كاتب المخطوطات كشروح لما ورد في السفر التوراتي. فقد فهم من جملة «إنّه يزجر البحر فيجفّفه»، أنّها تعني «جميع الكيتيم ليمارسوا ضدّهم الدينونة ولإبادتهم من على وجه الأرض». وفهم من جملة «الباشان والكرمل ذبلا، ونبات لبنان ذبل»، أنّه «سيهلك بسبب ذلك عدد كبير، من الكفّار المتعجرفين، لأنّ الباشان والكرمل هما للكافرين من إسرائيل ولقادتها، لبنان ونبات لبنان» وأنّهم رجال مجمعهم أو جماعتهم، وسيهلكون ويختفون من أمام جماعة مختاري اللّه مع جميع سكان العالم. فهل يعطينا التأويل صلاحية مطلقة كي نفهم التعابير على مزاجنا، فنفسّرها على هوانا، وعلى النحو الذي يناسب توجّهاتنا؟ ثم إذا كان ناحوم هذا قد عاش في القرن السابع قبل الميلاد، فكيف لرؤياه أن تكون إشارة إلى أحداث وقعت بعده بمئات السنين؟ فهل يقبل العقل، مهما كان بسيطاً، مثل هذه التأويلات، فقط لكي يطابقها أصحابها مع أقوال رجال انتموا إلى الديانة نفسها لهؤلاء الذين كتبوها بقرون متعدّدة؟

ونحن نرى أنّ كلّ هذه التفسيرات لا تستند إلى أيّ قرائن منطقيّة. ونرى أيضاً أنّ إقحام اسم لبنان ليس إلّا من قبيل التمنّي الذي يراود مخيّلة الإنسان الغيور الحاقد على نجاح غيره. وإذا أكملنا قراءة هذه المخطوطة، فلن نجد إلّا ثرثرة غامضة وتفسيرات مستقاة من أحداث العصر الذي عاشت فيه هذه الجماعة، التي أورثتنا ما كان يعتمل في صدور قادتها، «ومعلّم حقّها» تجاه الآخرين، الكفرة وأبناء الظلمة، على حدّ قولهم. ومهما حاول بعض الدارسين اعتبار أنّ الأسّينيّين كانوا «يطابقون أنفسهم بإسرائيل الحقيقيّة، وكان يبدو لهم في المقابل أنّ ما أعلنه الأنبياء هو ما سيحدث للملّة في تالي الأيام»، فإنّ هذا الاستنتاج يبقى خارج منطق الأحداث المتتالية على مسرح الهلال

الخصيب تحديداَ، لأنّ كلّ التنبّؤات لم تتحقّق، لا بعد عصر الأنبياء مباشرة، حتّى ولا بعدهم بقرون متعدّدة، أي أيام جماعة قمران.

فالصراع بين معلّم الحق والكاهن الكافر، بمعنى آخر بين الحق والخير، أو بين أبناء النور وأبناء الظلمة، ما زال مستمراً حتّى أيّامنا هذه، وسيبقى كذلك إلى أبد الآبدين، لأنّه صراع دائم بين متضادّين مثّلا في حياة الإنسان العاقل وتيرة تفكير مستمر، كانت ركيزة لنظريات فلسفيّة، تجاوزت الأديان والأبحاث الماورائيّة، لتغوص في أعماق النفس البشريّة وما تنطوي عليه من متناقضات. ويبقى أنّ اعتبار هذه الشروح نوعاً أدبيّاً من الأنواع التي كانت شائعة بين الأسّينيين قد يكون الأقرب إلى حقيقتها، بغض النظر عن تقويمنا لهذا النوع من الأدب.

وقبل الانتقال إلى مخطوطة ثانية لا بدّ من الإشارة إلى جملة واحدة صحيحة أوردها الكاتب، وهي قوله عن الربّ، حتى لو كان يعني ربّ إسرائيل، بأنه عظيم القدرة، وهذه هي الصفة الوحيدة، التي كان على كتبة العهد القديم والمخطوطات، أن يُضفوها على الخالق، إذ إنّ كلّ الصفات الباقية هي صفات إنسانيّة، تؤكّد أنّ إله بني إسرائيل لم يكن سوى شيخ مشايخ القبائل الإسرائيليّة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

الباب الثامن
شرح المزمور رقم 37

ورد في الصفحة 58 من كتاب التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، عن مزامير داود المنحولة، أنّها تأليفات شعريّة قمرانيّة وهي بقايا بسيطة لكنز من الشعر الطقسي الذي اختفى. ويلفت الكاتب النظر إلى عدد كبير من هذه المزامير تجاور الثلاثة آلاف وستمئة مزمور، ويقول إن من الممكن أن يكون أكثر من شخص قد شارك في تأليفها. وهذا اعتراف بأنّها ليست من كتابة داود، بل نُسبت إليه مجازاً، ربّما لكي يَلقى كتّابها الشهرة على حساب داود. وما يؤكّد أنّ داود، هذا إذا كان شخصاً حقيقيّاً، ليس من كتب هذه المزامير، هو ما جاء في المزمور المئة والسابع والثلاثين، حيث نقرأ:

«على أنهار بابل هناك جلسنا. بكينا أيضاً عندما تذكرّنا صهيون. على الصفصاف في وسطها علّقنا أعوادنا لأنّه هناك سألنا الذين سبَونا كلام ترنيمة، ومعذّبونا سألونا فرحاً قائلين رنّموا لنا من ترنيمات صهيون... يا بنت بابل المُخربة طوبى لمن يجازيك جزاءك الذي جازيتنا. طوبى لمن يُمسك أطفالك ويضرب بهم الصخرة» مزامير 137: 1-2-3-8.

فمعلوم أنّ داود، ودائماً بحسب العهد القديم، أنشأ أوّل مملكة لأسباط إسرائيل على جزء من أرض فلسطين، «وكان الزمان الذي ملك فيه داود على إسرائيل أربعين سنة» ملوك أوّل 2: 11، أي ما بين العامين 1010 و970 قبل الميلاد بحسب المنجد. ومعلوم أيضاً أنّ داود الملك لم يذهب إلى بابل، وخلال حياته لم يشهد أي سبي لبني إسرائيل إلى بابل. فالسبي الأوّل حدث عندما احتل سرجون السامرة عام 721 ق.م. وفي ذلك الوقت كانت مملكة إسرائيل، قد انقسمت إلى مملكتين. والسبي الثاني حدث عندما احتلّ نبوخذ نصّر أورشليم. ولقد اختلف المؤرخون بشأن من احتلّ السامرة، أكان شلمانصر أم ابنه سرجون. يقول المطران يوسف الدبس في موسوعته «تاريخ سورية»: «إنّ لأهل العلم في تاريخ الأشوريّين قولين في من افتتح السامرة وجلا أعيان مملكتها. فمن قائل إنّ سلمانصر افتتحها وجلاهم. ومن قائل إن سلمانصر مات قبل افتتاحها، وإنّ الفاتح هو سرغون خلفه»(158)، والذين يميلون إلى الرأي الثاني يعتمدون على قول لفيكورو يؤكّد فيه أنّه وجد «لسرغون أثرين منبئين بأخذ السامرة قال في أوّلهما: «أنا حاصرت مدينة سامريتانا (السامرة) وأنا أخذتها وجلوت 2728 من سكّانها. وأخذت منها خمسين مركبة حربيّة حفظتها لنفسي»(159). وما يهمّنا نحن هو الإشارة إلى ما ورد في المزمور الـ137 عن بابل، إذ لا يمكن لداود أن يكون كاتب هذا

المزمور، لأنّ نبوخذ نصّر البابلي احتل أورشليم بعد عصر داود بما يقارب الأربعمئة سنة. فكُثر من الدارسين، وخاصّة منهم الذين يعدّون داود شخصيّة أسطوريّة، يرون أنّ المزامير، كما نشيد الأناشيد والأمثال، كلّها من وضع كتبة عاشوا بعد القرن السادس قبل الميلاد، ونسبوها إلى داود وسليمان.

يقول واضع كتاب التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل في التوطئة التي سبقت نص مخطوطة شرح المزمور 37: إنّ هذه المخطوطة وُجدت في المغارة رقم 4. ويرى أنّ هذا النص جزء صغير «من مدرج كان شرحاً للمزامير وربّما شرحاً لمختارات من المزامير». ويبدو أنّ بعض الأجزاء من هذه المخطوطة لم تكن صالحة للقراءة، لما لحقها عبر السنين من اهتراء.

يظهر أنّ داود في هذا المزمور يوجّه كلامه إلى شعبه بتقديم النصح. وتختلف التعابير ما بين المزمور الوارد في العهد القديم وذاك المثبت مع شرحه من قبل الجماعة، لكنّ المعنى يبقى واحداً، ونلاحظ أنّ معرّب العهد القديم قد استعمل لفظة الربّ كالعادة للتضليل، بينما استعمل مترجم المخطوطة لفظة يهوه، وهذا هو الأصحّ والأدق.

يبدأ هذا المزمور على النحو الآتي:

«لا تستشط على الأشرار، ولا تفر من الذين يرتكبون الإثم

لأنّهم سرعان ما يذبلون كالعشب، ومثل الكلأ الأخضر سيذوون

فلتكن ثقتك بيهوه واعمل الخير، فهكذا تسكن الأرض وترعى بأمان

عندها تجد في يهوه ملاذك، فيعطيك ما يطلبه قلبك

فلتكل مصيرك ليهوه، وثق به: فهو المدبّر

فيظهر برّك كالنور وقك كالظهيرة»(160).

هو الكلام نفسه تقريباً نقرأه من المزمور الوارد في العهد القديم. ولكن إذا ما انتقلنا إلى شرح كاتب هذه المخطوطة «الأسّينيّة»، فسنجد أنه يركّز على رجال الكفر الذين سيسلّمون إلى أعدائهم. وهنا يتماهى هذا الكلام مع تعاليم الأسّينيين، الذين قسّموا الناس إلى قسمين: أبناء النور، وينحصرون بهم فقط، وأبناء الظلمة، أي جميع الآخرين. ثمّ يقول المزمور:

«دع ههنا الغضب واترك السخط، ولا تستشط، فهذا لا يقود إلّا للشر، فالأشرار سيُستأصلون». وهذا الكلام جيّد من دون شك، لكنّه مخالف لوصايا يهوه الغيور، الغضوب، المنتقم، النار الآكلة. وهذه مخالفة ظاهريّة لأنّ هذا الكلام، كما الوصايا العشر، موجّه فقط إلى بني إسرائيل، إذ يقول الكاتب الشارح تعليقاً على هذا الكلام، إنّ «تفسير ذلك يتعلّق بجميع الذين يهتدون

للشريعة، الذين لا يرفضون الرجوع عن شرّهم، ذلك أنّ جميع المتمرّدين على الاهتداء عن إثمهم سيُستأصلون».

فالمهتدون هم الذين يخضعون للشريعة الموسويّة، والمتمرّدون الآثمون هم الذين لم يقبلوا الشريعة الموسويّة ديناً لهم، فإثمهم يتمثّل في عدم إيمانهم بالشريعة حتّى لو كانت ممارستهم الحياتيّة اليوميّة خالية من كلّ ما يُغضب الله.

والكاتب يؤكّد ذلك مباشرةً بقوله، شارحاً الجملة الآتية: «أمّا الذين يأملون بيهوه، فهؤلاء يرثون الأرض». إنّ هؤلاء هم جماعة مختاريه، الذين يعملون بمشيئته، فالذين سيرثون الأرض إذن هم شعب اللّه الخاص، ألا يتناقض هذا الكلام مع قناعة جميع المؤمنين بأنّ كلّ البشر هم أبناء الله، بأنّ عدله يتمثّل في قبوله الأخيار وغفرانه للخاطئين؟

وإذا ما أكملنا قراءة هذا المزمور وشروح الكاتب عليه، فسنجد أنّ داود، أو من كتب هذا المزمور ونسبه إليه، كان يعيش ظروف التشتت الديني، الذي كانت تعيشه المذاهب اليهوديّة. لذلك آمنت هذه الجماعة بمعلّم الحق، الذي سيعدّه بعض الدارسين يسوع، كما سنوضح ذلك في فصل خاص بهذه المسألة. هذا المعلّم الذي سيتنكّب مسؤوليّة هداية أتباع الشريعة للعودة إلى التمسّك بها، وممارسة الأوامر والوصايا اليهوديّة، وتلفتنا في هذا المزمور الجملة الآتية:

«يهوه يعرف أيام الكاملين، وميراثهم يدوم إلى الأبد. ولن يُصيبهم العار في يوم السوء». فما هو يوم السوء؟ وكيف فسّر الشارح المقطع الأوّل من هذه الجملة بأنّه يعني «المهتدون من الصحراء»!!! وماذا عنى عندما قال: «ولهم سيكون ميراث آدم كلّه»؟ وما هو هذا الميراث الذي سينتقل إلى ذريتهم إلى الأبد؟ إنّه كلام أدبي ولابدّ دائماً من استعمال التأويل، وبحسب اشتهاء الشارح، لكي نفهم أنّ أبناء الشريعة الموسويّة، شعب اللّه الخاص، أبناء النور، هم الذين سينتصرون على الأمم جميعها فور عودة المسيح المخلّص، فيُقتل من يُقتل في معركة أرمجدّون، ومن يبقَ حياً يصبح عبداً لبني إسرائيل.

وداود الملك، في هذا المزمور، يصبح مثل بقيّة الأنبياء يرى المستقبل لمئات من السنين، ودائماً بحسب فهم الشارح لهذا المزمور. فهو بعد أن يورد قول داود: «لأنّه بيهوه تثبت خطوات الإنسان، فيرضى عن دروبه كلّها. فإذا سقط فإنّه لا ينهار، لأنّ يهوه يأخذ بيده»، يشرح هذا القول بأنّه يتعلّق «بالكاهن، معلّم الحق الذي أمره اللّه أن يقف صامداً، والذي أقامه ليبني له جماعة مختاريه، والذي مهّد له الدروب باتجاه حقيقته». فكيف يمكن لكلام داود هذا أن يعني أنّه يتحدث عن معلّم الحق، الذي اخترعته جماعة الأسّينيين بما لا

يقل عن 800 سنة بعد داود؟ إلّا أنّنا نفهم من كلام الشارح أنّ معلّم الحق قد أسندت إليه مهمّة «إعادة بناء جماعة مختاريه»، أي إنّ جماعة قمران لم تكن تؤمن بأنّ كلّ بني إسرائيل يمثّلون شعب يهوه الخاص، بل فقط من لم يزل ملتزماً منهم الشريعة كما فهمتها هذه الجماعة، التي كانت على ما يبدو على خلاف مع بقيّة المذاهب اليهوديّة.

ولقد أشار خزعل الماجدي إلى هذا الخلاف في كتابه علم الأديان، فقال: «وكان ظهور ما يقرب من خمسة وستين سفراً غير قانوني (أبوكريفا) يشير إلى مدى التضارب في الآراء والأهواء الدينيّة، ونقدها للبعض الآخر. أمّا الأسفار (سوديبغرافا)، وتعني الكتاب المنسوب خطأ، فقد ظهر منها، حتى الآن، ما يقرب من ثمانية وثلاثين سفراً، إضافة إلى كتب قمران، التي كتبها اليهود الأسّينيون، والتي بلغ عددها حدود السبع والعشرين مخطوطة. وإذا أضفنا إلى كلّ ما ذكره التناخ من الأسفار المفقودة، التي يقارب عددها مخطوطات الأسّينيين، فسنكون أمام عدد هائل من الكتب والأسفار، التي يمكن أن توضح لنا مدى التعرّض، والتضارب، والاختلافات في الرأي بشأن اليهوديّة كلّها»(161).

والاختلاف العقدي ضمن الدين الواحد، لم يطاول اليهوديّة وحدها، بل انسحب على كلّ الأديان أيضاً. ينقل خزعل الماجدي عن صحيح ابن ماجه الحديث النبوي الآتي: «افترقت المجوس على سبعين فرقة، واليهود على إحدى وسبعين فرقة، والنصارى على اثنتين وسبعين فرقة، بينما ستفترق أمّة الإسلام على ثلاث وسبعين فرقة، الناجية منها واحدة، والباقية هلكى. قيل: وما الناجية؟ قال: أهل السنّة والجماعة. قيل: وما السنّة والجماعة؟ قال: ما أنا عليه اليوم وأصحابي»(162).

ويبدو أنّ هذه الفرق قد زادت مع الأيام لتتعدّى المئات في بعض الأديان، وكلّ فرقة تدّعي أنّها الوحيدة المتمسكة بالشريعة، والوحيدة التي ستنال الخلاص. ويذكر الماجدي أنّ المذاهب في المسيحيّة قد بلغت 33830 طائفة مختلفة.

ثم يتابع داود نصائحه، التي لم يتقيّد هو بها، فيطلب من كلّ مؤمن بيهوه أن يبتعد عن الشرّ، ويعمد إلى صنع الخير. والهدف من ذلك ليس أبداً حب فعل الخير بحدّ ذاته، ولا الابتعاد عن الشر كطريق إلى مرضاة الله، بل ليكون ذلك شرطاً عليك (أي على المؤمن بيهوه) لكي «تبقى إلى الأبد في الأرض»، أي الأرض التي ساعد الإله يهوه بني إسرائيل على طرد الشعوب الساكنة فيها، وعلى قتلهم ونهبهم والاستيلاء على هذه الأرض. فكلّ القيم التي يمكن للقارئ أن يستشفّها، من كلام أنبياء إسرائيل، أو إله بني إسرائيل، ليست قيماً إنسانيّة عامّة، حتى لو تحدّثت عن الخير والعدل والبرّ، لأنّها قيم محصورة ببني إسرائيل فقط. وها هو داود يعود ليؤكّد أنّ الثقة بيهوه، وحدها،

هي الطريق لوراثة الأرض. وعندما يقول داود إنّ «الخطاة سيهلكون كلّهم معاً، ونسل الكفّار سيُستأصل»، يأتينا شرح الكاتب ليحدّد لنا أنّ ذلك يتعلّق فقط «بكفّار إسرائيل الذين سيهلكون ويُستأصلون من وسط مجمع الجماعة».

وهذا الكلام على لسان داود، الذي تجاوز عمره الألفيتين ونصف، لم يتحقّق منه شيء حتى الآن، بل ما زال بنو إسرائيل يفعلون الشرّ، كما فعلوا في ماضيهم السحيق، وهم ماضون في قتل الفلسطينيين، وما زال حكّام إسرائيل يستلهمون في قراراتهم أوامر إلههم يهوه، ورغبات ملك إسرائيل الأبرز داود.

ففي المزمور الثاني، في العهد القديم، قال يهوه لداود: «اسألني فأعطيك الأمم ميراثاً لك وأقاصي الأرض ملكاً لك. تحطّمهم بقضيب من حديد مثل إناءِ خزّاف تكسّرهم... اعبدوا الربّ بخوف. لأنّه عن قليل يتّقد غضبه» مزامير 2: 8، 9 ،11، 12.

فكيف يتناسب هذا الكلام مع ما جاء في المزمور 37 وقول داود: «دع ههنا الغضب واترك السخط»؟ أيّ تناقض هذا؟ وكيف لم يتوقف عنده أحد من الدارسين. ويعود داود ليؤكّد أنّ الله، ربّ إسرائيل، «قاضٍ عادل وإله يسخط في كلّ يوم». وهذا لم يمنع داود من أن يطلب من بني إسرائيل أن يرنّموا «للربّ الساكن في صهيون». فحتّى لو استعملنا التأويل وقلنا إنّ السكن هنا يعني أنّه موجود في قلوب بني إسرائيل الذين يسكنون في صهيون، يبقى كلامنا منافياً للمنطق، لأنّ اللّه يسكن في قلوب جميع المؤمنين، حتّى لو كانوا وثنيّين لم يهتدوا بعد إليه. ولكنّ تأويلنا ليس في محله، لأنّ يهوه طلب من داود أن يبني له بيتاً، ثم تراجع عن ذلك وأوكل المهمّة إلى ابنه سليمان، بعدما غضب على داود لأنّه فعل الشرّ.

نقرأ من سفر صموئيل الثاني ما يأتي: «وفي تلك الليلة كان كلام الربّ إلى ناثان قائلاً اذهب قل لعبدي داود هكذا قال الربّ. أأنت تبني لي بيتاً لسكناي. لأنّي لم أسكن في بيت منذ أصعدت بني إسرائيل من مصر حتى هذا اليوم، بل كنت أسير في خيمة وفي مسكن» صموئيل ثانٍ 7: 4-6. فإلامَ يُمكن أن يؤوّل هذا الكلام؟ هذا إن صحّ دينياً التأويل لأنّه لا يمكن أن ينسجم مع الذات الإلهيّة، التي يجب أن يكون كلامها واضحاً لا لبس فيه، هذا إذا ما سلّمنا بأنّ اللّه يتكلّم مباشرة فقط مع من يختاره من بني إسرائيل.

وإذا ما أكملنا قراءة المزامير التي يشهق لها الكثيرون، وعلى مختلف أديانهم، ويعدّونها تحفة أدبيّة، فسيصدمنا كلام داود في مزموره التاسع والعشرين، عندما يقول: «صوت الربّ مكسّر الأرز ويكسّر الربّ أرز لبنان.

ويُمرحها مثل عجل. لبنان وسريون مثل فرير (فرير: ولد البقرة - لسان العرب) البقر الوحشيّ» مزامير 29: 5-6. لو أعطانا داود أيّ مبرّر لهذا الحقد على لبنان لتفهّمنا خلفيّات هذه الرؤيا. أمّا وأنّه لم يذكر شيئاً، فيبقى هذا الكلام، من دون شك، كلام كاتب غيور حاقد، رأى جمال أرز لبنان، وعلم أنّه أضعف من أن ينال من عزة الأرز، فتمنّى على يهوه أن يكسّره. ثم علينا أن نتساءل عن سريون، التي شبّهها مع لبنان بفرير البقر الوحشيّ، فهل هي سورية أم ناحية منها؟

ويبقى أن نشير إلى إحدى تحف داود الأدبيّة في مزموره السابع والأربعين عندما يطلب من «جميع الأمم صفّقوا بالأيدي. اهتفوا لله بصوت الابتهاج. لأنّ الربّ عليّ مخوف ملك كبير على كلّ الأرض. يُخضع الشعوب تحتنا والأمم تحت أقدامنا» مزامير 47: 1-3.

فكيف تسوّل لكاتب هذا المزمور نفسه أن يطلب من الأمم أن تصفّق وتبتهج، لأنّ ربّ إسرائيل أخضعها وجعلها تحت أقدامها؟ فلو جارينا الدارسين بقولهم إنّ المزامير من أرقى أنواع الأدب، لكرهت نفسي الأدب، وهذا الإسفاف بالشكل والمعنى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الباب التاسع
الأناشيد

يقول موسى ديب الخوري معرّب كتاب التوراة: كتابات ما بين العهدين، الذي اعتمدته في هذه المناقشة لمضمون لفائف البحر الميت، إنّ هذه المخطوطة وُجدت في المغارة الأولى، ويبدو أنّها مؤلّفة من مدرجين، في كلّ منهما أعمدة متعددة، منها ما هو معطوب لا يُقرأ، ومنها ما استطاع العلماء قراءته وترجمته.

كما لاحظ الدارسون أنّ هذه المخطوطة كتبها اثنان، وذلك واضح من فارق الخط بين المدرج الأوّل والثاني. كما لاحظ العلماء إمكانيّة ربط بعض ما وُجد في المغارة رقم 4 بما وُجد في المغارة الأوّلى، وأعادوا تاريخ كتابتها إلى ما بين سنة 100 و63 قبل الميلاد. وأشار المعرّب إلى «فرضيّات مختلفة تتعلّق بالمؤلّف والتأليف الأصلي نفسه لهذه الأناشيد». وما زلت مستمراً من ناحيتي بالاعتقاد أنّها يمكن أن تُعد مؤلّفات لمعلّم الحق (هذا إذا ما افترضنا بأنّه شخصيّة تاريخيّة).

وبتعليقه على هذه الأناشيد، يقول المعرّب إنّ «النوع الأدبيّ لهذه الأناشيد قريب جداً من مزامير التوراة، والمؤلّف يشتمل على مزامير توبة ومَراثٍ مستوحاة من مراثي إرميا ومزامير حكمة قريبة من مزامير أيوب، وأناشيد نجدها في بن سيراخ أو أمثال سليمان. وعموماً تتوافق العقيدة الموجودة في المؤلّف مع التوراة».

وهذا تحديداً ما أشرت إليه غير مرّة. وذلك ينفي رأي القائلين إنّ مضمون هذه المخطوطات يختلف عن مضمون العهد القديم، الذين سمحوا لأنفسهم بالقول إنّ هذه المخطوطات هي التوراة الأصليّة، محاولين تخفيف الضغط عن العهد القديم المتداول، الذي بدأ على أيدي مجموعة متجرّدة من الدارسين جرؤت على تحدّي المحظور، فتناولت العهد القديم بالنقد والتقويم.

ويشير المعرّب أيضاً إلى أنّ أكثر ما يُميّز هذه الأناشيد أدبيّاً هو الطابع الشخصي فيها. ويرى أنّه يمكن الاستنتاج أنّ أكثر من شخص قد كتب هذه الأناشيد، وهي تتجاوز «الأنا للحديث عن الشخصيّة الجمعية أو عن نموذج مثالي للأسّينيين». وبالتالي فإنّ من كتبها نقل إلينا، إضافة إلى معاناته الشخصيّة، معاناة الجماعة التي وضعت ثقتها في معلّم الحق، فرفعته إلى مرتبة نبي، وعهدت إليه الإشراف على مخطّط الله، الذي على أساسه سيجري تحديد الأخيار والأِشرار، أي أبناء النور والظلِمة. ويبلغ عدد هذه

الأناشيد اثنين وثلاثين نشيداَ، تختلف من حيث الطول، وأظن أنّ ذلك ناتج من التلف في معظمها.

مع مطلع النشيد الأوّل نلاحظ التشابه مع أنشودة أخناتون، التي أثبتُ جزءاً منها في بداية البحث، والتي تدور حول رعاية اللّه للكون الذي أوجده بحسب قوانين خاصّة. ويبتدئ النشيد الأوّل بكلام جميل عن رحمة اللّه وعدله وحكمته، ويرى أنّ الكون بكلّ مجرياته منقوش أمام اللّه بمنقاش الذاكرة ولكافّة الأزمنة، مشيراً إلى أنّ الإنسان المخلوق من طين يمثل:

«عمق العار ومنبع الرجس

بؤرة الإثم وهيكل الخطيئة

روح الضلال والروح الفاسد، الخالي من الذكاء

الذي ترعبه أحكام العدل

وإنّما لأبناء الإنسان تنتمي خدمة العقوق

وأعمال الغش»(163).

يلاحَظ أنّ الكاتب كان يعاني من أزمة أخلاق عامّة، جعلته يعمّم أحكامه لتشمل كلّ البشر. فإذا هم بالنسبة إليه يمثّلون الغش والعقوق، مشيراً إلى أنّ الإنسان بالمطلق يجسّد العار والرجس، وهو خاضع للضلال لذلك ترعبه أحكام العدل.

ويبدو كما قلنا سابقاً أنّ معلم الحق، الذي نسب إليه بعضهم كتابة هذه الأناشيد، كان يعبّر عن روح الجماعة التي لحقها الظلم من بني جلدتها، وجعلها ذلك تغادر الديار وتلتجئ إلى المكان المقفر في قمران، وتُسلم قيادتها لمعلّم الحق الذي من شأنه أن يعيد بناء الإنسان. وأنا أرى أنّ معلّم الحق هذا هو شخصيّة أسطوريّة كمعظم شخصيّات العهد القديم، ولقبه يدلّ على أنّه شخصيّة معنويّة تعلّقت بها الجماعة، حيث يمكن أن يتسلّم المهمة أكثر من شخص محدّد، بحيث أنّه كلّما مات معلّم سلّم المهمة إلى معلّم آخر، لأنّ كتابة هذه المخطوطات استمرت فترة زمنيّة امتدت إلى ما بين 300 و400 سنة. وهكذا دواليك حتى قيام الساعة التي ستحلّ بظهور المسيح المخلّص. إذ كيف يمكن ألّا يستطيع أحد تأريخ حياة معلّم الحق أو ذكر اسمه في وثيقة تاريخيّة؟ والأرجح أنّ الكاتب، كما ذكرت سابقاً، كان يسرد ما يعانيه، وهي الأمور ذاتها التي كانت تعاني منها الجماعة، التي حلّت مشكلتها بالابتعاد عن المشكلة. يتناهى إلى أسماعنا قوله مرنّماً في النشيد الثاني:

«ضجيج دروبهم المستبدّة كان يثبّط من عزيمتي

وتحمّلي الشجاع بمواجهة الضربات،

وقد تعرّضت لمقاومة من الكفار

وكنت موضوع تشنيع على شفاه العنيفين

وهاجمني مجمع الكفّار هجوماً عنيفاً

لكنّك جعلت منّي راية لنخبة الحق»(164).

هو كلام يظهر للوهلة الأولى أنّه وجداني، مناجاة إنسان واجه اضطهاد الآخرين له، والآخرون بالنسبة إليه هم الكافرون، والكافرون هم الشعوب الأخرى، والأقسى من ذلك، هم أبناء دينه الذين، برأيه، ابتعدوا عن «الربّ»، أي لم يجاروه بتفسيراته. ولكن، حالما نستمر في القراءة يتبيّن لنا، كما لاحظنا في المخطوطات السابقة، أنّ معلّم الحق هذا، ليس معلّماً مطلقاً، بمعنى أنّه ليس كيسوع ومحمد، اللذين خاطبا كلّ إنسان، في كلّ بقعة من الأرض، بغض النظر عن لونه أو عرقه أو حتّى عن دينه.

فمعلّم الحق هذا، كما إلهه يهوه، يسعى إلى إنقاذ حفنة من البشر جارته في قناعاته الأصوليّة، ويسعى إلى إبادة كلّ الآخرين كما علّمه الإله يهوه. فهو، ومن وافقه على آرائه، يمثّلون أبناء النور الذين سيرثون الأرض إلى الأبد، والآخرون وهم الأكثريّة الساحقة من البشر، الضالّون الكافرون الذين سيجري استئصالهم والقضاء عليهم. وانطلاقاً من هذه المفاهيم، لا يعود هناك من معنى لهذه المناجاة الوجدانيّة، إلّا في نظر أتباع هذا المعلّم. لذلك كان تأثير هذه التعاليم محدوداً، ولم يتخطّ سياج الجماعة.

يبدأ النشيد الثاني على النحو الآتي:

«إنّني أمجّدك يا أدوناي

لأنّك وضعت روحي في جراب الحياة

وحميتني من كل فخاخ الشرك

إنّ متعسفين طلبوا روحي

لأنّني اعتمدت على ميثاقك...

ومثل بيوض فاسدة كانوا يفقسون القذارة والابتذال

في حين كانت ترتفع أمواجهم

وأنا، فيما كان قلبي يذوب مثل المياه،

أدركت روحي ميثاقك»(165).

وقبل أن أتناول كلمة أدوناي بالمناقشة، أريد أن أشير إلى الناحية الأدبيّة، إذ إنّ كثراً من الدارسين رأوا أن هذه الأناشيد تحفة أدبيّة، وأنا أرى فيها ركاكة لجهة بعض التشابيه الخارجة عن المألوف. فتشبيه وضع الروح في جراب الحياة لا يعطي المعنى العميق الذي يراد منه التسليم لإرادة الربّ وقدرته. والتعبير الثاني هو قوله إنّ قلبه يذوب مثل المياه، ففعل الذوبان لا ينطبق على الماء. وكان حريّ بالكاتب انتقاء شيء صلب، حيث يكون الذوبان عندئذ دليلاً حقيقيّاً على المعاناة.

أمّا عن لفظة أدوناي، فقد عدّها معظم الدارسين، بمن فيهم محرّرو الكتاب المقدّس، دائرة المعارف الكتابيّة المسيحيّة، لقباً من ألقاب اللّه يترجم عادة «السيّد»، حيث نستخدم حروف الحركة في هذه الكلمة في المخطوطات العبريّة للعهد القديم، بديلاً من كلمة يهوه، التي لم يكن يُسمح لليهودي بأن ينطقها، إذ عندما كان يصل القارئ إلى كلمة يهوه كان ينطقها بلفظ أدوناي.

وأنا أعتقد أنّ هذا الكلام استنتاج غير منطقي، إذ إنّ لفظة أدوناي لفظة كنعانيّة لا عبريّة، ولقد انتقلت إلى العبريّة، التي أكّدنا سابقاً أنّها إحدى اللهجات الكنعانيّة، التي تعامل بها بنو إسرائيل في المرحلة الأوّلى من استقرارهم في أرض كنعان. وكانت لغة شفهيّة متداولة غير مكتوبة، أوجد لها بعض الكتبة أحرفاً استقوها من الكنعانيّة الآراميّة مع القليل من التغيير، محتفظين بالكثير من الألفاظ الكنعانيّة فيها، وخاصّة أسماء بعض الآلهة، ومنها إيل وأدون، الذي أصبح عندهم أدوناي.

وحتّى اسم الإله يهوه وجد في أكثر من نقش في فلسطين المحتلّة يعود إلى ما قبل تدوين التوراة، مثل النقش الموجود على جدار في موقع خربة الكرم، وهو موقع أثري قديم غرب مدينة الخليل الفلسطينيّة، حيث يقول النقش: «فلتحلّ عليك بَركة الإله يهوه وعشيرته».

وأدون الكنعانيّ الفينيقيّ هو إله مدينة جبيل، الذي أصبح اسمه أدونيس عند اليونان، الذين يضيفون حرف السين إلى أواخر الكلمات، وهو الإله تموز عند البابليين، الذي يدلّ على الخصب حيث يموت هذا الإله على يد الخنزير البري ليعود إلى الحياة مع كلّ ربيع، فتخضوضر الأرض وتنبت الأزهار، وخاصّة شقائق النعمان، التي ترمز إلى دماء الإله. وليس هناك أيّ أمر في التوراة لبني إسرائيل بشأن ضرورة تقيّدهم بعدم ذكر اسم الإله يهوه. نقرأ من سفر الخروج ما يأتي: «فقال موسى لله ها أنا آتي إلى بني إسرائيل وأقول لهم إله آبائهم أرسلني إليكم. فإذا قالوا لي ما اسمه فماذا أقول لهم. فقال اللّه لموسى أهيه الذي أهيه. وقال هكذا تقول لبني إسرائيل أهيه أرسلني إليكم.

وقال اللّه أيضاَ لموسى هكذا تقول لبني إسرائيل يهوه إله آبائكم إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب أرسلني إليكم. هذا اسمي إلى الأبد وهذا ذكري إلى دور فدور. فإذا سمعوا لقولك تدخل أنت وشيوخ بني إسرائيل إلى ملك مصر وتقولون له الربّ إله العبرانيّين التقانا» خروج 3: 12-15.

ففي هذا الكلام نجد أمراً من ربّ العبرانيّين لموسى، الذي تحدّث معه برفع كلفة واضح، من دون أن يبادر إلى اعتباره ربّ الكون، فيُبلغ هذا الإله المجهول موسى أنّ اسمه هو (أهيه الذي أهيه)، وفسّر بعض الدارسين هذا الكلام الغامض بأنّه يعني (أكون من أكون)، ثمّ نجد هذا الإله يُفصح لموسى عن اسمه الحقيقي، فإذا به يهوه، مؤكّداً له أنّ هذا الاسم سيُعرف به لدى بني إسرائيل إلى الأبد. فكيف فهم الشارحون أنّ نطق اسم يهوه ممنوع؟ ولماذا لم يكن ممنوعاً لدى جماعة قمران، فقد قرأنا هذا الاسم مراراً في المخطوطات؟ إنّ المترجمين من العبريّة إلى كلّ اللغات تقصّدوا ترجمة لفظة يهوه بالربّ على نحو عامّ لإيهام القرّاء بأنّ إله بني إسرائيل الخاص هو إله الكون، ونجح التضليل، إذ لم ينتبه القرّاء للتعابير المتعددة الواردة في العهد القديم، التي تؤكّد دائماً أنّ هذا الربّ هو إله بني إسرائيل، الذي ورد للمرّة الأوّلى كإله للعبرانيّين، يوم لم يكن هناك عبرانيون بعد.

وأُورد هنا مثالين اثنين لتأكيد ذلك، فنقرأ من سفر التثنية: «الربّ إلهنا كلّمنا في حوريب»، وعندما نقول إلهنا، فهذا يعني أنّه ملك لهذه الـ «نا»، التي تدلّ على جماعة معيّنة. وفي الإصحاح السادس، يكلّم يهوه بني إسرائيل قائلاً لهم: «ومتى أتى بك الربّ إلهك...». فدائماً كان الكاتب يؤكّد أنّ هذا الربّ هو إله بني إسرائيل فقط، ولا علاقة له بالشعوب الأخرى. وفي توضيح على موقع ويكيبيديا نقرأ: «يهوه هو اسم اللّه المذكور في التوراة وفي العهد القديم في الكتاب المقدّس. وهو في الأساس إله من العصر البرونزي، جرى توظيفه في الديانة اليهوديّة (نقلاً عن باتريك ميللر من كتابه: تاريخ إسرائيل ويهوذا القديم)». ويضيف «أنّ اسم الإله يهوه يرد في تاريخ بلاد الشام مرادفاً للإله بعل حدد... ويرى دارسو الإنجيل أنّ اسم الإله (أي يهوه) وهو اللفظ الذي يفضّله الكتاب المقدّس، يظهر 7 000 مرّة تقريباً في الأسفار العبرانيّة الأصليّة. لكنّ غالبية الكتب المقدّسة لا تبيّن هذا الاسم، بل تضع مكانه «الله» أو «الربّ». وبعض هذه الكتب المقدّسة تعترف بأنّها استبدلت الاسم يهوه». وهذا الاستبدال، كما ذكرت، كان لغاية سياسيّة بحيث يقتنع المؤمنون أوّلاً، وساسة العالم ثانياً، بأنّه كلام الله، خالق الكون، وبالتالي يجب على الجميع العمل على تنفيذ أوامره ووعده لبني إسرائيل، المتعلّق بإعطائهم الأرض الممتدّة من النيل إلى الفرات.

وهذا الكلام لم يعد الاقتناع به وقفاً على اليهود والمسيحيين الإنجيليين المتهورين، فقط بل أيضاً على بعض المسلمين في العالم العربي أيضاً، كوزير خارجيّة البحرين مثلاً، الذي قال مؤكّداً حق اليهود الإلهي بأرض فلسطين. وأن يقول كاتب هذا التفسير على موقع ويكيبيديا إنّ يهوه هو اسم اللّه المذكور في التوراة وفي العهد القديم في الكتاب المقدّس، ففيه تزوير للحقيقة، إذ كان يجب عليه أن يقول، كما هو مثبت في النصوص التوراتيّة، إنّه اسم لإله بني إسرائيل فقط لا اللّه على نحو عامّ. أمّا عن شيوع اسم الإله يهوه في بلاد الشام في العصر البرونزي، فإنّ دراسة للموسوعة الفلسطينيّة على موقع غوغل تحدّد العصر البرونزي ما بين العامين 3200 و1200 قبل الميلاد. وهذا يعني قبل العبرانيّين بما لا يقلّ عن ألفي سنة، ما يؤكّد أنّ قبائل بني إسرائيل البربريّة اتّخذت لها هذا الإله الكنعاني إلهاً قبلياً ينصرها على أعدائها تشبّهاً بشعوب المنطقة.

وفي مطلع النشيد الرابع أيضاً، يتوجّه معلّم الحق بكلامه إلى أدوناي ممجّداً إياه لأنّه إلهه الذي مدّه بالشجاعة للوقوف بوجه الملحدين، والثبات على إيمانه بهذا الإله من دون أن يخشى عقاب الملحدين له. وسنرى لاحقاً أنّ كتبة هذه المخطوطات استعملوا أيضاً إلى جانب أدوناي اللفظة شاداي كاسم لإلههم. ومهما تعدّدت الأسماء، فإنّ هذا الإله سيبقى إلهاً منفرداً بذاته، ليس فقط عن بقيّة الآلهة في الأزمنة القديمة، بل عن اللّه الواحد في عصرنا الحالي أيضاً، لأنّ معتقدات اليهود لم تتغيّر، وبالتالي هم ما زالوا اليوم يسعون لتحقيق أوامر هذا الإله. وأكبر شاهد على ذلك هو ما يُعرف بنشيد إسرائيل الوطني، المستلهم من تعاليم إله بني إسرائيل. ولقد وقعتُ على تعريبين لهذا النشيد، الأوّل مختصر يعبّر عن تطلّع اليهود إلى الشرق وتحديداً إلى صهيون، مؤكّدين أنّهم لن يفقدوا الأمل الحلم، الذي يعود إلى ألفي عام، ويتمثّل بدولة حرّة لهم فوق أرض صهيون، حيث تكون القدس العاصمة الأبديّة. أمّا الثاني، فهو يتضمّن الكلام الآنف الذكر، يضاف إليه تهديد واضح لأعدائهم وتحديداً لسكّان مصر وكنعان وبابل، أي سكان الأرض التي وعدهم يهوه بها، ليقول في النهاية:

«ليخيّم على سمائهم الذعر والرعب منّا

حين نغرس رماحنا في صدورهم

ونرى دماءهم تُراق ورؤوسهم مقطوعة

وعندئذٍ نكون شعب اللّه المختار

حيث أراد الله».

فهل فهم المسؤولون العرب، الذين يزورون إسرائيل ويسمعون هذا النشيد، ماذا يسمعون؟ وإن هم فهموا، فهل يدركون إلى أيّ مقلب سينقلبون؟ حتّى لو توصّلوا إلى اتفاقيّات سلام مع العدو الإسرائيلي، حيث إنّ إله هذا العدو قد أمرهم قائلاً لهم: «احترز من أن تقطع عهداً مع سكّان الأرض التي أنت آتٍ إليها لئلّا يصيروا فخاً في وسطك».

وفي النشيد الخامس، يشير الكاتب إلى الاضطراب الذي أصابه، مشبّهاً وضعه مع الكافرين بالمرأة التي ستلد مع ما تحمل الولادة من آلام شديدة، وهو تشبيه لا بأس به، ويصل إلى القول:

«لأنّها في مياه الموت ستلد طفلاً ذكراً

وفي أغلال الشيؤل سينبعث من رحم الحامل

معلّم رائع، ذو قوّة،

وسيحرّر من المياه أيّاً كان بفضل التي حملت به»(166).

فما هو معنى الشيؤل؟ لم يتكرّم علينا المعرّب بأي تفسير. أمّا التفسير الوحيد لمجمل الكلام، فهو أنّ الكاتب يعني ولادة المسيح أي «المعلّم المدهش»، والمرأة التي تضعه تعني مجمع الأبرار وكنيسة القدّيسين خلال تعرّضها لاضطهاد الكافرين. أمّا كيف توصّل صاحب هذا التفسير إلى هذا الاستنتاج المطلق، فإنّه لأمر محيّر، وخاصّة أنّ مسيح اليهود هو غير يسوع، وهو لو قال (مسيح اليهود المخلّص) لكان في قوله أقرب إلى الحقيقة والصواب. وهذا إنّ دلّ على شيء، فإنّما يدلّ على عمليّات التزوير المستمرّة، منذ أن تولّى أحد العبرانيّين كتابة الكلمة الأوّلى من أسفار العهد القديم، مروراً بما كتبه محرّرو مخطوطات قمران، وصولاً إلى كلّ الكتب والدراسات التي قاربت هذه الكتابات مقاربة نمطيّة معتمدة على ألوهيّة ما يُعرف بالكتاب المقدّس وقداسته.

وفي النشيد السادس تمجيد أيضاً لأدوناي، وعوْد على ذكر بلعال وما سيحمله من فجور، بحيث أنّ الأرض ستصرخ:

«بسبب الكارثة التي حلّت على العالم،

وجميع الذين يكونون عليها يصيبهم الجنون،

ويترنّحون وقد صاروا ضحيّة لمصيبة كبرى،

لأنّ اللَّه يعجّ بزمجرته القويّة،

ومسكنه القدّوس يدوّي بحقيقته المجيدة،

وجيش السماوات يُسمع صوته،

والأساسات الخالدة تترنّح وتهتز،

والملائكة الأبطال السماويّة يلوّحون بسوطهم في العالم،

ولن يتوقفوا حتّى الإبادة المحتومة

الّتي ستكون نهائيّة ولا مثيل لها»(167).

ودائماً عليّ أن أطرح السؤال عن هذه الجماعة ومعلّم حقّها، الذي يُرعب المريد بدلاً من أن يؤانسه، ويلقي في نفسه الخوف بدلاً من السلام، ويجعل فرائصه ترتعد من عقاب هذا الإله، الذي لن يهدأ قبل الانتقام الذي يتمثّل في الإبادة المحتومة، على أيدي الملائكة الأبطال السماويّين، الذين بسوطهم سيجلبون النهاية التي لا مثيل لها لكلّ من يتبع بلعال. فأين سوط يسوع وصوته من سوط ملائكة يهوه وصوتهم؟ يسوع استعمل سوطه وصوته لطرد التجّار من الهيكل، والهيكل بالنسبة إليه لم يكن أبداً البناء الحجري، بل كان قلب الإنسان العامر بالإيمان الحقيقي. فهل يفهم أتباع يسوع اليوم مضمون رسالته؟ وإلى متى سيبقون غارقين في المستنقعات اللاهوتيّة، التي ملأها اليهود لهم بالرمال المتحرّكة؟

في مطلع كلّ نشيد نقرأ العبارة ذاتها:

إنّني أمجّدك يا أدوناي

فهل تمجيد اللَّه لا يكون إلّا بقتل كلّ من يخالف رأي الجماعة؟ أليس هناك حلّ آخر سوى القتل الذي حرّمه يهوه في وصاياه؟ فأيّ تناقض هذا؟ يسقط معنى هذا التناقض عندما يقتنع جميع المؤمنين بأنّ الوصايا العشر هي وصايا خاصّة، كما قلنا، لكي يتعامل بها بنو إسرائيل في ما بينهم، ولم ترتقِ إلى مستوى شريعة حمورابي، الذي نقشها على أحجار نصبها في أرجاء مملكته لكي يعرف الفقير والمظلوم حقّه، وأنّ هناك من يقف إلى جانبه ويساعده على استرجاع حقّه، من دون إلصاق صفة الألوهيّة بهذه القوانين الوضعية التي تعالج مسائل اجتماعيّة لا دينيّة، قوانين من شأنها، في حال تطبيقها، وقد طُبّقت من دون انتظار انتقام الربّ، أن تؤمّن للرعية العيش براحة واطمئنان.

وتمجيد أدوناي دائماً مرتبط بالميثاق. فالتقرّب من هذا الإله لا يكون إلّا بتأكيد الميثاق، وللتذكير، فإنّ الميثاق يتدرّج من وعد يهوه لإبراهيم بإعطائه أرض كنعان، ولذريّته من بعده، ملكاً أبديّاً، إلى اعتبار هذا الإله نفسه أنّه مختصّ فقط ببني إسرائيل، ولا يعنيه من شعوب العالم غيرهم، وصولاً إلى إعلانه أنّ إسرائيل هم شعبه المختار.

ثمّ يتكلّم الكاتب في النشيد السابع عن الأنبياء الكذبة، الذين ورد ذكرهم في أكثر من مكان في العهد القديم، وهؤلاء ليسوا سوى الذين لم يتفق معهم معلّم الحقّ على تفسير الشريعة، وبالتالي لم يُظهروا «أيّ تقدير له»، ويبدو أنّهم طردوه من بلده، لذلك يُظهر كلّ هذا الحقد عليهم، وهو ينظر إلى كلامهم على أنّه نفاق يحمل في طيّاته مشاريع بلعال، التي ترمي إلى زغزغة قلوب المؤمنين. ثمّ يتولّى معلّم الحق توجيه الأمر «للربّ» كي يردّ عليهم، ويحاكمهم بقوّته «بحسب تعدّد أخطائهم، حتّى يقعوا في أفكارهم، هم الذين تخلّوا عن ميثاقك». فالميثاق يبقى دائماً البوصلة التي توجّه المريد، وتنير طريقه، لكي يبقى ملتزماً أوامر يهوه الدمويّة، الذي سينصر معلّم الحق ودعواه، ويحكم بهلاك جميع شعوب البلاد، بحيث «يُباد ساعة الهلاك جميع الذين ينتهكون كلمتك». إنّها ثقافة تعتمد على مفهوم الموت بدلاً من مفهوم الحياة، ولا ترى سوى فساد الآخرين الناجم عن الابتعاد عن الميثاق. ويعود الكاتب ليقع في التناقض عندما يقول:

«لأنّك تسامح الفساد

وتطهّر الإنسان من الخطأ بعدلك

لأنّك أنت الذي خلقت العادل والكافر

أريد أن أرتبط بميثاقك للأبد

لأنّك حق، وعدل هي كافة أعمالك»(168).

أقول إنّ الكاتب وقع في التناقض، لأنّ الارتباط بالميثاق يمثّل نقيضاً للعدل والتسامح، من حيث أنّ الميثاق لم يكن عادلاً، فيما لو سلّمنا بصحة ما جاء في العهد القديم، لجهة سلب أرض شعب آمن وإعطائها لشعب آخر. لأنّ الناس، وعلى اختلاف شعوبهم، هم كلّهم أبناء الله، فلماذا يميّز فئة من فئة؟ ولماذا يأمر شعبه بطرد السكان الأصليين وقتلهم واحتلال أرضهم؟ أين يكمن العدل والرحمة في مثل هذا القرار؟

وتكاد تكون كلّ هذه الأناشيد متشابهة في المضمون الذي يُظهر معلّم الحق وما يعانيه من الكفرة من جهة، ويُظهر «الربّ» الذي يقف إلى جانبه ويخلّصه من إزعاج الآخرين له، وذلك بأن يهديه دائماً لالتزام الميثاق، فيقول في النشيد الثامن:

«وسمعت صرختي المستنجدة في مرارة روحي،

وكنت منتبهاً إلى صرخة بؤسي، في أنيني.

وقد حرّرت روح المحتاج

في عرين الأسود

الذين كانوا قد سنّوا لسانهم مثل السيف.

وأنت، يا إلهي، قد أغلقت أفكاكهم،

خشية أن ينتزعوا روح الفقير والمحتاج؛

وأرجعت ألسنتهم مثل السيف إلى غمده،

دون أن تتخلّى عن روح خادمك»(169).

فكلّ هذه الصرخات التي كان يشكو فيها معلّم الحق اضطهاد الناس له، والتي كان يُتبعها بالرضى الناتج من تدخل أدوناي لنصرته، لم تُثمر عمليّاً، وبقيت مجرّد أمانٍ هوائيّة تبخّرت عندما اشتدّ الضغط الروماني على الجماعة، فلم يسعفهم إلههم. وكان عليهم أن ينتظروا، كما يُنشدون في نشيد دولة الاحتلال الرسمي، ألفي سنة كي يُنشئ ملحدون يهود المنظّمة الصهيونيّة، التي استغلّت المقولات اللاهوتيّة التوراتيّة، فتلاعبت بعقول المؤمنين وقادة الدول، وأوهمتهم أنّهم قد حقّقوا رغبة «الربّ»، وبالتالي سينالون رضاه وستُفتح لهم أبواب الجنّة، لأنّ المسيح لن يعود إلّا حين يتجمّع اليهود في فلسطين مجدداً. فلذلك نرى الإنجيليين الجدد في الولايات المتحدة يضغطون على كلّ الرؤساء لمنح إسرائيل الدعم المطلق لعلّهم بذلك يحقّقون تمنيّات يهوه فيضمنون رضاه. وهم في وهمهم هذا لا يميّزون بين كلام يهوه وكلام يسوع، الذي إليه ينتمون بالاسم لا بالمعرفة، ولا بالمحبة، ولا بالتسامح، ولا حتّى بالحقيقة، لأنّ يسوع أبلغهم أنّ مملكته ليست من هذا العالم، فسفّه توقعهم بأن يكون هو المسيح الملك المخلّص.

وفي مطلع النشيد التاسع نقرأ شكوى من معلّم الحق ضدّ الذين كانوا حوله، فيقول:

«وجميع الذين كانوا يأكلون خبزي،

فضدّي انقلبوا.

وقالوا السوء عني، بلسان شرير،

جميع الذين كانوا قد انضموا إلى جماعتي.

ورجال مجمعي كانوا ثائرين

وراحوا يتهامسون حولي...

وقد أدركوني في شعاب حيث لم يكن ثمّة أي ملجأ...

لكنك يا إلهي فتحت فضاءً رحباً في قلبي»(170).

هذا الكلام يعود بنا إلى كلام سابق عبّر فيه معلّم الحق عن العقوق، أيّ أن ينكر عليه أتباعه فضل إرشاده لهم إلى ضرورة التزام الميثاق. وهذا يعني أنّ معلّم الحق هذا قد أخفق في مهمّته في الوقت الذي انفضّ فيه أتباعه عنه، الأمر الذي جعله يشعر باليأس وقسوة المعاناة، لكنّه في النشيد الثاني عشر يستعيد ثقته بنفسه، فيشكر أدوناي على دعمه له، ويقول:

«وجعلتني قويّاً بمواجهة معارك الكفر،

ووسط كافة العذابات التي كانت تسببها لي،

لم تتركني أتخلّى بجبن عن ميثاقك...

وأنت في عدالتك،

قد أقمتني من أجل ميثاقك...

الرجال الذين يحاربونني ويخاصمونني

مثل حزمة (القمح) تنثرها الريح،

وسيطرتي (ستمتد) على أبناء الأرض»(171).

جميل أن يكون إيمان الإنسان قويّاً بمخلّصه؛ ولكن أن يكون هذا الإيمان نابعاً عن حقد على الآخر، وعن تمسّك بميثاق وهمي لإله قبلي مع شعب خاصّ اختاره لنفسه من بين كلّ شعوب الأرض، ويدفع هذا الشعب إلى القتل والنهب والتدمير، وصولاً إلى السيطرة «على أبناء الأرض»، فإنّ هذا الشعور يبقى إيماناً ناقصاً لا نفحة إنسانيّة فيه، بل يدلّ على عنصريّة فائقة، وجوع مزمن للسيطرة والانتقام من الآخر.

وعندما نعي ذلك، تسقط برأيي كلّ قيمة عن هذه الأناشيد، حتّى القيمة الأدبيّة، لأنّه إن لم يكن الأدب مفعماً بالقيم الإنسانيّة الإجتماعيّة، فإنّه يبقى أدباً آنياً لا يمسّ مشاعر الإنسان المطلق. أقول هذا وأُردف مشترطاً على القارئ أن يكون متجرّداً غير مشبع بعنصريّة الكاتب نفسها، حتى ولو كانت هذه العنصريّة نابعة من الإيمان الذي أسلس قياده إلى الأفكار الماورائيّة، التي تتحدّى المعقول والمقبول.

وتتوالى الأناشيد على النسق ذاته، والمضمون ذاته، وأحياناً كثيرة التشابيه ذاتها، وكأنّي بالكاتب قد أمضى حياته مع معاناته التي لم تنته؛ وبالتالي لم يصل إلى تحقيق أمانيه، ولا إلهه، والثقة التامة به، قد أنجده وخلّصه من عذابات جلجلته، بالرغم من تكراره في كلّ نشيد الكلام نفسه عن مساعدة

الإله له بمعرفة الحقيقة، وعن غضبه وانتقامه من الذين سيستمرّون في كفرهم، أي الذين يبقون بعيدين عن الجماعة ولا يوافقونها على كلّ تعاليمها. يقول معلّم الحق:

«لأنّك جعلتني أعرف سرّ الحقيقة

وكشفت لي عن روائعك،

وتأمّلت عمق أسرارك

المخصّصة لجميع أبناء النعمة.

وقد عرفت أنّه لك ينتمي العدل،

وأنّه في نعمك يكمن السلام

وفي اضطرام غضبك الانتقام والهلاك من دون رحمة»(172).

تنتهي هذه الأناشيد، وقد أكّد كلّ منها غضب هذا الإله وانتقامه من دون رحمة من كلّ مَن لا يسير بحسب مشيئته، لأنّها القضاء والقدر. ولكن إذا ما عدنا إلى التاريخ فسنجد أنّه، ليس فقط معلّم الحق قد أخفق في مهمّته، بل أيضاً الإله يهوه، وذلك لعدوانيّته التي لا تجتذب المؤمنين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الباب العاشر
مدرج المزامير المنحولة لداود

عندما يوصف أحد الأعمال الكتابية القديمة بالمنحول، فهذا يعني أنّه مشكوك في صحته؛ وبالتالي لم تعدّه السلطات الدينية من التراث الذي يجب ضمّه إلى الكتب الأساسيّة. وإذا ما أمعنّا جيّداً في هذه المسألة، فإننا سنجد أنّها خضعت لمزاجيّة الجماعة التي أخذت على نفسها تقويم الأعمال التي وصلتها، فاتخذت قراراتها بناءً على قناعات خاصّة لا علاقة لها بالحقيقة. ولما كانت كلّ المخطوطات القديمة العائدة إلى العهد القديم خالية من أيّ تاريخ أو اسم يدلّ على كاتبها، فإنّ اختيارها أو نبذها كان خاضعاً لتقويم فردي، حتّى لو اتفقت عليها مجموعة معدودة من الأشخاص، إذ من الممكن أنّ لهذه المجموعة المقرّرة هوى واحداً، وميولاً عقائديّة واحدة، جعلتها تتمسّك بمخطوطة دون أخرى. وهذا ما حدث للأناجيل أيضاً، بالرغم من معرفة كاتبيها. فقد رفضت السلطات الكنسية الاعتراف بعشرين إنجيلاً، وأهم الأناجيل التي لم يُعترَف بها إنجيلا توما وبرنابا.

ويرى بعض الدارسين أنّ الذين استبعدوا إنجيل توما واتّهموه بشكّه في شخص المسيح بعد القيامة، إنّما لفّقوا له هذه التهمة توطئة لاستبعاد إنجيله لاحتوائه على ما يخالف قناعاتهم. وكان على المؤمنين الانتظار حتى العام 325، حيث عقد مجمع نيقيا ، الذي تخلّف عن حضوره ثلثا الأساقفة، وبالرغم من ذلك، اتُّخذت فيه قرارات كانت مصيريّة بالنسبة إلى الديانة المسيحيّة، ومنها اعتماد أناجيل محدّدة من دون سواها. وهذا المدرج الذي نحن بصدد مناقشة مضمونه، والذي يشتمل على بعض المزامير الداوديّة، التي عُدّت منحولة، وُجد بأغلبيته وقد أصابه التلف، وأعاده الدارسون إلى القرن الأوّل الميلاديّ. ولمّا كانت كلّ المزامير المعروفة بمزامير داود والمثبتة في سفر المزامير في العهد القديم، لم يقم عليها الدليل أنّ داود قد كتبها، ولمّا كان كثر من الدارسين اليوم لا يؤمنون بتاريخيّة شخصيّة داود، فلا فائدة إذن من تصنيف ما وصلنا عن لسان داود بالأصلي والمنحول.

ففي المزمور الأوّل، نقرأ عن حياة داود الذي كان أصغر إخوته، والذي جعله أبوه راعياً، وكيف صنع مزماره القصبيّ، وبدأ بتسبيح يهوه. فكيف يحق لداود التلفّظ بلفظة يهوه ويُمنع غيره من ذلك؟ علماً أنّنا قد أثبتنا سابقاً بطلان هذا الاستنتاج الذي أثبته بعض الدارسين والشارحين. ثم يذكر الكاتب على لسان داود أنّ يهوه أرسل النبي صموئيل لكي يمسحه ملكاً. وفوراً ينتقل الكاتب إلى جملتين تفيدان بأنّ داود بدأ أعماله الباهرة، وبالطبع كان أحدها تصدّيه

لجوليات الفلستيني، وقتله لأنّه تحدّى أصول إسرائيل. ويبدو أنّ المدرج عند هذه النقطة أصابه التلف، فلم نستطع الاطلاع على بطولة داود الأسطوريّة، التي أثبتها كاتب العهد القديم في سفر صموئيل الأوّل الإصحاح السابع عشر. هذه الأسطورة التي لا تزال تتناقلها الألسن كأنّها حقيقة لا جدال حولها.

وبعد تكرار الكاتب مرّات متعددة لفظة يهوه يعود ثانية إلى استعمال لفظة أدوناي للدلالة على ربّ بني إسرائيل، حيث كان قد أشار إليه في منتصف المزمور الثاني على أنّه «العلي ربّ يعقوب». ويعقوب كما هو معروف غيّر يهوه اسمه إلى إسرائيل، فانتسبت القبائل التي نتجت من ذريّة أبنائه إليه، فأخذ هذا الإله يناديهم ويتوجّه بالكلام إليهم كبني إسرائيل.

وفي المزمور الثالث نقرأ بعض التمنيّات التي يطلب داود من أدوناي = يهوه أن ينفّذها له قائلاً:

«استمع إليّ وامنحني ما أطلب،

وما ألتمسه لا ترفضه لي!

أنعش نفسي ولا تتركها تنهار،

ولا تتركها بمواجهة الكافرين

قاضٍ بالحق أنت أيا يهوه

لا تحكمني بحسب خطيئتي!...

خطيئة شبابي أبعدها عني،

وتمرداتي، أَلا لا يتذكّرها بعد الآن ضدّي!

ألا طهّرني، أيا يهوه، من الآفة السيّئة،

فلا ترجع أبداً نحوي!...

إنّك لمجيد، أيا يهوه!...

وأبناء الإنسان، ماذا بإمكان قوّتهم أن تُضيف؟...

لقد كدّر قلبي، أعداء يهوه؛

لكنّ يهوه أنقذني وسندني»(173).

كيف لنا أن نقدّم هذه الأناشيد كتراث إنسانيّ مميّز، وهي لا تتحدّث إلّا عن إله خاص لشعب هو كناية عن اثنتي عشرة قبيلة بربريّة؟ وهذه الأناشيد، كما يرى معظم الدارسين تأثّرت بمثيلاتها في بلاد كنعان، التي تعدّ أرقى بدرجات لأنّها

كانت تعبّر عن مكنونات النفس البشريّة على نحو عام، ولم تنحصر بإله خاص محليّ، ولا بقبيلة.

لذلك نرى مدى التأثير الذي تركته في الحضارتين اليونانيّة والرومانيّة، الّلتين اعترفتا بفضل حضارات المشرق على عكس بني إسرائيل الذين تنكروا لفضلها، بل أكثر من ذلك حاولوا التقليل من مستوى هذه الحضارات بعدما نهلوا منها، وادّعوا أنّ الأثر الوحيد الذي بقي من حضارتهم المزعومة، أي كتاب العهد القديم، هو كتاب الحضارة الخالد.

وما هو جيّد في هذه الأناشيد هو اعتراف داود بخطيئته وتمرّده على أوامر إلهه. أمّا تعبير ابن الإنسان، فهو قطعاً مأخوذ من التراث الكنعانيّ، الذي ترك تأثيره أيضاً في يسوع الكنعانيّ فاستعمل التعبير ذاته.

وبالانتقال إلى النشيد المعنون: «تعظيم صهيون، رجاء الكاملين»، نجد أنّ شيئاً واحداً من هذا الرجاء قد تحقّق بعد ألفي سنة، وهو العودة إلى أرض فلسطين. ولكن ليس لأنّ الإله أمر بذلك، بل لأنّ النفسيّة الاستغلاليّة التي زرعها هذا الإله في أبناء شعبه ظلّت تتفاعل على مدى مئات السنين، فقد كنّا نشهد ملاحقة اليهود حيثما حلّوا، للاقتصاص منهم كردّ فعل على استغلالهم الشعوب ونهب ثرواتها، إضافة إلى التفكير الاستعماري الذي استغلّ بدوره اليهود وجعل منهم خط دفاع أوّل عن مستعمراته التي أنشأها وأرادها أن تكون قواعد له يمارس منها نهبه لثروات الشعوب.

«عظيم هو رجاؤك، آه يا صهيون،

والسلام وانتظارك للخلاص سيتحقّقان،

إنّ أجيالاً من الأتقياء سيكونون مجدك

من كلّ جهة حولك، أُبيد أعداؤك، يا صهيون،

وكل الذين يحتقرونك تشتّتوا»(174).

وعندما نقرأ هذا الكلام نجد أنّ نقيضه قد تحقّق لا مضمونه. فلا الخلاص ولا السلام تحققا، ولا أظنهما سيتحقّقان بالرغم من كلّ محاولات فرض التطبيع، وخنق أبناء فلسطين بالحصار اللاإنسانيّ الوحشيّ. ولا نجد في دولة الاحتلال بعد ألفي سنة من هذا الكلام تقيّاً واحداً يمثّل مجداً لصهيون، بل كلّ سكانها الجدد سيبقون الإرهابيين الذين يندى جبين التاريخ لأفعالهم. وأعداء صهيون لم يُبادوا ماضياً ولم ولن يبادوا حاضراً، وكلّ الذين يحتقرون صهيون لم يتشتّتوا، بل تشتّت أبناء صهيون لألفيتين. ولن ينعموا بالسلام لأنّهم لا يؤمنون به، وما كلامهم عنه إلّا مجرّد ادّعاء وقد فضحتهم ممارساتهم، التي لا تنمّ إلّا عن مضمون ميثاق يهوه «لا تُقم عهداً معهم». ونختم تعليقنا على هذه

الأناشيد بنصٍّ حولها وحول كاتبها وعددها وطقوسها، ما يثبت بما لا يقبل الشك ضرورة نزع أي صفة إنسانيّة عنها، لاختصاصها بنفر قليل من البشر:

«داود، ابن يسي، أصبح حكيماً، ونوراً مماثلاً لنور الشمس، وكاتباً، ورجلاً ذكيّاً وكاملاً في كلّ دروبه أمام اللّه والبشر. ويهوه أعطاه فكراً ذكيّاً ومستنيراً. وكتب مزامير عددها ثلاثة آلاف وستمئة، وأناشيد لتنشد أمام المذبح من أجل محرقة الذبيحة الدائمة لكلّ يوم، ولكلّ أيام السنة وعددها ثلاثمئة وأربعة وستون، ولتقدمة أيام السبت اثنان وخمسون نشيداً، ومن أجل تقدمة مطالع الأشهر وأيام الأعياد كلّها ويوم الوحي والإلهام ثلاثون نشيداً. والأناشيد كلّها التي أنشدها عددها أربعمئة وستة وأربعون. والأناشيد التي تُعزف على آلات الموسيقى للأشخاص الممسوسين بأرواح شريرة هي بعدد أربعة. والمجموع يصل إلى أربعة آلاف وخمسين نشيداً. كلّ ذلك نطق به بروح النبوّة، التي كانت قد أُعطيت له من لدن العلي»(175).

كلّ هذا الكلام يناقض الحقيقة التي أوردها كاتب العهد القديم، الذي قال عن داود إنّه فعل الشرّ في عيني «الربّ». ولو كان يهوه بالفعل قد أعطاه فكراً ذكيّاً ومستنيراً، لما كان، وباعتراف منه في الأناشيد التي مرّت معنا، قد اقترف الخطيئة وتمرّد على أوامر يهوه، ولما كان قد ارتكب الزنى، وأورث أولاده هذا الفعل الشنيع. أما ما كُتب من أناشيد الطقوس، فيبقى مرهوناً بتنقيبات علماء الآثار الّذين، حتى الآن، لم يستطيعوا إيجاد أثر واحد يؤكّد وجود داود. لذلك رأوا أنّ هذه المزامير والأناشيد من عمل كتبة عاشوا بعد فترة طويلة من حياة داود المزعومة، كوسيلة دعم لإثبات وجوده، لكنّها لم تنجح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الباب الحادي عشر
مختارات

تحت هذا العنوان يقول واضعو هذا الكتاب في التوطئة إنّ «ستة وعشرين جزءاً منفصلاً من جلد بُنيّ محمرّ وُجدت في المغارة الرابعة، وجرى وصلها

بعناية لتكوّن عموداً شبه كامل من تسعة عشر سطراَ... وقد أشار إليها ناشرها J.M.ALLEGRO باسم مختارات»(176).

وهذا الكلام يدلّ على أنّ كاتب، أو كتبة، هذه المخطوطة لم يضعوا لها عنواناً، وبالطبع لم يذيّلوها بأيّ اسم. ويُرجَّح أنّها كُتبت في مطلع القرن الأوّل الميلادي. ويبدو أنّ هذه المخطوطة عُدّت شروحاً لعدد من المقاطع المنتقاة عشوائيّاً من العهد القديم، من دون أن يكون بينها أيّ رابط، وتتركّز على اهتمامات جماعة قمران بالآخرة.

وقد تكون هذه الأفكار هي الحافز الذي دعا الدارسين إلى اعتبار مضمون هذه المخطوطات يختلف عن مضمون العهد القديم، ذلك أنّ اليهود لم يؤمنوا بالآخرة. ويبدو أنّ الجماعة تأثّرت في هذه المسألة، بالثقافة الهلينية.

سأنتقي من هذه المختارات بعض المقاطع وأحاول تقويمها، لنرى إذا كانت بالفعل قد حملت «معلومات ثمينة عن تاريخ الأسّينيين»، كما استنتج واضع كتاب: التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، الصفحة 60. وهذا الكتاب، كما أصبح واضحاً، هو تعريب لمخطوطات قمران، تسبقه شروح للمحقّقين أندريه دوبون - سومر ومارك فيلوننكو.

نقرأ من المقطع الأوّل لهذه المختارات ما يأتي:

«إنّه الهيكل الذي سيُبنى في نهاية الأزمنة، كما هو مكتوب في وصيّة موسى: في المعبد يا أدوناي، الذي أنشأته يداك، فإنّ يهوه سيسود دائماً وأبداً. إنّه البيت الذي لن يدخله الكافر أو النجس إلى الأبد، ولا العمّوني ولا الموآبي ولا الخلاسي ولا الغريب ولا الدخيل إلى الأبد، بل الذين يحملون اسم القديسين. وسيسوده يهوه إلى الأبد، وسيتجلّى عليه دائماً، والأجانب لن يجتاحوه أبداً، كما اجتاحوا من قبل هيكل إسرائيل بسبب خطيئتهم. وقد أمر ببناء معبد له مصنوع بيد الإنسان حتى يكون ثمة في هذا الهيكل من يحرق الأضاحي لمجده أمامه، من بين الذين يطبّقون الشريعة»(177).

كلّ هذا الشرح جاء لإيضاح سطر واحد ممّا ورد في سفر صموئيل الثاني، وبما أنّ بداية هذا المخطوط قد أصابها التلف، فقد أثبتت سطراً واحداً من المخطوطة وهو يتوافق مع ما جاء في الإصحاح السابع من سفر صموئيل الثاني.

ورد في المخطوطة: «ولم يعد ليخضعه أيّ من بني الإثم كما من قبل، منذ اليوم الذي أقمت فيه قضاة على شعبي إسرائيل»(178). وهذا الكلام يتوافق مع مضمون ما جاء في صموئيل الثاني كما يأتي: «وعيّنت مكاناً لشعبي إسرائيل وغرسته فسكن في مكانه ولا يضطرب بعد، ولا يعود بنو الإثم

يذلّلونه كما في الأوّل. ومنذ يوم أقمت فيه قضاة على شعبي إسرائيل. وقد أرحتك من جميع أعدائك» صموئيل ثانٍ 7: 10-11.

أوّل ما لفت نظري في شرح المخطوطة، هو قول الكاتب إنّه مكتوب في وصيّة موسى بأنّ أدوناي سينشئ المعبد، وإنّ يهوه سيسود دائماً وأبداً. ومعلوم، بحسب ما تقدّم معنا، أنّ أدوناي لفظ ثانٍ للفظة يهوه، التي استنتج الدارسون أنّه لم يكن يُسمح لليهودي بأن يتلفّظ بها. وهذا يعني أنّ اللفظتين تدلّان على إله واحد، لكنّنا من كلام كاتب المخطوطة نفهم أنّهما إلهان، واحد سيبني الهيكل أو المعبد وهو أدوناي، والثاني سيسود إلى الأبد وهو يهوه.

وهذا التخبّط نلمسه في أكثر من موضع، سواء في العهد القديم، أو في المخطوطات. وعندما يقول كاتب المخطوطة «كما هو مكتوب في وصيّة موسى»، فهو لا يعني مطلقاً الهيكل أو المعبد، لأنّ موسى لم يأت على ذكرهما، بل هو يعني كلام موسى عن بني الإثم، الذين لا يمكن أن يدخلوا ضمن جماعة الربّ، أي بني إسرائيل.

نقرأ من سفر التثنية: «لا يدخل مخصّي بالرضّ أو مجبوب (الخصّي الذي قد استؤصل ذكره وخصيتاه - لسان العرب) في جماعة الربّ. لا يدخل ابن زنىً في جماعة الربّ... لا يدخل عمّوني ولا موآبي في جماعة الربّ. حتّى الجيل العاشر لا يدخل منهم أحد في جماعة الربّ إلى الأبد». والسبب سخيف إلى الحد الأقصى، وهو: «من أجل أنّهم لا يلاقونكم بالخبز والماء في الطريق عند خروجكم من مصر...» تثنية 23: 1-4.

فالكلام يُقصد به إذن أبناء الإثم الذين عدّدهم موسى. وبرّر ذلك، لأنّهم لم يقدّموا الخبز والماء إلى شعبه عند خروجه من مصر. لم يحدّد موسى عند الخروج المزعوم من مصر أنّه التقى هذه القبائل، بل قال إنّه تاه هو وشعبه أربعين سنة في سيناء، وهو الأمر الذي لا يُقرّه عقل، إذ كيف يمكن لمئات الآلاف أن يعيشوا في الصحراء كلّ هذه المدّة من دون أن يخطر ببال مجموعة أن تستكشف المحيط الجغرافيّ الذي أقاموا فيه؟ علماً أنّ الطرق بين مصر وكنعان، مروراً بسيناء، كانت مطروقة قبل مئات السنين من ظهور العبرانيين. وكانت حملات الكنعانيين الهكسوس على مصر واستيلاؤهم عليها، وطرد الهكسوس من مصر وحملات الفراعنة المضادة على أرض كنعان، قد حدثت قبل خروج العبرانيين بما لا يقلّ عن أربعمئة سنة، فلماذا لم يتُه أحد في مجاهل سيناء. أمّا كاتب التوراة، فقد برّر الضياع بمشيئة يهوه، وبرّر البقاء لأربعين سنة بأنّ يهوه أنزل على شعبه المنّ والسلوى فأنقذه من الموت جوعاً. والمنّ هو ظاهرة موجودة، حتّى اليوم، في العراق فقط، حيث يتساقط فوق الصخور فيُجمع ويضاف إليه دقيق خاصّ ليصبح مذاقه حلواً. وقد أُطلق على هذا الطبق اسم منّ السماء. أمّا السلوى، فهو نوع من الطيور أرسله

يهوه إلى شعبه بعد أن تذمّر لموسى وهارون قائلاً: «ليتنا متنا بيد الربّ في أرض مصر إذ كنّا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع» خروج، 16: 3. فكيف يمكن لرفوف هذا الطائر أن تكفي ما يزيد على مليون شخص ولمدّة أربعين سنة؟ وكيف يمكن لموسى أن يقول إنّ العمّونيين والموآبيين، وهم من ذريّة لوط ابن أخي إبراهيم جدّ العبريين، لم يقدّموا إلى بني إسرائيل الخبز والماء عند خروجهم من مصر، وكان قد قال إنّ ربّ إسرائيل سيُرشد برأفته الشعب الذي فداه، ويهديه بقوّته إلى مسكن قدسه، وهو عندما يفعل ذلك: «يسمع الشعوب فيرتعدون. تأخذ الرعدة سكان فلسطين، حيث يندهش أمراء أدوم. أقوياء موآب تأخذهم الرجفة. يذوب جميع سكان كنعان وتقع عليهم الهيبة والرعب. بعَظَمَة ذراعك يصمتون كالحجر. حتّى يعبر شعبك يا ربّ. تجيء بهم وتغرسهم في جبل ميراثك. المكان الذي صنعته يا ربّ لسكنك»؟ خروج، 15: 14-17.

يُفهم من هذا الكلام الذي سبق كلام موسى عن تبريره لعدم دخول المؤابيين والعمّونيين في جماعة الربّ، أنّ ربّ بني إسرائيل سيكون قد أذابهم، وبعَظَمَة ذراعه سيجعلهم يصمتون كالحجر لكي يعبر شعبه، فكيف لهذا الشعب الذي أوقع عليه يهوه الرعب والصمت، وجعله من دون إحساس كالحجر، أن يخرج من بيوته ليقدّم الخبز والماء إلى بني إسرائيل؟ إنّه تخريف كاتب العهد القديم، الذي اخترع قصّة الخروج وما رافقها من عجائب يهوه، ليعطي شعبه بعض المعنويات التي يمكنها أن ترفده بالقوّة للانتصار على أعدائه الوهميين.

وبعد ذلك يقول الشارح في المخطوطة إنّ الذين سيدخلون إلى الهيكل هم «الذين يحملون اسم القديسين»، فماذا يُفهم من هذا الكلام غير الضبابيّة التي تفسّر الماء بعد الجهد بالماء؟ وقوله إنّ يهوه سيسود، وإنّ الأجانب لن يتمكّنوا من اجتياح المعبد أبداً، كما اجتاحوا من قبلُ هيكل إسرائيل بسبب خطيئتهم، فهو قول نقضته الأحداث، حيث إنه حتّى اليوم كما مرّ معنا، لم يستطع المنقّبون إثبات وجود هذا الهيكل، وبالتالي لم يُبن مجدّداً لكي لا يستطيع أحد اجتياحه.

وواضح من بقيّة كلام الشارح أنّ المعبد الذي سيقام بأمر من يهوه، سيُبنى بيد الإنسان. ومَن غير الإنسان يمكن أن يشيّد بناءً ليكون معبداً أو مسكناً؟ أمّا سبب بناء هذا المعبد، فلن يكون من أجل الصلاة، بل لكي «يكون ثمّة في هذا الهيكل من يحرق الأضاحي لمجده أمامه، من بين الذين يطبّقون الشريعة». فكلّ همّ هذا الإله، أو قل مخترع هذا الإله، يتجسّد في حرق الأضاحي لكي يتنسّم هذا الإله رائحة الشواء، فيرضى عن شعبه الخاص. فأيّ روحانيّات مقدّسة نستشفّها من هذا الكلام الإلهي؟

وبالانتقال إلى مقطع جديد نقرأ: «ويهوه يخبرك أنّه سيبني لك بيتاً، وأديم نسلك من بعدك، وأثبّت عرشه الملكيّ إلى الأبد. أنا سأكون له أباً، وهو سيكون لي ابناً»(179). وهذا الكلام منقول عن سفر صموئيل الثاني، حيث يقول كاتب هذا السفر: «والربّ يخبرك أنّ الربّ يصنع لك بيتاً... هو يبني بيتاً لاسمي وأنا أثبّت مملكته إلى الأبد. أنا أكون له أباً وهو يكون لي ابناً» صموئيل ثانٍ 7: 11-14. وكان قد سبق هذا المقطع كلام عما قاله «الربّ» لداود من أنّه سيريحه من كلّ أعدائه، لذلك رأى الشارح أنّ الكلام السابق موجّه إلى داود، فنلاحظ أنّ هذا الربّ يبادل داود عملاً بعمل، إنّها علاقة مصلحيّة بامتياز، فعلى داود أن يبني بيتاً «للربّ» كي يقوم هذا «الربّ» بتثبيت مملكة داود إلى الأبد، علماً أنّ الجملة الأوّلى تفيدنا بأنّ الربّ هو من سيبني بيتاً لداود. واكتشفنا بعد إصحاحات متعددة أنّ «الربّ»، الذي كان قد طلب من داود أن يبني له بيتاً، قد عاد عن قراره، وعهد بهذه المهمّة إلى الملك سليمان بن داود، لأنّ داود عمل الشرّ في عيني «الربّ»؛ فنقل مهمّة بناء البيت من داود وألقاها على عاتق سليمان. وهذا يعني أنّ كلّ هذا الكلام عن داود وبناء البيت = الهيكل = المعبد، لم يعد له أيّ قيمة.

وننتقل مع الكاتب الشارح إلى فقرة جديدة بشأن أسطورة ملكي صادق العبريّة، كما عنونها ناشر المخطوطة. وملكي صادق هو ملك ساليم، أو شاليم، وقد ورد ذكره في سفر التكوين على النحو الآتي: «وملكي صادق ملك شاليم أخرج خبزاً وخمراً. وكان كاهناً لله العلي وباركه، وقال مبارك أبرام من اللّه العلي ملك السماوات والأرض» تكوين 14: 18-19. ويقول الدارسون إنّ شاليم هذه هي أورشليم، وكان ملكي صادق ملكها وكاهنها الأعلى عندما مرّ بها إبراهيم في المرّة الأوّلى. وعندما يقول كاتب العهد القديم إنّ ملكي صادق هو ملك شاليم وكاهن للّه العلي. فهذا يعني، كما مرّ معنا سابقاً، أنّ الملك قد جمع بيده، في ذلك الزمن، السلطتين الزمنيّة والدينيّة. ويعني أيضاً أنّ سكّان أورشليم، الواقعة في جنوب أرض كنعان، كانوا يعرفون اللّه قبل إبراهيم، وقبل ذريّته، أي بني إسرائيل. ويعني أيضاً وأيضاً أنّ العبرانيّين أخذوا التوحيد من الكنعانيين والعكس ليس صحيحاً أبداً. وما يؤكّد كلامنا هو أنّ ملكي صادق قد بارك أبرام. والذي يقوم عادةً بفعل المباركة يكون أعلى رتبة من المبارَك. لذلك ورد في الرسالة إلى العبرانيّين في العهد الجديد: «كذلك المسيح أيضاً لم يُمجّد نفسه ليصير رئيس كهنة، بل الذي قال له أنت ابني وأنا اليوم ولدتك». كما يقول أيضاً في موضع آخر: «أنت كاهن إلى الأبد على رتبة ملكي صادق» العهد الجديد، الرسالة إلى العبرانيين 4: 5-6. وعندما أعلِن المسيح كاهناً إلى الأبد على رتبة ملكي صادق فإنّنا نفهم من هذا الكلام أنّ رتبته إلى الأبد تحفظ له خلوده وبقاءه حيّاً في نفوس أتباعه من جهة، ومن جهة أخرى، أنّ هذه الرتبة تجعله أرفع من

إبراهيم، الذي عُدّ أبا الأنبياء. لذلك قال يسوع لليهود عندما قالوا له: «ألعلّك أعظم من أبينا إبراهيم الذي مات. والأنبياء ماتوا. من تجعل نفسك»، «الحقّ الحقّ أقول لكم قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن» يوحنا 8: 53-58. فماذا عنى بذلك، علماً أنّ الفارق الزمنيّ بين إبراهيم ويسوع يبلغ ثمانية عشر قرناً؟ والمعنى برأيي واضح، وهو أنّ يسوع، الذي كان يعلم علم اليقين، أنه اللّه تجسّد ليخلّص الإنسان من خطيئته، وليرشده إلى طريق الحياة الحقيقيّة عبر تعاليمه المفعمة بالمحبّة والتسامح والغفران، هو اللّه الأحد نفسه الكائن قبل الكون، وهو بالتالي الأسبق، ليس فقط على إبراهيم، بل على كلّ المخلوقات أيضاً.

وفي هذا الكلام أيضاً، دعوة إلى اليهود للتخلّي عن شريعتهم الممتلئة بروح الانتقام المتعطّش أبداً إلى الدم، التي لا تفوح منها سوى رائحة الحقد، والإجرام، والنهب، والتخريب، وتقبّل الرسالة الجديدة التي شبّهها يسوع بالخمر الجديدة، التي تفسد إذا مُزجت بالخمر العتيقة، أي الشريعة الموسويّة.

أمّا ناشر هذه المخطوطة، فقد رأى أنّ اسم ملكي صادق في هذه المخطوطة لا علاقة له بملكي صادق «ملك سالم الذي أعطاه إبراهيم عشر كلّ شيء بحسب التكوين». والاسم الوارد في المخطوطة برأيه يُمكن أن يُقرأ «ملك البرّ» أو ملاك السلام، مشيراً الى أنّ ما ورد عنه في المخطوطة هو أسطورة قمرانيّة «أقرب من ذلك الذي جعله تقليدٌ يهودي كاهناً سماويّاً». وبرأينا فإنّ هذا الاستنتاج صحيح، والصحيح أيضاً اعتبار إبراهيم وملكي صادق العهد القديم شخصيّتين أسطوريّتين، لم تُثبت أيّ وثيقة تاريخيّة تعود إلى زمن حمورابي، وهو الزمن الذي وجد فيه إبراهيم، وبالتالي ملكي صادق، وجود هاتين الشخصيّتين؛ والأقرب إلى العقل اعتبارهما شخصيّتين لاهوتيّتين. يقول الباحث جميل خرطبيل: «إنّ إبراهيم له مكانة كبيرة. وفي التوراة تحوّل إلى شخصيّة أسطوريّة مقتبسة من الأساطير القديمة، ولعلّ هذه الشخصيّة بشكلها التوراتيّ من اختراع نحميا وعزرا صانعيِ التوراة»(180).

وينقل خرطبيل عن فراس السوّاح قوله: «إنّ شخصيّة إبراهيم وأبنائه من بعده (أي إسحق وإسماعيل وأولادهما)، ما زالت تنتمي إلى التاريخ الدينيّ لا إلى التاريخ العلمي».

وعندما نرى أنّ شخصيّة إبراهيم ليست تاريخيّة، يجب أن ينسحب البحث العلميّ التاريخيّ أيضاً على شخصيّة ملكي صادق، لأنّ الشخصيّتين متلازمتان بحسب أخبار العهد القديم. ولقد اختلف الدارسون بشأن الشخصيّتين، فمنهم من عدّهما تاريخيّتين، وخاصّة لأنّهما وردتا في كلّ الكتب الدينيّة، ومنهم من رأى أنهما شخصيّتان دينيّتان.

ففي دراسة لموقع (الأخبار - القدس) يرى الكاتب أنّ «الخطأ الفظيع الذي ارتكبه كثرة من المؤرّخين والباحثين، الذين روّجوا لهذه المزاعم، يكمن في اختلاق مدينة يهوديّة في عصر إبراهيم، ولقد حوّلوا كلمة «شليم» إلى أورشليم»، ولم تكن هناك أورشليم في عصر إبراهيم قط». ويذكر لنا التاريخ، وحتّى العهد القديم، أنّ اسم أورشليم كان يبوس، وكانت مدينة كنعانيّة. ويرى الكاتب أنّ اسم ملكي صادق ليس اسماً لشخص، بل هو لقب ديني، أي الملك الصدّيق الذي يلحق عادة بالكاهن. وهذا الكلام لا ينفي برأيي وجود ملكي صادق الملك، لأنّه، كما ذكرت سابقاً، كان الملك يجمع بيده السلطتين الزمنيّة والدينيّة. فحتّى لو كانت كلمة ملكي صادق صفة تعني الملك الصدّيق، فهذا يعني أنّها أُطلقت على ملك المدينة التي كان اسمها يبوس، وتحوّلت لاحقاً إلى أورشليم، أي مدينة السلام.

وما يعنينا من هذا الكلام ليس أسطوريّة الشخصين، ملكي صادق وإبراهيم، بل ما يرمزان إليه دينيّاً، وبالتالي المرتبة الرفيعة التي احتلّها ملكي صادق، والّتي عُدّت أرفع من مرتبة إبراهيم، لذلك عُد يسوع على مستوى هذه الرتبة.

والمؤسف أنّ بعض التفسيرات الغارقة في التزوير، التي تعتمد التأويل على نحو سافر، رأت أنّ ملكي صادق هو ابن سام بن نوح، وهذا بعيد عن كلّ منطق، وكلّ موضوعيّة.

وبالعودة إلى نصّ المخطوطة التي تتحدّث عن ملكي صادق، نجد أنّ الكاتب قد عدّه سيّداً للعالم الملائكيّ، وهذا يتماهى مع اعتباره في العهد القديم كاهناً لله العليّ، واعتباره في العهد الجديد ذا مرتبة دينيّة رفيعة حريّ بها أن يكون يسوع على مرتبتها.

ومن هنا يمكننا أن نفهم من قوله: «أنّه سيكون وقت سنة تسامح ملكي صادق. أنّه هو (أي ملكي صادق) الذي بقدرته سيحاكم قدّيسي اللّه بحسب أعمال البرّ»، وأنّ ملكي صادق يساوي بنظر الجماعة الإله الأوّل (إلوهيم). وانطلاقاً من هذا التقويم نفهم أنّ ملكي صادق هو صاحب القدرة الإلهيّة التي تخوّله المسامحة من جهة، ومحاكمة أبناء النور انطلاقاً من أعمال البرّ التي تنجم عن ممارساتهم من جهة أخرى.

وهنا نعود إلى ما ذكرناه سابقاً ومراراً، عن أنّ أبناء النور بالنسبة إلى الجماعة ليسوا سوى الجماعة، أي هذه الملّة اليهوديّة الصغيرة، التي رأت أنّ الآخرين قد ضلّوا طريق الشريعة، وهم وحدهم الثابتون الذين يستحقّون الخلاص النهائيّ عند نهاية الأزمنة. وكتبة هذه المخطوطات يدورون دائماً حول هذه النقطة الثابتة، وهي تتلخص في أنّ هذه الجماعة وحدها ستكون في نهاية

الأزمنة الشعب الخاصّ والوحيد ليهوه، إله بني إسرائيل، وأنّ الآخرين جميعهم هم أبناء الظلمة الذين تقع على كاهل يهوه إبادتهم.

من اللافت أنّ أحد مقاطع هذه المختارات حمل عنوان: «أحابيل المرأة». وهذا العنوان لم يضعه كاتب هذا المخطوط، بل الناشر الذي استشفّه من مضمون هذا المقطع. ومن العنوان يمكننا أن ندرك نظريّة الجماعة الدونيّة للمرأة. يقول الناشر: «إنّ هذه الوثيقة المختصرة والشعريّة، وهي من دون شك ما تبقّى من مؤلَّف وقائيّ أكثر اتساعاً، وتعكس تفسّخاً وعداوة للمرأة شديدين جداً خلال فترة معيّنة في قمران، تحاول أن تحمي أنصار الملّة ليس من «خبث المرأة الآثمة والعاهرة، كما يشرح الناشر من خلال بحثه للموضوع وتوسيعه على المستوى التاريخيّ، بل وعلى نحو أشمل وأبسط من المكر الفطريّ وإغراءات المرأة».(181)

هذا الكلام يمثّل دحضاً لكلّ الآراء التي تحدّثت عن الأسّينيين كملّة زاهدة تميل إلى الحياة الروحانيّة لا الماديّة، حيث «تتبدّى هذه الروحانيّة باللاتعلّق، ورفض المال والرغبات، وبحياة متقشّفة وامتناع عن الزواج غالباً»، ونقضاً للكلام الذي أورده محمود العابدي، الذي يرى أنّ الأسّينيين فرقة من اليهود «تستقبح الشهوات وتعدّها جريمة. كلّ همّها كبح جماح النفس وقمع ثورة الهوى، لا يتأهّلون حبّاً بالتعفّف من النساء...»(182).

لقد ابتعدت هذه الجماعة عن الزواج لأنّ النساء عامّة بنظرهم فُطرن على الإثم والعهر والغوى. وهذه النظرة الدونيّة إلى المرأة فيها من العنصريّة ما يتماهى مع عنصريّة اليهود، على نحو عامّ، التي تتجلّى في قناعتهم بأنّهم شعب اللّه المختار، وأن الآخرين حيوانات وُجدت لكي تسخّر لخدمتهم. وما يؤكّد كلامنا هو أنّ كاتب هذه المخطوطة يتحدّث عن المرأة على نحو عامّ ولم يحصر كلامه في من يرتكب منهن الإثم. نقرأ بداية المقطع:

«المرأة تتلفّظ بعبارات باطلة،

وفي فمها امتلاء من الضلال. وفساد قلبها يُنتج الفجور

إنّ الكثير من العصيان يختبئ في ثنايا ثوبها،

مضاجعها هي أسرّة الشرك الحقيرة

وفراشها أعماق القبر»(183).

فالكاتب عندما قال المرأة، فهو عنى كلّ النساء من دون استثناء، وفي وصفه للمرأة شمل أيضاً كلّ النساء من دون تمييز. ونسي أنّه، وكلّ أفراد جماعته، همّ أولاد النساء، أمهاتهم نساء، ولولا هؤلاء النسوة لما وُجد، لا هو ولا أيّ واحد

من جماعته. ولو التزم جميع الرجال تعاليم هذه الجماعة وتوجّهها، لانقرض الجنس البشريّ. ويكمل الكاتب قائلاً:

«بلى، إنّها هي مبدأ كافة دروب الإثم

ويا للأسف: يا لشقاء جميع من يملكها،

عيناها تترصّدان هنا وهناك،

وترفع رموشها على نحو فاجر

حتّى تنظر رجلاً صالحاً لتغويه

وحتّى تُضلّ البشر في دروب الشرك

وتُغوي بالمداهنة أبناء الإنسان»(184).

الكاتب يلقي، من خلال هذا الكلام، على المرأة مسؤوليّة الإثم الذي يقوم به الرجل، ويُعفيه من كلّ مسؤوليّة عن قيامه هو بإغواء المرأة من جهة، ووقوعه في إغوائها كرجل صالح من جهة ثانية، إذ كيف يمكن أن يكون رجلاً صالحاً، ويسقط فوراً في تجربة الإغواء من عينين ترفعان رموشهما على نوح فاجر؟ وهو بتعبيره الأخير يرى أنّ كلّ الرجال سيقعون في الضلال، لأنّ كلّ أبناء الإنسان ستغويهم المرأة. وهذا يعني أنّ رجال الجماعة وحدهم، بين كلّ البشر، سينجون من الضلال، ويكونون وحدهم من أبناء النور، لأنّهم وحدهم يكبحون جماح النفس، فلا يتأهّلون حباً بالتعفّف من النساء. وحتّى هذا الكلام، الذي يصف وضعيّة الأسّينيين الاجتماعيّة، غير دقيق، لأنّ تعفّفهم وعدم اتخاذهم زوجات لهم ليسا حبّاً بالتعفّف، بل لأنّهم ينظرون إلى النساء نظرة دونيّة تتّهم جميع النساء بأنّهن مصدر للغواية، وبالتالي للإثم.

وأيّ فضل للرجل الذي يعدّ نفسه عفيفاً إن هو ابتعد عن أي مصدر يُمكن أن يمثّل له حافزاً للوقوع في الخطيئة؟ إنّ فضل الرجل في هذا المجال يكمن في الابتعاد عن الخطيئة عندما يكون على تماس مباشر معها، وتمثّل معرفته تداعيات استجابته لها، رادعاً له يُبعده عن الوقوع في شباكها.

وتعليقاً على كلام الشارح الذي رأى أن مضمون هذه المخطوطة نصّ شعريّ، نقول إنّ هذا الكلام لا علاقة له بالشعر لا شكلاً ولا مضموناً، لأنّ الشعر سجلّ للأحاسيس الإنسانيّة، ولم ولن يكون كلاماً ينضح بالعنصريّة ضدّ نصف البشريّة.

ويأتي كلام الكاتب في المقطع الذي عنونه الناشر «كتاب الأسرار»، ليرى أنّ هناك إشارة إلى ما سيحدث في آخر الأزمنة؛ فيشير إلى أنّه «عندما تُغلق أرحام الإثم، ستتلاشى العلّة أمام البرّ كما تضمحلّ الظلمة أمام النور. وكما

يتبدّد الدخان ولا يكون، كذلك تختفي النقيصة إلى الأبد، والبرّ يتألّق مثل الشمس»(185).

وهذا الكلام بعيد كلّ البعد عن الواقع الإنسانيّ، وعن فكرة صراع الأضداد، هذا الصراع الذي سيستمر ما دامت حياة الإنسان فوق هذه الأرض مستمرة، هذا من دون أن نشير إلى إمكانيّة وجود حياة على كواكب أخرى ما زال الإنسان عاجزاً عن اكتشافها وسبر أغوارها.

والمخطوطة الأخيرة من الجزء الأوّل، الذي يشمل الكتب التي قيل إنّها تخص التراث الأسّيني تحديداً، والتي، كما أثبتت، بمعظمها لا تختلف عن نصوص العهد القديم، بل تتوافق معها إلى حد اعتبارها نسخاً له مع بعض التحوير الذي يطاول الشكل لا المضمون، عنونها الناشر «سفر التكوين المنحول».

ويقول الناشر في التوطئة إنّ هذه المخطوطة مكتوبة باللغة الآراميّة. وأشار الناشر إلى أنّ مضمون المخطوطة مستقل استقلالاً كلّياً عن النصّ التوراتي لسفر التكوين.

ويُتحفنا كاتب هذه المخطوطة بإشارته إلى قصّة لامك. ولامك هذا هو واحد من ذريّة آدم الأسطوريّة، وهو ابن متوشالح، الذي منحته زوجته المجهولة ولداً ذكراً وهو في سن المئة والاثنتين والثمانين!!! وأطلق على ولده اسم نوح.

وقصّة لامك المختصرة الواردة في سفر التكوين التوراتي لم تُشر، لا من قريب ولا من بعيد، إلى الشكوك التي خامرت تفكير لامك بشأن أبوّته لنوح. فكيف خطر في بال كاتب المخطوطة أن يتحدّث عن قلق لامك بشأن ولادة نوح، ويسرد لنا الكلام الذي قالته زوجة لامك له، وقد أطلق اسم بتشوع عليها، وهي لم يرد لها ذكر في التوراة.

تقول الزوجة لزوجها الذي شكّك في أخلاقها وفي عدم احترامها لرباط الزوجيّة: «يا أخي، أيا سيّدي، تذكّر اللّذة التي شعرت بها قبل الميعاد... أقسم لك بالقدّوس الأعظم، بكلّ السماء، أنّ هذا المني منك حقاً، لا من أيّ إنسان آخر، ولا من أيّ من اليقظين، ولا من أيّ من أبناء السماء...»(186).

فنحن، وإن كنّا من المصرّين على اعتبار أنّ هذا الكلام تجسيد لقصّة أسطوريّة حاولت تفسير وجود الإنسان، فإنّنا نحاول الإضاءة على عدم صحة هذه الأساطير، لأنّ بعضها انطلق من حقائق، وخاصّة أنّ العلم، كما مرّ معنا أيضاً، يؤكّد أنّ الإنسان الأوّل، الذي تَشارك في المحافظة على استمرار النسل مع الحيوان، كان يمارس الجنس بفعل الغريزة، وحيث كانت العلاقات الجنسيّة حالة خارجة عن المفهوم العائليّ، الذي لم يكن قد تكوّن بعد.

وبالتّالي فإنّ هذه الممارسة كانت بعيدة عن التزام كلّ من الزوجين بشريك واحد. وقصّة الكاتب هذه جاءت نتيجة نظرة أعضاء الجماعة إلى المرأة على أنّها مصدر مطلق للإثم من خلال ممارسة فعل الغواية. وبما أنّ المخطوطة ناقصة نتيجة التلف الذي أصابها، لم نستطع الوقوف على نتيجة المساعي التي قام بها لامك مع والده متوشالح، الذي يسمّيه كاتب المخطوطة متوشالم، حيث طلب منه أن يسأل والده، أي جدّ لامك، أخنوخ، لأنّ هذا الأخير كان صديقاً للّه. وتنتهي القصّة عند هذا الحد من دون أن نعلم ماذا قال «صديق اللّه» أخنوخ لمتوشالح عن هذه الحادثة.

بعد ذلك، يسرد الكاتب جزءاً من تاريخ إبراهيم، الذي نجده في سفر التكوين التوراتي، والّذي يعدّ نسخاً لما جاء في العهد القديم، ولا يمثّل أيّ زيادة على هذا الكتاب.

وفي نهاية مناقشتنا لكتب الأسّينيين التي أثبتها الناشر في الجزء الأوّل من كتاب التوراة: كتابات ما بين العهدين، نعود لنؤكّد أنّ ما خلّفته الجماعة الأسّينيّة لنا، بمعظمه، هو نسخ عمّا جاء في التوراة، التي، على ما يبدو، لم تتمكّن الجماعة من اقتنائها في هروبها السريع، من مركز سكنها مع بني قومها، إلى منطقة قمران.

وهذه الكتابات تؤكّد أيضاً أنّ ما كانت هذه الجماعة تُبطنه يتناقض مع ما كانت تُظهره من مسالمة وزهد وتعفّف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الرابع

الخمسينيات

الباب الأوّل

توطئة:

في الجزء الثاني من كتاب التوراة: كتابات ما بين العهدين، يرى المعرّب موسى ديب الخوري أنّ الكتابات التي سيضمّها هذا الجزء الثاني هي كناية عن مخطوطات «حُقّقت باسم «التوراة المنحولة»... وهي الكتب التي حُقّقت اعتماداً على مخطوطات لم يُعثر على بقايا أو آثار لها في قمران، إنّما تُرجَّح صلتها بالملّة الأسّينيّة من خلال أسلوبها أو مواضيعها»(187). نفهم من كلام المعرّب أنّ هذه المخطوطات كانت بين أيدي بعض اليهود. ولدى مقارنتها مع مخطوطات قمران، قرّر الدارسون أنّها تتماهى مع المخطوطات الأسّينيّة، وبالتالي نسبوا كتابتها إلى أفراد من الجماعة الأسّينيّة.

ويقول المعرّب أيضاً إنّ هذه الأسفار المنحولة ظهرت في نهاية العصر الهلّيني. وهذا العصر لم يدم طويلاً، لأنّه بدأ في مطلع القرن الرابع قبل الميلاد وانتهى مع ظهور الإسكندر المقدوني، حيث بدأ العصر الهلنستي.

وإذا كان العصر الأوّل قد دام نحو خمس وسبعين سنة، فإنّ الثاني قد دام ثلاثمئة سنة. وعُدّت هذه الأسفار المنحولة «ثمرة إبداع جماعيّ» ساهم فيه كتّاب كثيرون، وعلى مدى فترات زمنيّة طويلة.

ويُضيف المعرّب إنّ همّ هؤلاء الكتّاب كان ينصبّ على «إرساء التعاليم الأساسيّة للدين، مع إعطاء منظور أكثر موافقة للعصر وأكثر يسراً وقبولاً لدى الناس».

وعلى هذا الكلام لنا الملاحظات الآتية: أوّلاً لا يمكن اعتبار هذه الكتابات إبداعاً لأنّها لم تُضف شيئاً إلى الحضارة الإنسانيّة. والدليل أنّ المعرّب يقول بعد أسطر إنّنا نجد «أساساً لمثل هذه الأساطير في بلاد الرافدين ومصر والهند واليونان»، حيث كان قد أشار إلى أنّ أساس هذه المؤلّفات يرتكز «على أسطورة مفادها أنّ أخنوخ كان قد أوصى أبناءه بتوزيع كتبه على أولادهم من جيل إلى جيل».

وحسناً فعل المعرّب، إذ رأى أنّ كتّاب المؤلفات استندوا إلى أساطير الأوّلين في ما كتبوا من أساطير. فأخنوخ لا يمكن أن يكون قد كتب بنفسه كلمة واحدة، لأنّ الكتابة لم تكن قد اختُرعت في زمنه، وهو بحسب العهد القِديم

عاش بعد مئات متعددة من السنين من خلق «الله» لآدم، وهو تحديداً ابن يارد بن مهللئيل بن قينان ابن أنوش بن شيث بن آدم.

وهذا يعني أنّ أخنوخ هو الجيل الخامس بعد آدم. ويقول عنه كاتب سفر التكوين إنّه «سار مع اللّه بعدما ولد متوشالح ثلاث مئة سنة وولد بنين وبنات. فكانت كلّ أيام أخنوخ ثلاث مئة وخمساً وستين سنة. وسار أخنوخ مع اللّه ولم يُوجد لأنّ اللّه أخذه» تكوين 5: 22-24.

وإذا أردنا أن نلجأ إلى التأويل فإنه يمكننا أن نفهم من جملة سار مع الله، ليس حرفيتها، أي مشى مع الله، ولكن أنّه تقيّد بشريعة اللّه وكان إنساناً بارّاً. ولكن عندما يقول الكاتب مرّة ثانية إنّ أخنوخ سار مع اللّه «ولم يوجد لأنّ اللّه أخذه»، فإنّ عقلنا لا يمكن أن يقبل هذا الكلام، ولا يمكن أن نفهم تعبير «أخذه الله» إلّا أنّه مات. أمّا قول الكاتب «لم يُوجد»، فهذا يعني أنّ رفاته أو جسده لم يُعثر عليه، وعندئذ تنتفي إمكانيّة التأويل، ويصبح علينا فهم هذه الجمل بحرفيّتها، ويصبح معناها بعيداً عن كلّ موضوعيّة وعقلانيّة، وهذا ما يؤكّد أسطوريّة هذا الكلام، الذي أشار إليه المعرّب.

والملاحظة الثانية تتعلّق بالذين صنّفوا هذه الكتابات إلى قسمين، أصيل ومنحول، فمن أعطاهم سلطة هذا التصنيف؟ وما هي المقاييس التي بنوا عليها تقسيمهم؟ وإذا كان الأسّينيون بالفعل هم من كتب هذه المخطوطات، التي عُدّت منحولة، سواء لجهة الصياغة أو النقل، فهذا يتيح لنا القول إنّ كلّ الأسفار يمكن أن تطلَق عليها صفة «المنحولة»، لأنّها لا تحمل اسم من كتبها ولا تاريخ كتابتها.

والملاحظة الثالثة، وهي الأهم، كيف يمكن وصف هذه الكتابات بأنّها كلام الله، وقد أعمل فيها الكتبة والنسّاخ إضافة وتعديلاً وتنقيحاً. يقول المعرّب: «إنّ الكتابات اليهوديّة (إن صح التعبير) ظلّت لفترة طويلة بلا أسماء مؤلّفين. ولا بدّ أنّ أحد الأسباب الرئيسيّة في ذلك هو الاعتماد على النقل من ثقافات وآداب أخرى»(188).

وهذا الكلام صحيح وواقعيّ. وقد أثبتنا مراراً اعتماد كتبة التوراة على أساطير الشعوب التي سبقتهم، وخاصّة أسطورة التكوين وما تبعها من قصص آدم وحواء والطوفان، وما إلى ذلك ممّا أثبت العلم نقيضه، ولا يمكن للعقل تقبّله.

وكما حدث لكتبة التوراة الأوائل من إقدامهم على الغَرف من أساطير السومريين والبابليين، كذلك حدث للأسّينيين. وهذا ما يؤكّده المعرّب إذ يقول: «ونعتقد أنّ اليهود المتأثرين بالثقافات الكنعانيّة والآراميّة، الذين عاشوا في أوساط بعيدة عن أورشليم أو حتّى عن فلسطين، أدّوا دوراً كبيراً في تأسيس

هذا الاتجاه الفكريّ، بل وفي تأسيس الملّة الأسّينيّة نفسها، كما وغيرها من التوجهات الروحيّة في تلك الفترة من ما بين العهدين»(189).

ويعود المعرّب إلى سبب وصف هذه الكتابات بالمنحولة، فيقول: «ولم يكن من الممكن بطبيعة الحال لليهوديّة الحاخاميّة قبول تيار وُلد في وسط كان في صراع مفتوح وصريح مع الفريسيّة. وبالتالي فإنّ عدم قبول اليهوديّة هذه الكتابات هو الذي أعطاها تسمية منحولة»(190). ويمكن أن نستنتج من هذا الكلام أنّ الحاخامات، وهم بشر عاديون، كانوا يسيطرون بشدّة، كما هي الحال مع رجال الدين في أيامنا هذه، على مفاصل الحياة الدينيّة، ويتخذون مواقف معادية من كلّ من يجرؤ ويخالف آراءهم. وهذا ما حدث للملّة الأسّينيّة اليهوديّة، ولغيرها أيضاً، ما اضطّرهم إلى الابتعاد عن أبناء طائفتهم واللجوء إلى قمران. أضف إلى ذلك نقمة الرومان عليهم، فضربوا بابتعادهم عصفورين بحجر واحد، أي نجوا من معاداة أبناء طائفتهم لهم، ونجوا أيضاً من ملاحقة الرومان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الباب الثاني
كتاب أخنوخ

وكان لا بدّ من إيراد هذه الملاحظات قبل البدء بمناقشة ما جاء في هذه الكتب المنحولة. وتجنّباً للإطالة سأنتقي بعض المقاطع وأبسطها تحت أشعّة العقل الليزريّة، كي لا تبقى فارضة نفسها على عقول المؤمنين، كأنّها بالفعل إلهيّة مقدّسة.

الكتاب الأوّل هو كتاب أخنوخ الذي شرحنا عنه ما يكفي ليقنع القارئ بأنّه شخصيّة أسطوريّة. ولفتني ما كتبه المعرّب عن هذا السفر، حيث لاحظ «أنّ إشارات كثيرة في سفر أخنوخ تستحقّ دراسة مستقلة ومقارنة بالكتب التوراتيّة المنحولة الأخرى مع بعض مقاطع التوراة، وخاصّة سفر حزقيال في ما يتعلّق بالرحلات الكونيّة هذه، والمشاهدات التي توحي في كثير من الأحيان بإمكانيّة ملاقاة حضارات متقدّمة تقنياً ربما كانت غير أرضيّة»(191). ويأخذني العجب من هذا الكلام، إذ كيف يرى المعرّب أوّلاً أنّ هذا السفر مبنيّ على أسطورة، ثمّ ينتقل فجأة للاعتقاد بأنّ هذه الأحلام = الرؤى تلتقي مع بعض الدراسات التي تقول بوجود حضارات فضائيّة متقدّمة كانت تتواصل مع المقيمين على الأرض؟ حتّى أنّ بعضهم قد نسب إلى هذه الكائنات الفضائيّة، التي أتت إلى الأرض من كوكب آخر، بناء الأهرام وقلعة بعلبك، لأنه رأى أن من غير الممكن لإنسان هذه الأرض أن ينقل صخوراً تزن أطناناً، وتعجز الآليات الحديثة عن تحريكها، من مكان إلى آخر، ورصف بعضها فوق بعض على نحو لم يستطع الخبراء حتى الساعة التوصّل إلى معرفة الوسائل التي اتّبعتها الشعوب القديمة لإنجاز هذه الأعمال الخارقة. ونحن، وإن كنّا نميل إلى الاقتناع بإمكانيّة وجود حياة على أكثر من كوكب من مليارات الكواكب القائمة في هذا الكون اللامتناهي، فإنّنا نتساءل، في حال تصديقنا لمثل هذا الكلام، عن مصير هذه الحضارات المتقدّمة، التي من المفترض أن يكون تقدّمها قد ازداد، على غرار التقدّم الذي حدث على صعيد الحضارة الإنسانيّة.

وهذه الافتراضات تقودنا إلى طرح الكثير من الأسئلة، إلّا أنّنا نُحجم عن ذلك ونترك للعلم وللآتي من الأيّام إثبات هذه النظريّة على نحو قاطع.

وإذا ما حاولنا قراءة سفر حزقيال، الذي يقول المعرّب، بوجود تشابه بينه وبين سفر أخنوخ المنحول، فلن نجد سوى رؤيا خياليّة، لا تتسم حتى بالإبداع الأدبي، بل هي أشبه بقصص الخيال العلميّ، التي أُنتجت أفلاماً سينمائيّة، كأفلام STAR WARS وSTAR TREK وHARRY POTTER للكاتبة الإنكليزيّة JOANNE ROWLING. ولم أجد أيّ صلة بين ما ذكره كاتب سفر حزقيال في

الإصحاح الأوّل من تفاصيل رؤيا حزقيال الممتلئة بتشابيه صبيانيّة، مثل «سحابة عظيمة ونار متواصلة، وشبه أربعة حيوانات لها شبه إنسان ولكلّ واحد أربعة أوجه ولكلّ واحد أربعة أجنحة... أمّا شبه وجوهها، فوجه إنسان ووجه أسد لليمين لأربعتها ووجه ثور من الشمال لأربعتها ووجه نسر لأربعتها...» حزقيال 1: 4-5-10.

وبين الإصحاح الثاني الذي يعود فيه يهوه ليصف شعبه الخاص «بني إسرائيل بأمّة متمرّدة قد تمرّدت عليّ. هم وآباؤهم عصوا عليّ إلى ذات هذا اليوم. والبنون القساة الوجوه والصلاب القلوب أنا مرسلك إليهم. فتقول لهم هكذا قال السيّد الربّ. وهم إن سمعوا وإن امتنعوا. لأنّهم بيت متمرّد. فإنّهم يعلمون أنّ نبياً كان بينهم» حزقيال 2: 3-4-5. فلماذا هذا «السيّد الربّ» لم يتوجّه بكلامه المؤنّب إلى شعبه بني إسرائيل على نحو مباشر، بدلاً من إقحامنا في رؤياه البعيدة عن كلّ منطق؟ ثمّ أن يقول «السيّد الربّ = يهوه إنّ شعبه أمّة مثمرة «هم وآباؤهم»، فإنّه يكون قد شمل بكلامه إبراهيم الخليل، الجد الأوّل، وجميع أبنائه مروراً بإسحق ويعقوب، وصولاً إلى موسى، وبعده إلى داود وسليمان وكلّ أنبياء إسرائيل وملوكها. وهذا يؤكّد أنّ الكلام الوارد في العهد القديم هو من وضع كتبة متعدّدين، ولا علاقة له بكلام اللّه وإصبع اللّه؛ وأنّ هؤلاء الأنبياء لم يكونوا شخصيّات تاريخيّة، بل اخترعهم الكتبة وقوّلوهم أفكارهم الخاصّة، لأنّهم كانوا يدركون في حال إعلانهم أنّهم هم من كتب هذه الأسفار أنّ الناس لن يصدّقوهم، فكان اختراع الأنبياء أفضل طريقة لإخافة الناس، وهذا ما يفسّر كثرتهم في ذلك الوقت.

ويُصرّ المعرّب على أنّ هناك سفراً أصلياً لأخنوخ، عدّه الدارسون سفراً ضائعاً، إلى أن اكتشفت هذه المخطوطات في قمران مكتوبة باللغة الآراميّة لا بالعبريّة، ونشرها J.T. MILIK عام 1976.

ويشير المعرّب أيضاً إلى نشر الكثير من الدارسين تباعاً أجزاء من هذا السفر، ومنها ما كان مكتوباً باليونانيّة والسريانيّة والقبطيّة. ويقول إنّ النصّ لم يُحفظ «بمجمله إلّا في النسخة الإثيوبيّة التي دُوّنت أثناء ترجمة الكتاب المقدّس من اليونانيّة إلى الإثيوبيّة، أي بين القرنين الرابع والسادس للميلاد»(192).

وتعدّد النسخ لهذه اللغات ربما سمح للدارسين بالقول إنّ هذه المخطوطات منحولة، معتمدين على مقولة إنّه لا يمكن إلّا أن يكون كتبتها قد اعتمدوا على النسخة الأساسيّة، مشيرين إلى أنّها فُقدت. وبالتالي لا يُمكن للكتبة بعد قرون أن يتذكّروا حرفيّاً نصّ النسخة الأصليّة، فأتت كتاباتهم غير دقيقة. ونحن نرى أنّ كلّ هذه النظريات هي من باب الاستنتاج الذي لا يستند إلى أيّ معلومات أو وثائق تاريخيّة مؤكّدة.

يبدأ السفر بمقطع يحمل عنوان «إعلان الدينونة الأخيرة»، حيث يبارك أخنوخ «المختارين والعادلين الذين سيشهدون في يوم الشدّة إبادة الأعداء كلّهم وخلاص الأبرار». غريب أمر هؤلاء الأنبياء الأبرار الذين لا يتكلّمون إلّا عن قتل الناس وإبادتهم، والذعر الذي سيشعر به هؤلاء الناس عندما يترك القدّوس الأكبر مسكنه ويأتي «إلى الأرض، ويمشي على جبل سيناء ويظهر وسط معسكره». إنّه ربّ الجنود الذي تكرّر ذكره في العهد القديم مرّات متعدّدة، والذي إن أتى فأقاصي الأرض كلّها ستهتزّ:

«والرجفة وخشية عظيمة ستجتاحانها حتّى تخومها.

الجبال العالية ستهتزّ وتسقط وتنهار

وستذوب مثل الشمع أمام النار

وكلّ ما على الأرض سيهلك

لكنّه سيعقد السلام مع الأبرار

لأنّه سيأتي مع أعداد لا تُحصى من ملائكته ليحكم الكون،

فيُهلك كلّ كافر، ويُخزي كلّ جسد

لكلّ أعمال الكفر التي اقترفوها...»(193).

هي الأوصاف ذاتها التي أسبغها كتبة العهد القديم على إله بني إسرائيل يهوه. والحديث الدائم عن المختارين الذين سيرثون الأرض لا يشمل سوى جزء من بني إسرائيل. وهذا الجزء يشمل من ينضّم إلى الجماعة ويهتدي إلى الحقيقة على يد معلّم الحق. أمّا الآخرون، فهم كفرة و«لن يكون ثمّة رأفة أو سلام عليهم». عدم الرأفة بالمخلوقات هو من شيم الإله يهوه، الذي وصفه كتبة التوراة بكلّ الأوصاف الوحشيّة التي لا تنطبق على إله الكون، الذي تكلّم عنه يسوع ومحمد. فهو إله مختلف لا تصدر عنه سوى الرحمة والتسامح والغفران. ويجب ألّا نُخدع من ورود اسم اللّه أو الربّ في هذه المخطوطات، كما في العهد القديم، لأنّ المعرّب أراد من القارئ أن يفهم أنّ إله اليهود هو إله الكون، وبالتالي يجب على كلّ المؤمنين التقيّد بتعاليمه الواردة في العهد القديم. وقد أشرت إلى ذلك سابقاً، وأستشهد هنا بكلام جورج قرم، حيث يقول: «حيثما وردت كلمة الربّ في شواهد التوراة، فهي في الأصل يهوه»(194). ومهما حاول الدارسون التأويل والتزوير بالقول إنّه كان يُمنع على اليهوديّ التلفّظ باسم يهوه، يبقى هذا الكلام مردوداً، كما أوضحتُ سابقاً أيضاً، ويجب ألّا يخرج هذا الكلام عن محاولات اليهود ممارسة غش المؤمنين لكي لا يحاولوا استنتاج عكس ما يريدون، إن استعمل المؤمنون عقولهم.

وبذلك يبقى دينهم، وبطبيعة الحال إلههم، بعيداً عن الانتقاد وعدم التصديق بما صدر عنه من أوامر إجراميّة واضحة في نصوص الشريعة الموسويّة.

وبعض ما ورد في هذا السفر، كالمقطع الثاني، قد يؤثّر في عقول المؤمنين إذا ما اجتزأناه ونظرنا إليه كمقطع غير ذي صلة بباقي مقاطع السفر، لأنّه جمع ما بين الإيمان بقدرة اللّه خالق الكون، والنظريّات العلميّة.

ومردّ ذلك برأيي هو تأثّر هؤلاء الكتبة بالفكر الفلكيّ البابليّ، وبالتراث الهلينستيّ، المتأثّر بدوره بالفكر البابلي. ولنقرأ مثالاً على ما أقول:

«تأمّلوا الأجسام السماويّة كلّها: إنّها لا تغيّر مسارها، والشمس والقمر: يشرقان ويغربان كلّ في وقت محدّد، ويظهران في أوقاتهما ولا يخرجان عن القاعدة المحدّدة لكلّ منهما. ألا انظروا إلى الأرض وتأمّلوا الأعمال الجارية فيها، من البدء حتّى المنتهى: فكلّ شيء يمرّ، ولا شيء يتغيّر ممّا على الأرض، بل يظهر لكم أنّ كلّ شيء هو من صنع اللّه. انظروا إلى علامات الصيف وعلامات الشتاء... تفكّروا جيّداً في هذه الأعمال التي تجري من أجله: إنّها لا تتغيّر، لكنّ كلّ شيء يبدو أنّه يجري وفق نظام. انظروا كيف يُنهي البحر والأنهار أعمالهما على نحو متّسق، وصنائعهما لا تتغيّر، ولا تحيد عن كلمته»(195).

من يقرأ هذا الكلام فلا بدّ أن يصدّق أنّ هذا الإله الذي يتكلّم عنه كاتب السفر، وبالطبع ليس أخنوخ، هو اللّه الذي يعبده كلّ الناس على تعدّد أديانهم. ولكن عندما نتذكّر أنّ إله بني إسرائيل خرق نظام الطبيعة عندما «قال أمام عيون إسرائيل يا شمس دومي على جبعون، ويا قمر على وادي أيّلون. فدامت الشمس ووقف القمر حتّى انتقم الشعب من أعدائه» يشوع 10: 12-13، ندرك أنّ هذا «الله» ليس سوى يهوه، الذي يستخدم قدرته الإلهيّة لمساعدة شعبه الخاصّ على الانتصار على أعدائه. ونصل أيضاً إلى القناعة ذاتها بشأن هذا «اللّه» عندما نعلم أنّ كلّ ما كتبه كتبة العهد القديم وكتبة المخطوطات، إنّما كان موجّهاً فقط إلى شعب هذا الإله الخاصّ، بني إسرائيل. إذن لا مجال أبداً عندما نقرأ هذا الكلام أن يلتبس علينا الأمر، فيصبح هذا الإله الخاصّ القبلي هو اللّه خالق الكون، الذي تؤمن به الديانات الأخرى.

يجب أن تتوقف هذه المؤامرة التي تُستغلّ سياسياً، وخاصّة في أيامنا هذه على أيدي الإنجيليين الأميركيين، الذين يسيطرون على عقول الرؤساء الأميركيين، ويقنعونهم بأنّهم بدعمهم لإسرائيل فإنّما هم يحقّقون رغبة الله، وبالتالي فهم سينالون رضاه وستكون الطريق إلى الجنّة معبّدة لهم وبابها مشرّع على مصراعيه.

كفى الاستهتار بعقول المؤمنين على أيدي حفنة من الحاقدين على الإنسانيّة جمعاء بسبب أفكار عنصريّة دبّجها بعض الكتبة ونسبوها إلى الله. كلّ ما كتبه هؤلاء، وتحديداً كتبة الأسّينيين من قرب انتهاء الأزمنة، ومجيء المسيح الملك المخلّص، الذي سيبيد أبناء الظلمة الكافرين، ويورّث الأرض لأبناء النور الخالدين، لم ولن يتحقّق منه شيء، لأنّ أبناء النور وأبناء الظلمة هم أبناء الخير وأبناء الشر، الذين سيبقون على تناقض وتضاد، هكذا كانوا، وهكذا سيبقون. ومن يعتقد غير ذلك فهو واهم، وسيبقى منتظراً، ولن يشهد، ولا الأجيال التي ستأتي من بعده، نهاية لهذا الكون بالطريقة التي تحدّث عنها أنبياؤهم. ولا يمكن لله الذي خلق الكون والإنسان والحيوان والنبات على هذه الأرض، أن يقضي على هذه الحياة ولأسباب تافهة. وحده الإنسان بسوء تصرّفه، الناتج عن قصد أو عن غير قصد، سيغيّر في نظام الطبيعة وسيرتدّ عليه ذلك سلباً لا محالة.

ينقسم سفر أخنوخ إلى خمسة أجزاء، والرسالة تُقرأ من عنوانها، وسأورد الفقرة الأوّلى من الجزء الأوّل، وأترك الحكم لعقل القارئ.

«عندما تكاثر البشر، ولد لهم بنات غضة وجميلات. ورآهن الملائكة أبناء السماء فاشتهوهن. فقال بعضهم لبعض: «فلنذهب ونختر نساء من البشر ولننجب أطفالاً». فقال لهم شمهازا الذي كان رئيسهم: «أخشى أن تتراجعوا فأصبح وحدي المقترف لخطيئة كبيرة». فأجابوه جميعاً: «فلنقسم كلّنا لاعنين بعضنا بعضاً ألّا نتخلّى عن هذا المخطّط حتّى نتمّه ونكون قد أنجزنا الأمر». عندئذ أقسموا معاً جميعاً وتعاهدوا حتّى اللعن من أجل ذلك. وكانوا بمجملهم مائتين. وكانوا قد نزلوا في زمن يرد YERED، هو يارد والد أخنوخ تكوين 5: 19، على قمّة جبل حرمون. وسُمّي الجبل «حرمون» لأنّهم كانوا قد أقسموا وتبادلوا العهد حتّى اللعن وبالطبع يتدخّل هنا المؤوّلون، حيث يرى المعرّب أو مدقّقا الكتاب أنّ هذا الكلام، مستند إلى ما جاء في سفر التكوين، حيث يقول الكاتب: «وحدث لمّا ابتدأ الناس يكثرون على الأرض ووُلد لهم بنات، أنّ أبناء اللّه رأوا بنات الناس أنّهنّ حِسان. فاتّخذوا لأنفسهم نساءً من كلّ ما اختاروا. فقال الربّ (يهوه) لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد لزيغانه هو بشر وتكون أيّامه مئة وعشرين سنة... وبعد ذلك أيضاً إذ دخل بنو اللّه على بنات الناس وولدن لهم أولاداً. هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم» تكوين 6: 1-4. هذا الكلام هو لإلقاء الضوء على أهل الشرّ. ويرى أن سقوط الملائكة بهذه الخطيئة إنّما كان إيذاناً بحدوث الطوفان «كنموذج أوّلي للحساب الأخير». ولم أجد أسخف من هذا التأويل إلّا الكلام الوارد على لسان أخنوخ، المستند إلى ما ورد في سفر التكوين.

وهذا النوع من الكلام الأسطوري، الذي يريدون منّا أن نعدّه إنذاراً لإبادة البشر بسبب شرورهم، لا يمكن للعقل أن يهضمه.

فهذا الكلام ورد مباشرة، وبحسب العهد القديم دائماً، بعد أجيال قليلة من ولادة آدم، وهذا يعني أنّ عدد الناس لم يكن قد تجاوز المئات، فكيف يمكن أن نصدّق كلام كاتب سفر التكوين بأنّ «الربّ رأى أنّ شرّ الإنسان قد كثر في الأرض. وأنّ كلّ تصوّر أفكار قلبه إنّما هو شرّير كلّ يوم. فحزن الربّ (يهوه) أنّه عمل الإنسان الذي خلقه...» تكوين 6: 5-7.

الربّ الذي خلق الإنسان كان يعلم أنّ هذا الإنسان الذي خلقه ليس إلهاً مثله، وهو بالتالي سيرتكب الأخطاء ويقع في الخطيئة، فلماذا فوجئ عندما رأى شرّ الإنسان؟ وكيف يمكن للربّ أن يحزن ويتأسّف؟ ولمن شكا حزنه وتأسّفه؟ وأيّ إله يتخذ قراراً بمحو مخلوقه الأرقى من على وجه الأرض؟ وهل يُعقل أن يكون كلّ من وُجد في ذلك الزمن قد عمل الشرّ في عيني «الربّ» من دون استثناء؟ كلّ هذا الكلام هو كلام أساطير، حاول الكاتب من خلاله تفسير فكرة الخير والشرّ وجدليّة صراع الأضداد، لكنّه لم يوفّق عندما جعل اللّه يُبيد كلّ الناس بعد وقت قليل من خلقهم، علماً أنّه قد أوجد فتوى لمنع حدوث الإبادة التامّة، فاستعان بأسطورة الطوفان السومريّة والبابليّة، فأنقذ نوحاً وعائلته ومن «هؤلاء قبائل بني نوح... تفرّقت الأمم في الأرض بعد الطوفان» تكوين 10: 22.

إنّها ثقافة الموت اليهوهيّة التي لا تزال مسيطرة على بني إسرائيل. ولم تستطع ثقافة الحياة التي بشّرنا بها يسوع أن تنقذ «خراف بني إسرائيل الضالة»، علماً أنّني لا أؤمن بأنّ هذا الكلام يمكن أن يكون ليسوع، بل نُسب إليه زوراً، لأنّه لا يمكن أن يحصر تعاليمه ببني إسرائيل كيهوه، لأنّ الأخير كان إلهاً قبليّاً، ويسوع جاء برسالته معلّماً للإنسانيّة جمعاء. ولذلك طلب من تلامذته أن يكرزوا في الأمم لدعوتهم إلى اعتناق التعاليم الجديدة وترك الشريعة القديمة، أي الشريعة الموسويّة.

فهذه الخطوة تتناقض مع الادّعاء الذي حصر تعاليم يسوع فقط في من ضلّ من بني إسرائيل، وحتّى هؤلاء لم يقتنعوا بالتعاليم الجديدة، وظلّوا على ضلالهم. ولابُدّ أن نشير إلى أنّ «الربّ» يهوه التوراتيّ قد رأى أنّ الإنسان قد كثرت شروره. أمّا في سفر أخنوخ، فالكاتب ينسب الشرّ والوقوع في الخطيئة إلى الملائكة. ولست أدري إذا كانت هذه الفروق البسيطة هي التي دفعت بعض الدارسين الى اعتبار مضمون المخطوطات يتناقض مع مضمون العهد القديم، ويمثّل تهديداً للإيمان اليهودي.

ويُتحفنا كاتب سفر أخنوخ برؤيا أخرى له، هي نتيجة لأحلام أتته في سباته، يقول:

«وهكذا رأيت أحلاماً، وظهرت لي رؤىً ورفعتُ أجفاني نحو أبواب المعبد السماوي فرأيتُ رؤى عقاب، وقال لي صوت: «حدّث أبناء السماء لكي تردّهم». وعند استيقاظي ذهبت لأراهم. وكانوا كلّهم مجتمعين، جالسين يبكون، في أبلماييم الواقع بين جبل لبنان وجبل سنير، وكانت وجوههم مغطاة. فرويت بحضورهم الرؤى كلها التي رأيتها وأنا نائم، وبدأت أتلفّظ بعبارات العدل، وبعبارات الرؤيا لأردّ ساهري السماء»(196).

من الطبيعي أن يحلم الإنسان خلال نومه. ومن الطبيعي أيضاً أن يسمع أصواتاً قد تكون ناتجة عن وضعه النفسي، الاجتماعيّ، الروحانيّ. ولكن أن يزور هذا الإنسان الملائكة في مكان محدّد على الأرض، ويُطلعهم على أحلامه ورؤاه، محاولاً هديهم لتخليصهم من الخطيئة التي ارتكبوها كي يتمكّنوا من العودة إلى السماء، فإنّه كلام لا يقبله العقل. وانطلاقاً من هذا الكلام نجد أنّ أخنوخ أصبح أهم من الملائكة، فهم أخطأوا وأخنوخ حاول هدايتهم للعودة عن هذا الخطأ. ألم يكن أولى بكاتب هذا السفر أن يجعل من أخنوخ كبير الملائكة مثلاً بدلاً من شمهازا؟ ولماذا لم يرد اسم المكان الذي حدّده بين جبل لبنان وجبل سنير(أي حرمون) في أيّ وثيقة تاريخيّة؟ قد تكون الإجابة عن هذا السؤال في المقطع الثاني، حيث يقول الكاتب:

«لقد رأيت بنفسي في أحلامي ما أقوله الآن بلغة الجسد، وبفمي نفسه الذي أعطاه الخالق للبشر ليتكلّموا، وبذكاء. فكما خلق البشر وأعطاهم فهم كلام المعرفة، فقد أسند إليّ دوراً، فسوّاني وخلقني لكي أخزي الساهرين، أبناء السماء»(197).

إنّها المرّة الأوّلى التي نسمع فيها أنّ «الربّ» يهوه يوكل مهمّة معاقبة الملائكة إلى إنسان. ألم يكن «الربّ» قادراً على تكليف رئيس الملائكة ردع جنوده الملائكة عن الوقوع في الخطيئة؟ وأيّ خطيئة! ممارسة الجنس مع بنات الإنسان؟ ألا تعتقد أيّها القارئ العزيز أنّ هذا الكلام إنّما هو استفزاز لمداركك العقليّة؟ ألا يجعلك هذا الكلام تتوقف لحظة تمثّل صدمة كهربائيّة تعيدك إلى وعيك فتقرأ هذه المخطوطات كلّها قراءة عقلانيّة، من دون أن تتخلّى عن إيمانك، تقودك إلى فهم جديد لكلّ ما ورد في العهد القديم والمخطوطات معاً؟

وإذا ما أكملنا رحلتنا مع أحلام أخنوخ ورؤاه فسنقرأ العجب. فها هو «الربّ بفمه» يقول لأخنوخ:

«لا تخف أبداً يا أخنوخ، أيّها الرجل الصادق، وكاتب الحقيقة، تقدّم إلى هنا واسمع صوتي. اذهب وقل للذين أرسلوك لتتوسّل من أجلهم: «كان لكم أنتم أن تتوسّلوا من أجل البشر، لا للبشر أن يتوسّلوا من أجلكم. لماذا تركتم الأعالي السماويّة، المعبد الخالد، لتناموا مع النساء، وتتدنّسوا بالاتصال ببنات البشر وتتزوجوهن؟... والآن فإنّ العمالقة الذين وُلدوا من الأرواح والجسد سيسمّون على الأرض أرواحاً شرّيرة، وستكون الأرض مسكنهم. ستخرج من أجسادهم أرواح شرّيرة لأنّهم يأتون من البشر، مع احتفاظهم من القدّيسين الساهرين بمبدئهم وأصلهم، وسيسمّون أرواحاً شرّيرة»(198).

في هذا الكلام جملة واحدة تنطبق على واقع شعور المؤمنين، وهي اعتراف الكاتب بأنّه كان يجب على الملائكة أن يتوسّلوا للبشر لا العكس. أمّا القرار باعتبار العمالقة أشراراً من دون ذكر أيّ مبرّر، فإنّه يُفقد هذا الكلام الصدقيّة. واعتبار جماع الملائكة مع بنات البشر (وهو ثرثرة لا معنى لها) عامل تدنيس للملائكة يمثّل أيضاً اتّهاماً مباشراً لكلّ نساء الأرض بالنجاسة، وهذا الاتّهام يشير إلى عقدة الأسّينيين تجاه النساء، التي منعتهم من الزواج «تعفّفاً» كما ادّعوا.

وتستمر مشاهدات أخنوخ البعيدة عن كلّ منطق، التي يجب وضعها في إطارها الصحيح البعيد عن كلّ المفاهيم الدينيّة، واعتبارها تخيّلات بدائيّة ساذجة هي أقرب ما تكون، كما ذكرت سابقاً، إلى الخيال الروائيّ، فنسمع رئيس الملائكة، الذي كان الدليل السياحيّ المكلّف مرافقة أخنوخ في رحلاته الفضائيّة، يقول له: «ماذا تطلب يا أخنوخ؟ وعلامَ أنت راغب إلى هذا الحدّ في معرفة الحقيقة؟ تلك هي نجوم السماء التي انتهكت أمر الربّ. وهي محبوسة هنا حتّى عشرة آلاف سنة، مدّة خطيئتها».!!! فهل أصبحت النجوم أيضاً مخلوقات تشارك الإنسان في إمكانيّة اقتراف الأخطاء والوقوع في الخطيئة المميتة، التي تستوجب العقاب لعشرة آلاف سنة سجناً؟؟؟

وبعد كلّ هذه التصوّرات الخياليّة التي لا علاقة لها بالروحانيّات نجد أنّ أخنوخ أصبح أهمّ من الربّ، فسمح لنفسه بأن يبارك «ربّ العزة، الملك الأزليّ»، بعد أن قاده ميخائيل (أحد الملائكة القدّيسين) وأتى به إلى شجرة عطرة، فنفهم من سياق الكلام، وبعد التأويل طبعاً، أنّ هذه الشجرة هي شجرة المعرفة التي لن تعطي ثمرها إلّا للأبرار والقدّيسين. فلماذا كلّ هذا الغموض؟ ولماذا لم ينقل أخنوخ، وغيره من الأنبياء الأبرار، توجيهاته إلى البشر على نحو واضح وسلس، لكي يتمكّنوا من فهمها واتّباعها؟ وما الغاية من أيّ كلام روحانيّ يبتعد عن الوضوح إلى الإبهام والغموض؟

ويطير الكاتب أخنوخ في رحلة إلى الشرق، فوق الصحراء، فيرى «أشجاراً تفوح بروائح البخور والمُرّ»، ويواصل تجوّله إلى جبال أخرى «مليئة بناردين

ممتاز ومسك وهال وفلفل». «ومن هناك نُقِلت إلى الشرق من هذه الجبال كلّها، وبعيداً عنها، إلى شرق الأرض، وقد أُمررت من فوق البحر الأحمر، وأُبعدت كثيراً عنها، وأجزت الظلمات، بعيداً عنها، وجعلوني أمرّ باتّجاه فردوس الأبرار». فهنيئاً لأخنوخ هذه الرحلة المعطّرة، التي أغرقتنا برائحة التوابل المقدّسة، ويبدو أنّها أخذتنا إلى الهند. ثمّ نفهم أنّه ربّما كان في سيناء، لأنّه نُقل إلى شرق الأرض، وقد كان أصلاً في الشرق، ومرّ فوق البحر الأحمر باتجاه فردوس الأبرار، فلعلّه عاد إلى جنّة عدن التوراتيّة، فيا لها من رحلة مشوّقة!!!

ويتابع أخنوخ رحلاته الفلكيّة بغية الغرف من المعرفة المناخيّة بشأن أسرار الغيوم، والندى، والرياح، والضباب، والبَرد والغيم. وعندما يصل إلى الشمس يقع في فخ جهله الفلكيّ فيقول:

«تخرج الشمس أولاً وتُتمّ مسارها وفق أمر ربّ الأرواح، الدائم اسمه إلى الأبد... لأنّ الشمس تضاعف دوراتها كي تبارك أو تلعن، ومسيرة القمر هي نور للأبرار وظلمات الكفّار...»(199).

هذا النبيّ البار، الذي فضّله «الربّ» على ملائكته، والذي كان يسعى وراء المعرفة، كيف لم يكلّف «الربّ» أحد ملائكته إعلامه بأنّ الشمس ثابتة، وأنّ ما يشاهده من غيابها وشروقها هو بفعل دوران الأرض حولها؟ ألا يحقّ لنا التشكيك في هذه الشخصيّات التوراتيّة، ويدفعنا ذلك إلى عدم اعتبار الكلام الوارد في العهد القديم أو المخطوطات، كلاماً إلهيّاً مقدّساً؟ وأين القداسة في كلّ ما مرّ معنا من كلام يصف رحلات أخنوخ السياحيّة الاستجماميّة؟

وبالانتقال إلى فقرة جديدة من قصص ألف ليلة وليلة الأخنوخيّة، نقرأ عن تسامح اللَّه في زمن الطوفان. ومعلوم أنّ «الله» أرسل الطوفان لمحو البشر بعد أن رأى كثرة شرورهم. لكنّه ندم على فعلته مشكوراً فقال لنفسه: «إنّما دمّرت سدى جميع الذين كانوا يسكنون على اليابسة»، وأقسم باسمه العظيم: «من الآن فصاعداً لن أعامل هكذا جميع الذين يعيشون على اليابسة». وبعد سطرين فقط يقول: «وفي حين أنّني عملت على حمايتهم بيد الملائكة في يوم ضيق أو ألم، فقد جعلت الآن عقابي وغضبي، هكذا قال ربّ الأرواح... ورأيت فرقاً من ملائكة العقاب تمرّ من هناك وتحمل قضباناً وقيوداً من الحديد والبرونز. فسألت ملاك السلام الذي كان يرافقني: «باتّجاه من يذهب حاملو القضبان هؤلاء؟»، فأجابني: «نحو مختاريهم ومحبوبيهم، لكي يُلقوا بهم في فتحة الجحيم. وعندئذ ستمتلئ هذه الهاوية بمختاريهم ومحبوبيهم، وسيوضع حدّ لأيّام حياتهم. وأيّام مكرهم لن تستمر»(200).

إنّه أمر طبيعيّ بالنسبة إلي، لأنّ التناقض أوّلاً صفة ملازمة لما ورد في العهد القديم وفي المخطوطات، ولأنّ «الربّ» يهوه عوّدنا الندم والتراجع عن قراراته والتأسّف، وإلى ما هنالك من صفات إنسانيّة تجعله أقرب إلى شيخ القبيلة منه إلى إله. والمؤسف أنّ الملاحظات التي سيقت بشأن هذا الكلام رأت أنّه يشير إلى هجوم البارثيين على فلسطين التي كان يحتلّها الرومان، الذين دعموا حزب أنتيغون ضدّ عمّه الكاهن الأكبر هيركانوس الثاني. كما رأى البارثيون أنّهم يمثّلون القوى الوثنيّة التي حرّضها الملائكة لكي تأتي وتحاصر أورشليم لتفسح المجال أمام شعب الله، أي بني إسرائيل، للانتصار على الكفّار. وهذا يدلّنا على أي مدى يمكن أن يقودنا التأويل، وعلى أيّ مدى أيضاً يُفسح التأويل المجال لتأويلات متعدّدة ومتنوّعة بحسب تنوّع الدارسين والمحلّلين وتعدّدهم.

لن أتوقف أكثر من ذلك للتعليق على هذا الكلام الخياليّ، لكن لا بدّ من بعض الملاحظات السريعة على بعض الجمل.

يقول أخنوخ، أو من كتب باسمه، «لقد كُشفت لي الإشارات والزمان والسنون والأيّام بواسطة أورئيل الملاك»(201). وهذا الكلام تزوير للحقيقة التي تقول، وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً، إنّ من وضع النظام السنوي بعدد الأيّام، وقسّم السنة إلى شهور، وأسابيع، واليوم إلى ساعات، وقسّم الساعة والدقيقة على الأساس الستيني، هم البابليون. ولمّا كانت الحضارة البابليّة قد سبقت وجود بني إسرائيل وكلّ أنبيائهم بما لا يقلّ عن ألفي سنة، تتّضح لنا الصورة بأنّ كاتب سفر أخنوخ أخذ هذه المعلومات من التراث البابلي وكتبها على لسان أخنوخه. وهو لو فعل ذلك فقط لهان الأمر، أمّا أن ينسب ذلك إلى أخنوخ، الذي كُشفت له هذه المعارف، فهذه قمّة الوقاحة العلميّة التي لم يسبق اليهود إليها أحد.

ولم أجد في ما تبقّى من هذا السفر ما يستأهل أن يتوقف الدارس عنده، إذ إنّه كلام سطحي فارغ مرّ به الكاتب على الطوفان، والشيوخ، وعلى إسرائيل (أي الشعب) عندما كانوا في مصر، وعلى الخروج الأسطوريّ منها، إلى بلاد كنعان مروراً بسيناء، وصولاً إلى بناء الهيكل المزعوم وانقسام المملكة و«الاحتلال» البابليّ، والأصح التحرير البابليّ، لأنّ الدخلاء هم بنو إسرائيل، فالاحتلال اليونانيّ، وقبل خاتمة الحلم نشهد قيام الإنسانيّة الجديدة.

وهذه الإنسانيّة ليست سوى أبناء النور، أي القلّة من اليهود الذين عدّوا أنفسهم المتمسكين بالشريعة والممثّلين الحقيقيّين الوحيدين للدين الذي به يؤمنون. ولابُدّ من التوقف عند المقطع المعنون (من الدخول إلى فلسطين إلى بناء الهيكل)، حيث يقول الكاتب: «وأخذت الكلاب تبتلع الخراف، والخنازير والثعالب ابتلعتهم أيضاً، حتّى بعث سيّد الخراف بينهم كبشاً

ليقودهم»(202). فنقرأ في الهامش رقم 42، الصفحة 153 التعليق الآتي على هذا الكلام: «الحيوانات هي الأمم التي تهاجم إسرائيل قبل بداية الملكيّة، وتمثّل الكلاب الفلسطينيين». هذا التفسير هو تأكيد لما جاء في العهد القديم، وهو أنّ كلّ شعوب الأمم هي حيوانات يجب أن تسخّر لخدمة بني إسرائيل. أما آن الأوان، أخي القارئ المؤمن، لتتحلّى بالشجاعة الفكريّة والأدبيّة والأخلاقيّة، كي تنتفض على كلّ هذه الشريعة المهينة لله وللإنسانيّة جمعاء، وتساهم في بثّ الوعي للخروج من الغموض إلى الوضوح، من الإرهاب الفكريّ والدينيّ إلى حريّة الرأي والمعتقد؟؟

وفي الجزء الخامس والأخير من سفر أخنوخ، يطالعنا الكاتب بعنوان، بقصد العبث بعقول المؤمنين، وهو: الخطب الأخلاقيّة. وللوهلة الأوّلى كالعادة نفهم أنّ هذا الكلام موجّه إلى البشر أينما كانوا. ولكن مع تدرّجنا في القراءة، نجد الكاتب يعود إلى تعاليم يهوه ليشدّد على كيفيّة التعامل مع القريب، أي إنّ كلّ هذه الخطب الأخلاقيّة لا تعني سوى بني إسرائيل الذين، بالاستناد إليها يجب أن يكون التعامل بعضهم ببعض؛ أمّا مع الآخرين، فالمسألة تختلف جذرياً كما مرّ معنا آنفاً، حيث رأى الكاتب أن الأمم حيوانات، وأن الفلسطينيين، الذين أحسنوا وفادتهم، كلاب، وهم ما زالوا يعدّونهم حتى اليوم كذلك.

نسمع أخنوخ يقول لابنه متوسالم (في العهد القديم متوشالح) أن ينادي على إخوته، فتوجّه «إلى جميع أبناء البرّ وقال:

اسمعوا يا أطفال أخنوخ، كلمة أبيكم،

أحبائي: أحبّوا الحقيقة وامشوا فيها،

امشوا في العدل يا أطفالي

سيوضع حدّ لكلّ ظلم

والربّ القدّوس سيخرج مسلّحاً بالغضب والعقاب

لكي يقيم الحساب على الأرض.

وسيختفي الظلم والغدر من تحت السماء

أصنام الوثنيين ستسلّم

كما والمعابد لنار مضطّرمة.

العادل سيستيقظ من نومه،

والحكمة ستقوم أيضاً وستعطى لهم»(203).

إذن أبناء البِّر هم أبناء أخنوخ وأسرته فقط. وقد يكون هذا الكلام الأخنوخيّ، إن وجد السفر الأساسي لأخنوخ، هو الذي أوحى لكاتب العهد القديم فكرة الشعب المختار. فأخنوخ أقدم من إبراهيم. وهذا يعني أنّ سفره المقدّس قد كُتب قبل التوراة بما لا يقلّ عن ثلاثة آلاف سنة، قبل أن توجد اللّغة والكتابة حتّى!!! وبالتالي كان من الطبيعيّ أن يتشبّه به أبناء ذريّته، ويرثوا عنه النفسيّة العنصريّة الكارهة للآخرين والمتبجّحة بأبناء جنسها.

وقد يقع القارئ من جديد في مطبّ الدعوة الأخلاقيّة التي تتلاقى مع كلام يسوع حيث نسمعه يقول:

«والذين يكدّسون الذهب والفضة سيهلكون بعقاب شديد

ويل لكم أيّها الأغنياء لأنّكم وثقتم بثرواتكم.

ستحرمون منها، لأنّكم لم تتذكّروا الملأ الأعلى في وقت ثرائكم.

لقد جدّفتم وبغيتم،

فاستحققتم يوم سفك الدم، يوم الظلمات،

يوم الحساب الكبير»(204).

هذا الكلام يتناقض مع ما طلبه يهوه من موسى وبني إسرائيل. فقد أكّد في أكثر من موضع أهميّة الذهب والفضة، التي يجب أن تكون للربّ يهوه. وسأعطي مثالاً واحداً من سفر يشوع، الإصحاح السادس المقطع الرابع والعشرين: «وكلّ الفضّة والذهب وآنية النحاس والحديد يكون قدساً للربّ وتدخل في خزانة الربّ»، وفي المقطع 24 من الإصحاح ذاته، نقرأ: «وأحرقوا المدينة بالنّار مع كلّ ما بها. إنّما الفضّة والذهب وآنية النحاس والحديد جعلوها في خزانة بيت الربّ».

هذا التناقض بين ما طلبه الإله يهوه وما طلبه أخنوخ من أبنائه البررة له ما يبرّره. فسفر أخنوخ هذا لم يكتبه أخنوخ، بل كتبه أحد أفراد إحدى الملل اليهوديّة بعد المسيح، لأنّه جاء متأثّراً بكلام يسوع الذي قال لمستمعيه في موعظة الجبل: «لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ، وحيث ينقّب السارقون ويسرقون. بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء، حيث لا يفسد سوس ولا صدأ، وحيث لا ينقّب سارقون ولا يسرقون» متى 6: 19-20 و10: 9. ثمّ تابع قائلاً: «لا تقدرون أن تخدموا اللّه والمال»، وصولاً إلى قوله: «لا تقتنوا ذهباً ولا فضّة ولا نحاساً في مناطقكم». ويبقى اللافت للنظر أنّ الكاتب المتأثّر بتعاليم يسوع لم يستطع الخروج كليّاً من تحت عباءة يهوه، فعاد إلى التهديد بسفك الدم يوم الحساب الكبير. ويسوع لم يستعمل هذا

الأسلوب أبداَ، بل كان يدعو إلى التسامح مهما كان الذنب، ولنا بما قاله عن الزانية خير مثال.

وبالرغم من هذه المقدّمة المتأرجحة بين تعاليم يهوه وتعاليم يسوع، نرى أنّ كفّة يهوه ترجح، إذ إنّ الكاتب بعد أسطر قليلة عاد ليذكّرنا بالوصايا العشر التي تمحوّرت حول كيفيّة تعامل بني إسرائيل بعضهم مع بعض، حيث نهاهم يهوه عن الزنى والسرقة والقتل، وأجاز لهم ذلك مع الآخرين. فنسمعه يهدّد بني قومه قائلاً:

«ويل لكم أيّها الذين تسبّبون الشر لقريبكم» (لا لأيّ كان).

«ويل لكم أيّها الذين تقترفون الكفر وتيسّرون الظلم بقتلكم قريبكم».

فإذا بنا بعد هذا الكلام نعود إلى البداية، أي إلى تعاليم يهوه الإجراميّة العنصريّة، التي تنصر بني إسرائيل وتدفعهم إلى الاعتداء على الآخرين.

وفي كلماته الأخيرة، يسأل أخنوخ أحد الملائكة: «ما الذي يتألّق؟ إنّه ليس السماء... فقال لي: في هذا المكان الذي تراه ستُلقى أرواح الخطأة والكفّار الذين يعملون الشرّ ويحرّفون كلّ ما قاله الربّ (يهوه) بفم أنبيائه»(205).

ويأتينا التأويل في الحاشيّة رقم 7 من الهوامش في الصفحة 166، فنقرأ: «بحسب هذه الآية، فإنّ الكشف التنبؤي كان قد نُقل لأخنوخ بواسطة الملائكة الذين يستطيعون الاطّلاع بحريّة على الكتابات السماويّة». ويدعونا ذلك إلى التساؤل: لماذا هذا الكشف التنبؤي قد نُقل إلى أخنوخ بواسطة الملائكة، ولم يُنقل بواسطة «الربّ» مباشرة، والربّ كان قد اختاره لكي يحدّث الملائكة ويحاول أن يردّهم إلى الصراط المستقيم، والربّ كان قد غضب على الملائكة لأنّهم ضاجعوا بنات الناس، فطلب من أخنوخ أن يُبلغهم أنّه «لن يكون هناك سلام أبداً لكم»؟.

نعم يمكن أن يعترض أصحاب التأويل، ويقولوا إن ليس كلّ الملائكة قد وقعوا في الخطيئة، وبالتالي يبقى منهم مَن هو من «القدّيسين». لكنّنا نصرّ على التساؤل فنقول: إذا كان «الربّ» على تواصل مباشر مع أخنوخ «الرجل الصادق وكاتب الحقيقة»، فلماذا لم يكشف له في نهاية رحلته وأحلامه عن كلّ الأسرار بدلاً من تكليف الملاك أورئيل نقلها وكشفها له؟ أسئلة ستبقى من دون إجابات، إلّا إنْ أسعفنا المؤوّلون بذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل الخامس

الباب الأوّل

توطئة

سأحاول في هذا الباب دراسة بعض نصوص كتاب الخمسينيات، الذي يرجّح العلماء أنّه كُتب نحو العام 100 قبل الميلاد. ومن العنوان ندرك أنّ لهذا الكتاب علاقة بالعدد 50. لقد أُطلق هذا الاسم على هذا الكتاب، الذي يُنسب إلى الأسّينيين أيضاً، لأنّ المؤلّف أراد أن يعيد سرد محتويات التوراة معتمداً توزيعها على فترات زمنيّة تتألّف كلّ منها من 49 سنة. واختار أن يُضيف إلى أحداث التوراة، وخاصّة الواردة منها في سفري التكوين والخروج، بعضاً من أفكاره التي استقاها من الثقافة الهلينيستيّة، التي كانت مسيطرة في عصره. واعتمد تقسيم كلّ خمسينيّة إلى سبعة أسابيع على مدى سبع سنوات، حيث اعتمد التقسيم البابليّ للسنة، أي 364 يوماً، وبالطبع من دون الإشارة إلى التقسيم البابليّ، بالاستناد إلى التزوير الدائم الذي أتقنه اليهود، والذي يتمثّل في إسناد كلّ أنواع العلوم والأدب المعروفة في تلك العصور إلى «حضارتهم».

يقول معرّب كتاب التوراة: كتابات ما بين العهدين، الذي اعتمدناه في هذه الدراسة، إنّ «اقتراح مثل هذا التقويم، المتوافق تماماً مع التقويم الوارد في كتاب أخنوخ، بل ومع التقسيمات الأسّينيّة عموماً للأعياد والأوقات المقدّسة، هو تقويم مشتقّ من التقويم الذي كان معمولاً به في فلسطين عموماً، ولدى الشعوب الفينيقيّة بخاصّة»(206). وتعليقاً على هذا الكلام أقول أوّلاً: إن من الطبيعي أن يتوافق التقويمان، الأخنوخي والخمسيني، لأنّهما كُتبا بأيدي كتبة من الأسّينيين وفي الفترة الزمنيّة ذاتها. ثانياً: إنّ إشارته إلى أنّ هذا التقويم كان معمولاً به في فلسطين وفينيقيا، تعدّ أكبر تأكيد لما قلته من أنّ اليهود لم يكونوا أصحاب حضارة، وأنّ كلّ ما ورد في كتبهم، من العهد القديم إلى مخطوطات قمران، مأخوذ من حضارات بلاد ما بين النهرين، وبلاد الشام ومصر، وأحياناً، حضارة فارس والحضارة الهلينستيّة، وخاصّة المخطوطات التي كُتبت في زمن سيطرة هذه الأخيرة. ومهما حاول اليهود الادّعاء بأنّهم أصحاب الديانة التوحيديّة الأوّلى، وأنّ كتاب العهد القديم هو كتاب الحضارة الخالد، فقد كشفت الحفريات الآثاريّة عن زيف هذا الادّعاء، ولا سيّما بعد أن بدأ العلماء بترجمة الرُقم المسماريّة السومريّة والبابليّة، وتلك التي وُجدت في أوغاريت بعد اختراع الأبجديّة الكنعانيّة.

وهذه المخطوطة مكتوبة باللغة العبريّة، ويبدو أنّها تُرجمت إلى اليونانيّة، ومنها إلى الإثيوبيّة واللاتينيّة. ويُضيف معرّب الكتاب أنّ المؤلّف الذي سعى إلى إعادة تدوين التاريخ التوراتيّ، أضاف إليه «أفكاراً لاهوتيّة وأخلاقيّة

وتشريعيّة وطقسيّة»، ورأى المعرّب أيضاَ أنّ المؤلّف الأسّينيّ، ككلّ الأسّينيين، كان ممتلئاً بالمعرفة والعلم. لذلك أظهر لنا «الكثير من المعلومات الجديدة والنادرة. ومثال ذلك أنّه يعرف اسم ابنة آدم، وأسماء نساء الشيوخ الأوائل. كما ويُفصّل لنا تقسيم نوح للأرض بين أبنائه وأحفاده، مبيّناً معارفه ذات التأثير الهليني الواضح. كذلك فإنّ معرفته بالملائكيّات مميّزة ودقيقة، ويخبرنا أنّ الملائكة وُلدوا في اليوم الأوّل من الخلق وكانوا مختونين»(207).

إنّ دلّ هذا الكلام على شيء، فإنّما يدلّ أولاً على الجهل، وثانياً على التفكير النمطيّ الذي يقبل الكلام على عواهنه متى كان الكلام يتعلّق بالدين، ولا يسمح العقل بأن يأخذ دوره تلمّساً للحقيقة. والعجب يكمن في أنّ معرّب الكتاب حيناً يعترف بأنّ بعض هذا الكلام أسطوريّ، بينما نجده هنا يُسبغ على كاتب الخمسينيات صفتي المعرفة والعلم، وذلك بعد أن يكون قد أقرّ بأنّ التقويم الخمسينيّ ليس من اختراع الكاتب، بل كان شائعاً في فلسطين وفينيقيا. وكلّ ما فعله الكاتب هو استعارة هذا التقويم، وإسقاط تواريخ الأعياد الدينيّة اليهوديّة، لأنّه لمس مدى دقّة هذا التقويم، معترفاً بأنّه «كان من الصعوبة الحفاظ على هذه الدقّة مع الاختلافات المتكرّرة من سنة إلى سنة، وهي إحدى المشاكل التي لم يكن الأسّينيون فقط مَن يعاني منها»(208).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الباب الثاني

التطابق والاختلاف مع العهد القديم

أكّدنا سابقاً، كما يؤكّد معظم الدارسين الموضوعيين، أنّ قصة التكوين التوراتيّة هي أسطورة استقاها كاتب العهد القديم من أساطير الشعوب القديمة. وأشرنا إلى أنّ كاتب العهد القديم ركّز على مولود ذكر واحد من بين مواليد آدم وذريّته. وهذا التركيز كان مقصوداً من ورائه الوصول إلى ذكر واحد يكون جداً للعبرانيين.

ومن يقرأ سفر التكوين يجد أنّ الكاتب بعد حواء لم يأت على ذكر أيّ امرأة إلى أن وصل إلى لامك، متجاهلاً أربعة أجيال من الرجال الذين تزوّجوا وأنجبوا، ولم يشر إلّا إلى ذكر واحد من مواليدهم.

فلقايين وُلد حنوك، ولحنوك ولد عيراد، ولعيراد ولد محويائيل، ولمحويائيل ولد متوشائيل، ولهذا الأخير ولد لامك، «واتّخذ لامك لنفسه امرأتين. اسم الأولى عادة واسم الأخرى صلّة» تكوين، 4: 19. ثمّ يذكر كاتب التكوين أنّ آدم عاد فجامع امرأته حواء، فولدت له ذكراً دعاه شيث. ولم يأت الكاتب على ذكر البنات اللواتي ولدن لآدم ولذريّته. وبالطبع فإنّ أبناء آدم قد تزوجوا أخواتهم لأنّه لم يكن هناك في البدء غير آدم وحواء وأولادهما من الذكور والإناث. ولا بدّ هنا من إشارة سريعة إلى الأسماء التي ذكرها كاتب العهد القديم، والّتي تنتهي بــ«إيل»؛ فهي تدلّ على مدى تأثّر الكاتب بثقافة محيطه الكنعانيّ، لأنّ إيل كما نعلم إله كنعانيّ، وكثيرة هي الأسماء التي أضيفت إلى آخر هذه اللفظة ومنها أسماء علم، وأسماء لبعض القرى، التي ما زالت قائمة في لبنان، ومنها «سعدنايل، أي إنّ اللّه يُسعد، وبرقايل، أي برق إيل (اللّه المتألّق)، وقرنايل، أي قرن إيل (مجد الله)»(209).

وهكذا حدث مع اللغة العربيّة، التي تمثّل أيضاً إحدى اللهجات الكنعانيّة لا العكس. فقد أصبح إيل، الله، وأضيف إلى عدد كبير من الأسماء مثل عبد الله، لطف الله، سعد اللّه، إلخ... وهذا يؤكّد أنّ كاتب العهد القديم قام بعمله إمّا في فلسطين، أرض كنعان الجنوبيّة، وإمّا في بلاد ما بين النهرين، حيث سادت أيضاً الكنعانيّة الآراميّة.

عندئذ نفهم لماذا كُتب التلمود باللغة الآراميّة. يقول واضع كتاب (التلمود) آ. كوهين الذي نقله إلى العربيّة د. سليم طنوس ما يأتي: «يختلف التلمودان (البابلي والفلسطيني) بعضهما عن بعض أيضاً بطريقة التعبير (باللّغة)، فهما يمثّلان لهجتين عاميّتين من اللّغة الآراميّة. الجيمارا الفلسطينيّة مكتوبة باللّغة

الآراميّة الغربيّة، القريبة من الآراميّة الشرقيّة، والقريبة لغويّاً من العاميّة المانديّة»(210).

وبالعودة إلى العهد القديم، نجد أنّ الكاتب وبدءاً من الإصحاح الخامس يبدأ بالقول مجدّداً إنّ فلاناً عاش مئات السنين، ولم يُسمّ من أولاده إلّا ذكراً احداً. وهذا الذكر كان يتزوّج ويُرزق بدوره البنين والبنات. لكنّ الكاتب كان مصرّاً على ذكر اسم ذكر واحد فقط، حتّى عن نوح قال: «وكان نوح ابن خمس مئة سنة، وولد نوح ساماً وحاماً ويافث».

وعاش نوح بعد ذلك أربعمئة وخمسين سنة، فقد كان عمره عندما مات تسعمئة وخمسين سنة من دون أن يذكر الكاتب اسم أنثى واحدة، حتّى عندما عدّد في الإصحاح العاشر مواليد نوح لم يأتِ على ذكر أيّ امرأة. وفي الإصحاح الحادي عشر عندما ركّز على مواليد سام وهو «أبو كلّ بني عابر، أخو يافث الكبير، ولد له أيضاً بنون. بنو سام عيلام وأشور وأرفكشاد ولود وأرام» تكوين، 10: 21-22، كما ذكر في الإصحاح العاشر، لم يذكر من مواليد أبنائه هؤلاء إلّا مواليد أرفكشاد، ومن أبناء الأخير ركّز أيضاً على مولود واحد ذكر، وكان يقول عن كلّ واحد إنّه وُلد له بنون وبنات، أمّا من هم، فليس من شأننا أن نعرف.

واستمر على هذه الحال حتى وصل إلى إبراهيم، فزوّجه ساراي التي حوّل اسمها لاحقاً بأمر من يهوه إلى سارة. فإذا كان العهد القديم هو كلام اللّه الذي بلّغه إلى موسى، وإذا صدّقنا أنّ هذا الكتاب هو كلام اللّه وأنّ موسى كتبه، مخالفين ما يقوله العقل وما توصّل إليه الدارسون، وإذا كان اللّه لم يخبر موسى باسم ابنة آدم، فكيف توصّل كاتب الخمسينيات إلى معرفة اسمها؟ وإذا كنّا سنجاري المؤمنين في الاعتراف بوجود الملائكة، وهم بنظرنا كائنات لاهوتيّة، فكيف يسمح معرّب الكتاب لنفسه بالقول إنّ المؤلّف بمعرفته وعلمه المميّزين أخبرنا «أنّ الملائكة ولدوا في اليوم الأوّل للخلق وكانوا مختونين؟ فهل كان الكاتب يمارس مهنة القابلة القانونيّة، فشهد ولادة الملائكة وأجرى لهم عمليّة الختان التي أمر بها يهوه إبراهيم وذريّته؟ ألا يدلّ هذا الكلام على جهل فاضح، ورضوخ لإرادة اليهود الذين زوّروا تراثنا ونهبوه وأسبغوا عليه الألوهيّة والقداسة، لكي يمنعوا العقول من محاولة المناقشة والنقد؟ وإذا كان كاتب العهد القديم، موسى كان أم عزرا أم غيرهما، قد قال بعد أن مات نوح عن عمر تسعمئة وخمسين سنة، «هؤلاء قبائل بني نوح بحسب مواليدهم بأممهم ومن هؤلاء تفرّقت الأمم في الأرض» تكوين 10: 22، فكيف سمح كاتب الخمسينيات لنفسه بأن «يفصّل لنا تقسيم نوح للأرض بين أبنائه وأحفاده»، وكيف سمح المعرّب لنفسه بأن يقول: «مبيّناً معارفه الجغرافيّة ذات التأثير الهلّيني الواضح»؟ فأيّ معارف هذه التي سمحت له

بأن يقوم بما لم يقم به سام؟ فأن يكون لمؤلّف الخمسينيات معارف جغرافيّة فهذا شيء غير مستبعد، وهو الذي عاش في بيئة حضاريّة متقدّمة. أمّا أن نصدّق أنّ هذه المعارف كشفت له ما لم يعرفه أحد قبله، من توزّع «الأمم» التي تكوّنت من ذريّة سام، فهذا ما لا قِبَلَ لعقلنا أن يتقبّله. ويبقى أن نشير إلى أنّ مفهوم الأمّة في ذلك الوقت لم يكن قد تبلور بعد، ومن ترجم اللفظة العبريّة أو الآراميّة إلى (أمّة)، فقد شارك في تزوير الحقائق، لأنّ أولاد سام، إن صدّقنا هذه الأسطورة، لم يكونوا بعد قد أنجبوا وتكاثروا بما يسمح لكلّ واحد منهم بإنشاء أمّة، وهم تفرّقوا في المحيط الذي كانوا فيه، أي إنّهم، ودائماً بحسب الأسطورة، لا يمكن، وهم بعد بدائيون، أن يكونوا قد تجاوزوا بلاد ما بين النهرين، بحيث انفرد كلّ واحد من بنيه بناحية من الأرض.

نقطة واحدة أشار إليها المعرّب وهو محق بها، وهي التي يؤكّد فيها أنّ «الخمسينيات تقدّم إلينا دفاعاً حامياً عن إسرائيل والشريعة، ويتبدّى بوضوح من خلال هذا الدفاع مقت اليهود للأجانب ومحاولتهم تمييز أنفسهم تمييزاً مطلقاً بأنبيائهم وشريعتهم وعلاقتهم بالإله»(211).

هذا الاكتشاف كان على المعرّب أن ينتبه له منذ البداية. فكل مضمون المخطوطات، كما العهد القديم، ينضح بالعنصريّة والفوقيّة والعنهجيّة، هذه الصفات الناجمة عن تعاليم هذا الإله القبليّ، أو بالأحرى، وكما أشرت سابقاً، هي تجسيد لنفسيّة كتبة هذه الأسفار، لأنّ العهد القديم والمخطوطات من وضع أشخاص أدّت عقدهم النفسيّة دوراً كبيراً في ما كتبوا. فهم من اخترع الإله، والشيوخ والآباء، والأنبياء، وهم من اختلق الملوك القدماء، حتّى إذا ما اقتربوا من العصر الذي عاشوا فيه حشروا بعض أسماء الأشخاص الحقيقيّين لإيهام الناس بأنّ كلّ ما كتبوه حقيقة لا يرقى إليها الشك. لكنّ كنوز الحضارات القديمة فضحتهم، إن لجهة سرقاتهم، أو لجهة عدم توافر أيّ وثيقة تاريخيّة لدى الشعوب القديمة تثبت كلمة واحدة مما جاء في هذه الكتب.

ويعود المعرّب لارتكاب الأخطاء العلميّة. فقد أشار إلى الطابع القومي للطقوس والشعائر الدينيّة، بدلاً من الاكتفاء بقول الحقيقة كما هي، أي لها طابع ديني لأنّها أتت لتعبّر عن طقوس شريعة محدّدة تبعها نفر محدّد، ولم تكن قط معبّرة عن تقاليد وعادات جماعيّة للشعوب التي سكنت بيئة الهلال الخصيب، فتفاعلت على مرّ السنين لتكوّن أمة واحدة ذات قوميّة واحدة. يقول: «ونشير إلى التشديد على الوصايا الطقسيّة والشعائريّة باستمرار، أكان الأمر يتعلّق بالتطهّر أم بمنع أكل الدم، أم بتقديم الذبائح واحترام السبت والاحتفال بالأعياد في أوقاتها. وعلى الرغم من أنّ هذه الممارسات الطقسيّة، وحتى العقائد التشريعيّة، تجد أصولها في عدد من المواريث الأقدم

في المنطقة، أعطاها التشديد اليهوديّ، وخاصّة الأسّيني هنا، بعداً ذا طابع قومي-ديني»(212).

وأنا أرى في هذا الكلام شيئاً من الحقيقة من جهة، ومغالطة اجتماعيّة من جهة أخرى. فالحقيقة ذكرتها غير مرّة، وهي تتمثّل في قول المعرّب إنّ أصول هذه الممارسات تعود إلى تراث المنطقة، كعطلة يوم السبت والوصايا العشر، حيث نجد الأصل في التراثين البابلي والكلداني. أمّا وصف الطقوس الدينيّة بالطابع القومي، فهو بعيد عن العلم، لأنّ الدين، بتعاليمه اللاهوتيّة وممارسات تابعيه الطقوسيّة والشعائريّة، لا علاقة له بالقوميّة لا من قريب ولا من بعيد. فأتباع أيّ دين لا يمثّلون قوميّة أو أمّة، بل طائفة لها ذات التوجُّهات العقديّة اللاهوتيّة نفسها، وتمارس الطقوس والشعائر نفسها، وهذا ما يقوّي رابطتها الدينيّة فقط.

فالنظريّات الاجتماعيّة التي اعتمدت الدين أساساً للقوميّة هي نظريات عنصريّة مثل مثيلاتها التي اعتمدت العرق. فكلا الدين والعرق لم يعد، في علم الاجتماع الحديث، معترفاً بهما سببين رئيسيين للرابطة القوميّة.

يبدأ كاتب الخمسينيات عمله بفاتحة يقول فيها: «ذلكم هو التقسيم الشرعيّ والمؤكّد للزمن، ولأحداث السنوات بأسابيعها وبخمسينياتها، لسنوات العالم كلّها، كما كشفها الربّ لموسى على جبل سيناء عندما صعد ليتلقى ألواح الشريعة والوصايا بأمر الربّ، بحسب ما كان قد قاله له (اصعد إلى قمة الجبل)»(213). ومن يقرأ العهد القديم فلا بدّ أن يلاحظ أن «الربّ» يهوه عندما دعا موسى للصعود إلى الجبل لم يحدّثه عن «التقسيم الشرعي والمؤكّد للزمن»، بل «تكلّم اللّه بجميع هذه الكلمات قائلاً: أنا الربّ إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبوديّة. لا يكن لك آلهة أخرى أمامي» خروج 19: 1-3. ثمّ يحذّر هذا الإله شعبه من صنع التمائيل والتعبّد لها. ويعود ليؤكّد ما أورده الكاتب في سفر التكوين بشأن عطلة يوم السبت وضرورة تقديسه، وصولاً إلى تبليغ الشعب وصاياه العشر. فمن أين أتى كاتب الخمسينيات بهذا التقسيم الشرعي للزمن، الذي عدّه بحكم المؤكّد. وأين أصبح اليوم هذا التقسيم الشرعي المؤكّد للزمن إذا ما قارناه بما توصّل إليه العلم، الذي ذكرناه في المدخل؟ وتفسيرنا لهذا الكلام ينطبق جزئيّاً مع تفسير المعرّب، الذي قال إنّ الكاتب أضاف إلى السرد التوراتيّ من عندياته التي تُظهر معرفته وعلمه. والحقيقة أنّه استوحى هذه التقسيمات، كما مرّ معنا، ممّا اطّلع عليه، لدى البابليين والكنعانيين، من معلومات فلكيّة لكي يتمكّن من تحديد أعياد طائفته.

ونفاجأ بأنّ التقسيم الشرعي للزمن، بالنسبة إلى الكاتب، يبدأ بعد خروج بني إسرائيل من مصر ووصولهم إلى سيناء. وعندما نقرأ عنواناً يشير إلى «عرض

تاريخ العالم» نعتقد بأنّ الكاتب سيعود إلى سفر التكوين ويعيد علينا قصّة الخلق التوراتيّة. لكنّنا نفاجَأ بالربّ «يهوه» يقول لموسى: «هيّئ قلبك لتلقي الكلام الذي سأقوله لك على هذا الجبل، واكتبه في كتاب، لكي تستطيع الأجيال رؤية أنّني لم أتركها. على الرغم من الإساءة كلّها التي اقترفوها بانتهاكهم للوصايا التي أمليها اليوم بيني وبينك على جبل سيناء لأجيالهم»(214). فالزمن بالنسبة إلى الكاتب يبدأ من اللقاء الذي جرى بين يهوه وموسى على جبل سيناء، هذا اللقاء الذي أخبرنا فيه كاتب العهد القديم أنّ بني إسرائيل تمرّدوا على إرادة إلههم، فلم يتقيّدوا بوصاياه. واللافت أنّ يهوه طلب من موسى كتابة الوصايا في كتاب لكي تقرأها أجيال بني إسرائيل تحديداً، فتعلم أنّ هذا الإله هو إله أجدادهم، الذي اختارهم له شعباً خاصّاً لا يشاركهم فيه أيّ شعب آخر. لكنّ موسى لم يتقيّد بهذا الأمر، إذ لم يصلنا أيّ كتاب يؤكّد أنّ موسى كتبه، بل كلّ ما توصّل إليه الدارسون هو القول إنّ الكاتب عزرا، الذي كان من بين الذين جرى نفيهم من أورشليم إلى بابل، هو من كتب الأسفار الأولى من العهد القديم، ويفسّرون ذلك بأنّها وصلت إليه شفاهاً، وعندما نعلم أنّ الفارق الزمني بين موسى وعزرا لا يقلّ عن سبعمئة وخمسين سنة، ولو لم نر هذا الكمّ الكبير من الصفحات التي تغطيها نصوص الأسفار الخمسة الأولى، لما أمكننا التصديق أنّ كلّ هذه الأسماء والتفاصيل المملّة يمكن أن تكون قد انتقلت شفهيّاً من جيل إلى جيل؛ ولما أمكننا أن نصل إلى القناعة التي توصّل إليها الكثير من الدارسين الموضوعيين، ومفادها أنّ عزرا هو من اخترع هذه القصص، مستنداً إلى الأساطير البابليّة فاخترع شعباً ومملكة من مخيّلته. وهذا ما أشار إليه الكاتب اليهوديّ المعاصر شلومو ساند في كتابَيه اختراع أرض إسرائيل واختراع الشعب اليهودي. وهذا ما أكّده أيضاً كيث وايتلام في كتابه تلفيق إسرائيل التوراتيّة: طمس التاريخ الفلسطيني.

ويمرّ الكاتب المستند إلى علمه الغزير وحكمته المعرفيّة ببعض ممّا هو وارد في سفر الخروج، مستعيناً ببعض المقاطع بحرفيّتها، مؤكّداً أنّ الإله الذي استعاره عزرا من آلهة كنعان، سيبني معبده وسطهم «فيسكن معهم ويكون إلههم، وهم يكونون شعبه الخاص، لأنّه الربّ إلههم».

فعن أيّ فروق يتكلّم دارسو هذه المخطوطات التي شغلت العالم لعقود؟ وفي أكثر من مقطع يكرّر يهوه لموسى رأيه في شعبه، فهو يعرف «روح التناقض عندهم، وأفكارهم وغلاظة فكرهم، وأنهم لن يُطيعوا قبل أن يعترفوا بخطيئتهم وخطيئة آبائهم. وبعد ذلك سيلتفتون إليّ باستقامة كاملة. من كلّ قلبهم ومن كلّ روحهم، وسأختن قلبهم وقلب ذريّتهم، وأخلق لهم روحاً قدّوساً، وأطهّرهم بحيث لا يحيدون بعد ذلك عني، منذ هذا اليوم وإلى الأبد.

وسترتبط أرواحهم بي وبوصاياي كلّها وسيتمّمون وصاياي، وسأكون أباهم وسيكونون أولادي، وأنّني أبوهم الحقيقيّ والشرعيّ»(215).

ونحن بعد أكثر من ألفي عام على هذه الكتابات، نريد أن نؤكّد مسألتين: الأولى هي أنّ بني إسرائيل لم يتقيّدوا بوصايا إلههم التي أعطاهم إيّاها ليمارسوها فيما بينهم. ولقد أثبت كاتب العهد القديم استمرار بني إسرائيل في ارتكاب الشرور، وكذلك فعل معظم ملوكهم، بمن فيهم مؤسّسا مملكة إسرائيل المزعومة، أي داود وسليمان.

وما يُمكننا أن نؤكّده هو أنّ بني إسرائيل تقيّدوا بوصايا إلههم تجاه الآخرين، فهم لم يعقدوا صلحاً دائماً مع الأمم الأخرى كي لا يكونوا شوكة في خاصرتهم، وهم ما زالوا حريصين على تنفيذ وصايا القتل والتدمير والنهب. وهذا واضح ممّا نشاهده في غزّة، وما شاهدناه في القرن الماضي من احتلال جديد لجزء من فلسطين وسورية ولبنان، وما رافق ذلك من تدمير للبيوت، وتهجير للسكان، وارتكاب للكثير من المجازر. أمّا إذا قال قائل إنّ دولة الاحتلال عقدت معاهدة مع مصر والأردن، وهي في طريقها إلى عقد المزيد منها مع دول عربيّة أخرى، فأقول إنّ ذلك جرى لأنّ هذه الدول استسلمت لإرادة دولة الاحتلال، التي عملت بحسب وصيّة يهوه، الذي قال لهم: «حين تقترب من مدينة لكي تحاربها استدعها للصلح. فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكلّ الشعب الموجود فيها يكون لك للتسّخير ويُستعبد لك» تثنية 20: 10-11. إذن إسرائيل أقدمت على الصلح مع هذه الدول بعدما تزحفطت الأخيرة مهرولة إلى إسرائيل، التي اطمأنّت تماماً إلى أنّ هذه الدول قد خنعت، فأحنت الرقاب متخلّية عن عزّتها وكرامتها، وقبلت أن تُسخّر لخدمة إسرائيل، وأن تُستبعد لأطماعها ولعقائدها اللاهوتيّة المتحجّرة.

وتحت عنوان «قصّة العالم مكتوبة على الألواح السماويّة» لا نجد سوى كلام عن إله إسرائيل وشعبه. يقول الكاتب: «وقال لأحد ملائكة الوجه: «اكتب لموسى ما سيحدث منذ بدء الخلق حّتى اليوم الذي يُبنى فيه معبدي في وسطهم إلى الأبد. عندئذ سيظهر الربّ لأعين الجميع (بني إسرائيل فقط) وسيعرف الجميع أنّني إله إسرائيل... وحيث تُجدّد النيّرات كلّها من أجل شفاء وسلام وتبريك جميع مختاري إسرائيل»(216).

في المقطع السابق قرأنا أنّ يهوه قال لموسى أن يكتب الكلام الذي سيقوله له في كتاب لكي يبقى للأجيال المقبلة. أمّا في المقطع الأخير الذي أثبتناه، فنجد أنّ هذا الإله قد غيّر رأيه، فأوكل المهمة «لأحد ملائكة الوجه»، فماذا يعني هذا التعبير؟ نقرأ تفسيراً لهذه العبارة في الهامش رقم 27: «ملاك الوجه... يدلّ على أنّ الأمر يتعلّق بطبقة ملائكيّة ينتمي إليها مرشد موسى لا بلقب يحمله ملاك واحد» (ص266). غريب أمر المؤّولين واستنتاجاتهم، إذ لم

يرد في العهد القديم أيّ ذكر يُفيد بأنّ يهوه عيّن مرشداً لموسى، ثمّ لماذا يريد موسى مرشداً وهو على تواصل مباشر مع يهوه؟ في العهد القديم، ذكر الكاتب أنّ موسى كان يعاني عاهة في النطق، فاستعان بيهوه، ودار بينهما الحوار الآتي: «فقال موسى للربّ (يهوه) اسمَع أيّها السيّد لست أنا صاحب كلام منذ أمس ولا أوّل من أمس ولا من حين كلّمتَ عبدك. بل أنا ثقيل الفم واللسان. فقال له «الربّ» من صنع للإنسان فماً، أو من يصنع أخرس أو أصمّ أو بصيراً أو أعمى. أما أنا هو الربّ؟ فالآن اذهب وأنا أكون مع فمك وأعلّمك ما تتكلّم به. فقال استمع أيّها السيّد، أرسل بيد من تُرسل. فحمي غضب الربّ على موسى، وقال أليس هارون اللاوي أخاك. أنا أعلم أنّه هو يتكلّم... هو يكلّم الشعب عنك. وهو يكون لك فماً وأنت تكون له إلهاً» خروج 4: 10 - 14 و 16-17. وعلى عقلنا أن يتقبّل هذا الكلام ويصمت، وإلّا فستكون صفة الكافر جاهزة لوصمنا بها. قد ينطبق هذا على الكثيرين لكنّني لست منهم، وأنا إن سلّمت بأنّ هذا الإله هو خالق الكون وإله جميع الكائنات، وأنّه كلّي القدرة، كما قال، يخلق الإنسان ومعه العاهة التي يريد، ولكن ما لا يمكن أن أسلّم به هو اختيار هذا الإله لموسى، الثقيل الفم واللسان لكي يكون نبيّه المرسل لهداية الناس. ألم يكن يعلم هذا «الربّ» بعاهة موسى، وهو الذي كان يعلم بأنّ هارون شقيق موسى كان يتكلّم؟ فلماذا لم يختر هارون بدلاً من موسى لهذه المهمّة منذ البداية؟ وكيف يمكن أن يصبح موسى إلهاً لهارون؟ إنّها هرطقة وثرثرة راوٍ مبتدئ، لا علاقة له بالروحانيّات.

إنّها قصص وفولكلور شعبي شبيه بقصص حكواتي أيام زمان، والمبالغة صفة ملازمة لكليهما. وإذا كان يهوه قد قال لموسى «اذهب وأنا أكون مع فمك وأعلّمك ما تتكلّم به، فكيف جرؤ موسى ولم يقبل ما قاله الربّ، بل أجابه بلهجة الآمر قائلاً: «استمع أيّها السيّد، أرسل بيد من تُرسل» ما جعل غضب يهوه يستعر، وهو إله غضوب مخوف كما مرّ معنا. وبدلاً من رضوخ موسى يرضخ الربّ ويعيّن له هارون ليكون له فماً، فلماذا لم يعلن أنّه قد عيّن له مرشداً؟ وإذا كان يعني أنّ هارون، فم موسى، هو المرشد، فكيف يقول كاتب الخمسينيات إنّ يهوه عيّن أحد الملائكة كي يكتب لموسى ما استدعى المفسّرين إلى اعتبار هذا الملاك هو مرشد موسى؟

ألَا رفقاً بعقلنا وبعلمنا ومعرفتنا التي استخفّ بها كتبة العهد القديم وكتبة المخطوطات، وما زال هذا الاستخفاف مستمراً من قبل دارسي هذه الكتب، الذين رضخوا للمؤامرة اليهوديّة التي استطاعت السيطرة على عقول معظم المؤمنين.

وتحت عنوان أيام الخلق الستة، يكرّر الكاتب ما ورد في العهد القديم عن هذا الموضوع، ثمّ ينتقل إلى «السبت وقوانينه»، مؤكّداً بالثلاث ضرورة موت كلّ

من يخرق راحة يوم السبت المقدّس، فيقول: «فليمت كلّ من يخرقه، فليمت، فليمت كلّ من يقوم فيه بأيّ عمل»، مؤكّداً أنّ هذا اليوم هو فقط لبني إسرائيل، «لكنّه لم يكرّس الشعوب كلّها والأمم كلّها للاحتفال بالسبت في هذا اليوم، فليس هناك سوى إسرائيل... وقد أعطيت هذه الشريعة وهذا الأمر لبني إسرائيل كقانون أبدي، لأجيالهم كلّها»(217).

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى كلام مضى، وهو قول كاتب العهد القديم إنّه من أولاد سام تفرّقت كلّ الأمم. وإذا كان اليهود يعدّون سام جَداً لهم، أليس أيضاً جَد كلّ ذريّة أولاده؟ فكيف يكونون وحدهم ساميّين، وكيف يغضبون على كلّ من ينتقد اليوم إسرائيل ويتّهمونه بالعداء للساميّة؟ فأيّ خديعة هي هذه؟ وكيف تنطلي على كلّ المؤمنين، بمن فيهم كبار المفكرين والدارسين؟

وينتقل الكاتب إلى أسطورة آدم وحواء، التي ذكرنا أنّها مستوحاة من أساطير الشعوب القديمة. ولكن لا بدّ أن نطرح السؤال الآتي على قول الكاتب المستقى من العهد القديم، بأنّ آدم عندما رأى حواء قال لها: «الآن هذا حقاً عظم من عظامي ولحم من لحمي»، فكيف علم آدم ذلك إذ كان اللّه قد ألقى عليه سباتاً، بحسب العهد القديم، وخدراً، بحسب كاتب الخمسينيات، فرأى حواء أمامه بعدما استيقظ، إمّا من النوم أو من المخدّر، لا فرق؟

ومن خطيئة عدن التي كانت نتيجتها إخراج آدم وحواء من الجنّة، بحسب أسطورة التكوين، تفتّق خيال كاتب الخمسينيات، أو ربّما علمه ومعرفته!! ببدء التأريخ الكوني. هذا التأريخ الذي أكّدنا أنّه تأريخ أسطوريّ، بالاعتماد على ما توصّل إليه العلم من إثبات أنّ رحلة الإنسان استغرقت ملايين السنين قبل توصّله إلى النطق، ومن ثمّ إلى اختراع الرموز ثمّ الحروف وصولاً إلى تطوير الحروف ووضع الأبجديّة الأولى. ومرّ معنا أيضاً أنّ التاريخ والوثائق تشهد بأنّ البابليّين هم أوّل من أعطى الزمن مفهوماً ملموساً، إن صحّ التعبير، وذلك عبر تقسيمهم اليوم إلى ساعات فدقائق وثوانٍ، ثمّ تقسيم السنة إلى أشهر فأسابيع وأيام، فكيف نسب كاتب الخمسينيات، ووافقه المعرّب، على أنّه في خمسينياته قد وضع تأريخاً للكون «منذ بدء الخلق»؟ وإذا لم نقل عن هذا الفعل إنّه تزوير للحقيقة وسرقة للتراث الحضاريّ البابليّ، فماذا إذن يمكننا أن نسمّي ذلك؟ ألا يحق لنا أن نتساءل كيف علم هذا الكاتب، مع تقديرنا لكلّ علمه ومعرفته، ما جرى منذ الأسبوع الأوّل من الخلق؟ ألا يتبادر إلى أذهاننا أنّ هذا الكاتب قد انطلق من أسطورة التكوين الواردة في العهد القديم، واستغلّ المعارف الفلكيّة التي كان البابليون قد كشفوها للناس، ليضيف إلى هذه الأسطورة تقسيماته الزمنيّة الخياليّة، لكي يُرضي غروره الديني والأدبيّ، بأنّه ترك وراءه أثراً للأجيال المقبلة، حتّى لو كان هذا الأثر عديم القيمة والمنفعة في المنظور العلميّ المنطقيّ؟

فلنقرأ ما دوّنه هذا الكاتب، أو بعضه، عمّا جرى في الأسبوع الأوّل من الخلق، لكي نوضح فحوى التساؤلات التي ذكرتها. يقول: «خلال الأسبوع الأوّل من الخمسينيّة الأولى ظل آدم وامرأته سبع سنين في بستان عدن، يزرعانه ويحفظانه... وحالما انقضى أجل السنوات السبع، وفي اليوم السابع عشر من الشهر الثاني جاءت الحيّة إلى زوجه(218)...»، والجميع يعلم بقيّة الأسطورة التوراتيّة التي يصدّقها معظم المؤمنين من دون أن يتساءلوا عن صدقيّة فعل التكلّم لدى الحيّة. وأعلم مسبقاً أنّ المتفذلكين من المؤوّلين سيقولون إنّما الحيّة ليست سوى رمز للشيطان الموسوس. وبالرغم من ذلك أقول إنني متأكّد، ومن خلال التفاعل الحواري مع بعض المؤمنين، من أنّهم يأخذون هذا الكلام بحرفيّته، بالرغم من بروز الدلائل الدافعة إلى أنّ الشعوب التي سبقت العبرانيين هي التي أبدعت هذه الأسطورة، ووضعتها في إطارها الأدبيّ، لا اللاهوتيّ الإلهيّ المقدّس.

وانطلاقاً من تحديد كاتب الخمسينيات لتاريخ كلام الحيّة مع حواء، أي السابع عشر من الشهر الثاني، أيعقل ألّا يستوقفنا هذا الكلام لنجد فيه استفزازاً جديداً لعقولنا؟ لو أقرّ كلّ الدارسين والمؤمنين، ما عدا اليهود طبعاً، بأنّ هذا الكلام يجب أن يوضع في خانة الأساطير، لما كان لكلامي ولكلّ هذه الدراسة من معنىً. أمّا وأنّ اليهود استطاعوا أن يفرضوا على العالم بأجمعه، مع بعض الاستثناءات، أنّ ما ورد في كتبهم هو كلام اللّه الأزليّ الأبديّ، الذي لا يمكن أن يخضع للنقاش والتحليل، فهذا ما يجعل لهذه الدراسة معنىً مميّزاً، وهذا ما دفعني بالأساس إلى كتابة هذه الدراسة، لكي تكون لبِنة في المدماك الذي بدأ ببنائه قلّة من المؤرّخين والدارسين، الذين اكتشفوا الكذب والتزوير والمؤامرة التي حاكتها اليهوديّة على جميع الأديان، فخوّلتها السيطرة على العقول.

بعد ذلك يقول الكاتب إنّ الربّ لعن «الحيّة وحفظ الضغينة لها للأبد. وحفظ الضغينة أيضاً للمرأة لأنّها سمعت كلام الحيّة». ونحن نعلم جميعاً كامل الأسطورة التوراتيّة، وهي التي أراد منها كاتبها البابلي أن تجسّد صراع الخير مع الشرّ، وأراد منها كاتبها العبراني عبرة لكلّ من يقاوم إرادة الإله يهوه، لأنّه يحفظ الضغينة، ولا ينسى من أساء إليه، وأنّه فوراً مستعد لإنزال أقسى أنواع العقاب بالعاصي، وهو غضوب إلى درجة لا تتيح له الانتظار إلى يوم الحساب.

ويظهر بوضوح مدى تأثّر الكاتب بالأدب البابليّ، وذلك عندما يقول: «في اليوم نفسه الذي ترك فيه آدم بستان عدن، أحرق بخوراً طيّب الرائحة»، لأنّ العهد القديم ركّز دائماً على أنّ الإله كان يرضى بتنسّم رائحة الشواء، وهكذا فعل بعد الطوفان كما مرّ معنا.

ويصل كاتبنا العارف العالم إلى أسطورة أخنوخ، ونقرأ أنّه حدّد اسم زوجة يارد التي أنجبت له أخنوخ، فإذا بها تدعى بَرَكه ابنة راسويال. وبالعودة إلى العهد القديم لم نقف على ذكر لراسويال ولا لابنته بركه، فمن أين اختلقهما كاتب الخمسينيات؟ أمّا عن أخنوخ، الذي مرّ ذكره سابقاً وعلّقنا على سفره وما مرّ به مع الله، فنرى أنّ كاتب الخمسينيات قد منحه نعمة كونه «أوّل البشر المولودين على الأرض الذين يتعلّمون الكتابة والحكمة والعلم»، ناقضاً بذلك كلّ التاريخ، وما أثبته أنّ السومريين هم أوّل من اخترع لغة، وأنّ البابليين هم أوّل من وضع علوم الفلك والجغرافيا والرياضيات، إلى جانب ريادتهم الأدبيّة بفن الأسطورة.

وكذلك فعل مع أخنوخ، فزوّجه «إدني ابنة دانل». ولكي يثبت لنا ما أورده زميل له من كتبة الأسّينيين في سفر أخنوخ، قال عن أخنوخ إنّه «قضى ست خمسينيات من السنوات (أي ثلاثمئة سنة) برفقة الملائكة، وقد بينوا له كلّ ما هو على الأرض وفي السموات كما وسلطة الشمس!! وقد وضع ذلك كلّه كتابة». واستمرّ الكاتب في تخريفه، فرأى أنّه بسبب أخنوخ الذي خطفه إلى بستان عدن، أرسل الطوفان بعد أن كثرت شرور البشر، ومنع الطوفان عن جنّة عدن. وأشار الى أنّ الربّ «يملك أربعة أماكن على الأرض هي بستان عدن. وجبل الشرق، والجبل الذي توجد عليه اليوم، ألا وهو جبل سيناء، وجبل صهيون، الذي سيكرّس في الخلق الجديد، من أجل تقديس الأرض»(219). فكيف تكون هذه الأماكن الأربعة فقط ملكاً للربّ، وهو خالق الكون كلّه، وليس فقط الأرض؟ أي إسفاف أدبيّ هو هذا المتخفّي تحت نقاب الدين والألوهة؟

ويستمر الكاتب في ذكر زوجات كلّ الذكور من ذريّة آدم، اللواتيّ لم يأت كاتب العهد القديم على أيّ ذكر لأيّ واحدة منهن. ثمّ يحدّد موت آدم «في نهاية الخمسينية التاسعة عشرة في الأسبوع السابع، في السنة السادسة من هذا الأسبوع»(220).

وهذا التحديد يتوافق مع ما ورد في العهد القديم من أنّ آدم مات عن عمر تسعمئة وثلاثين سنة. ويقول الكاتب: «وكان قد بقي به سبعون عاماً لكي يعيش ألف عام. وألف عام هي مثل يوم واحد في تنظيم السماوات. فمن أجله كان قد كُتب، في ما يخصّ شجرة المعرفة. (اليوم الذي ستأكلان فيه منها ستموتان)، ولهذا لم يُتم أبداً سنوات هذا اليوم، بل مات خلال هذا الزمن»(221).

لكنّ تفسير الكاتب هذا ينقضه كاتب العهد القديم، الذي لم يُمِت آدم فور أكله من شجرة معرفة الخير والشرّ، ولا فرق إذا كان اليوم السماويّ يساوي ألف سنة من اليوم الأرضي، لأنّ عقاب الموت كان يجب أن يلحق بآدم فور أكله

من الشجرة هو وزوجته. لكنّ هذا لم يحدث، فبدلاً من إماتتهما نقلهما الربّ من جنة عدن إلى «الأرض التي أخذ منها»، ويحدّدها كاتب الأسطورة التوراتيّة بأنّها تقع «شرقي جنة عدن». ويبدو أنّ آدم قد خرج قبل تقدّمه في السن، لأنّ الكاتب بعد خروجه يخبرنا أنّه عرف زوجته فولدت له قايين، ثمّ عادت فولدت له هابيل، والولد الأخير لآدم الذي يذكره لنا الكاتب كان شيث، وكان عمر آدم يومها مئة وثلاثين سنة، وعاش بعدها ثمانمئة سنة وولد بنين وبنات، فمن هم؟ وما هي أسماؤهم؟ فليس هذا من شأننا!!! فإذا كانت ألف عام بحسب التقويم الأرضي تساوي يوماً واحداً بحسب تنظيم السماوات، فهذا يعني أنّ آدم قد عاش أقلّ من عام واحد، لأنّه لم يُتم عامه الألف، وعندئذ كيف نتعامل مع سني حياة آدم قبل أكله من شجرة الخير والشر، وسني حياته بعد إقدامه على هذه الفعلة الشنيعة؟ وها نحن نرى كاتب الخمسينيات يحدّد سنة موت قايين بسنة واحدة بعد موت أبيه آدم، حتى أنّه يذكر سبب الموت، فإذا به انهيار «منزله عليه، ومات وسطه، مقتولاً بحجارته».

للّه درّ هذا الكاتب العالم والعارف، الذي جعل الإنسان الأوّل بنّاءً وأسكنه في منازل من حجر، كلّ ذلك ليقول: «وبما أنّه قتل بحجر فبحجر قُتل، وفق قضاء عادل». وأعتذر عن القول إنّني لم أقرأ أسخف من هذا التفسير، لأنّنا إذا ما صدّقنا أسطورة العهد القديم التي تقول إنّ قايين قتل أخاه هابيل لغيرته منه، بعدما فضّل اللّه قربان هابيل على قربان قايين، فكيف نصدّق ما كتبه مؤلّف الخمسينيات بأنّ قايين قُتل بأحجار بيته، لأنّه قتل أخاه بحجر؟ كاتب التوراة لم يذكر قط أداة القتل التي استعملها قايين، بل قال إنّ قايين استدرج أخاه إلى الحقل وقتله. ونحن وإن كنّا لا نستبعد فكرة القتل بحجر، وقد كان متوافراً في الطبيعة خلافاً لتوافر أيّ نوع من السلاح مع الإنسان الأوّل، إلّا أنّنا نستبعد فكرة قيام الإنسان الأوّل ببناء منازل حجرية لسكناه، لأنّ هذا ضدّ المنطق وضدّ العلم؛ وبالتالي فإنّ هذا الكلام لا يتجاوز منطق الأسطورة، ولا علاقة له بالعلم والمعرفة الموسوعيّة لكاتب الخمسينيات، وخاصّة أنّ كاتب العهد القديم يؤكّد لنا أنّ بني إسرائيل كانوا يسكنون الخيام حتّى قيام مملكة إسرائيل المزعومة على يد داود، أي في نهاية القرن الحادي عشر قبل الميلاد.

بعد ذلك ينتقل الكاتب ليخبرنا عن نوح وأولاده، فيقول: «وفي الخمسينيّة الخامسة والعشرين، (أي في السنة الألف والمئتين والخمس والعشرين)، اتّخذ نوح زوجة له المدعوّة إمزارا، ابنة رقئيل، وهي ابنة أخت أبيه، في السنة الأولى من الأسبوع الخامس. وأنجبت له في السنة الثالثة سام، وفي السنة الخامسة أنجبت له شام، وفي السنة الأولى من الأسبوع السادس أنجبت له يافث»(222). أمّا إذا عدنا إلى العهد القديم، فإنّه لا يخبرنا عن اسم زوجة نوح، حتّى أنّه لم يزفّه لنا عريساً، بل أعلمنا أنّ أباهِ يدعى لامك، ويُكمل

فيقول: «وكان نوح ابن خمس مئة سنة وولد نوح ساماً وحاماً ويافث» تكوين، 5: 22.

فأيّ كلام نصدّق؟ كلام اللَّه الذي بلّغه لموسى وأمره أن يكتبه في كتاب لتعرف الأجيال قصّة خلق الكون والإنسان، أم كلام كاتب الخمسينيات، الذي اعتمد جزئيّاً على كلام «الله»، ومن ثمّ اختلق تقويماً وأسماء لم ترد على لسان هذا «الله»؟ ثمّ إنّ كاتب العهد القديم قد أطلق على ابن سام الثاني اسم حام، فلماذا انقلب مع كاتب الخمسينيات إلى شام؟ نحن نعرف أنّ حرف السين يمكن أن يُقلب في اللّغات القديمة إلى شين والعكس صحيح، أمّا أن يُقلب حرف الحاء إلى شين، فهذا يستدعي منّا التوقّف لإيجاد السبب.

والسبب برأيي يعود إلى المؤامرة التي حاكها عزرا كاتب الأسفار الخمسة من العهد القديم، إن كان هذا الأمر صحيحاً، فهو الذي اخترع إله بني إسرائيل، وإليه نسب أساطير التكوين، والخلق، والطوفان. وهو الذي اخترع شخصيّات الإنسان الأوّل من آدم وصولاً إلى إبراهيم، الذي عقد يهوه معه ميثاقاً بإعطائه أرض كنعان له ولذريّته من بعده. وإمعاناً في الهرطقة والتزوير، جاء كاتبنا هذا يستبدل اسم حام بشام، وشام كانت تطلق على بلاد الشام التي تضم سورية الحاليّة، ولبنان وفلسطين والأردن، كما كانت تطلق أحياناً على دمشق فقط، ليقول إنّ هذه المدينة القديمة قد بناها شام ابن سام ومنه أخذت اسمها، وهي بالتالي موطن أجداد العبرانيين منذ القدم، وحقهم في ملكيّتها هو حق شرعيّ مكتسب. ومن هنا فإنّ بعض الدارسين، الذين أعطوا تفسيراتهم قبل العثور على مخطوطات الأسّينيين، رأى أنّ كلمة شام تُنسب «إلى سام بن نوح الذي استوطن المنطقة وذريّته وبنى مدينة دمشق»(223). ويبدو أنّ الكاتب استبق هذه التفسيرات وأبدل اسم حام إلى شام لكي يصبح النسب أقرب إلى العقول. وهذا الخلاف المستمر مع ما ورد في العهد القديم ليس سوى من قبيل اجتهادات الكاتب الأسّيني «الواسع العلم والمعرفة»، بحسب رأي المعرّب، وهو ليس سوى محرّف صغير للتاريخ وللجغرافيا. ولا عجب في ذلك لأنّ صفة التحريف ملازمة لكلّ كتبة العبريين، بدءاً بعزرا وكلّ الكتبة الذين أتوا من بعده وأكملوا أسفار العهد القديم، وصولاً إلى يوسيفوس، المؤرّخ اليهوديّ الذي عاش ما بين العامين 37 و100 للميلاد، مروراً بكاتب الخمسينيات، الذي باعتقادي كتب مخطوطته هذه في النصف الثاني من القرن الأوّل الميلادي، لا قبل الميلاد، لأنّه في بعض ما كتب كان متأثّراً بالأقوال المنسوبة إلى يسوع، وخاصّة بشأن الختان، إذ أورد الكاتب قولاً من الربّ لموسى ذكرناه سابقاً جاء فيه: «وسأختن قلبهم وقلب ذريّتهم». وهذا القول يتماهى مع كلام جاء في رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية ورد فيها: «لأنّه في المسيح يسوع (أي من يتّبع تعاليم يسوع) لا الختان ينفع شيئاً ولا الغرلة بل الإيمان العامل بالمحبّة» غلاطية 5: 6. فجملة «سأختن قلبهم

وقلب ذريّتهم» يجب أن تُفهم على أنّ هذا الإله سيقتلع من قلوب بني إسرائيل الحقد والبغض ليزرع مكانهما المحبّة التي نادى بها يسوع.

وبعد هذا الاستطراد، وبالعودة إلى كلمة شام، فإنّنا نجد لها ثلاثة تفسيرات منطقيّة مختلفة كليّاً عن تفسيرات المتهوّدين. الأوّل يرى أنّها تعود إلى كلمتي شأم وشآم، اللتين تعنيان الشامة السوداء، وهو تشبيه لدمشق التي كانت تحيط بها أشجار الغوطة الخضراء من كلّ جانب. ويقول موقع (سورية مهد الحضارات) إنّ كلمة شام في اللّغة (جمع شامة)، وسمّيت الشام لكثرة قراها وبيوتها وتداني بعضها من بعض، وهي التي تشبه توزّع الشامات في الجسم.

ومسألة الجزم في مثل هذه الحالات، التي تعود إلى آلاف السنين، لا يمكن أن تستقيم. ولكن يمكننا الجزم بأنْ لا علاقة لاسمَي سام وشام ابني نوح بهذه التسمية، لأنّ التاريخ لا يحدّثنا مطلقاً عن نوح أو أولاده، إذ كيف له أن يفعل ذلك وهم شخصيّات أسطوريّة أوجدها خيال الكاتب عزرا، الذي اختلق قصّة آدم وكلّ ذريّته.

والثاني أنّها مشتقّة من فعل شمّ، لأنّ أحدهم أضاف إلى ذلك رائحة أشجار الأرز، وذلك لأنّ منطقة الأرز هي إحدى مناطق بلاد الشام. أمّا التفسير الأقرب إلى العقل وإلى الناحية اللغويّة، فهو الذي قدّمه المؤرّخ فايز المقدسي، الذي يقول إنّ شام تعني الشمس أو السماء (شمّ باللّغة الكنعانيّة)، فدمشق كانت في قلب كنعان.

نصل مع كاتب الخمسينيات إلى نقطة خلافيّة جديدة مع العهد القديم، وهي تتعلّق بالبار نوح، الذي سكر ونام عارياً، فدخل عليه ولده الأوسط حام، شام في المخطوطة الخمسينية، ثمّ خرج ضاحكاً وأخبر أخويه سام ويافث، فحمل سام رداءً، وكأنّهم في ذلك الوقت كانوا قد اخترعوا الحياكة والغزل والنسيج، وساعده أخوه يافث ورجعا إلى الوراء وألقيا الرداء على نوح من دون أن ينظرا إلى عورته. ويخبرنا كاتب العهد القديم أنّ نوحاً عندما استيقظ «من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير. فقال ملعون كنعان» تكوين 9: 25. لكنّنا نعلم من سلسلة أبناء نوح أنّ حاماً هو الابن الأوسط لنوح لا الأصغر، وأنّه كان أباً لكنعان، فإذا كان حام قد ارتكب الخطأ الذي لا يُغتفر، فلماذا صبّ نوح البار لعناته على كنعان لا على حام؟ وفي الخمسينيات يتفق الكاتب مع الخطأ الذي وقع فيه كاتب العهد القديم، عندما رأى أنّ الابن الأصغر لنوح هو الذي رأى عورته وضحك. لكنّه أخطأ عندما عدّ كنعان ابناً لنوح وهو حفيده. وإذا قال المؤوّلون إنّ الحفيد كالابن ووافقنا عاطفيّاً على هذا التأويل، فإننا سنورد أنّ كلا الكاتبين أشار إلى أنّ حام = شام هو من رأى عورة أبيه لا كنعان، فلماذا لعن نوح كنعان بدلاً من حام = شام؟ ووقع كاتب الخمسينيات أيضاً في خطأ ثانٍ حينما قال: «وعلم شام أنّ أباه لعن أصغر أبنائه (أي كنعان أصغر أبناء

شام = حام)، فاستاء لأنّه لعن ابنه وانفصل عن أبيه، هو وإخوته كوش ومسرائيم وبوت وكنعان»(224). وبذلك أصبح أبناء شام إخوة له، لأنّ كوش ومسرائيم وبوت (فوط في العهد القديم) وكنعان هم أبناء حام = شام لا إخوته. والأغرب من ذلك أنّ كاتب الخمسينيات يتجاوز بالخيال كاتب التوراة، فينسب إلى شام أنّه «بنى مدينة وسمّاها باسم زوجته (نعلاتما ووك) ورآه يافث وغار من أخيه. فبنى لنفسه هو أيضاً مدينة وسمّاها باسم زوجته (أداتنيسيس)». فأن يخترع الكاتب اسمين لزوجتين غير مذكورتين في الكتاب الأساس، أي العهد القديم، أمر يمكن قبوله إذا ما استندنا إلى غزارة علمه ومعرفته!!! أمّا أن يدّعي أنّ ابنَي نوح شام ويافث قد بنيا مدينتين، فهذا ما لا يقبله العقل لسببين: الأوّل هو أنّ الإنسان الأوّل، كما ذكرنا، كان يعيش في الكهوف وفي العراء، وأن بني إسرائيل تحديداً كانوا يعيشون في الخيم، وكان عليه أن ينتظر ملايين السنين لكي يكتسب مهنة البناء ليضطلع بهذه المهمّة. والثاني يكمن في معرفتنا أنّ المدن تتكوّن تدريجيّاً بفعل النمو السكانيّ، فلمن بنيا المدينتين وهما ولدا نوح، حيث لا يمكن أن يكون قد تجاوز عدد سكان تلك المنطقة من ذريّة آدم العشرات؟ إنّها المبالغات التي اتصفت بها أسفار التوراة، هذه المبالغة التي أصيب بها كاتب هذه المخطوطة على ما يبدو. أمّا بالنسبة إلى اللعنة التي أطلقها نوح على كنعان البريء بدلاً من حام «المذنب»، فإنّها تتّضح لنا مع ميثاق يهوه، الذي أبرمه مع إبراهيم، وأعطاه بموجب هذا الميثاق كلّ أرض كنعان أوّلاً، ثمّ عاد هذا المستعمر القديم ليضمّ إليها بلاد ما بين النهرين أيضاً، وصولاً إلى النيل لاحقاً انتقاماً من المصريين.

وضمن عنوان قسمة الأرض، يحدّثنا الكاتب عن أنّ «نوح دعا أولاده فاقتربوا منه هم وأبناؤهم، وقسّم الأرض بواسطة قطعة خشب كان على أبنائه الثلاثة أن يأخذوها. فمدّوا يدهم وسحبوا كتابة من حجر نوح أبيهم»(225).

ونحن إن سلّمنا جدلاً بحصول الطوفان، الذي قضى «الله» به على كلّ من كان موجوداً من بشر، وبالطبع كانوا لا يتجاوزون المئات، وأنقذ نوح وعائلته فقط، فإنّنا لا يمكن أن نسلّم بأنّ نوح، وهو من أجيال آدم الأولى، كان يعرف الكتابة، وبالتالي تدخل القصّة من أوّلها في باب الأسطورة. ولن أدخل في تفاصيل هذه القسمة التي شملت مناطق واسعة من الأرض، لا يمكن للمخلوقات الأولى أن تكون قد عرفتها بعد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الباب الثالث
قسمة الأرض

وسأنتقل إلى القسمة التي عاد أبناء أولاد نوح فحقّقوها لأولادهم. واللافت أنّ واضع كتاب التوراة: كتابات ما بين العهدين أو المعرّب، قد وضع بعض الشروح في الهوامش التي تؤكّد قناعته بصحّة هذا التقسيم.

يقول في الهامش ص 276: «يدخل الفصل في قائمة سليلي أبناء نوح الثلاثة وصفاً دقيقاً لقسمة الأرض التي لا يشير إليها التكوين». ولا بدّ من شكره إلى إشارته بأنّ هذا التقسيم لم يتطرّق إليه كاتب التكوين، لكنّه لم يتساءل عن كيفيّة وصوله إلى كاتب الخمسينيات. وإذا قرأنا بقيّة شروح الهوامش، فسنجد تفسيرات عن الأماكن المذكورة في التقسيم، لا تعدو كونها استنتاجات غير مستندة إلى وثائق تاريخيّة، يؤكّد ذلك اختلاف آراء الدارسين بشأنها، الذي يرفع عنها صفة الأصالة. مثال ذلك اعتباره أنّ نهر جيحون، الوارد ذكره في التكوين كأحد الروافد التي ينقسم إليها النهر، الذي كان يخرج من عَدْنٍ ليسقي الجنة، هو نهر النيل. فالوصف الوارد في سفر التكوين يؤكّد أنّ روافد نهر عَدْن الأربعة هي في بلاد ما بين النهرين. وقس على ذلك من تأويلات تجعل الشك في المعلومات الواردة سيّد الموقف.

فهذه قسمة لا علاقة لها بالحقيقة، إذ لا التاريخ أثبتها ولا الجغرافيا، ولا حتّى العهد القديم، علماً أنّنا لا نعدّه مرجعاً تاريخيّاً موثوقاً به. يقول الكاتب: «وقسّم شام أرضه بين أبنائه (فمن أين أتته هذه الأرض وهو وأبناؤه نفر قليل): الجزء الأوّل باتجاه الشرق (شرق ماذا؟) آل إلى كوش. وإلى الغرب منها كانت حصّة ميسرائيم، وإلى الغرب منها كانت حصّة بوت، وإلى الغرب كانت حصّة كنعان، وإلى الغرب منها كان يوجد البحر»(226).

أمّا سام، فقسّم أرضه على النحو الآتي: «فآلت الحصّة الأولى لعيلام وأبنائه: المنطقة التي تقع شرق نهر دجلة (هنا أصبح لتحديد الشرق مكان واضح) حتّى تبلغ مشرق الأرض كلّها مجمل أرض الهند (أي إيران - باكستان - الهند - الصين - اليابان إلخ...) كلّ هذه الأرض المتراميّة الأطراف، التي لم تكن معروفة بعد أهداها سام إلى ولده عيلام وأولاده). وكانت الأراضي الواقعة في الإريثريا ضمن ملكه، كما ومياه ديدان، وكافّة جبال مبري وإيلا وسوزيان كلّها، وكلّ ما هو جهة فرناقيا، حتّى بحر إريثريا وحتّى نهر تاناييس.

وآلت الحصّة الثانية لأشور: بلد أشور كلّه ونينوى وشنعار حتّى تخوم حدود الهند. وتصعد وتحاذي حدودها نهر تاناييس. وآلت الحصّة الثالثة لأرباكساد: الأرض كلّها التي هي بلد الكلدانيين إلى الشرق من الفرات، قرب بحر إريثريا،

ومياه الصحراء كلّها!!! حتّى حدود لسان البحر المتّجه نحو مصر، وبلد لبنان كلّه وسنير والأمانوس حتّى جوار نهر الفرات. وآلت الحصّة الرابعة لآرام: بلاد الرافدين كلّها بين دجلة والفرات، إلى الشمال من الكلدانيين، حتّى جوار جبل أشور وبلد آرارات. وآلت الحصّة الخامسة للود: جبل أشور وكلّ ما يتعلّق به وصولاً إلى البحر الكبير. وهو يبلغ شرق أشور أخيه»(227). هذه أمثلة على توزيع كاتب الخمسينيات الأراضي على أبناء أولاد نوح. واستنكفتُ عن المتابعة وذكر أراضي أولاد يافث، لأنّني شعرت بالملل والقرف من كلّ المغالطات الجغرافيّة، والمعلومات التاريخيّة، التي لم يظهر لها دليل يثبتها. ولو ذكرها كاتب العهد القديم لكان ذلك مقبولاً. أمّا أن يذكرها كاتب الخمسينيات بعد العهد القديم بعدّة قرون، فهذا برأيي يدعو إلى الاستغراب، لأنّه في أيامه كان التوثيق التاريخيّ متوافراً، فمن أين استقى هذه المعلومات؟ أمّ أنّها كانت وحياً إلهيّاً على طريقة الرؤى والأحلام الأخنوخيّة. والغريب في هذه الأسطورة أنّ نوح كان قد لعن كنعان وقال: «وليكن كنعان عبداً لسام»، ونجد كنعان بعد تقسيم الأرض قد حصل على حصّة غرب الحصّة التي حصل عليها بوت. ومن الطبيعيّ أن يرى اليهود والمتهوّدون أن أرض كنعان، التي أصبحت تُعرف لاحقاً ببلاد الشام، قد سُميّت على اسم كنعان ابن حام = شام بن نوح، وبالتالي فإنّ للعبريّين حقاً مكتسَباً فيها، لأنّ نوح هو جدّهم الأوّل، وكنعان هو ابن عمّهم، وأولاد العمومة أحق بالوراثة من الآخرين. ولا يمكن أن أنتقل إلى مقاطع أخرى من دون الإشارة مثلاً إلى حصّة ابن سام أشور التي حدّدها الكاتب بأنّها «بلد أشور كلّه ونينوى وشنعار...». وهذا يعني ببساطة أنّ الأرض التي أُعطيت لأشور كان اسمها أشور قبل أن تُعطى له، وكانت فيها مدينة نينوى العظيمة التي بناها البابليون. وهذا يؤكّد أنّ وجود البابليين في تلك الأرض أقدم من أبناء سام، فمن أين أتى البابليون وأبناء سام وهم أحفاد آدم الأوائل، وكان آدم لم يزل على قيد الحياة عندما ولدوا. وبالنسبة إلى حصّة الابن الثاني أربكساد، الذي أعطاه والده: «الأرض كلّها التي هي بلد الكلدانيين»، ألا نفهم من هذا الكلام أنّ الكلدانيين هم أقدم من أربكساد بن سام؟ ولو لم يكونوا كذلك، ألم يكن من الأجدر بالكاتب مثلاً أن يقول: هي الأرض التي أصبحت بعدهم أرضاً للكلدانيين؟

وفي المقطع الذي يتحدّث فيه الكاتب عن عمليّة تقييد الشياطين، الذين حاولوا إغواء أبناء نوح وتضليلهم وإهلاكهم، نجد أنّ رئيس الأرواح مستيما يقدّم النصح «إلى الربّ» لكي يترك له بعضاً من الشياطين أحراراً، ليتمكّن من «ممارسة قوّة إرادته على البشر»؛ سبب وجيه!!! ودليل على نقص في إرادة هذا «الربّ» وقدرته.

وبعد موت نوح نقرأ الخبر الوارد في العهد القديم عن نزول اللّه وتدمير برج بابل. هذا الحدث الذي كان سبباً في بلبلة ألسنة الناس حتّى باتت كلّ فئة

تتكلّم لغة خاصّة، بحيث لم تعد هناك إمكانيّة للتفاهم في ما بينهم، طبعاً هذا بحسب تفسير العهد القديم، ومرّ معنا سابقاً بطلان هذا التفسير. وبعد ذلك يعود الكاتب إلى التخريف، فيُعلمنا أنّ كنعان الذي لعنه نوح، والذي حصل على غرب حصة بوت (التي لا يمكن تحديد موقعها) والتي كان البحر إلى غربها (والبحر هنا هو المتوسط الحالي) وبذلك يكون قد حصل على الأرض التي سمّيت باسمه (هذا ما نفترضه)، والتي كان لبنان جزءاً منها، يُعلمنا أنّ كنعان رأى «أنّ بلد لبنان حتّى نهر مصر (أي النيل) كان ممتازاً... فبقي في لبنان من الشرق إلى الغرب، من ضفة الأردن إلى شاطئ البحر. وهكذا شملت أرض لبنان فلسطين الحاليّة أيضاً، ويفاجئنا بأنّ لبنان هو مسكن سام، لذلك نصح شام ابنه كنعان، بألّا يسكن في لبنان لأنّه آل بالقرعة إلى سام وأبنائه؛ فجدّد اللعنة على ولده كنعان، الذي كان نوح قد لعنه بسبب ذنب ارتكبه شام. وإليك أخي القارئ تعود إمكانيّة تصديق هذا الكلام أو رفضه جملة وتفصيلاً.

ها هو الكاتب القاص يستطرد في خياله؛ فيصف لنا كيف بدأ أولاد نوح بمحاربة بعضهم بعضاً. فقد أشار إلى أنّ الجميع بدأ بفعل الشر، وصولاً إلى ولادة أبراهام. وهنا يختلق الكاتب أحداثاً وحوارات لم ترد في العهد القديم، وكأنّه يقول لموسى، أو لعزرا إنّه يملك الموهبة القصصيّة أكثر منهما، فيصول ويجول، ويجعل من أبراهام عالم فلك يرصد النجوم «لكي يرى ما ستكوّنه الأمطار في السنة» ليصل إلى نتيجة مفادها أنّ الربّ وحده يملك علم ذلك.

وأجد لزاماً عليّ التوقف عند القول الآتي للكاتب: «إنّني (أبراهام) أتساءل إذا كنت سأعود إلى أور الكلدانيّين الذين يحاولون إعادتي، أم إذا كنت سأبقى هنا في هذا المكان... وعندما انتهى من الكلام والصلاة، وُجّهت إليه كلمة من الربّ عبر وساطتي: «اترك بلدك، وعائلتك وبيت أبيك إلى بلد سأدلّك عليه، وسأجعل منك أمّة كبيرة وكثيرة...»(228).

وفي هذا الكلام أيضاً تناقض مع ما جاء في العهد القديم، في الإصحاح الثاني عشر من سفر التكوين. فقد طلب «الربّ» من أبرام أن يترك أرضه وعشيرته ويذهب إلى الأرض التي سيريه إيّاها؛ فخرج إلى أرض كنعان، وأرض كنعان كانت مقصدهم منذ البداية، فقد قال كاتب التكوين: «فخرجوا معاً من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان. فأتوا إلى حاران وأقاموا هناك» تكوين 11: 21.

أمّا كاتب الخمسينيات، فقد أضاف من عنديّاته أن تارح عندما ترك أور مع أبرام «قصد بلد لبنان وبلد كنعان»، وأقاموا في تجوالهم في بلد حران. فكيف يسوّغ كاتب الخمسينيات لنفسه اختلاق خبر غير وارد في النسخة الأساسيّة لهذه الأساطير؛ فيتساءل على لسان إبراهيم إن كان هذا الأخير سيبقى في

حران، أم أنّه سيلبّي دعوة الكلدانيين، الذين يصرّون على عودته إلى بلادهم؟ فأيّ وثيقة كلدانيّة أثبتها الكاتب يطلب فيها ملك الكلدانيين، أو سكان أور، من إبراهيم العودة إلى مدينتهم؟ ومن كان إبراهيم في ذلك الوقت لكي يتمسّك به سكان أور ويحاولوا إعادته؟ عندما رحل تارح وإبراهيم كان إبراهيم رجلاً أقلّ من عادي. «فالربّ» لم يكن بعد، بحسب العهد القديم، قد تكلّم معه كما فعل مع كثيرين قبله، وهو لم يكن بعد رجلاً ثريّاً، لأنّ ثروته حصل عليها أوّلاً من فرعون مصر، بعدما كذب عليه وقال عن زوجته سارة إنّها أخته ليكون له خير بسببها. «فصنع (فرعون) لإبرام خيراً بسببها. وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال» تكوين 20: 11-12 و14. فإبراهيم، أبو الأنبياء، كذب مرتين، وهو لو قال هي أختي وزوجتي لكان صادقاً، ولكن بقوله فقط هي أختي فقد كذب بغية الحصول على الخير من وراء مضاجعة زوجته للفرعون أوّلاً ولأبيمالك ثانياً.

ويستمر كاتب الخمسينيات بعد ذلك في التزوير، إذ كتب: «وفتحت له فمه وأذنيه وشفتيه، وبدأت أحادثه بالعبريّة، لغة الخلق»(229). ذكرنا سابقاً، وبناءً على رأي الكثير من علماء اللغات القديمة، أنّ العبريّة هي إحدى اللهجات الكنعانيّة، فكيف تكون لغة الخلق؟ وعند قولنا «لغة الخلق» فإنّنا أمام أحد معنيين: الأوّل أنّها اللغة الأولى التي تحدّث بها المخلوق الأوّل آدم، والثاني أنّها لغة الناس المتداولة في أيام إبراهيم.

وبالتدقيق في السجلّات التاريخيّة، نجد أنّ المعنيَين غير صحيحين. فالإنسان الأوّل لم يكن ناطقاً، وإن هو نطق فلم يكن يكتب، ولم يصلنا عنه أيّ أثر يدلّ على ذلك. أمّا في أيام إبراهيم، فكانت البابليّة سائدة في بلاد ما بين النهرين، والكنعانيّة في أرض كنعان. واللغتان متقاربتان إلى درجة أنّهما أنتجتا لغة واحدة فيما بعد هي الآراميّة، التي عمّت الهلال الخصيب بأكمله، بل تجاوزته، وظلّت اللغة الرسميّة للمنطقة بأجمعها لما بعد يسوع، الذي كان يتكلّم بها. وقد سمّيت بعد قرون السريانيّة، التي ما زالت معروفة في بعض قرى سورية اليوم.

ونُكمل القصّة الأسطوريّة لنصل إلى الميثاق الذي عقده «الربّ» مع أبرام. فعلى أثر حلم تراءى له وعده «الربّ» بذريّة من نسله. وكانت ساراي (سارة) زوجته عاقراً؛ فقدّمت إليه هاجر خادمتها زوجة، فضاجعها وأنجبت له ولداً سمّاه إسماعيل، وهو في سن السادسة والثمانين. وبعد ذلك «ظهر الربّ» لأبرام وقال له: «أنا الله، شاداي (يهوه) اعمل على إرضائي وكن كاملاً، سأعقد ميثاقاً بيني وبينك وسأجعلك عظيماً جداً. ها إنّ عهدي يكون معك. ستكون أباً لأمم كثيرة». وقال «الربّ» أيضاً لأبرام: «واسم زوجتك ساراي لن يعود من بعدُ ساراي: بل ستسمّى سارة. وسأباركها، وبها سأعطيك ابناً

سأباركه... فوقع أبراهام ووجهه على الأرض، واغتبط وقال في قلبه: «أيولد ابن بعمر المئة؟ وسارة التي عمرها تسعون سنة هل تُنجب؟»(230). فشرط إتمام الميثاق هو أن يُرضي إبراهيم (شاداي= يهوه) بإيمانه وممارساته التي يجب أن تسمو نحو الكمال، وهذا شرط جيّد.

وهذا الشرط نقضه إبراهيم. فبعد أن تزوّج ثالثةً من قطورة وأنجبت له ستة أولاد، جمع إبراهام «إسماعيل وأبناءه الاثني عشر، وإسحق وابنيه، وأبناء قطوره الستّة وأبناءهم. وأوصاهم أن يحفظوا درب الربّ... وألّا ينحرفوا يميناً أو شمالاً عن كافّة الدروب»، التي أمرنا بها الله، بحيث نحافظ على أنفسنا من كلّ فسق ونجاسة ونبعد من بيتنا الفسق والنجاسة. وكلّ امرأة أو جارية تقترف عندكم الفسق فأحرقوها بالنار. ولا تأخذوا امرأة من بين بنات كنعان. لأنّ عرق كنعان سيُستأصل من البلد»(231).

وعلى هذا الكلام لنا ملاحظات متعددة. الأولى أنّ الكاتب قد أطلق على «اللّه» اسم شاداي، وهذا يعود بنا إلى ما سبق أن ذكرناه عن أنّ اللّه = الربّ في العهد القديم، وفي المخطوطات هو يهوه إله بني إسرائيل فقط، لا إله الكون الأوحد. وهذا يعني أنّ إبراهيم لم يعرف التوحيد، لأنّه آمن بإله قبلي لا بالله الخالق الأوحد. ثانياً، في العهد القديم يخبرنا الكاتب أنّ إبراهيم كان «ابن مئة سنة حين ولد له إسحق ابنه»، فإن تجاوزنا الطبيعة التي تعلّمنا منها أن من غير المعقول أن يبقى الرجل بعمر مئة سنة متمتّعاً بقواه الجنسيّة، فكيف سنقتنع بأنّ المرأة وهي بعمر التسعين «وقد انقطع أن يكون لسارة عادة كالنساء» تكوين 18: 11، يمكنها أن تحبل وتنجب، وهي بذاتها «ضحكت في باطنها قائلة أبعدَ فنائي يكون لي تنعّم وسيّدي قد شاخ»، فيأتينا الجواب سريعاً من الربّ يهوه، الذي قال لإبراهيم: «لماذا ضحكت سارة قائلة أفبالحقيقة ألد وأنا قد شخت. هل يستحيل على الربّ شيء» تكوين 11: 18-14. إذن هي قدرة يهوه تتدخّل ضد طبيعة الجسد الذي خلقه لمصلحة فرد من خلقه ميّزه من غيره. وهذا ما لا يمكن أن نقتنع به. ثالثاً: كيف يمكن أن يكون إبراهيم أبو الأنبياء رجلاً باراً ويأمر أولاده وأحفاده بحرق كل امرأة أو جارية تقترف «عندكم فسقاً»؟ وقوله «عندكم» يؤكّد أنّ هذه الوصيّة الموجّهة إلى أبنائه وأحفاده هي خاصّة بهم وبنسلهم ولا تنطبق على بقيّة الناس، ما يؤكّد بالتالي أنّ هذه الشريعة ليست إنسانيّة شاملة، وخاصّة إذا ما قارنّاها بتعليم يسوع، الذي «قال لهم من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أوّلاً بحجر» يوحنا 7: 8. وكان هذا جوابه للكتبة والفريّسيين، الذين قدّموا إليه امرأة أُمسكت بالزنى قائلين له: «يا معلّم هذه المرأة أُمسكت وهي تزني... وموسى في الناموس أوصانا بأنّ مثل هذه تُرجم».

والمبجّل والعظيم والشهير والرائع والقويّ الذي خلق السماوات والأرض كلّها معاً. فكونا من الذين يخشونه ويعبدونه. فيحبّ كلٌّ أخاه بحنّو وفي الحق، ولا يرغب أحد في الشرّ لأخيه، من الآن وإلى الأبد، طيلة مدّة حياتكما»(236).

وسبب هذه الوصيّة هو أنّ إسحق كان يعلم أن يعقوب قد خدعه وأخذ بركة البكوريّة التي كان عيسو يستحقها، لأنّه خرج من أحشاء أمّه قبل يعقوب فعُدّ البكر. لكنّهما لم يتقيّدا بهذه الوصيّة بعد موت إسحق، إذ علم أولاد عيسو بخدعة عمّهم لأبيهم فحقدوا عليه، وأجبروا والدهم على قيادة الحملة العسكريّة التي هيّأوها ضد يعقوب، الذي مانع بداية ثمّ استفاقت الأحقاد على أخيه في نفسه. أمّا أولاد يعقوب، فأقنعوا أباهم بأن يطلق سهامه حتّى لا يُضطروا هم إلى قتل عمّهم، فأصابت السهام عيسو فقتل.

هذه القصّة اخترعها كاتب الخمسينيات ولها نقيضها في العهد القديم، الذي يخبرنا أنّ يعقوب كان خائفاً من أخيه عيسو فاسترضاه بقطيع من البقر والغنم وبعدد من العبيد والإماء، أرسلهم يعقوب إلى عيسو مع رسل من قِبَله، وعيسو كان آتياً لرؤية يعقوب على رأس أربعمئة رجل، جعلهم كاتب الخمسينيات جيشاً من أربعة آلاف.

وفي العهد القديم، لم تحدث معركة بين الأخوين، ولم يطلق يعقوب سهامه ويقتل أخاه، بل قال: «فركض عيسو للقائه (يعقوب) وعانقه ووقع على عنقه وقبّله. وبكيا» تكوين 33: 4. وبعد هذه الواقعة بين الأخوين يتجاهل، كاتب العهد القديم، كلّياً عيسو وذريّته، ويركّز على يعقوب، الذي بدّل «الربّ اسمه» فأصبح إسرائيل، وبدأت تسمية ذريّته ببني إسرائيل، الذين أخذ الربّ يهوه بالتوجّه إليهم فقط بوصاياه وأوامره. هذا تناقض آخر بين العهد القديم والخمسينيات، وهو نتيجة اختلاف خيال الكتبة والفارق الزمنيّ بين العهد القديم الذي يُعيد الدارسون بدء تدوينه إلى القرن السادس قبل الميلاد، ويُعيدون كتابة الخمسينيات إلى ما بين القرن الأوّل قبل الميلاد والأوّل الميلادي. والتناقض طاول أسفار العهد القديم بعضها بين بعض، والكتابات الأسّينية بعضها بين بعض أيضاً. وهنا لا بدّ لي من التساؤل: كيف يمكن أن يكون هذا الكلام كلام اللّٰه وفيه ما فيه من التناقض؟ وهل يمكن أن يقع اللّٰه في هذا التناقض الذي يُعدّ فاضحاً في بعض الأحيان؟ ألا يؤكّد هذا كلامنا أنّ كلّ ما هو وارد في هذه الكتب ليس إلّا من اختراع الكتبة، الذين وضعوا الكلام حيناً على لسان الله، وحيناً آخر على ألسنة الأنبياء الذين فاق عددهم عشرات الآلاف؟

جاء في كتاب التلمود لكوهن ما يأتي: «فقد نشأ الكثير من الأنبياء في إسرائيل، وبلغ عددهم ضعف عدد العبرانيين الذين خرجوا من مصر (بلغ عددهم ستة آلاف(237))».

هذا الكلام أورده المؤلّف في فصل «النبوّة». ولست أدري من أين أتى بالعدد ستة آلاف للعبرانيين الذين خرجوا من مصر. فكاتب العهد القديم أورد الخبر الآتي عن خروجهم: «فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سكّوت نحو ست مئة ألف ماشٍ من الرجال عدا الأولاد...» العهد القديم، سفر الخروج 12: 27. والكاتب قالَ ما عدا الأولاد، ولم يأتِ على ذكر النساء والشيوخ. فإن أضفنا عددهم لتجاوز العدد الإجمالي المليون ونصف المليون؛ وبذلك يصبح عدد الأنبياء ثلاثة ملايين. من هنا نجد أنّ كلام الدارسين فيه مبالغة أكثر من المبالغة التي وقع فيها كتبة العهد القديم والمخطوطات. وسواء أكان العدد ستة آلاف أو تجاوز المليون، فكيف يمكن أن يكون عدد الأنبياء ضعف عدد العبرانيين؟

ويمرّ الكاتب بعد ذلك بقصّة يوسف، التي كانت مدار شكّ معظم الدارسين. إذ كيف يمكن ليوسف أن يصبح في مصر ثاني الفرعون، أي الوزير الأوّل، ويسلّمه الفرعون خاتمه، ويبني مدينة لإخوته وذريّتهم الذين دخلوا مصر وكان تعدادهم اثنين وسبعين نفراً، ولا تأتي الوثائق التاريخيّة على ذكره، أو ذكر الفرعون، الذي أعطى يوسف هذه الحظوة، تماماً كما تجاهلت الوثائق المصريّة أيّ ذكر لبني إسرائيل، ولموسى والفرعون الذي عاصره، ولخروج مئات الآلاف منهم من مصر. لذلك لن نتوقّف عند هذه القصّة التي عدّها الكثيرون أسطورة من الأساطير التي حفل بها العهد القديم. وكذلك سأتجاهل قصّة ولادة موسى والخروج من مصر، إذ أشرت سابقاً أيضاً إلى بطلانها، وسأنتقل إلى مناقشة مخطوطة وصايا الشيوخ الاثني عشر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الفصل السادس

وصايا الشيوخ الاثني عشر

الباب الأوّل

توطئة

علينا بداية أن نشرح للقارئ من هم هؤلاء الشيوخ. هم أولاد يعقوب الذي أصبح اسمه إسرائيل، حيث مثّلت ذريّتهم الأسباط الاثني عشر، أي قبائل بني إسرائيل، التي نُسبت كلّ واحدة منها إلى ولد من أولاد يعقوب، وهم: رأوبين بكر يعقوب شمعون لاوي يهوذا يساكر وزبولون من زوجته الأولى ليئة، ويوسف وبنيامين من زوجته الثانية راحيل، ودان ونفتالي من بلهة جارية راحيل، وجاد وأشير من زلفة جارية ليئة، كما ورد ذكرهم في الإصحاح الخامس والثلاثين من سفر التكوين.

ويقول واضع كتاب التوراة: كتابات ما بين العهدين الذي اعتمدناه لمناقشة نصوص المخطوطات، إنّ وصايا الشيوخ كانت معروفة منذ زمن طويل، أي قبل اكتشافها في كهوف قمران. ويبدو أنّ نسخاً منها كانت قد تُرجمت في القديم إلى اليونانيّة وإلى الأرمنية. والمخطوطات التي وجدت في قمران معظمها مكتوب باللغة العبريّة القديمة وبعضها باللغة الآراميّة، التي كانت سائدة في تلك الأيام على نطاق واسع. ويرى بعض الدارسين أنّ بعض التحريف قد لحق بمخطوطة أو اثنتين على أيدي بعض النسّاخ المسيحيين. ولاحظت عند قراءتي لهذه الوصايا أنّها تكاد تكون نسخة واحدة أوردها الكاتب على لسان كلّ واحد من بين الشيوخ مع بعض التعديلات الطفيفة، وبشيء من التناقض مع النصّ التوراتيّ في العهد القديم كالعادة، أو التفرّد بذكر أخبار لم ترد إطلاقاً في العهد القديم.

واتبّع الكاتب طريقة واحدة وهو ينقل إلينا وصيّة الشيوخ، إذ أقدم كلّ شيخ على تبليغ الوصيّة لأولاده قبل أن يموت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الباب الثاني
الوصايا

الوصيّة الأولى:

هي وصيّة الشيخ رأوبين، الابن البكر ليعقوب، الذي يقرّ لأولاده بارتكابه الفسق مدنِّساً بذلك مضجع أبيه يعقوب. يصرّح رأوبين بأنّه ارتكب الشرّ أمام الربّ، وهكذا فعل معظم ملوك إسرائيل المزعومة، وكذلك فعل بنوها.

ثم يعترف رأوبين لأولاده بإقامته علاقة مع جارية زوجة أبيه راحيل أي بلهة، رابطاً ارتكابه هذا الإثم برؤياه لبلهة وهي تستحم، فيقول: «فقد تمثّل فكري عري المرأة وحرمني النوم حتّى اقترفت الرجس. وكان يعقوب أبي قد ذهب إلى أبيه إسحق، وكنّا في عدر قرب إفراته في بيت لحم، وكانت بلهة قد سكرت ونامت مكشوفة في غرفتها. فدخلت وإذ رأيتها عارية اقترفت هذا العقوق وخرجت وتركتها نائمة. ولساعته كشف ملاك للربّ لأبي عن عقوقي: فعاد يعقوب وبكى لقدره ولم يعد يلمسها»(238). فهل كلام رأوبين الذي قاله لأولاده، والذي جاء فيه: «لا تلتفتوا إلى وجه امرأة، ولا تبقوا وحدكم مع امرأة متزوجة، ولا تهتموا بشؤون النساء»، أقوى تأثيراً من المثال الذي أعطاه لأولاده من خلال ارتكابه الزنى مع زوجة أبيه؟ ألا يُعدّ كلامه تهرّباً من المسؤوليّة وإلقاءً لها على المرأة على نحو خاص، وكلّ النساء على نحو عام؟ أليس هذا الكلام تبريراً لعدم قدرة رأوبين على ضبط مشاعره وشهواته، وخاصّة متى كانت المرأة العاريّة هي زوجة أبيه، وقد نهاهم عن الانتباه لجمال النساء، «لأنّ النساء شريرات يا أولادي». ليس في هذا التعميم أيّ منطق، كما أنّه ليس في إلقاء المسؤوليّة على المرأة وحدها أيّ منطق، ولا حتّى في طلبه منهم عدم الانتباه لجمال النساء أيّ منطق. وبالتالي فكلّ هذه الوصيّة ثرثرة، وهي بعيدة كلّ البعد عن التوجيه الأخلاقيّ العام. وتبدو ثرثرة بأجلى مظاهرها في المقطع التالي. يقول الكاتب على لسان رأوبين: «فهكذا إنّما أغوين (النساء) الساهرين الذين كانوا قبل الطوفان. كانوا ينظرون إليهن باستمرار، ونشأت رغبة متبادلة وتكوّنت لدى الساهرين فكرة عن الفعل، فاتخذوا شكلاً بشريّاً وظهروا للنساء، في حين كنّ يجامعن أزواجهن. أمّا بالنسبة إليهن، فرغبن بالفكر في هذه الظهورات ووضعن عمالقة، لأنّ حجم الساهرين بدا لهن أنّه يبلغ السماء»(239).

والساهرون هم الملائكة الذين أُعجبوا ببنات الناس، وضاجعوهن فكان العمالقة. والكاتب هنا يتجاوز ما ورد في سفر التكوين، ويحوّر الواقعة، فيجعل الملائكة يتّخذون شكلاً بشريّاً ويظهرون على النساء أثناء مجامعتهن

لأزواجهن، ويجعل من النساء راغبات بالفكر في ظهور الملائكة = البشر من دون أن تتمّ عملية الجماع، وهو تفكير سخيف من ناحية، ولا يمتّ إلى الروحانيّة والقداسة بأيّ صلة من ناحية أخرى. ونفهم في النهاية أنّ هذه التوجيهات، كما الشريعة، تخصّ بني إسرائيل دون سائر البشر، لذلك تسقط كلّ قيمة أخلاقيّة إنسانيّة لها، هذا إن وُجدت أساساً.

يقول واضع الكتاب في الهامش الرقم V الصفحة 319: «يشهد هذا التوسع كلّه على كره عميق للمرأة»، ويعيد هذا الكره إلى نظرة الأسّينيين إليها من حيث هي «أنانيّة، ومفرطة الغيرة، وحاذقة في إيقاع أخلاق زوجها في الفخ وفي إغوائه بواسطة سحر لا ينتهي». فماذا يكون رأي النساء المؤمنات، في أيامنا هذه، في هذا الكلام السوقي الذي لا يستند إلى أيّ منطق؟

الوصية الثانية:

ونلاحظ أنّ شمعون قد ركّز في وصيّته على الغيرة، انطلاقاً من شعوره بالغيرة من أخيه يوسف، الذي كان ينوي أن يقتله. لكنّ أخاه يهوذا باع يوسف للإسماعيليين، الذين حملوه معهم إلى مصر وباعوه إلى رئيس شرط فرعون.

ولقد ذكر في وصيّته لأولاده أنّ «الغيرة تتسلّط على فكر الإنسان، ثمّ لا تتركه يأكل ولا يشرب ولا يعمل أي عمل حسن، بل تحرّضه دائماً على قتل الذي يغار منه».

فلو كان ذلك صحيحاً لقتل الناس بعضهم بعضاً جميعاً، وخاصّة الإخوة، فضلاً عن الأزواج. فالغيرة شعور طبيعيّ لدى الإنسان، لكنّه قادر على السيطرة عليها إن هو استعان بعقله على غرائزه. ويبدو أنّ شمعون لم يستطع استعمال عقله لردع غريزة الغيرة لديه، التي دفعته إلى اتّخاذ قرار بقتل أخيه لكيّ يتخلّص من السبب. وظلّت هذه العقدة تلاحقه كلّ حياته، فأراد قبل أن يموت أن ينصح أولاده لكي لا يقعوا في فخّها كما فعل. وهو، لو كان إنساناً صالحاً، لكان عليه أن يكون المثال، في حياته، لأولاده بالممارسة لا بالكلام، وهو على فراش الموت. ثمّ يُكمل شمعون وصيّته قائلاً:

«والآن يا أبنائي،

حوّلوا قلوبكم باتجاه الخير، أمام الربّ،

واجعلوا دروبكم مستقيمة أمام البشر،

وستجدون النعمة لدى الربّ والبشر،

فاحفظوا أنفسكم إذن من الفسق،

لأنّ الفسق هو أمّ الشرور كلّها،

وهو يبعد اللَّه ويقرّب بلعار. (بلعار، بلعال، بلعام أسماء لشخصيّة الشيطان).

إنّ قارئ هذا الكلام لا بدّ أن يرى فيه توجيهاً أخلاقيّاً جيّداً، وخاصّة عندما ينصحهم باتّباع الدرب المستقيم أمام البشر، حيث يمكننا أن نفهم من هذا التعبير أنّه يخصّ كلّ الناس. ولكن حالما نتابع بقيّة الوصيّة ندرك أنّ نفسيّة بني إسرائيل لا تتغيّر، لأنّهم يرون أنّ هذه الوصايا هي للتعامل في ما بينهم فقط، ويجب ألّا تشمل كلّ الناس لأنّ هؤلاء بنظرهم ليسوا بشراً، ومصيرهم سيكون الموت المحتوم. يقول الكاتب:

«ها أنّني قلت لكم ذلك كلّه لكي أكون بريئاً من خطيئة نفوسكم. ولكن إذا انتزعتم من أنفسكم الغيرة والتصلّب، فإنّ عظامي ستزهر مثل وردة في إسرائيل (في ذلك الوقت لم تكن إسرائيل المزعومة قد قامت، إلّا إذا فهمنا هذه العبارة بالمعنى الحرفي للعبارة التي تليها)، ومثل الزنبق سيتفتّح جسدي في يعقوب، ورائحتي ستكون مثل رائحة البخور، ومثل الأرز سيتكاثر إلى الأبد القدّيسون الطالعون مني (متفائل جداً بأنّ كلّ نسله سيكون من القدّيسين)، وجذورهم ستمتد إلى البعيد. عندئذ ستهلك سلالة كنعان، ولن تبقى أيّ بقعة من أمالك، والفلستيون سيهلكون كلّهم، وسيباد الكيتيم كلّهم. عندئذ سيختفي بلد الشام، والشعب كلّه سيهلك. عندئذ سيهدأ العالم كلّه من اضطرابه، والأرض كلّها التي تحت السماوات سترتاح من الحرب. عندئذ سيُمجَّد سام، لأنّ الربّ الإله، عظيم إسرائيل، سيظهر على الأرض مثل إنسان وسينقذ به النوع البشري»(240).

فنعمَ هذا الإنقاذ من هذا الإله القبليّ البربريّ، ونعمَ هذه الوصيّة التافهة التي تبدأ بالكلام المعسول وتنتهي بالكلام المفعم بالحقد والبغض والاستعلاء. شمعون هذا كان يعيش مع إخوته ووالديه في أرض كنعان. ولمّا حلّت المجاعة أرسله أبوه مع إخوته إلى مصر لعلّهم يعودون بالمؤن. وكان ما كان من قصّة يوسف مع فرعون وغفرانه لإخوته ما فعلوه به. وفي ذلك الوقت عامل الكنعانيون إبراهيم، وذريّته من بعده، بمن فيهم يعقوب وأولاده أفضل معاملة، فلماذا كلّ هذا الحقد على كنعان، والفلستيين وبلد الشام؟ في ذلك الوقت لم يكن موسى قد ظهر بعد، ولم يكن فرعون يوسف قد مات، وكان يوسف وإخوته يعيشون حياة الرغد، بحسب الأسطورة التوراتيّة دائماً، لكنّ كاتب وصايا الشيوخ، الذي نشأ على تعاليم يهوه ووصاياه، التي تقضي باستيلاء بني إسرائيل على أرض كنعان، سمح لمخيّلته بأن تحلّق في عالم الحقد الذي يملأ نفوسهم، فأنطق الشيخ شمعون بهذه الوصيّة «المباركة».

فالبشر هم بنو إسرائيل فقط، وطريق الاستقامة يجب أن تقود إلى حسن التعامل في ما بينهم فقط أيضاً. والربّ الإله هو دوماً إله بني إسرائيل، والنوع البشريّ محصور فيهم. واللافت للنظر أنّ شيئاً من هذا الكلام لم يتحقّق، وخاصّة ما يتعلّق بهلاك سلالة كنعان والفلستيين، واختفاء بلد الشام، إذ ها هي دمشق شامخة حيث تُعدّ من أقدم المدن، التي لا تزال مأهولة، في العالم، ولا إله إسرائيل تجسّد لينقذ النوع البشريّ، ولا الفلستيون انقرضوا، بل هم باقون في أرضهم يناضلون بالأحجار وبالأسنان والأظافر، ويواجهون آلة الحرب الإسرائيليّة باللحم الحيّ، لأنّ صدورهم تعبق بإرادة الحياة، ولأنّ إيمانهم بأرضهم يفوق إيمان بني إسرائيل بإلههم القبليّ البربريّ. بل كلّ ما تحقّق هو استمرار بني إسرائيل في فعل الشرّ بعيني الربّ الحقيقيّ، واستمرارهم في تنفيذ وصايا إلههم يهوه، القاضية بقتل كلّ من يقف بوجه تحقيق مطامعهم في أرضنا وإبادته.

الوصيّة الثالثة:

هي وصيّة لاوي، ولاوي كان قد اختير، كما مرّ معنا، لخدمة الربّ في خيمته. وتركّزت الكهانة في ذريّته، وقد استهلّها بتذكيرنا ببطولته مع أخيه شمعون، عندما نكثا العهد الذي كان والدهما يعقوب قد أعطاه لحمور والد شكيم، الذي أراد أن يتزوّج أختهما دينة بعدما كان قد ضاجعها، فقتلا، بحسب أسطورة العهد القديم، كلّ ذكر في المدينة بمن فيهم حمور وشكيم.

إنّه إنجاز إنسانيّ يدعو إلى الفخر والاعتزاز!!! وبكلّ وقاحة يرى هذا المجرم أنّ البشر الأغيار فاسدون، لذلك ناح على سلالة أبناء البشر، وصلّى إلى ربّه لكي ينقذه، فحلّ عليه النوم، وكأنبياء إسرائيل الذين أتوا من بعده حلّق في أحلامه إلى السماوات التي انفتحت أبوابها أمامه، فسمع ملاك الربّ يقول له: «لاوي لاوي، ادخل». فدخل وأخذ بالتنقل من سماء إلى أخرى، حتّى أنهى رحلته على السماوات السبع، وخرج بالاستنتاج الآتي: «فاعلموا الآن إذن أنّ الربّ سينفّذ الحكم بأبناء البشر.

والخلق كلّه يتزعزع،

والأرواح غير المرئيّة تُمحق،

أمّا البشر الكافرون، فيستمرّون في كفرهم،

ولهذا سيحاسَبون بقسوة...

وستكون مثل الشمس لسلالة إسرائيل كلّها

وستُعطى لك بركة كما ولنسلك كلّه».

وإثر ذلك فتح لي الملاك أبواب السماء، فرأيت الهيكل القدّوس، والعليّ على عرش مجيد. وقال لي: «لاوي، إنّما لك أعطيت تبريكات الكهنوت، وحتّى آتي لأسكن وسط إسرائيل. وقلت له (أي للربّ): أتوسّل إليك يا ربّ، علّمني اسمك حتّى أستطيع استدعاءك في يوم الضيق»(241).

إنّه الحقد الذي لا يزال يلازم اليهود الأصوليّين على كلّ البشريّة، وهي العنصريّة التي لا تزال تلاحقهم، والتي بموجبها يميّزون أنفسهم من كلّ الآخرين الذين سيبادون، ووحدهم بنو إسرائيل سيرثون الأرض. ونلاحظ بوضوح رفع الكلفة بين هؤلاء الشيوخ، ومن أتى بعدهم من أنبياء وملوك، وبين الربّ، حيث كانوا يتكلّمون معه، وينصحونه، ويغيّرون رأيه أحياناً، ويجعلونه يندم، إلى ما هنالك من صفات تؤكّد لنا ما توصّل إليه بعض الدارسين من أنّ هذا الإله القبليّ ليس سوى شيخ مشايخ القبائل، الجاهز دائماً لنجدة شعبه (علّمني اسمك حتّى أستطيع استدعاءك في يوم الضيق). ويُكمل قصّته بعد استيقاظه من الحلم فيقول: «وبعد ذلك، نصحت أبي وأخي رأوبين بالقول لأبناء حمور ألّا يختتنوا أنفسهم(242)...». لكنّ هذا الكلام غير صحيح، لأنّ كاتب العهد القديم يخبرنا أنّ بني يعقوب أجابوا «شكيم وحمور أباه بمكر وتكلّموا... إن صرتم مثلنا بختنكم كلّ ذكر نعطيكم بناتنا ونأخذ لنا بناتكم ونسكن معكم ونصير شعباً واحداً... فسمع لحمور وشكيم ابنه جميع الخارجين من باب المدينة. واختتن كلّ ذكر» تكوين 34: 13، 15، 24.

وهذا الكاهن القريب من «الربّ» قرّر أنّه في قرارة نفسه علم أنّ «قرار اللَّه كان يميل إلى معاقبة شكيم، لأنّهم أرادوا أن يعملوا مع سارة (زوجة إبراهيم) ورفقة (زوجة إسحق) ما كانوا قد فعلوه مع دينة أختنا، لكنّ الربّ منعهم. لقد اضطهدوا أبراهام أبانا عندما كان غريباً، وضايقوا قطعانه(243)...».

هذا الكلام إذا ما قارنّاه بكلام العهد القديم عن الحدث نفسه، فسنجد التناقض واضحاً، إذ إنّ إبراهيم وإسحق كليهما افترضا أنّ فرعون مصر أوّلاً سيغرم بسارة وهي كهلة ويأخذها من إبراهيم عنوة. لذلك قال عنها إبراهيم إنّها أخته، وكرّر فعلته مع أبيمالك ملك جرار.

والفعلة نفسها ارتكبها إسحق مع أبيمالك ملك جرار، وكأنّ هذا الملك بقي شاباً على مرّ الزمن ما بين سارة ورفقة. فالاحتيال أتى من إبراهيم وإسحق، أمّا أصحاب الأرض، فقد عاملوهما أفضل معاملة، كما هو ثابت في أسطورة التكوين. وبهذا يكون كاتب وصايا الشيوخ الأسّيني قد لفّق هذه التفاصيل على لسان لاوي. والدليل على ذلك ما قاله كاتب العهد القديم عن أولاد يعقوب، ولاوي بالطبع واحد منهم، بأنّهم كانوا يرعون غنم أبيهم عند شكيم: «ومضى إخوته (إخوة يوسف أي أولاد يعقوب = إسرائيل) ليرعوا غنم أبيهم عند شكيم» العهد القديم، سفر التكوين 37: 12. فكيف يكون أهل الأرض قد

أساؤوا معاملتهم وها هو أحدهم، شكيم، يسمح لهم بأن يتركوا قطعانهم ترعى في أرضه؟ بعد ذلك نقرأ للاوي وصيّة جديدة، قال فيها لأبنائه:

«خافوا الربّ إلهكم من كلّ قلبكم،

مارسوا إذن يا أبنائي العدل على الأرض،

حتّى تجدوه في السموات.

ولكن إذا بذرتم الأشياء السيّئة،

فلن تحصدوا سوى الفوضى والألم»(244).

كلام جيّد بالرغم من أنّ الإله الذي يطلب من أولاده أن يخافوه ليس إله الكون الواحد، بل كالعادة إله إسرائيل. وبالتالي فإن من الطبيعيّ ألّا يمارسوا العدل، لأنّ وصايا إلههم لا علاقة لها بالعدل مطلقاً، إضافة إلى أنّها ليست للتطبيق مع الأغيار، بل هي محصورة للتعامل بين بني إسرائيل فقط. ثم يفاجئنا بتنبُّؤه أنّ أبناءه «في نهاية الدهور سيرتكبون المعاصي ضد الربّ، رافعين أيديهم عليه بخبث»، وأولى هذه المعاصي ستكون مضاجعة «البغايا والنساء الزانيّات، وستتخذون نساءً لكم من بنات الأمم».

ولست أرى في هذا الكلام تنبؤاً، بل هو توقّع مستند إلى ما كان يفعله أبناء أسباط إسرائيل من زنى مع بنات الآخرين. لاوي هذا كان يعرف، ودائماً ننطلق ممّا حرّره كتبة العهد القديم والمخطوطات، لأنّنا لا نعتقد بصدقيّة هذه الشخصيّات وتاريخيتها، نفسيّة أبنائه وأخلاقهم، لذلك أقدم على تقديم النصح إليهم في وصيّته لعلّهم يرعوون عن الاستمرار في فعل الشرّ. ويتبنأ لاوي أيضاً بأنّ كاهناً جديداً سيُبعث بعد أن يُنفّذ الربّ عقابه، فيسود السلام على الأرض، «وعندئذ سيبتهج أبراهام وإسحق ويعقوب، وأنا أيضاً سأغتبط». وممّا يؤسف له!!! بعد مرور ما يزيد على ألفيّتين من السنين، أنّ هذه النبوءة لم تتحقّق، فلا السلام حلّ على الأرض كلّها، وبالتالي لم يبتهج أبراهام وإسحق ويعقوب حتى الآن، ولا لاوي اغتبط.

الوصية الرابعة:

ننتقل مع الكاتب لكي نطّلع على وصيّة يهوذا، وهو الابن الرابع الذي أنجبته ليعقوب زوجته ليئة. ويهوذا هذا خالف وصيّة جدّه وأبيه، إذ نظر «هناك ابنة رجل كنعانيّ اسمه شوع. فأخذها ودخل عليها... وأخذ يهوذا زوجة لعيد بكره اسمها تامار... ولما طال الزمان ماتت ابنة شوع امرأة يهوذا»، ويهوذا هذا عاد فدخل على زوجة ابنه تامار، التي تنكّرت بعد موت زوجيها ولديْ يهوذا، وأغوت والد زوجيها، حيث «دخل عليها، فحبلت منه» تكوين 38: 2، 6، 12، 18. ولنفترض دوماً أنّنا نصدّق هذه القصّة، فهي تدلّ على أخلاق بني يعقوب =

إسرائيل المنحطّة. ونجد في هذا الحدث نقضاً لكلّ ما أورده الكاتب عن زنى بنات كنعان ونجاستهنّ، لأنّ الزناة كانوا دائماً من بني إسرائيل، والأدلّة كثيرة وواردة في كتابهم، هذا من جهة، ومن جهة ثانية نجد أنّ الكنعانيين الحضاريين لم يتصرّفوا كما تصرّف أولاد يعقوب بسبب أختهم دينة، التي دخل عليها شكيم بن حمور، الذي حاول صادقاً الزواج بها للتعويض عن فعلته، فما كان من أولاد يعقوب، وأيضاً بحسب الأسطورة التوراتيّة، إلّا أن قتلوا كلّ ذكر من مدينة حمور والد شكيم، إذ إنّهم رأوا أنّ شكيم ارتكب رجساً في إسرائيل. ونحن إن سلّمنا بشناعة الفعل، فإنّنا لا يمكن أن نسلّم بردّ الفعل، حيث كان من المفترض معاقبة المذنب فقط لا ذكور المدينة كلّهم. أمّا الكنعانيون الذين كانوا شهوداً على فعل الزنى الذي مارسه يهوذا مع ابنة شوع الكنعانيّ، فإنّهم اكتفوا بأن قبلوه زوجاً لابنتهم. وإن قال قائل إنّ معنى جملة «أخذها ودخل عليها» لا يعني الاغتصاب، فنقول: إنّه لو كان يعني الزواج الشرعيّ لقال الكاتب اتّخذها زوجة له، كما قال عن زواج الكثيرين. وهذا يدلّ على فارق حضاريّ كبير بين الكنعانيين وبني إسرائيل البرابرة.

يُتحفنا يهوذا في بداية وصيّته بقوله لأولاده: «كنت نشيطاً وسريعاً في بداية شبابي... وعندما أصبحت رجلاً باركني أبي بهذه الكلمات: «ستصبح ملكاً وستنجح في كلّ أمر». وشاهدنا مدى نجاحه منذ البداية، سواء من خلال اغتصابه الفتاة الكنعانيّة، من دون أن تصدر عنها أيّ إغراءات خلافاً لادّعاءات لاوي وغيره، من أنّ بنات كنعان فاسدات، أم لجهة مضاجعته زوجة ولديه المتنكّرة من دون أن يعرف من هي؟؟ أم لجهة مسحه ملكاً. وبدأ يقصّ على أولاده بطولاته الوهميّة ومنها، على سبيل المثال: «وفي حبرون قفز نمر على كلبي، فأمسكت به من ذيله ورميت به ووُجد عند تخوم غزة»(245). وهذا يعني أنّه رمى بالنمر إلى مسافة تزيد على خمسين كيلومتراً. ويُكمل بطولاته فيذكر أنّه انطلق وحده «ضدّ ملك أشور» فضربه على ساقيه وقتله. «وفي الجنوب اندلعت حرب ضدّنا، كانت أخطر من حرب شكيم. فاصطففت مع إخوتي في وضعيّة القتال، ولاحقت ألفاً من الرجال وقتلت منهم مئتين إضافة إلى أربعة ملوك، ثم تسلّقت الجدران وقتلت أيضاً ملكين... وفي اليوم التالي، زحفنا على أريتان، المدينة المحصّنة، والمجهّزة بأسوار والمنيعة... ومسحنا المدينة بحدّ السيف». وإن أردنا إكمال قراءة هذه البطولات فسنصاب بالغثيان لهذه الثرثرة القبيحة، التي تحاول التلاعب بعقول الناس البسطاء. ولعلّ الأفلام الهوليووديّة استندت إلى قوّة هذا البطل الأسطوريّ لترسم ملامح سوبرمان وغيره من الشخصيّات الخياليّة. ثمّ يعود إلى إلقاء نصائحه على مسامع أولاده، فيقول: «فأنا آمركم إذن يا أبنائي بألّا تحبّوا المال وألّا تنظروا إلى جمال النساء، لأنّني أنا إنّما لحب الذهب وبالجمال انجذبت إلى بنت شوع الكنعانيّة»، فيا لها من نصيحة أخلاقيّة سامية. وبعد ذلك يقدّم إليهم

نصيحة لا تقدّر بثمن، فيقول: «والآن يا أبنائي، آمركم بأن تحبّوا لاوي، حتّى تستمرّوا، وألّا تقفوا ضدّه خوفاً من أن تُبادوا. لأنّه لي إنّما أعطى الربّ المُلك، وللاوي الكهنوت. لي أعطاني ما هو على الأرض، وله ما هو في السموات...». فكيف يمكن إبادة أولاد يهوذا إن هم وقفوا ضدّ عمّهم لاوي؟ إنّها المبالغة، كما التناقض، صفتان متلازمتان لكلّ نصوص العهد القديم والمخطوطات على السواء. وفي ختام وصيّته يؤكّد يهوذا لأبنائه أنّ الشيوخ جميعهم، وأبراهام وإسحق ويعقوب أيضاً، «سيقومون ليحيوا من جديد»، بحيث ستكون ذريّتهم «شعب الربّ»، وهذه الفكرة تجسيد لمقولة شعب اللّه المختار الواردة في العهد القديم.

الوصية الخامسة:

أمّا يسّاكر، الابن الخامس ليعقوب، فإنّه يبدأ وصيّته بدعوة أبنائه إلى الإصغاء إلى خطبته، واصفاً نفسه بـ«المحبوب لدى الربّ». أمّا لماذا؟ فليس من الضروريّ أن يشرح لنا الكاتب، ولا يسّاكر بالطبع، ذلك. وبدأ يعظ أولاده قائلاً:

«فاحفظوا إذن يا أبنائي شريعة الله،

اكتسبوا البساطة،

وسيروا في البراءة،

من دون أن تتفحّصوا متطفلين أعمال قريبكم.

بل أحبّوا الربّ وقريبكم».

أمّا محبّة الناس الآخرين، فلا لزوم لها، لأنّ يهوه في وصاياه قال لهم أن يطبّقوها فقط مع الأقرباء. أمّا في نبوءته، فنراه يجاري أخاه لاوي، فيؤكّد لأبنائه أنّ أبناءهم في نهاية الأزمنة:

«سيتخلّون عن البساطة،

وسيتعلّقون بالجشع،

وسيتعاطون الفسق،

ناسين وصايا الله...»(246).

من هنا ندرك أنّ هذه الوصايا كانت نتيجة طبيعيّة لإدراك هؤلاء الشيوخ ما كان واقع حال أولادهم. فهم إنّما كانوا يحاولون تنبيههم لضرورة الابتعاد عن المعاصي التي كانوا يمارسونها، وبالتالي فإنّ القيمة الإنسانيّة والاجتماعيّة لهذه الوصايا تكاد تكون معدومة، لأنّها محاولة لمعالجة واقع معيّن لأبناء قبائل معيّنة، ظلّت تعاني لوقت طويل، وهي برأيي ما زالت، من بربريّتها وهمجيّتها،

وفسقها، وفجورها، وإجرامها، في الوقت الذي كانت فيه الشعوب الأخرى تعيش حياة حضاريّة وإنسانيّة ساميّة، تبدّت في ما تركت هذه الشعوب لنا من حضارة راقية على كلّ الصعد والمستويات.

الوصية السادسة:

ويأتي دور الولد السادس زبولون، الذي يعيد على مسامع أولاده ما ارتكبه من شرّ، هو وإخوته بحق أخيهم يوسف، والقصّة معروفة من الجميع. وما يلفت انتباهنا أنّ زبولون ادّعى أنّه «أوّل من صنع زورقاً من أجل الإبحار في البحر». وبالاستناد إلى قسمة الأرض، التي نفّذها يشوع بين الأسباط، يتبيّن لنا أنّ حصّة يسّاكر كانت ست عشرة مدينة مع ضياعها، وما من مدينة واحدة منها تقع، أو هي قريبة من البحر. ولست أدري إن كان الفينيقيون الكنعانيون مدينين لزبولون بصناعة القوارب وركوب البحر!!! كذلك يلفت نظرنا في هذه الوصيّة، كما في سواها، التركيز الدائم على معاملة القريب فقط بالحسن، «لأنّه بقدر ما يرأف الإنسان بقريبه يرأف الربّ به». وهل الرأفة بباقي الناس، وبالحيوانات مثلاً، لا تجد لها لدى اللّه ترحيباً، فيبادل الرأفة برأفة أوسع وأرحم؟ وسرعان ما يأتينا الجواب، إذ يقول زبولون لأبنائه في ختام وصيّته إنّ «الربّ سيرسل على الكفّار ناراً أبديّة، وسيدمّرهم على مدى الأجيال كلّها». فليس على بني إسرائيل أن يهتمّوا بالآخرين، لأنّ هؤلاء كلّهم من الكفّار الذين سيلقون العقاب المناسب، أي النار الأبديّة التي لن ترحمهم، حتّى لأجيالهم المتعاقبة. إنّه عدل يهوه بأبهى مظاهره. ولا بدّ من لفت النظر أيضاً إلى تنبّؤات كلّ الشيوخ، التي إن قرأناها فقد نقول إنّها تحقّقت، وخاصّة إذا ما عدنا إلى أحداث العهد القديم المطابقة لها. لكن إذا علمنا أنّ ما ورد في هذه المخطوطات قد حرّره كتبة بعد ما لا يقلّ عن أربعمئة إلى ستمئة عام من تحرير العهد القديم، فسيصبح جليّاً لنا أنّ الكاتب الذي كان مطّلعاً ومؤمناً بما جاء في العهد القديم، قد صاغ هذه الوصايا بما يتوافق مع مضمون هذا العهد، على نحو يبدو كأنّه تنبؤات، وهكذا فعل كتبة العهد القديم على ألسنة الأنبياء. فقد كانت الأحداث التي أوردوها على أساس تنبؤات، قد جرت قبل قرون من تحرير كلام الأنبياء. إنّه التضليل المستمرّ، ويؤسفني أن أقول الناجح أيضاً، لأنّ مضمون هذه الكتابات ما زال مسيطراً، حتى الآن، على عقول معظم المؤمنين. وهذا بالتحديد ما أعطى دولة العدو الإسرائيليّ إمكانيّة تمرير المزيد من المؤامرات على بلادنا، إذ لا شيء أسهل من استغباء الناس متى كان الأمر متعلّقاً بما يُعرف بالنصوص الدينيّة المقدّسة.

الوصية السابعة:

ويعترف دان، الابن السابع ليعقوب، في بداية وصيّته، كما فعل أخوه شمعون، باقتراف خطيئة تجسّدت بقراره قتل أخيه يوسف، نتيجة غيرته منه، لأنّ أباه

يعقوب كان يفضّل يوسف ويحبه أكثر من إخوته. وركّز في وصيّته على الابتعاد عن الغضب. وهذا شيء جيّد لو كانت الوصيّة عامة تشمل تجنّب الغضب على كلّ الناس، لأنّ الغضب «يعكّر الروح نفسها، إنّه يتملّك جسم الغضوب، ويصبح سيّد روحه»، إذ لا نلبث، كالعادة، أن نعرف ما يقصد الشيخ الجليل من هذه الوصيّة. فالابتعاد عن الغضب يؤدّي إلى أن «يسكن الربّ فيكم، ويهرب بلعار بعيداً عنكم. فليقل كلّ منكم الحقيقة لقريبه».

وككلّ هذه الوصايا، يتنبأ أيضاً دان في نهاية وصيّته بأنّه يعلم أنّ أبناءه في الأيام الأخيرة سيبتعدون عن الربّ، ويمشون في كلّ أنواع الشرّ، ويرتكبون دناسات الأمم، ويعهرون مع نساء الكفّار، والمهم أنّ «إسرائيل لن تقاد من بعد في الأسر».

وهذا التنبؤ، كما قلنا سابقاً، هو مجرّد توصيف لواقع الحال، وهو الوحيد الذي يتطابق مع ما ورد في العهد القديم، وأشرنا إليه سابقاً، بشأن ارتكاب معظم ملوك إسرائيل الشرّ، بل كلّ بني إسرائيل. فهذا الكلام بالتالي يبتعد عن التنبؤ، ولا نستطيع وضعه إلّا في خانة التوصيف الواقعيّ لنفسيّة هذه الطائفة، التي تشرّبت كلّ ما كان يعتمل في صدور الكتبة من حقد، وشعور بالدونيّة. يقول الكاتب جورجي كنعان في هذا المجال، وعلى صفحته الخاصّة في موقع Facebook ما يأتي:

«ولا يخفى على أفهام المتبصّرين أنّ عزرا الكاهن، كاتب الشريعة الموسويّة، وعى تاريخ جماعته الذليل، فعمل على تحويل سخط جماعته واحتجاجاتهم إلى وعيد وتحقير واتّهام، في صيغ من النصوص الشاتمة، اللاعنة، العدوانيّة والإرهابيّة. وعلى هذا الأساس، وجد أحبار اليهود في شتم الأمم والنيل منها فرصة للتخفيف من إحساسهم بالعجز، وأعربوا عن ظمئهم إلى الولوغ في دماء هذه الأمم التي أباحت لهم أن يعيشوا في كنفها».

الوصية الثامنة:

نصل إلى وصيّة الابن الثامن ليعقوب واسمه نفتالي. ولن أتوقف عند أسباب إطلاق هذا الاسم عليه، لأنّها أسباب سخيفة، بل سأنتقل إلى المقطع الثاني المعنون: «الله خلق الإنسان»، فإذا بالكاتب يستعمل مثلاً من حياة الإنسان المهنيّة ليشبّه معرفة اللّه بجسم الإنسان بمعرفة الخزّاف بصنع الآنية. وكان يجب عليه أن يقول إنّ معرفة الخزاف ناتجة من العقل الجزئيّ الذي انبثق عن العقل الكلّي، أي اللّه الذي أجاز لهذا العقل إمكانيّة الخلق والإبداع. وككلّ الإخوة الذين سبقوه، كان لنفتالي حصّته من التنبؤ. فإذا بنبوءته لا تختلف عن نبوءات إخوته، بل تتركّز على أولاده الذين سيبتعدون عن الربّ. أمّا على ماذا اعتمد في نبوءته هذه، فإنّنا نجد الجواب المذهل الذي ساقه الكاتب على

لسان نفتالي، إذ قال: «أقول لكم يا أبنائي إنني قرأت في كتاب أخنوخ أنّكم أنتم أيضاً ستبتعدون عن الربّ، متّبعين الظلم كلّه الذي للأمم، وسترتكبون آثام سدوم كلّها»(247).

إذن هو اعتمد على ما تنبأ به أخنوخ، وأخنوخ لم يأت على ذكر أولاد نفتالي أو أولاد غيره من أبناء يعقوب، بل تحدّث عن الكافرين الذين سيستحقّون اللعنة، وعن الأبرار الذين سيرثون الأرض. وهو عنى بالأبرار أبناء إسرائيل، أي شعب يهوه المختار، وعنى بالكافرين كلّ الأغيار.

ونجد أنّ الكاتب استفاد من كلام يهوه بأنّ شعبه الخاصّ سيُستعبَد ويُذلّ على أيدي الأمم، لكنّه لن يتخلّى عنه، فاستعاره من دون أن يذكر مصدر هذا الكلام لكي يُنطق نفتالي بالنبوءات، فكتب: «ولذلك سيجلب الربّ عليكم العبوديّة (في مصر بحسب العهد القديم)، وستخضعون لكلّ أنواع المعاملة السيّئة والآلام، حتّى يُهلككم الربّ كلّكم. وعندما لا يبقى منكم سوى بقيّة يسيرة ستهتدون، وتقرّون بالربّ إلهكم، وسيعيدكم إلى بلدكم بحسب رحمته الواسعة (الخروج من مصر). وعندما سيرجعون إلى بلد آبائهم (لم يكن لآبائهم بلد) سينسون الربّ من جديد وسيكفرون (الشرور التي ارتكبوها والمثبّتة في العهد القديم) سيشتّتهم الربّ على وجه الأرض كلّه (هذا الكلام يؤكّد أن تاريخ كتابته يعود إلى الربع الأخير من القرن الأوّل الميلادي، أي إلى ما بعد تشتيت اليهود على يد القائد الروماني تيتوس عام 70 للميلاد)، حتّى تحلّ رحمة الربّ رجلاً ممارساً للبرّ وممارساً للتقوى تجاه جميع البعيدين والقريبين»(248). والجملة الأخيرة تشير إلى معلّم الحقّ الذي ابتدعه الأسّينيون، ورأوا أنّه هو من سيقود القلّة المختارة التي ستنعم ببركة يهوه وتوكّل إليها وراثة الأرض بعد انتقامه بإبادة الكافرين، أي كلّ الأغيار. وهذه الجملة تمثّل دليلاً آخر على أنّ الشيوخ لا علاقة لهم بهذه الوصايا، بل هي من مخيّلة الكتبة الأسّينيين، الذين أرادوا منها توجيه مريدي الملّة. فاستعملوا أسماء الشيوخ لكي يكون وقع الوصايا على المريدين إيجابيّاً.

وينتقل الكاتب إلى رؤيا نفتالي الخياليّة والمستمدّة من رؤى الأنبياء، فلا نجد أنّها مختلفة بالمضمون، إذ أشارت إلى تفرّق الأسباط، ومن ثمّ التقائهم معاً بعد أن يكون بنو إسرائيل قد تألّموا كثيراً.

ثمّ ينتقل الكاتب ليؤكّد أنّ سلام إسرائيل آتٍ من يهوذا، حيث سيظهر اللّه بصولجانه، ويسكن بين البشر على الأرض، لينقذ نسل إسرائيل، ما يؤكّد مرّة جديدة أنّ «الله» موجود لخدمة بني إسرائيل، الذين سيكون لهم الفضل بتمجيد اللّه في الأمم.

الوصية التاسعة:

وها هو جاد، الابن التاسع الذي ولدته زلفة ليعقوب، يبرّر حقده على يوسف أخيه، فيرى أنّ الحقد سيّئ ويرتبط باستمرار بالكذب، فينصح أبناءه بأن يحب كلّ واحد أخاه، وأن ينزعوا الحقد من قلوبهم، والحقد بين الإخوة هو وليد الغيرة. وما يلفت النظر هو أنّ الكاتب لم يسرد علينا أيّ رؤيا لجاد، ولا أيّ نبوءة.

الوصية العاشرة:

في بداية وصيّة أشير، الابن العاشر ليعقوب، كلام ينمّ عن فهم لحقيقة أزليّة أبديّة مرافقة للإنسان، وهي حقيقة تضادّ القوى. فيقول: اسمعوا أباكم يا أبناء أشير، وسأبيّن لكم كلّ ما هو مستقيم أمام الله. ثمّة دربان، هذا ما أعطاه اللّه لأبناء البشر، نازعان وفعلان وسلوكان ونهايتان. ولهذا تمضي الأشياء كلّها مزدوجة، الواحدة مقابل الأخرى. ذلك أنّه يوجد دربان، درب الخير ودرب الشرّ»(249).

ومن هذا الدرب تتفرّع دروب كثيرة منها العدل والظلم، والمحبّة والحقد، والفسق والزهد، الكذب والصدق، الغضب والسكينة والرضى. هذه الصفات تولّد الازدواجيّة. وهذا كلام واقعيّ مستقىً من تجارب الإنسان عبر العصور، وبدلاً من أن يستمرّ الكاتب على هذا النمط الذي يعالج خفايا النفس البشريّة على نحو عام، يعود إلى تعاليم يهوه، التي تأمر بالقتل لأنّه السلاح الأوحد والأمضى لاستئصال الأشرار. يقول الكاتب على لسان أشير: «كثيرون يقتلون الأشرار ويكونون بذلك أصحاب عملين، أحدهما صالح والآخر سيئ، لكنّ المحصّلة صالحة، لأنهم يستأصلون الشرّ ويدمّرونه»(250). فالقتل هو العلاج، أمّا من هو الذي يقرّر، قبل القتل، فعل الشرّ ومستوى العقوبة، فليس مهماً برأي الكاتب، لأنّه يعتقد أنّه وأبناء ملّته مخوّلون تقويم أعمال البشر، وبالتالي يعود الحكم إليهم.

الوصية الحادية عشرة:

ونصل مع وصايا الكاتب إلى يوسف، فنقرأ في مطلع وصيّته كلاماً وجدانياً يشرح فيه يوسف ما تعرّض له، من إخوته أوّلاً، من حسد وتمنٍّ بالموت، ثم إبدال الموت بالبيع عبداً مع ما في ذلك من إذلال. فإذا بالخلاص يأتيه من العليّ، الذي يستمر في رعايته في سجنه وما تعرّض له فيه من أذىً. ويستمر الكاتب في إخبارنا عن أسطورة يوسف التوراتيّة، عندما يضيف إليها أحداثاً لم ترد في العهد القديم، مثل تهديد زوجة فوطيفار رئيس شرط الفرعون، الذي اشترى يوسف من الإسماعيليين، ليوسف بأنّها ستسمّم زوجها وتتخذه زوجاً (أي يوسف) إذا لم يرد أن يرتكب العهر معها، وتهديدها أيضاً بأنّها ستنتحر إن هو أصرّ على رفضه مواصلتها. وفي رؤيا يوسف تشبيه للأسباط الاثني عشر

بالأيائل الذين يتفرّقون ثمّ يعود الربّ فيجمعهم. وما يهمّنا هو رؤيا يوسف الثانية، التي يقول فيها الكاتب: «ورأيت أنّه من يهوذا كانت قد ولدت عذراء ترتدي ثوباً من الصوف، ومنها طلع حمل بلا أيّ عيب، وإلى يسارها كان يقف مثل أسد، فاندفعت الحيوانات المتوحّشة كلّها ضدّه. فانتصر عليها الحمل وأهلكها ووطأها بقدمه. وفرح الملائكة والبشر والأرض كلّها به. وستجري هذه الأحداث كلّها في أوقاتها، في الأيّام الأخيرة»(251).

هذا الكلام، بحسب الهوامش الموضوعة حوله، متأثّر بمصادر متعددة منها: رؤيا يوحنا ورؤيا إيليا. والأهم من كلّ ذلك الإشارة التي أوردها المعلّق في الصفحة 443 من الهوامش، حيث يقول: «ويشير الحمل إلى المسيح الذي من لاوي، والأسد إلى المسيح الذي من يهوذا». وفي العهد القديم إشارة واحدة إلى المسيح المخلّص على نحو عام. فقد رأى اليهود أنّ يسوع هو مخلّصهم، لكنّه صدمهم بكلّ أقواله المناقضة لشريعتهم، وبكل ممارساته المناقضة لطقوسهم، وكانت الضربة القاضية لآمالهم بقوله لهم: مملكتي ليست من هذا العالم.

ونجد اليوم مللاً يهوديّة لا تزال تنتظر المسيح الملك المخلّص، وأحياناً تُقنع بعض الرؤساء الأميركيين (بوش الابن، ترامب) بأنّه المسيح المخلّص لكي يستغلوا دعمهم المطلق لإسرائيل، كما عدّوا قورش الفارسي مسيحهم المخلّص الذي كافأهم، بحسب الرواية التوراتيّة، على مساعدتهم له على دخول بابل، فسمح لهم بالعودة من بابل إلى أورشليم وبإعادة بناء الهيكل. فلا الهيكل الأوّل ظهر له أثر، ولا الهيكل الثاني ظهرت ملامحه. ورأى الدارسون أنّ ما عُدت بقايا من هيكل سليمان ليست سوى آثار الهيكل الثالث الذي بناه هيردوس، الذي عيّنه الرومان حاكماً على فلسطين. وهذا يؤكّد أنْ لا علاقة ليسوع بالمسيح، لا من الناحية الزمنيّة ولا من الناحية الدينيّة، وكان على اليسوعيين (نسبة إلى يسوع) ألّا يقعوا في الفخاخ اليهوديّة الكثيرة، التي تفنّنوا في نصبها لهم.

ويُنهي يوسف وصيّته بما يأتي: «وأنتم إذن يا أبنائي، احفظوا وصايا الربّ وأجلّوا لاوي ويهوذا، لأنّه من نسلهما سيقوم من أجلكم حمل اللّه الذي سيخلّص بالنعمة الأمم كلّها وإسرائيل. لأنّ ملكه سيكون ملكاً أبديّاً لا ينقضي، لكنّ ملكي بينكم سينتهي مثل كوخ في حقل الكروم يختفي بعد انتهاء الصيف. لأنّني أعرف أنّ المصريين سيضطهدونكم بعد موتي، لكنّ اللّه سينتقم لكم وسيقودكم إلى البلد الذي وعد أن يعطيه لآبائكم...»(252).

وتعليقاً على هذا الكلام أقول: يتّضح من الوصيّة التي تطلب من أبناء يوسف حفظ وصايا الربّ، أنّ هذا الربّ هو يهوه إله إسرائيل، والحمل أي المسيح المخلّص، سيكون إمّا من ذريّة لاوي أو من ذريّة يهوذا، إلّا إن كان هناك

مسيحان مخلّصان، واحد ينتمي إلى لاوي، والآخر إلى يهوذا. والجملة الوحيدة التي تحمل نظرة إنسانيّة شاملة هي التي يقول فيها الكاتب إنّ المسيح سيخلّص بالنعمة الأمم كلّها وإسرائيل.

وهذا برأيي يدلّ بوضوح على تأثّر الكاتب بكلام يسوع، الذي جاء مخلّصاً للبشريّة جمعاء من الخطيئة. وبالتالي يؤكّد أيضاً، وكما قلت سابقاً، أنّ كتابة هذه الوصايا جرت في الربع الأخير من القرن الأوّل الميلادي، لا كما حدّد واضع كتاب التوراة: كتابات ما بين العهدين بأنّها تعود إلى نحو العام 37 قبل الميلاد، متجاوزاً بذلك رأي بعض الدارسين الذين لمسوا التأثير المسيحي في هذه الكتابات.

أمّا قول الكاتب على لسان يوسف إنّه كان يعلم بأنّ المصريين سيضطهدون بني إسرائيل بعد موته، ففيه شيء من السخف، ويجعلنا نتساءل: لماذا لم يُخرجهم يوسف، وقد علم بما سيحلّ بشعبه على أيدي المصريين، من مصر وهو لم يزل حياً وكلّ أمور مصر بيده، وحيث كان بنو إسرائيل بعدُ نفراً قليلاً؟ ألم يكن إخراجهم في ذلك الوقت أهون بكثير من إخراجهم على يد موسى بعد أربعمئة وثلاثين سنة، حيث جعل كاتب العهد القديم عددهم يفوق المليون؟ ولماذا أيضاً لم يُخرجهم إلههم يهوه من مصر قبل وقوعهم في العبوديّة وهو كان يعلم (إنّه اللّه الذي لا يخفى عليه شيء) وقد أبلغ ذلك إلى أبرام عندما قال له: «اعلم يقيناً أنّ نسلَكَ سيكون غريباً في أرض ليست لهم ويُستعبدون لهم. فيذلّونهم أربع مئة سنة...» تكوين 15: 13. فإذا كان يهوه يعلم بالمعاناة التي سيعيشها شعبه لمدّة أربعمئة سنة، وإذا كان يوسف أيضاً قد علم بأمر هذه المعاناة، فلماذا لم يتدخّلا لمصلحة بني إسرائيل ويوفّرا عليهم العبوديّة والذلّ؟ وإذا كان يهوه الإله أراد أن يجرّب شعبه ويمتحن صبره وولاءه لإلهه، فماذا كانت حجّة يوسف؟ وبالرغم من كلّ أحداث هذه القصّة، نقول إنّها تفتقد الصدقيّة التاريخيّة، لأنّ وثائق التاريخ المصري الدقيقة عن الفترة الزمنيّة التي كان للعبريين فيها وجود مفترض في مصر، تغافلت كلّياً عن هذا الوجود، وعن أيّ إشارة إلى يوسف، الذي توصّل إلى أن يكون الحاكم الفعليّ لمصر. من هنا تصبح كلّ هذه الوصايا غير ذات قيمة اجتماعيّة، أو دينيّة، أو أخلاقيّة، وتقتصر قيمتها على الناحية الأدبيّة، فقد أدّى خيال الكاتب الدور الأساس في وضعها ونسبتها إلى الشيوخ الأوائل.

الوصية الثانية عشرة:

يبقى أن نُلقي نظرة على وصيّة الشيخ الثاني عشر بنيامين، التي لن تختلف بالطبع عن سابقاتها. فها هو الكاتب يقول على لسان بنيامين: «والآن إذن يا أبنائي، أحبّوا أنتم أيضاً الربّ... خافوا الربّ وأحبّوا قريبكم... لأنّ الذي يخاف

اللّه ويحب قريبه لا يمكن أن يضربه روح بلعار... لأنّ الربّ حاميه بسبب محبّته للقريب»(253).

فلو ركّز الكاتب في وصيّته المختلقة على لسان بنيامين على محبّة الربّ، لكان حسناً فعل. أمّا أن ينتقل مباشرة إلى الحديث عن الخوف من الربّ ومحبّة القريب، فهو بذلك قد نسف مقولته الأولى، لأنّ المحبة لا يمكن أن تتماهى مع الخوف، ولأنّ محبّة القريب فقط فيها تجسيد لعنصريّة الإله يهوه، ولأنّ الربّ يحمي، ليس لمحبّة الإنسان لقريبه فقط، بل إنّ رحمته وتسامحه وغفرانه تشمل كلّ الناس. وفي نبوءته يقول بنيامين: «حتّى يُرسل الربّ سلامه بزيارة نبيّ فريد، وسيمزّق حجاب الهيكل الأوّل، إلى حيث يكون الربّ قد شُتِم وسيرفع على خشبة»(254).

ويرى المعلّق في هامش الصفحة 453 أنّ «بعض النقّاد يرى في هذه الآيات دسّاً مسيحيّاً، وكان الأحرى به القول إنّه دسّ يهوديّ، إذ ماذا ينتفع المسيحي من هذا الدسّ؟ في الوقت الذي ينتفع اليهوديّ منه أقصى منفعة، إذ تقصّد القول إنّ أنبياء بني إسرائيل وشيوخهم تنبأوا بمجيء يسوع. والدسّ هذا مارسوه في الأناجيل، وخاصّة لجهة القول إنّ يسوع يعود بنسبه إلى داود، الذي دحضه يسوع بنفسه، ولا تعترف به الكنائس الشرقيّة أبداً، لأنّ تأثير اليهود فيها ظلّ محدوداً، بخلاف تأثيرهم في الكنيسة الغربيّة التي أجبروها على تبرئتهم من صلب يسوع.

انتهت الوصايا وهي من دون شك لا تتجاوز حدود الفنّ الأدبيّ، بغضّ النظر عن تقويمنا لمستوى هذا الفنّ. إضافةً إلى ذلك، وكما أشار المعلّق في الهوامش، نرى أنّها تحتوي على الكثير ممّا هو وارد في أسفار العهد القديم، ومتأثّرة على نحو خاص بوصايا أحيقار الحكيم، حكيم نينوى، التي أعطاها لابن شقيقه نادان، والتي يظهر تأثيرها أيضاً في بعض ما ورد على ألسنة الأنبياء كطوبيا ودانيال، وابن سيراخ، وعلى من كتب سفر الأمثال. يقول الأب سهيل قاشا: «ولدينا من الدليل ما يشير إلى أنّ مدوّني التوراة كانوا مطّلعين على الحكمة العراقيّة القديمة، ولا سيّما حكمة أحيقار، التي منها اقتبسوا النصوص الحكميّة التعليميّة، التي أتت متشابهة في أكثر من سفر»(255).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع

مزامير سليمان

بعد انتهاء الوصايا أثبت واضع كتاب كتابات: ما بين العهدين مخطوطة أطلق عليها عنوان مزامير سليمان، من دون أن يؤكّد لنا المعرّب توافر نسخة من هذه المخطوطة في قمران، بل شدّد على أنّ مضمون هذه المخطوطة حُفظ في الكثير من مخطوطات التوراة اليونانيّة. كما رأى، من دون أيّ إثبات، أنّها مؤلّفة بالعبريّة، «لكنّها لم تعد متوافرة سوى باليونانيّة وفي نسخة سريانيّة. فإذا كانت النسخ العبريّة مفقودة، فكيف جرى التأكّد من أنّها وُضعت أصلاً بالعبريّة؟ ويؤكّد معرّب الكتاب أنّ هذه المزامير منحولة، وأنّها من وضع كاتب أسّيني، لأنّ فيها تهجّماً على الصدّوقيين والفريسّيين في آن، فيقول: «والحق أنّنا لا نستطيع ألّا نرى في هذا الأدب عموماً، الذي كتبه الأسّينيون بغزارة قُبيل القضاء النهائيّ على اليهود في فلسطين، المحاولات الأخيرة المعبّرة عن الشعور بقرب كارثة نهائيّة لا مجال للهرب منها»(256). ونحن نوافق المعرّب بقوله عن هذه المخطوطات إنّها من نوع الأدب، ولكن لا نوافقه بقوله الذي أشار فيه إلى القضاء النهائيّ على اليهود في فلسطين، ولو كان هذا قد تحقّق حقاً، لما كان التاريخ أخبرنا عن استمرار وجود اليهود، ليس في فلسطين فقط، بل على كامل أرض الهلال الخصيب أيضاً. فالقضاء تحقّق على الوجود السياسيّ لهم، ما أدّى إلى هجرة الأغلبيّة إلى البلدان الأوروبيّة. أمّا شعور الأسّينيين بقرب وقوع الكارثة، فهذا لا يُعدّ من باب التنبؤات، بل من باب القراءة السياسيّة للأحداث الدائرة في البيئة التي كانوا يعيشون فيها. ولم تكن هذه الأحداث لتحتاج إلى نبيّ لكي يستشرف الكارثة، بل كانت الأحداث تحتضن هذه الإشارات. إذ إنّ اليهود الذين قاوموا الرومان وثاروا عليهم، استشعروا الكارثة لأنّهم كانوا يدركون قوّة الإمبراطوريّة الرومانيّة، وثانياً بسبب الخلاف الدينيّ الذي نشأ بينهم وبين بقيّة الملل اليهوديّة. وكاتب المزامير، ككتبة العهد القديم، أعاد هزيمة اليهود في فلسطين إلى أسباب إلهيّة تتعلّق بغضب يهوه عليهم «لأنّ أبناء أورشليم نجّسوا معبد الربّ، ودنّسوا بكفرهم التقدّمات للّه، وكان ذلك عقاب العهر الذي كان يُرتكب فيها». وفي هذه المزامير تركيز أيضاً على بني إسرائيل، وهاكم بعض الأمثلة التي ساقها الكاتب على لسان سليمان:

«فليُهلك اللَّه المتعجرفين المسبّبين لهذا الجور،

لأنّ الربّ إلهنا قاضٍ عظيم وقادر في العدل» من المزمور الرابع

«مبارك فليكن مجد الربّ لأنّه ملكنا» من المزمور الخامس

«لا تُقم مسكنك بعيداً عنا يا الله» من المزمور السابع

«مبارك فليكن إسرائيل من الربّ إلى الأبد» من المزمور الثامن

«والآن فإنّك أنت إلهنا، ونحن فإنّنا الشعب الذي تحبّه

فانظر وأشفق، يا إله إسرائيل، لأنّنا لك

لأنّك اصطفيت ذريّة أبراهام من بين الأمم كلّها» من المزمور التاسع

«فلتكن نعمة الربّ على إسرائيل إلى أبد الآبدين» من المزمور الحادي عشر

«وليحلّ سلام الربّ على إسرائيل خادمه، إلى الأبد،

وليهلك الخاطئون كلّهم معاً، بعيداً عن الربّ» من المزمور الثاني عشر

«في الشريعة التي فرضها علينا لنحيا فيها،

لأنّ حصة وميراث اللّه هو إسرائيل» من المزمور الرابع عشر

«وروحي كانت لتنجرف بعيداً عن الربّ إله إسرائيل» من المزمور السادس عشر

«تلكم هي جلالة ملك إسرائيل الذي اختاره اللّه منذ الأزل»

من المزمور السابع عشر.

وخلاصة الكلام تكمن في أنّ هذه المزامير ليست سوى كلام خاص ببني إسرائيل، بشأن وضعهم السياسيّ تحت حكم الرومان من جهة، ووضعهم الديني الذي فرّق الجماعة إلى ملل، وهي بالتالي تفقد أيّ قيمة إنسانيّة شاملة لأنّها لا تتوجّه إلى البشريّة جمعاء، حتّى ولا إلى أبناء الطائفة اليهوديّة، بل إلى ملّة واحدة انعزلت عن الآخرين بفعل تفسيراتها المخالفة للصدّوقيين والفريسيين، وحتّى لو أضفينا عليها الطابع الأدبيّ، لبقيت تفتقد النزعة الإنسانيّة التي تسمو بالأدب وترقى به إلى العالميّة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن

وصيّة موسى واستشهاد إشعيا

بقي علينا أن نلقي الضوء، قبل نهاية الجزء الثاني من هذه الكتابات، التي اتُّفق على تسميّتها (كتابات ما بين العهدين) على آخر عنوانين: الأوّل وصيّة موسى، والثاني استشهاد إشعيا.

أمّا عن وصيّة موسى، فإنّنا نواجه الإسفاف الفكريّ منذ بدايتها، حيث يقول الكاتب: «وصيّة موسى التي كتبها في السنة المئة والعشرين من حياته، وهي السنة الألفان والخمسمئة منذ خلق العالم. ولكن بحسب الذين في المشرق (كأنّ بني إسرائيل كانوا في المغرب!!!) فإنّها (كلمة غير واضحة في المخطوطة) والأربعمئة منذ الرحيل عن فينيقيا»(257).

ومن هذا الكلام نتوصّل إلى الاستنتاج أنّ خلق العالم بالنسبة إلى اليهود لا يتجاوز الستة آلاف سنة؛ وهذا يتنافى مع كلّ النظريّات العلميّة. ولست أدري ماذا عنى الكاتب بقوله «منذ الرحيل عن فينيقيا»؟ فإذا كان بعض اليهود قد تنقّلوا بين فلسطين وفينيقيا لكونها جزءاً لا يتجزّأ من أرض كنعان، حيث لم تكن هناك جدران فصل عنصريّة، فإنّ هذا لا يعني أنّ اليهود كانوا يقيمون في فينيقيا على نحو كثيف، إلّا إذا كان الكاتب قد استعمل التعميم، فرأى أنّ رحيلهم عن سواحل فينيقيا الجنوبيّة (أي فلسطين) هو رحيل عن فينيقيا ككلّ. وهذا التعبير يراد منه القول إنّهم كانوا يسيطرون على فينيقيا. ورأى موسى أنّ اللّه قد «خلق العالم من أجل شعبه، لكنّه لم يشأ كشف نهاية الخلق هذه منذ بداية العالم، حتّى تدان الأمم في هذه النهاية وتدين بعضها بعضاً بخساسة في صراعاتها. ولهذا فقد تصوّرني واخترعني، أنا الذي كنت قد حُضّرت منذ بداية العالم لأكون وسيط ميثاقه»(258).

هذا الكلام قاله موسى، بحسب الكاتب، ليشوع القائد العسكريّ الذي اختاره لقيادة بني إسرائيل وإدخالهم إلى أرض كنعان. ومن هذا الكلام نستشفّ عقائد غريبة يحاول الكاتب تمريرها على لسان موسى، ويريد منا أن نصدّق أنّ «ربّ العالم» قد خلق هذا العالم خصّيصاً لأجل بني إسرائيل، شعبه المختار. ويريد منا أن نصدّق أيضاً أنّ رغبة «الربّ» كانت في أن يكشف لشعبه نهاية الخلق، لكنّه أحجم لسبب يتعلّق بعلاقة شعبه بالأمم التي سيحلّ بينها، والتي، برأيه ستعادي بني إسرائيل وتضطهدهم لكي يدينها الربّ ويبيدها. وإنّه لمن المضحك أن يعتقد الكاتب بأنّنا سنصدّق، ولربما فعل الكثيرون، أنّ «الربّ» قد أعدّ موسى منذ بداية العالم ليكون وسيط ميثاقه، لكنّه اخترعه وصوّره في الوقت المناسب لذلك. إنّه خيال مخصيّ حاول

التحليق عالياَ إلّا أنّ جناحيه لم يستطيعا التحليق به إلّا في فضاء بني إسرائيل. وها هو الكاتب، وعلى لسان موسى، يعود إلى تكرار الكلام الذي أورد على أكثر من لسان، فيرى أنّ الانتقام من الأعداء آتٍ، وأنّ الربّ:

«سيخرج من مسكنه المقدّس،

مشتعلاً بالغضب لمصلحة أبنائه

وسيظهر لكي يعاقب الأمم ويدمّر الأصنام كلّها.

عندئذ يا إسرائيل سعيداً ستكون»(259).

ومرّة جديدة ندرك أنّ «الربّ» وكلّ ما يدور في العالم من أحداث، إنّما يتمحور حول بني إسرائيل، الذين ستكون سعادتهم بالقضاء على جميع الأمم.

في متن التوطئة المثبتة قبل نصّ استشهاد إشعيا بعض الأفكار التي يجب التوقّف عندها، لأنّها تدلّنا على وقوع بعض الدارسين في فخ الأفكار اللاهوتيّة الخياليّة.

نقرأ من التوطئة ما يأتي: «فقد زار النبي الذي قاده ملاك الإقامة السماويّة للأبرار والملائكة والله، وهناك أعطيت له معرفة ولادة يسوع المسيح وحياته وبعثه»(260). لن أناقش زيارة النبي، بقيادة الملاك، إلى الإقامة السماويّة، حيث التقى الأبرار والملائكة واللّه، لأنّ هذه المعتقدات موجودة لدى أتباع كلّ الديانات، وأنا أحترم إيمان الجميع وقناعاتهم، حتّى لو لم أكن مقتنعاً بها. أمّا القول بأنّ إشعيا خلال زيارته أُعطي معرفة ولادة يسوع المسيح وحياته، فهذا ما سأتوقّف عنده. لقد اعتمد الدارسون، الذين يروّجون لهذه المقولة إضافة إلى رجال الدين، وخاصّة المسيحيين منهم، على ما جاء في سفر إشعيا التوراتي، حيث يقول الكاتب: «... لأنّه من صهيون تخرج الشريعة ومن أورشليم كلمة الربّ. فيقضي بين الأمم ويُنصف شعوباً كثيرين» إشعيا 2: 3-4. ويقول في الإصحاح السابع: «ها هي العذراء تحبل وتلد ابناً وتدعو اسمه عمّانوئيل» إشعيا 7: 14. ولست أدري كيف يغض الدارسون النظر عمّا قاله إشعيا، أو قل كاتب سفر إشعيا، في هذا السفر، الذي يدلّ على أنّ هذا «النبي» لا يؤمن إلّا ببني إسرائيل وبإلههم يهوه = ربّ الجنود.

ففي الإصحاح الأوّل يهاجم إشعيا أبناء شعبه فيقول: «شعبي لا يفهم. ويل للأمّة الخاطئة، الشعب الثقيل الإثم، نسل فاعلي الشرّ أولاد مفسدين... فبقيت ابنة صهيون (أي أورشليم) كمظلّة في كرم، كخيمة في مقثأة، كمدينة محاصرة. لولا أنّ ربّ الجنود أبقى لنا بقيّة صغيرة لصرنا مثل سدوم وشابهنا عمورة» إشعيا 1: 3، 4، 8، 9. فإله هذا النبي هو ربّ الجنود، أي يهوه الإله الغضوب، الغيور، المنتقم الذي يفيض صدره بالحقد على النسل البشري

كرمى لشعبه المختار بني إسرائيل. فهل يُعقل لمثل هذا «النبي» أن يرى المستقبل لما يزيد على ثمانمئة سنة، فيبلغنا عن يسوع الذي أتى فنقض الشريعة التي يؤمن بها هذا النبي؟ كيف لعقولنا أن تقتنع بمثل هذا الكلام، الذي لا يعدو كونه استنتاجات، أو هو ناتج في أحسن الأحوال، من زيادات قام بها اليهود بعد ميلاد يسوع بقرون، أي قبل دمج العهدين في كتاب واحد، أطلقوا عليه عنوان الكتاب المقدّس، لكي يُجبروا المسيحيين على الإيمان بالعهد القديم كإيمانهم بالأناجيل، والدراسات بشأن هذا التزوير كثيرة.

أمّا عن الجملة الثانية التي وردت في إشعيا، والتي استند إليها الدارسون أكثر من الفقرة الأولى للدلالة على نبوءة إشعيا عن ولادة يسوع، فقد أوضح الباحث والمؤرّخ فايز المقدسي في بحث له عن أصول هذه الجملة، فوجدها في نص أوغاريتي، يسبق نص إشعيا التوراتيّ بما لا يقلّ عن ألف سنة، والترجمة الحرفيّة لهذا النصّ تقول: «صبيّة بتول تحبل بالابن المقدّس ويكون اسمه ابن اللّه أو ابن العلي». ويقول المقدسي إنّ الترجمة الأدبيّة لهذا النصّ يمكن أن تُقرأ كالآتي: «ها هي صبيّة عذراء بتول تحبل وتضع ابناً أو طفلاً يدعى ابن الله». ويشير مقدسي إلى التشابه بين هذه العبارة وما ورد في سفر إشعيا. أمّا موسوعة ويكيبيديا، فقد أشارت إلى أنّ متّى عدّ هذه الجملة نبوءة عن ولادة يسوع، وإلى أنّ البعض لا يعدّها كذلك. ويُردف مقدسي قائلاً إنّ عبارة: هذا جسدي خبزاً فكلوه، وهذا هو دمي خمراً فاشربوه، الواردة في الإنجيل، لها ما يشبهها في التراث الحثّي الذي يعود إلى ثلاثة آلاف سنة قبل يسوع. ويُضيف قائلاً: «إذن، تلك المفاهيم التي كانت أساس اللاهوت الكنسي هي في الأصل مفاهيم روحيّة سوريّة متجذّرة في الفكر السوري ومنذ عهد طويل». وهذا ما كنّا قد أشرنا إليه سابقاً، ونكرّره هنا لتأكيد هذه المسلّمة، أي إنّ كتبة العهدين القديم والجديد غرفوا من الحضارة والتراث السوريين القديمين. فالتلاعب بالتراث والنصوص القديمة ثابت على اليهود. وفي بحث آخر يكشف التزوير اليهوديّ يقول المقدسي عن يسوع: «كيف يدعونه ملك اليهود وهو لم يعترف بهم، وهم لم يعترفوا به». وأشار إلى العبارة اللاتينيّة التي تُلخّص بالأحرف (INRI)، والّتي تُرجمت على أنّها تعني يسوع الناصري ملك اليهود، والتي كتبت على الصليب، ثبت لاحقاً أنّها تعني (النار تجدّد الطبيعة بقوّة النار)، حيث كان الهدف من هذا التلاعب بالمعنى إثبات أنّ يسوع يهوديّ، وأنّه سمّى نفسه ملك اليهود.

وكنّا قد أشرنا سابقاً أيضاً، إلى أنّ إطلاق لقب المسيح على يسوع لا ينطبق على الواقع، لأنّ هذا اللقب كان يُطلق على ملوك اليهود. فقد كان الكاهن يمسح رؤوسهم بالزيت عند تنصيبهم ملوكاً، وهم من أطلق على يسوع لقب المسيح لأنّهم اعتقدوا بأنّه الملك المخلّص، لكنّه خيّب آمالهم.

فكلّ هذه المعطيات برأيي تدلّ على تأثّر الكتبة بتراث الأوّلين، فقد استعاروا ليس فقط الأساطير، والأمثال، والحكم، والأناشيد، بل أيضاً بعض التعابير بحرفيّتها. ولا بدّ أيضاً من تكرار الإشارة إلى بعض ما تنبأ به إشعيا ولم يتحقّق، وخاصّة وحيه من جهة دمشق. وبالتالي فإن كلّ تنبّؤات أنبياء إسرائيل تشبه تنبّؤات نجوم الأقنية التلفزيونيّة اللبنانيّة، التي تتسابق على استضافتهم لتسلية الناس.

وإذا ما قرأنا ما كتبه محرّر سفر إشعيا في الإصحاح الثالث عن بنات صهيون، لعلمنا أنّ الفاسقات الزانيات لسن بنات كنعان كما ذكر بعض الأنبياء والشيوخ، وإنّما هن بنات بني إسرائيل. وما عليك عزيزي القارئ إلّا أن تقرأ هذا السفر لتتأكّد من أنّ الكاتب قد يكون قد انطلق من واقع حياة بني إسرائيل في ذلك الزمن، ومن حقده على المدن الحضاريّة كصور ودمشق، فصبّ على الأخيرة فيضاً من حقده، وعلى شعبه صبّ نار غضبه لعلّ هذا الشعب يعود إلى درب الربّ يهوه.

ونتابع ما ورد في التوطئة فنقرأ ما يأتي: «إنّ هذه الرؤيا لإشعيا، وهي عمل لمؤلّف مسيحي... وهنا لم يستعد المؤلّف المسيحيّ إلّا أسطورة يهوديّة محرّفاً إياها، وهي أسطورة تشير إليها مواريث حاخاميّة. وقد بذل جهداً من أجل مكاملتها في مؤلِّفِه عن صعود إشعيا الذي يعزوه لحقد الشيطان على النبيّ، الذي يعود إلى المعرفة التي كانت لدى هذا الأخير بشأن مجيء المسيح»(261). إنّ الاستنتاج الذي جرى التوصّل إليه بشأن انتماء الكاتب إلى الدين المسيحي، لمجرّد وجود جملة فُسّرت بأنّها تنبؤ بولادة يسوع، فيه الكثير من فوضى التأويل. ألم يخطر ببال هذا المستنتج أنّ كتابة سفر إشعيا، غير المؤرَّخ وغير المعلوم من كتبه، وكتب المخطوطات، يمكن أن تكون قد جرت بعد ولادة يسوع، وبعد كتابة الأناجيل حتى. وبهذا تكون اللمسة المسيحيّة نتيجة طبيعيّة لتأثّر الكتبة بتعاليم يسوع؟ وبدلاً من القول إنّ المؤلّف المسيحي استعار الأسطورة اليهوديّة، لماذا لا نقول إنّ كاتب المخطوطة الأسّيني، أو من سبقه، وهم من اليهود، استمرّوا في كتابة هذه الأساطير وأدخلوا عليها بعض الزيادات كلّ بحسب الزمن الذي عاش فيه؟ لم يعد خافياً على أحد أنّ أسفار العهد القديم والمخطوطات هي نتيجة إنتاج فترات زمنيّة متباعدة بدأت في القرن السادس قبل الميلاد، واستمرّت حتى القرن الثامن الميلاديّ. وكان من الطبيعي أن يتأثّر الكتبة بالجو الثقافيّ الذي كان سائداً في زمن كلّ منهم، مع الاحتفاظ بالركيزة الأساسية وهي الشريعة اليهوهيّة.

والكلام الصائب الوحيد هو الذي يقول فيه كاتب التوطئة إنّ ما ورد في هذه المخطوطات هو أساطير، حيث يؤكّد ذلك مرّة أخرى، إذ يقول: «كذلك جرى

الرجوع إلى أسطورة لإشعيا، تلخّص في وقت واحد رؤيا النبيّ واستشهاده»(262).

ولن أتوقّف كثيراً عند نصّ مخطوطة استشهاد إشعيا لأنّها سفسطة كلاميّة، لكنّني سأشير إلى جملتين فقط، الأولى تقول: «وقد قال إشعيا لنفسه: «أنا مستبصر متفوّق على موسى، والحقّ أنّ موسى قال: لا يرى أحد اللّه ويبقى حيّاً، لكن إشعيا قال: قد رأيت اللّه وها إنّني حي»(263). فماذا ورد في العهد القديم عن رؤية الله؟ نقرأ من الإصحاح الثالث والثلاثين ما يأتي: «فقال (أي موسى مخاطباً الربّ) أرني مجدك. فقال أجيز كلّ جودتي قدّامك. وأنادي باسم الربّ قدامك. وأتراءف على من أتراءف وأرحم من أرحم. وقال (أي الربّ) لا تقدر أن ترى وجهي. لأنّ الإنسان لا يراني ويعيش. وقال الربّ هوذا عندي مكان. فتقف على الصخرة. ويكون متى اجتاز مجدي أنّي أضعك في نقرة من الصخرة وأسترك بيدي حتى أجتاز. ثمّ أرفع يدي فتنظر ورائيّ. وأمّا وجهي، فلا يُرى» خروج 33: 18-23. فقول «الربّ» لا تقدر أن ترى وجهي يجعلنا نقتنع بأنّ «الربّ» كائن بشري له وجه كالإنسان، ويبدو أنّ هذا الإله البشري كان مشوّه الوجه، فلم يُرد أن يراه أحد.

والمضحك في هذا الكلام أنّ «الربّ» أبلغ موسى أنّه سيُدخله في نقرة الصخرة ويغطي النقرة بيده كي يجتازها، وبعد ذلك فلينظر موسى قدر ما يشاء لأنّه لن يرى سوى قفا الله. والمؤسف هو أنّ كاتب سفر الخروج كان قد ذكر في الإصحاح ذاته، أنّ موسى نصب خيمة للربّ خارج المحلّة وسمّاها خيمة الاجتماع، «وكان جميع الشعب إذا خرج موسى إلى الخيمة يقومون ويقفون كلّ واحد في باب خيمته وينظرون وراء موسى حتّى يدخل الخيمة. وكان عمود السحاب إذا دخل موسى الخيمة ينزل ويقف عند باب الخيمة. ويتكلّم الربّ مع موسى. فيرى جميع الشعب عمود السحاب واقفاً عند باب الخيمة. ويقوم كلّ الشعب يسجدون كلّ واحد في باب خيمته. ويكلّم الربّ موسى وجهاً لوجه كما يكلّم الرجل صاحبه» خروج 33: 8-11. وعمود السحاب هو «الربّ يهوه»، فكيف كلّمه وجهاً لوجه، كما يكلّم الرجل صاحبه، ولم يمت؟ وعندما يكلّمه وجهاً لوجه ألا يعني هذا أنّه رأى وجه الرب؟ فكيف قال، بعد هذه الفقرة بأسطر، «لا تقدر أن ترى وجهي، لأنّ الإنسان لا يراني ويعيش»؟ ألا يُعدّ هذا تناقضاً فاضحاً في مضمون هذه الأسطورة. وكيف نفسّر ما أورده كاتب العهد القديم في الإصحاح الرابع والعشرين، أي قبل الكلام السابق بتسعة إصحاحات، عن صعود «موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل. ورأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفّاف وكذات السماء في النقاوة. ولكنّه لم يمدّ يده إلى أشراف بني إسرائيل (أي لم يصافحهم)، فرأوا اللّه وأكلوا وشربوا» خروج 24: 9-11؟

ألا تعني جملة «رأوا الله» أنّهم رأوا وجهه؟ فلماذا لم يُمتهم؟ وكيف يقول إشعيا إنّه رأى اللّه وبقي حيّاً؟ وهل هو حقاً «مستبصر ومتفوّق على موسى»؟

من هنا أقول إنّه لا مجال للتأويل، فالكلام واضح. ولو لم تُثر حوله تساؤلات متعدّدة، لما جرؤ المؤوّلون على تحوير الكلام عن معانيه الحقيقيّة. إنّه كلام خيالي سرده الكاتب على لسان شخصيّات أسطوريّة وغلّفه بهالة إلهيّة فأصبح مقدّساً، لا تجرؤ إلّا قلّة من الناس على مناقشته ووضعه في الخانة الأدبيّة الأسطوريّة الصحيحة.

والجملة الأخيرة التي تستحقّ الإشارة إليها، حتّى ولو كانت إشارتنا سلبيّة، هي التي جاء فيها: «فأمسكوا بإشعيا، ابن عاموس، ونشروه بمنشار للخشب». ومن الطبيعيّ أن يتساءل القارئ: من قام بهذا العمل السيئ، نشر إشعيا النبيّ إلى نصفين وهو على قيد الحياة؟ وقد يتبادر للذهن فوراً أنّ الفاعل هو أحد أعداء اليهود من البابليين. ولكنّنا نفاجأ بأنّ الأمر أتى من أحد أبناء شعبه، الملك منسى بن حزّقيا، ويُخبرنا الكاتب أنّ إشعيا كان قد تنبأ أمام حزّقيا قبل موته، بأنّ ابنه منسى سوف يكفّ عن خدمة إله أبيه، لأنّ قلبه سيتحوّل لخدمة بلعال (الشيطان). أمّا عن طريقة الانتقام، فهي الأبشع، وتدلّ بما لا يقبل الشك على النفسيّة الإجراميّة المستقاة من تعاليم يهوه وأوامره، التي لا تزال تفعل فعلها حتى اليوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع

التوارة المنحول

نصل إلى الجزء الثالث من كتاب: التوراة: كتابات ما بين العهدين، والمعنون: التوراة المنحول. يقول ابن منظور في كتابه لسان العرب: نحله القول ينحله نحلاً: نسبه إليه. ومن هذا المفهوم اللغويّ يمكننا القول إنّ ما سمّي الكتب المنحولة (الأبوكريفا) هي كتب حرّرها بعض الكتبة ونسبوها إلى غيرهم. ولكونها تعرّضت لمدوّنات دينيّة، يهوديّة ومسيحيّة، فقد تولّت مجامع التدقيق فيها، ومن ثمّ تجاهلتها إذ عدّتها غير أصيلة، وقد يفوق عددها عدد الكتب الأساسيّة. يقول المعرّب في مقدّمة الجزء الثالث: «هي مجموعة من المخطوطات التي لم يُعثر عليها في قمران، والتي لا يُمكن بالتالي أن تنتسب إلى مخطوطات البحر الميت على نحو مباشر إنّما التي ترتبط بالفكر الأسّيني على نحو مباشر أو غير مباشر في معظمها»(264). وانطلاقاً من هذا الواقع، لن أركّز كثيراً عليها، لأنّ هذه الدراسة مخصّصة لمناقشة مضمون لفائف البحر الميت، التي أُطلق عليها أيضاً اسم مخطوطات قمران. والتوراة المنحول، كما هو واضح من العنوان، هي كتب تطرّقت إلى موضوعات العهد القديم ذاتها، وهذا ما تضمّنته أيضاً لفائف البحر الميت، كما مرّ معنا، فتصبح مناقشة مضمون هذه الكتب مجرّد تكرار غير مستحبّ. ويقول المعرّب إنّ الدافع من وراء ضمّها إلى الكتاب، الذي من المفترض أن يُلقي الضوء على مخطوطات قمران، أنّه من خلال دراستها تبيّن أنّها «استمراريّة للفكر الأسّينيّ وتحوّلاته من خلال تغيّر الظروف السياسيّة والثقافيّة، بل وحتّى تغيّر بعض المفاهيم الدينيّة»(265). فقد يكون مضمون هذه المخطوطات متماهياً مع الفكر الأسّيني، أمّا القول إنّ هذا المضمون فيه تغيّر ببعض المفاهيم الدينيّة (اليهوديّة)، ففيه الكثير من المبالغة، إذ تبيّن لنا خلال المناقشة أنّ مضمونها لا يتناقض مع مضمون العهد القديم، بل هناك بعض الزيادات غير الواردة في الكتب الأولى.

وقد أشرنا إلى أنّ ظاهر بعض الأفكار يدلّ على تطوّر أو تغيّر طاول بعض المفاهيم الدينيّة، إلّا أنّنا أشرنا أيضاً إلى أنّ الكاتب سرعان ما نقض ما كتبه لأنّه لم يستطع التخلّي عن جذوره وأصوله اليهوديّة. وكمثال على ذلك أشير إلى أنّ كاتب المخطوطات أحياناً، كان يتكلّم عن اللّه بما يُفهم أنّه خالق الكون الأوحد، ثمّ لا يلبث أن يعود ليؤكّد أنّ هذا اللّه ليس سوى إله بني إسرائيل فقط، وهذا ما يؤكّد عدم قدرة الكاتب على تجاوز قناعاته المرتكزة على الشريعة الموسويّة، مع ملاحظتنا لأفكار متعدّدة تأثّر فيها إمّا بالتراث الكنعانيّ، أو المسيحيّ، والعكس ليس صحيحاً.

وهذه الكتب المنحولة، يقول المعرّب، إنّها «ترجع إلى القرون الميلاديّة الأولى، وهي تعكس الظروف الاجتماعيّة والسياسيّة والدينيّة والثقافيّة عموماً، التي كانت تتطوّر وتنبثق في المنطقة»(266)، وخاصّة ما أفرزته رسالة يسوع من تعاليم مخالفة ومناقضة لشريعة موسى.

وهناك سبب آخر يحملني على تجاوز التعليق على هذه الكتابات، وهو أنّها، في معظمها، تتطرّق إلى موضوعات خياليّة، كالرؤى والأحلام التي أتحفنا بها أنبياء إسرائيل وشيوخها. وإذا ما أردت أن أعطي مثالاً على ذلك، فإنني سأذكر القسم الأوّل منها والمعنون: «كتب وحي العرّافات»، وكأنّه لم يكفنا سيل نبوءات أنبياء بني إسرائيل، بل علينا الخضوع أيضاً لوحي العرّافات. وإذا ما حاولنا تفسير معنى العرّاف، والعرّافة مؤنث العرّاف، فإننا سنجد أنّ ابن منظور في موسوعته لسان العرب يقول إنّ «العرّاف هو الكاهن (وللكلمة معانٍ أخرى ولكن ما يهمنا هنا هو هذا المعنى بالتحديد لأنّه الوحيد الذي يتعلّق بما يتناسب مع موضوعنا). ويذكر ابن منظور ما ورد في أحد الأحاديث عن أنّ «من أتى عرّافاً أو كاهناً فقد كفر بما أُنزل على محمد، أراد بالعرّاف المنجّم الذي يدّعي علم الغيب، الذي استأثر اللّه بعلمه»(267).

وورد في صحيح مسلم أنّ النبيّ قال: من أتى عرّافاً فسأله عن شيء لم تُقبل له صلاة أربعين ليلة. فإذا كان الذي يسأل العرّاف لا تُقبل صلاته أربعين يوماً، فما بالك بالعرّاف نفسه؟ وانطلاقاً من هذا الكلام نفهم معنى الحديث المتواتر والقائل: كذب المنجّمون ولو صدقوا. ونحن أبدينا تحفظاتنا على العهد القديم بذاته، وعلى مضمون مخطوطات قمران المشابهة للعهد القديم، ولكنّنا لسنا ملزمين بالتطرّق إلى هذه الترّهات التي لا يقبلها العقل. والمعرّب يشير أيضاً إلى أنّ: «مؤلّفي كتب الوحي هؤلاء، الذين نسبوه إلى العرّافات، لديهم معرفة معمّقة بالأدب اليوناني وبالعهد القديم في آن. فهم يقرّبون باستمرار بين حكايات الأساطير الوثنيّة والحكايات الواردة في التوراة... ومؤلّف النبوءات المنحولة يجعل على لسان عرّافة مشهورة، هي عرّافة إريثريا، وحياً رؤيويّاً يعلن الكارثة الآتية، ويدعو الوثنيّين إلى التوبة».

فالدعوة إلى التوبة مستحبّة، وقد تكون ضروريّة في بعض الأحيان، أمّا ربطها بكارثة انتهاء العالم لإخافة الناس وجعلهم يهرعون لإعلان توبتهم، فإنّها حيلة لم ولن تنفع، لأنّ الناس سرعان ما سيكتشفون، وقد فعلوا فعلاً، أنّ القيامة لم تقم، وأنّ الأزمنة الأخيرة لم تحلّ بالرغم من مرور آلاف السنين على كلام الأنبياء والعرّافين، وأنّ علم الغيب محصور في الخالق فقط، وهذا ما دفع بمحمد إلى القول: «ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسّني السوء» (أورده معروف الرصافي في كتابه الشخصيّة المحمديّة على أنّه حديث متواتر (ص227).

وأودّ هنا أن أعطي مثالاً واحداً عمّا ورد في كتاب وحي العرّافات لكي يلمس القارئ أنّ كاتب هذه الرؤى العرّافيّة لا يختلف عن غيره من حيث التقيّد بالشريعة اليهوهيّة. أشير إلى ما ورد تحت عنوان تاريخ إسرائيل في كتاب وحي العرّافات ونصّه: «فقد سار في الليل على ضوء عمود من نار وطيلة النهار خلف عمود من سحاب»(268). وهذا الكلام مأخوذ من العهد القديم (سفر الخروج). وتحت عنوان تنبؤات ضدّ الأمم يُعيد الكاتب الكلام، على لسان العرّافة، عن دعوات أنبياء اليهود على مدن بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام، مثل بابل، ولكنّه يعمّم أخبار شؤمه على مدن أخرى لم ترد في العهد القديم، بل شمل مثلاً كلّ آسيا بقوله: «فعليكِ الآن يا آسيا الشقيّة إنّما أبكي... وويل لكِ يا مدينة اللاذقيّة الجميلة»، كلام يؤكّد حقد هذا الشعب على جميع الأمم دونما سبب إلّا شعوره بالدونيّة، لأنّه لم يستطع الارتقاء إلى المستوى الحضاريّ لكلّ الشعوب التي تفاعل معها.

مثال ثانٍ أسوقه من كتاب الرؤيا اليونانيّة لباروخ وسُميّت اليونانيّة لأنّ المخطوط وُجد مكتوباً باللّغة اليونانيّة، فنقرأ من الفاتحة: «سرد وكشف باروخ عن الأشياء السريّة التي تأمّلها بأمر من الله. مبارك أيا ربّ». ويُكمل: «ومن جديد قال لي ملاك القوى: «تعال، وسأريك أسراراً أعظم بكثير». لكنّني قلت: «أرجوك، فسّر لي من هم هؤلاء البشر». وقال لي: «إنّهم أولئك الذين بنوا برج القتال ضدّ الله، والربّ شتّتهم»(269). يأتي الكلام ليشير إلى الأسطورة التوراتيّة بشأن نزول اللّه إلى مدينة بابل، عندما رأى البرج الذي كان بنو آدم يبنونه، فنزل وبلبل لسانهم «حتّى لا يسمع بعضهم بعضاً... فكفّوا عن بنيان المدينة. لذلك دُعي اسمها بابل» تكوين 7: 11-9. وأثبتنا سابقاً بطلان هذه الرواية، فاسم بابل يعني باب إيل، أي باب الله، ولم يُشتق من فعل بلبل بمعنى فرّق بغية تعميم الفوضى أو فرز الناس بحسب لغاتهم. كما أود أن أشير هنا إلى تناقض الكلام التوراتي مع الحقيقة التاريخيّة.

فعندما يقول كاتب التوراة، ويردّد بعده كاتب رؤيا باروخ، أنّ بني آدم كانوا يبنون المدينة والبرج، فهذا يعني الأجيال الأولى منذ ذريّة آدم، وهذه الأجيال لا يمكن أن تكون، في حال تصديقنا القصّة التوراتيّة، قد تعلّمت حرفة البناء لتبني برجاً كبرج بابل. ومعظم الدارسين يعدّون هذه القصّة أسطورة كان القصد منها أنّ اللّه عاقب بني آدم لأنّهم حاولوا بناء البرج كي يصلوا إليه في السماء. وفي المحصّلة فإنّ ذكر اسم مدينة بابل، التي يفيدنا التاريخ بأنّ البابليين بنوها على ضفّة نهر الفرات وأصبحت عاصمة لإمبراطوريّتهم في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، يفيد بأنّ القصّة التوراتيّة لا تتوافق مع العقل والعلم. فقد كانت قد مرّت ملايين السنوات على وجود الإنسان فوق الأرض قبل أن يتوصّل إلى اختراع فنّ العمارة الذي ظهر في بابل، وتجلّى في أبهى مظاهره في بوابة عشتروت، وهي واحدة من بوابات بابل التي استولى عليها

الألمان ونقلوها إلى أحد متاحف برلين، وحدائق بابل المعلّقة التي صُنّفت من عجائب الدنيا السبع. اكتشافات الآثاريين في العراق سفّهت كلّ ما هو وارد في أساطير العهد القديم.

والمثال الأخير هو مخطوطة وصيّة أيّوب، التي يقول عنها المعرّب: «وصيّة أيوب تنتمي بأسلوبها وموضوعها إلى أدب الوصايا. ويعتمد مؤلّف الوصيّة على نموذج وصايا الشيوخ الاثني عشر»(270). وإنّه لمن المؤسف ألّا يتطرّق معرّب كتاب التوراة: كتابات ما بين العهدين ولا واضعا الكتاب، إلى أسطورة أيوب التوراتيّة، من حيث كونها مستقاة من أسطورة أيوب البابلي، التي تسبق أسطورة أيوب التوراتيّ بما لا يقلّ عن ألفي عام.

يذكر الكاتب حنّا حنّا في مقدّمة كتابه الحكم والأمثال السوريّة القديمة: أحيقار نموذجاً أنّ الحضارة الإنسانيّة مدينة للحضارة السوريّة التي أغناها السومريون، والبابليون، والأكديون، والكنعانيون، والأشوريون، والآراميون. ويقول: «إنّ السوريين هم أوّل من تأمّل في قضية العدل الإلهيّ (أيوب السومريّ وأيوب البابليّ)»(271)، مستنداً بذلك إلى ما كتبه عن أيوب (ربّما ورد تحت اسم آخر لكنّ المضمون واحد) المؤرّخ صموئيل نوح كريمر في كتابه المعنون: «من ألواح سومر».

وبذلك يتبيّن لنا، بالاستناد إلى دراسات متعدّدة، أنّ معظم الأساطير التوراتيّة تعود إلى أصول سوريّة رافدينيّة أو كنعانيّة، إذ لم يعد بالإمكان إبقاء الحقائق التاريخيّة التي كشفت عنها الحفريات مطموسة، وبالتالي لم يعد هناك من مجال لترك العربدة اليهوديّة مسيطرة على عقول الناس، مفاخرة بحضارة مزيّفة تعود مداميكها إلى شعوب الهلال الخصيب، التي مثّلت على مرور الزمن مزيجاً سلاليّاً متجانساً، حتّى أتتنا الصهيونيّة الحديثة، مدعومة من الاستعمار الغربي، بهجرة غريبة متنافرة ومتناقضة، من حيث النفسيّة والقيم والمثل الاجتماعيّة، مع نفسيّة وقيم ومثل أمتنا الراقية. فإلى متى سنترك الساحة للأضاليل التوراتيّة؟

سأكتفي بهذا القدر من التعليق على كتب التوراة المنحول، وهي برأيي لا تستحقّ عناء القراءة، والتشريح، والنقد. فالمهمّة الأساسية التي سعت إليها هذه الدراسة تكمن في مناقشة مخطوطات قمران، التي عُرفت أيضاً بلفائف البحر الميت، والتي مثّلت الجزء الأوّل من كتاب التوراة: كتابات ما بين العهدين وتحت عنوان فرعيّ هو: الكتب الأسّينيّة. وتطرّقت أيضاً إلى محتوى الجزء الثاني، أي التوراة المنحول، لأنّ بعض مخطوطاته المتداولة بأكثر من لغة جاءت مطابقة لبعض مخطوطات قمران. أمّا الجزء الثالث، الذي تضمّن الجزء الثاني من التوراة المنحول، فلم تتوافر منه في قمران أيّ مخطوطة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل العاشر

محاولة الربط بين المذهب الأسّيني والمسيحيّة

لقد حاول اليهود في القرون الوسطى دمج العهد القديم بالعهد الجديد لسببين: الأوّل أنّهم، وخلال وجودهم في أوروبا، كانوا يتعرّضون لأبشع أنواع الظلم الدينيّ، وكان ذلك ناتجاً عن مفاهيمهم الدينيّة الغريبة، وطقوسهم العجيبة، التي لم يستسغها الغرب. والثاني تَمثّل في قناعتهم بأنّ الغرب المعادي لأفكارهم الدينيّة يجب أن يروَّض كخطوة أولى لرفع الظلم عنهم. والثالث قناعتهم بأنّ الظلم الديني لن يرتفع عنهم إلّا إذا أقنعوا المسيحيين بأنّ ديانتهم تجد جذورها في الديانة اليهوديّة، وأنّ أنبياءهم تنبّأوا بولادة يسوع، ولن يكون لهم ذلك إلّا إذا جعلوا المسيحيين يقرأون العهد القديم أوّلاً، وإلّا فسيبقى إيمانهم ناقصاً.

ونجحت مؤامرتهم، فهدأت ثورة الأوروبيين عليهم، التي نتجت، ليس فقط بسبب عقائدهم الدينيّة، بل بسبب أخلاقهم السيّئة أيضاً، التي تجلّت في سوء تعاملهم مع الآخرين على كلّ الصعد انطلاقاً من تعاليم شريعتهم بأنّهم شعب اللّه المختار وعلى الشعوب الأخرى أن تُسخّر لخدمتهم. لقد نتج من هذا الدمج تحريف لحق الأناجيل أوّلاً لجهة إرجاع نسب يسوع إلى داود للقول إنّه يهوديّ، لكي يتسنّى لليهود إجبار المسيحيين على احترامهم بدل إذلالهم، والثاني لجهة تفسير بعض ما جاء في أقوال أنبياء اليهود من أنّه إعلان بمجيء يسوع، والثالث بإيراد عبارة أنّ يسوع أتى من أجل خراف بني إسرائيل الضالّة، والرابع أنّ يسوع أتى ليكمل الشريعة اليهوديّة لا لينقضها.

ولقد أظهرنا خطأ النقاط الأربع في متن الدراسة، وعلى نحو أوسع في كتابي الأوّل البعد التوراتي للإرهاب الإسرائيليّ(272). وما يهمّني في هذه الدراسة هو نفي الادّعاء بأنّ يسوع كان أسّينيّاً، وهي المرة الثانية التي يحاول اليهود من ورائها ربط المسيحيّة باليهوديّة.

لقد أورد محمود العابدي في كتابه عن مخطوطات البحر الميت الملاحظة التالية: «لقد قيل إنّ هذه الاكتشافات ستقلب مفهوم العهد الجديد رأساً على عقب. وهذا الانقلاب يحتّم علينا أن نعيد بناء الأركان الأساسيّة للدين المسيحي. ويُجمع العاملون في هذا المجال على أنّ شيئاً من ذلك لم يحدث ولا يُنتظر حدوثه أبداً»، ويُكمل قائلاً: «إنّ إشارة الباحث صومر إلى أنّ شرح حبقوق يتضمّن التنبؤ بالدين المسيحيّ، وأنّ الإنجيل ما هو إلّا ختام لما قد أُوحي به في السابق»(273)، دعت فرانك كروس من جامعة مكورمك

اللاهوتيّة إلى مخالفة صومر، فقد رأى أنّ إشارته مبالغة في تأثير الأسّينيين في العقيدة المسيحيّة. ثمّ أورد العابدي في صفحات أخرى تأكيدات تفيد بأنّ يسوع لم يكن أسّينيّاً، مشدّداً على أنّ ذلك يندرج تحت باب المزاعم غير المقبولة، ويشير إلى أنّ الكثيرين من العلماء سارعوا إلى القول «إنّ تفسير صومر لشرح حبقوق وتقديم أوجه تماثل وتقارب مع الدين المسيحيّ وطقوسه يتجاوز ما أثبتته الدلائل والقرائن»(274).

ورأى البعض أنّ معلّم الحق الذي ورد ذكره في المخطوطات ليس سوى يسوع، وهذا لا يقارب الحقيقة بشيء، حتّى ولو ظهر بعض التشابه في التوجّهات الفكريّة، لأنّ معلّم الحق، وليس من الثابت أنّه شخصيّة تاريخيّة، كان يركّز على بني إسرائيل. ولكي نكون أدقّ تعبيراً نقول ذلك عن كتبة المخطوطات، الذين اخترعوا معلّم الحق، فكان أقرب إلى موسى والأنبياء والشيوخ من قربه إلى يسوع، الذي شدّد على رسله أن ينطلقوا لنقل تعاليمه إلى كلّ الأمم، ولا يُبقوها محصورة في البيئة التي وُلد فيها. معلّم الحق يهوديّ يؤمن بإله بني إسرائيل الخاصّ، ويسوع معلّم يؤمن بالإنسانيّة. معلّم الحق يؤمن بالإله القبلي يهوه، الذي لم نقرأ له وصيّة واحدة مفعمة بالمحبّة إلّا ما يتعلّق منها بشعبه، ويسوع ارتكزت تعاليمه على المحبّة. معلّم الحق كرّر المقولات التوراتيّة عن تميّز بني إسرائيل من البشر، ومن تعاليم يهوه التي تركّز على القتل والنهب والتدمير والزنى، ويسوع جاء يحمل السلام والتسامح والغفران والتضحية لخلاص الجميع. الفرق واضح وكبير، ولست أدري لماذا يتجاهله المؤمنون عامّة حتّى اليوم؟

ويشير العابدي أيضاً إلى فارق مهم بين مضمون المخطوطات والأناجيل فيقول: «ولا بدّ من ملاحظة فارق آخر أيضاً، فإنّ مخطوطات البحر الميت، ووثيقة دمشق تحديداً، تتضمّن المفهوم بأنّ الإيمان بمعلّم الخير (أو الحق) والعمل بالناموس يؤلّفان معاً طريق الخلاص. أما بولس، فيقول إنّ طريق الخلاص هو الإيمان وحده». وتأكيداً لذلك، فقد أورد الأب الدكتور يوسف يمّين في الفصل الرابع من كتابه (المسيح وُلد في لبنان لا في اليهوديّة) قول بولس الرسول: «لقد ألغى المسيح شريعة الوصايا وما فيها من أحكام ليخلق في شخصه إنساناً جديداً»(275) أفسس 2: 15، مشيراً (أي الأب يمّين) إلى أنّ يسوع المسيح ليس يهوديّاً، بل هو كنعانيّ، والأب يمّين يرى أنّ جماعة الأسّينيين يعود تاريخها إلى عهود قديمة، لا كما يرى الدارسون أنّها تعود إلى قرون قليلة قبل الميلاد، وهو يشير إلى أنْ لا علاقة لها باليهوديّة، ويقول إنّ: «جبل الكرمل (الجبل المقدّس)، كان الموئل الأوّل الذي حضن أوّل مركز للجماعة الأسّينيّة في شكلها القديم»(276)، فهو يربط هذه الجماعة بجماعة سبقتها متفرّعة هي أيضاً من جماعة (الأخوّة الكبيرة البيضاء)، وفي جبل الكرمل «أخذت هذه الجمعيّة الروحيّة السريّة القديمة اسم الجماعة الأسّينيّة،

وأنّ المتتبّعين للتّاريخ الدينيّ في الشرق يعرفون تمام المعرفة أنّ الجماعة الأسّينيّة عريقة جداً في التّاريخ (إلى ما قبل موسى واليهوديّة). وللأب يمّين دراسة وافية عن هذه الجماعة، وهو يتساءل، في فصل خاصّ من كتابه (المسيح وُلد في لبنان لا في اليهوديّة) عن السرّ الذي يكمن وراء عدم تحدّث الأناجيل عن الأسّينيين، ما يدفع إلى التساؤل عن أسباب ربط يسوع بالأسّينيين.

والسبب في رأيي يعود إلى أنّ كتبة الأسّينيين، كما أشرت سابقاً، كانوا متأثّرين بتعاليم يسوع والعكس ليس صحيحاً. أمّا في دراسة الأب يمّين، الذي يرى فيها أنّ الأسّينيين يعودون إلى الألف الثاني قبل المسيح، فهو يشير فيها إلى ارتباط هذه الجماعة بهرمس الأوّل الكبير، المثلث العظمة، الذي «ورد في التاريخ القديم بألقاب متعدّدة منها: تور الكنعانيين، وهرمس اليونان، ومركور الرومان، وأواتّس الميزوبوتاميا (بلاد ما بين النهرين) وإدريس المسلمين، وهرمس الهرامسة عند مدارس الحكمة الشرقيّة القديمة، وأخنوخ التوراة... ونحن نؤكّد بناءً على مراجع ووثائق متعددة ومتنوّعة، وبناءً على مخطوطات سريانيّة قديمة العهد بين أيدينا، أنّ أخنوخ هذا، هرمس الكبير، كان كنعانيّاً عظيماً مقيماً في جبل لبنان بالذات»(277). وبعد هذه المعلومات يشرح الأب يمّين عن سبب عدم المجيء على ذكر الأسّينيين في الأناجيل، حيث يذكر أربعة أسباب أهمّها في رأيي يكمن في أنّ «واضعي كتب العهد الجديد، وغالبيّتهم من أصل يهوديّ، وبفعل الضغط اليهوديّ، قصَروا اهتمامهم على ربط تاريخ المسيحيّة بتاريخ اليهود». لذلك حاول هؤلاء الكتبة «أن يقطعوا كلّ علاقة تربط المسيح والمسيحيّة بكلّ ما هو غير يهودي»(278)، وخاصّة مع الثقافة الكنعانيّة، التي كان لها فضل السبق في نشر مفهوم التوحيد، بألفيتين من السنوات على أقل تعديل من المسيحيّة، بما أنّني لا أعدّ اليهوديّة ديانة توحيديّة بل تفريديّة كما مرّ معنا.

وكلام الأب يمّين يتناقض مع ما جاء في معجم اللاهوت الكتابيّ، المعرّب عن الأصل الفرنسي بعنوان: Vocabulaire de Théologie biblique، الذي رأى واضعه أنّ العهدين القديم والجديد يتساويان انطلاقاً ممّا ورد في رسالة بولس إلى العبرانيين، أي قوله: «الله بعدما كلّم الآباء بالأنبياء قديماً بأنواع وطرق كثيرة، كلّمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه الذي جعله وارثاً لكلّ شيء»(279). وإذا كان يحقّ لأيّ كان أن يؤوّل الكلام، فمن حقّي أيضاً أن أفهم منه، أنّ بولس أشار إلى كلام يهوه مع الآباء والأنبياء لأنّه كان يكلّم اليهود، تماماً كما فعل معهم الرسول الكريم محمد، ولم يقل إنّ ما جاء على لسانهم كان صحيحاً، بل أشار إلى أنّ اللّه أيضاً كلّم يسوع وأعطاه التعاليم الجديدة المحيية، التي معها لم يعد البشر بحاجة إلى التعاليم القديمة. وبهذا المعنى نفهم الجملة التي أوردها متّى في إنجيله من أنّ يسوع قال: «ما جئت

لأنقض بل لأكمل»، والتي أفهم منها أنّ مهمّة يسوع لم تكن الاهتمام بما قاله الأوّلون، بل كانت التركيز على تعاليمه هو، التي شبّهها بالخمرة الجديدة، وقال إنّ مزج هذه الخمرة بالخمرة العتيقة (أي الشريعة الموسويّة) يُفسد الأولى. لذلك كانت مهمّته ترك الشرائع القديمة، وإكمال بناء الشريعة الإنسانيّة الحقيقيّة التي تطاول كلّ الناس من دون أن تميّز بينهم.

ولمزيد من تأكيد رأيّنا، نتطرّق إلى رأي الكثير من الدارسين، الذين نتشارك معهم هذه القناعة.

يقول خزعل الماجدي: «وقد اقترحت الغنوصيّة المسيحيّة التي كانت هي مؤسّسة الدين المسيحيّ (لا فرقة هرطوقيّة كافرة كما يصفها آباء الكنيسة) اقترحت أنّ اللّه السامي المتعالي (الربّ) أرسل (الابن) الذي هو (المسيح) الذي لا علاقة له مطلقاً بـــ(ماشيح) اليهود، أرسله ليخلّص نفوس الناس من سجنها الجسديّ ويعود بها إلى الربّ، لأنّها جزء منه»(280).

أمّا لطيف شاكر، وفي دراسة له منشورة على موقع غوغل عن مخطوطات قمران، فيقول: «إنّ مبادئ هذه الجماعة قد مهّدت للمسيحيّة، أو هي على أقلّ تقدير قد قرّبت إلى الأذهان احتمال مجيء المسيح بصورة معلّم للصلاح، مضطّهداً من الأشرار وغير مقبول من بعض الكهنة المنافقين. وجعلتنا نفهم بلا شكّ حقيقة الجوّ الذي ظهرت فيه المسيحيّة إبّان فجرها وفي عهدها التكوينيّ وفي زمان انطلاقتها الأولى. على أنّ المظاهر الضخمة التي أحاطت بهذه الكشوف الأثريّة لم تستطع، بالرغم من مئات البرديّات والرقوق والمؤلّفات، أن تزيد على حقائق الإنجيل واحدة».

وهذا الكلام برأيي يجمع الحقيقة وضدّها، إذ كيف تكون مبادئ الجماعة قد مهّدت للمسيحيّة، وفي الوقت نفسه لم تستطع أن تزيد على حقائق الإنجيل حقيقة واحدة؟ فمعلّم الحق، الذي تحدّثت عنه الجماعة، لا يمتّ إلى يسوع بأيّ صلة، لأنّه، كما مرّ معنا، كان محصوراً في بني إسرائيل فقط، أو حتّى بفئة قليلة منهم اختلفت بقناعتها مع الآخرين. ويسوع جاء معلّماً للبشر جميعاً ومن دون تمييز أو تفرقة، كما أكّدنا أنّ تعاليم يسوع مناقضة كليّاً للشريعة الموسويّة، فكيف تكون مبادئ هذه الجماعة قد مهّدت للمسيحيّة، التي هي نقيض لها؟ إلّا إن أردنا التأويل أيضاً فرأينا أنّ مفاهيم الجماعة السيّئة كانت نذيراً للبشارة الجديدة، التي أتت ثورة اجتماعيّة، قبل أن تكون دينيّة، على الشريعة الموسويّة البالية، التي شبّهها يسوع بالثوب الباليّ الممزّق، الذي لم يعد ينفع معه فعل الترقيع. فالمناخ السلبي الذي أشاعته اليهوديّة بممارساتها الطقوسيّة الغريبة، كانت المحفّز الإيجابيّ لولادة تعاليم يسوع الإنسانيّة الراقية.

وإذا وافقنا الدارسين في رأيهم بأنّ الأسّينيّة هيّأت المناخ الثقافيّ العامّ لولادة المسيحيّة، ومغالاتهم في القول إنّ يسوع كان أسّينيّاً، وصولاً إلى قول البعض إنّه هو معلّم الحق الذي تكلّم عنه كتبة الأسّينيين، فإنّ هذه الاستنتاجات تجعلنا نتساءل عن ذكر قول واحد ليسوع يتماهى كلّياً مع أقوال الأسّينيين، أو حتّى مع ما جاء في العهد القديم، حيث يرى البعض أيضاً أنّ رؤى بعض الأنبياء بشّرت بمجيئه. وإذا ما أخذنا مثالاً على قناعة معظم المسيحيين، وخاصّة الإنجيليّين منهم، بما جاء في العهد القديم ومثله في المخطوطات، عن وعد «اللّه» لبني إسرائيل بإعطائهم، ليس فقط أرض فلسطين، بل كامل أرض الهلال الخصيب أيضاً، لأخذنا العجب، لأنّ شيئاً من ذلك لم يرد على لسان يسوع أو ألسنة تلاميذه. يقول كولن تشابمن: «قدّم اليهود وسواهم حججاً تاريخيّة وسياسيّة ونفسيّة مقنعة لتبرير تأسيس دولة يهوديّة في الأرض (أرض فلسطين) في القرن العشرين. ولكن، على أساس نظرة العهد الجديد إلى العلاقة بين اليهود والأمم كما نعرضها هنا، يصعب أن نرى كيف يستطيع المسيحيون أن يقدّموا حججاً لاهوتيّة مقنعة مبنيّة على الكتاب المقدّس على أنّ وجود دولة يهوديّة في الأرض أمر مناسب وضروري»(281).

وهذا تساؤل منطقي وضروري، وخاصّة مع استمرار الهجمة اليهوديّة على بلادنا، ودائماً باسم اللّه والقداسة، من دون أن يكون للمسيحيّ أيّ مستند لاهوتيّ من الأناجيل. نحن نفهم أن يعتمد اليهود الصهاينة على مضمون توراتهم في سعيهم وتبريرهم، ليس فقط لقيام دولة إسرائيل الحديثة، بل أيضاً في سعيهم الدائم لقضم المزيد من الأراضي تنفيذاً لحدود إسرائيل التوراتيّة. ولكن ما لا يمكن أن نفهمه هو دفاع المسيحيّين، وفي هذه الأيام المسلمين العرب، عن هذا الحق الإلهيّ، من دون الاعتماد على نصّ دينيّ واضح من الأناجيل أو القرآن. ويقول تشابمن أيضاً: «قضى يسوع رسالته كلّها وهو يعيد تحديد معنى الملكوت. رفض أن يتخلّى عن رمزيّة لغة الملكوت، ولكنّه ملأها بمضمون جديد - حتّى أنّه هدم بقوّة التوقعات اليهوديّة»(282).

وهو يشير هنا إلى «الملكوت الذي يعد به مزمور 37: 11 الفقراء» وهو ليس سوى «فلسطين المكمّلة بالمجد المسياني». ويُكمل تشابمن قائلاً: «واضح أنّ كاتب المزامير كان يفكّر في أرض فلسطين، «الأرض التي أعطاكم إيّاها الربّ ميراثاً»، إلّا أنّ الأرض تأخذ على لسان يسوع معنى جديداً: إنّ الذين سوف يرثون الأرض ويملكونها ويقيمون فيها بأمان إلى الأبد هم الفقراء بالروح، من كلّ أمّة، المتفجّعون والمتواضعون»(283). وحتّى ولو انطلقنا من تفسير تشابمن اللاهوتيّ، لا نجد أنّ هذا المفهوم قد تحقّق إلّا بالمعنى الروحانيّ، حيث إن المؤمنين الحقيقيّين وحدهم يشعرون بأنّهم يعيشون فوق هذه الأرض بالاستناد إلى تعاليم يسوع، الذي لا يرى أنّ مملكته من هذا العالم، وبالتالي، فإنّ التمسّك اللاهوتيّ بالأرض كمادة ليس له أيّ مسوّغ.

والفقراء بالروح هم المتواضعون الذين يعيشون فعلاً ويمارسون أسس العقيدة المسيحيّة، أي المحبّة والتسامح والغفران، وهذه المثل غير متوافرة في قاموس الشريعة الموسويّة.

اعتمد بعض الدارسين ورجال الدين على ما جاء في سفر زكريا التوراتيّ كمستند أساسّي للدلالة على أنّ زكريا تنبأ بمجيء يسوع. يقول كاتب السفر: «ابتهجي جدّاً يا ابنة صهيون، اهتفي يا بنت أورشليم. هوذا ملكك يأتي إليك، هو عادل ومنصور وديع راكب على حمار وعلى جحش ابن اتان. ويتكلّم بالسلام للأمم وسلطانه من البحر إلى البحر ومن النهر إلى أقاصي الأرض» زكريا 9: 9-10.

تُقتطع هذه الجمل من كامل السفر، وتخرج عن إطارها العام لجعلها تتوافق مع جملة ذكرها متّى في إنجيله لم يقلها يسوع، بل هو من ربطها بما جاء في سفر زكريا.

كلام يسوع كان لتلميذيه أن يذهبا «إلى القرية أمامكما فللوقت تجدان أتاناً مربوطة وجحشاً فحلّاهما وائتياني بهما. وإن قال لكما أحد شيئاً فقولا الربّ محتاج إليهما» متى: 21: 2-3. فزكريا، وقبل تلفّظه بهاتين الجملتين اللتين أتتا ضمن وحي «كلمة الرب» في أرض حوارخ ودمشق محلّه، كان ينفث كلّ حقده على حماة، وصور وصيدون، وأشقلون وغزة وعقرون وأشدود؛ وركّز كالعادة على إله بني إسرائيل. ثم ينتقل في الإصحاح الحادي عشر ليقول: «افتح أبوابك يا لبنان فتأكل النار أرزك...»، ثمّ يُكمل نبوءته بشأن أورشليم، حيث تجتمع عليها كلّ الأمم «للمحاربة فتؤخذ المدينة وتُنهب البيوت وتُفضح النساء... فيخرج الربّ ويحارب تلك الأمم... وهذه تكون الضربة التي يضرب بها الربّ كلّ الشعوب الذين تجنّدوا على أورشليم» زكريا 11: 1 و 14: 2-12.

غريب أمر هذا «الربّ» الذي يجمع كلّ الأمم لمحاربة أورشليم، ثم يتولّى هو محاربة كلّ الشعوب التي هاجمتها. فهذه التنبؤات الخياليّة، التي إن صح منها شيء فإنّما لأنّ كتابتها جرت بعد وقوع الأحداث التي روتها. فكاتبها صاغها على أنّها تنبّؤات، لكنّ تاريخ كتابتها غير مدوّن ولا اسم كاتبها، ما يصعّب على الدارسين تحديد تاريخها. وهذا ما يجعلنا ننسب تاريخ كتابتها إلى ما بعد وقوع الأحداث لا قبلها. وما يجعلنا نستبعد إمكانيّة صدور هذا الكلام عن يسوع هو قوله: «ولئن قال لكما أحد شيئاً فقولا الربّ محتاج إليهما»، لأنّ يسوع لم يقل عن نفسه قط إنّه الربّ، بل كان يقول إنّه معلّم، وإنّ اللّه أبوه، كما هو أب لكلّ الناس، وهذا تعبير كنعانيّ صريح، حتّى أنّ تعبير ابن الإنسان يردّه بعضهم إلى الأساطير الكنعانيّة، وبعضهم الآخر إلى التراث المصري القديم.

ففي الهامش رقم 27، من الصفحة 380 من كتاب الجبتانا: أسفار التكوين المصريّة يقول المحقّق علي علي الألفي ما يأتي: «(يفرح ابن الإنسان) توهمت وأنا أراجع كرّاسات الراهب أبيب، أنّه تعبير تأثّر فيه بمسيحيّته، ولكنّ برديّة جو لنتشيف (متحف لينينغراد) تستخدم تعبير «ابن الإنسان»، وبالتالي فإنّه تعبير مصري استعارته الساميّات».

وكثيرون اليوم هم الدارسون الذين يعيدون الكثير من التعابير والأمثال والحكم الواردة في متن العهد القديم والعهد الجديد إلى الحضارات القديمة، وخاصّة البابليّة منها والكنعانيّة والفرعونيّة المصريّة.

وهذا برأينا يندرج في سلسلة التحريفات التي لحقت بالعهد القديم والعهد الجديد على السواء، ليتوافق المضمون مع مقولات اليهود عن المسيح المنتظر. وهذا المسيح لا يمكن أن يكون يسوع، وقد فنّدنا ذلك سابقاً، بل إنّ اليهود لا يزالون بانتظاره حتّى الساعة. وعن التحريف الذي أحدثه اليهود في الأناجيل يقول سهيل التغلبي: «كما وسُمح لليهود بأن يغيّروا في كتب الكاثوليك والبروتستانت الدينيّة، فراحوا يفاخرون بأنّهم استطاعوا حمل الكنائس البروتستانتيّة على إزالة جميع الكتابات الخاصّة بصلب السيّد المسيح، وأنّهم في طريقهم إلى الاتفاق التام مع زعماء الكنيسة الكاثوليكيّة في هذا الشأن»(284).

ويذكر التغلبي أيضاً بعض الخطوات العمليّة التي قام بها أعضاء في مجلس الشيوخ الأميركي مع بعض رجال الدين الإنجيليين، ومنها تأسيس منظمة المجلس المسيحي لفلسطين سنة 1942، التي سعت إلى تعليم «الناس أنّ أفضل عمل يقوم به المسيحيّ تقرّباً إلى الله، هو المساهمة الماديّة والمعنويّة في تحقيق إرادة اللّه بإعادة اليهود إلى فلسطين تمهيداً لعودة المسيح»(285).

وكاتب سفر زكريا كان واضحاً بأنّه مقتنع بأنّ يهوه هو إله بني إسرائيل، وبأنّ هذا الإله سينصر دائماً شعبه ويخلّصه.

يقول في الإصحاح الثامن: «هكذا قال «ربّ الجنود» هأنذا أخلّص شعبي من أرض المشرق ومن أرض مغرب الشمس. وآتي بهم فيسكنون في وسط أورشليم ويكونون لي شعباً وأنا أكون لهم إلهاً بالحقّ والبرّ... هكذا عدت وفكرّت في هذه الأيام في أن أحسن إلى أورشليم وبيت يهوذا. لا تخافوا. ولا يفكّرنّ أحد في السوء على قريبه في قلوبكم» زكريا: 8: 7، 8، 15، 17. فلا أعتقد بعدُ أنّنا بحاجة إلى إثبات أنّ كلّ ما جاء في العهد القديم لا يُلزم إلّا اليهود، وليس له أيّ علاقة بأتباع أيّ ديانة أخرى. إنّه كلام صريح وواضح لا يقبل التأويل، وهو بالتالي يحتّم علينا، وبالاستناد إليه، أن نناشد المؤمنين،

مسيحيين ومحمديين، ألّا يقعوا في فخ اليهوديّة الصهيونيّة والمسيحيّة الصهيونيّة والمحمديّة الصهيونيّة، وعليهم جميعاً التعاون، قبل فوات الأوان، لفضح هذه المؤامرة التي كان لها تأثير سيئ، ليس فقط في فلسطين، بل في قناعات المؤمنين الروحيّة اللاهوتيّة أيضاً التي لا تتوافق مع تعاليم أديانهم.

وننتقل إلى الاطّلاع على بعض ما أورده الدارسون الغربيون من قناعات بشأن الصلة الوطيدة بين الأسّينيين ويسوع.

يعرض كينيث هانسون آراء بعض الدارسين في الصلة الواضحة بين الأسّينيين ويسوع، لكنّه يقول: «يجب أن نتذكّر أنّنا لا نملك أيّ دليل، على أنّ يسوع خلال سني حياته التبشيريّة، كانت له أيّ علاقة بالملّة الأسّينيّة»(286). ولا ينفي هانسن احتمال أن يكون يسوع في مطلع شبابه على اطّلاع على تعاليم هذه الملّة. وفي مقدّمة كتاب لورانس شيفمن عن المخطوطات، يقول: هذا الكتاب يتقصّد تصحيح الاعتقاد السائد، منذ خمس وأربعين سنة، بأنّ مضمون المخطوطات يمهّد لفهمنا للمسيحيّة الأولى، وهو العمل الأوّل الذي يفسّر إمكانيّة فهم تاريخ اليهوديّة على ضوء مضمون المخطوطات... وهذه المخطوطات ليست الوثائق للملّة المسيحيّة الأولى، وهي لم تأتِ على ذكر يسوع أو يوحنا المعمدان، وبالتالي هي لا تمثّل أيّ معتقدات مسيحيّة»(287).

كلّ هذه الملاحظات تنفي بعض الآراء التي حاولت، كما قلت، الربط بين تعاليم جماعة الأسّينيين الواردة في مخطوطات قمران والمسيحيّة، وحيث يرى البعض «أنّ المسيحيّة ابتدأت كملّة يهوديّة»(288). ويردّ الراهب القسّ يسطس الأورشليمي، في مقالة له على موقع غوغل، على الذين يدّعون أنّ يوحنا المعمدان أيضاً كان أسّينيًّا وهو يعدّد أسباباً متعددة لدحض هذا الاستنتاج منها: الاختلاف في الطقوس والملابس والطعام والتعميد بالماء. ويقول في مطلع المقالة: «خرجت بعض الأبحاث تقول إنّ يوحنا المعمدان كان ينتمي إلى نسّاك قمران. إذا كان يوحنا من نسّاك قمران، فلماذا لا يوجد عنه شيء في تلك المخطوطات، التي ظهرت في وادي قمران حيث لا يوجد شيء عن حياته أو كرازته أو موته على يد هيرودس الملك».

ويخبط معرّب كتاب (التوراة: كتابات ما بين العهدين) خبط عشواء، فهو أحياناً يقرّ بأنّ «الأسّينيّة والمسيحيّة كانتا قريبتين في الزمان والمكان إلى حد التطابق تقريباً، الأمر الذي يدعم فكرة الصلة بينهما»(289)، مستنداً بذلك إلى ما كتبه الكاردينال دانييلو عن هذه المسألة، حيث يعود هذا الأخير إلى الإشارة إلى ضرورة الموضوعيّة التي تقودنا إلى «أن نحذر من أمرين: أن نجبر التشابهات ونقحمها حيث لا توجد أصلاً، وبالتالي لا نرى ما يميّز كُلاً من الملّتين عن الأخرى، وأن نرفض بعض التشابهات، وبالتالي نحذف الإيضاح الذي يمكن أن يساعدنا على فهم الظاهرة المسيحيّة وتاريخها»(290). ومن ناحية أخرى

يشير إلى عدم وجود أيّ تقارب بين شخصيتي معلّم الحق والمسيح، فيقول: «فمن الممكن أن يكون معلّم الحقّ قد صُلب فعلاً، لكنّ ذاك لا يعني شيئاً بالنسبة إلى مقاربته مع المسيح»(291).

وهو يشير إلى قرب يوحنا المعمدان من الأسّينيين ومن المسيح في آن. لذلك يفترض أنّ المسيح قد «سمع بهم على الأقلّ، إذا لم يكن واحداً منهم».

وبعد صفحات متعدّدة يعود المعرّب موسى ديب الخوري إلى الارتباك مجدداً فيقول: وكان التعليم الوحيد الذي وجدت فيه الملّة فرصتها هو انتظار المسيا، المعنى الباطني الذي يمكن أن يتجسّد خلاصاً وتحرّراً»(292). وإنّني لأتعجّب من الدارسين ومن المعرّب موسى ديب الخوري كيف أنّهم لم ينتبهوا أنّ كلّ تركيز كتبة المخطوطات الأسّينية كان على خلاص بني إسرائيل على يد إلههم يهوه، حيث يكون هذا الخلاص بتوجيه من معلّم الحقّ لاتّباع تعاليم الجماعة، فوحدها الكفيلة بتحقيق هذا الخلاص. فهل هذا حقّاً ما أتى المسيح لقوله للناس؟ يقول المعرّب: «يقودنا ذلك إلى إشكاليّة صلة المسيح بالأسّينيّة، وقد تحدّثنا عن ذلك. كان المسيح آتياً من الجليل، من حيث لا يمكن أن يأتي شيء صالح كما اعتقد الفريسيون (اعتقاد منطقي!!!). وقد وجدناه يعمّد في نهر الأردن، قرب الأسّينيين، عند يوحنا المعمدان، بعد صيام في البريّة وتغلّب على قوى هذا العالم. فلعلّ المسيح التقى الأسّينيين، واطّلع على تعاليمهم، بل لعلّه كان منهم، لكنّ موقفه النهائيّ رفض هذا الشكل من البحث عن الحقيقة، وبشّر بحقيقة أبويّة خالصة من المحبّة والتسامح والتضحية. وذلكم هو الدرب الذي لم يستطع اليهود سلوكه، والذي وقف عنده الأسّينيون من دون الانطلاق فيه برغم كلّ ما مارسوه من عبادة وتقشّف. وذلك أنّهم استعاضوا عن الجهاد بالطقس، وعن البحث الحر بالانتظار القلِق»(293).

خلاصة الحديث تقودنا إلى ضرورة النظر إلى مضمون المخطوطات لا إلى طقوس الملّة التي كتبتها، وإلى مضمون تعاليم يسوع، بغضّ النظر عمن قابل ومن التقى ومن حادث. فالقسم الثاني من المقطع الذي كتبه المعرّب الخوري عن الحقيقة التي بشّر بها المسيح، وعن المُثل التي دعا إلى العمل بموجبها هي وحدها تبقى جوهر الموضوع. فماذا يقدّم أو يؤخّر إن كان يسوع من نسل داود أو من نسل أخناتون؟ وماذا يؤثّر إن كان قد عرَف الأسّينيين أو كان واحداً منهم، أو أنّه لم يعرفهم على الإطلاق أو سمع بهم؟ فلبّ المسألة يكمن في رسالة يسوع، التي نقضت كلّ الشريعة الموسويّة التي استندت إليها المخطوطات، بدءاً من الوصايا العشر المخصّصة لبني إسرائيل فقط، والمقتبسة من شريعة حمورابي، إلى رفض التحجّر الطقوسي بشأن السبت والختان، والموقف من الزانية، والموقف من النجاسة والتدنيس. فهو لم يترك حجراً على حجر في صرح هيكل اليهوديّة، لأنّ الهيكل بالنسبة إليه لم

يكن شأناً ماديّاً، بل كان شأناً روحياً. من هنا يمكننا ربط ما قاله عن بناء الهيكل بعد هدمه بثلاثة أيام، ولم يكن يعني أحجار الهيكل، بل الجسد هيكل الروح. وهكذا حدث بقوله إنّ مملكته ليست من هذا العالم، وبذلك يكون قد دقّ المسمار الأخير في نعش الاعتقاد اليهوديّ بأنّه المسيح الملك المخلّص.

يقول خزعل الماجدي إنّ فالانتينوس، الفيلسوف الغنوصي المسيحي، قد أرجع «ثنائيّة الخير والشر أو الروح والجسد عند الإنسان إلى ثنائيّة إلهيّة، حيث يرى أنّ هناك إلهين في الأعالي: الأوّل الذي هو الأعلى والأرفع هو الإله الخيّر الطيب الذي أنزل الروح في الإنسان وهو سبب الخير، والثاني هو الإله الأسفل، وهو الإله الصانع المحاط بالملائكة، وهو، بنظره، إله التوراة أي (يهوه) وهو إله الشرّ والمادة الذي صنع جسد الإنسان»(294). وأكّد الماجدي أنّ هذا الفيلسوف اللاهوتي أثبت أنّ المسيح الفادي ليس هو بحال من الأحوال المسيح اليهودي الذي تنبأ به الأنبياء.

وأختم هذا الفصل بتأكيد التأثّر الأسّيني بالمسيحيّة لا العكس، حتّى لو كانت الأسّينيّة كمِلّة قد بدأت بكتابة تعاليمها قبل رسالة يسوع. فكون الجماعة الأسّينيّة كانت تعيش في قمران منتظرة الخلاص في آخر الأزمنة، وما دام يسوع بدأ بتبشيره والجماعة بعدُ مستمرّة في كتابة تعاليمها على نطاق ضيّق على مسامع المريدين الذين كانوا يخضعون للمراقبة والمساءلة ونشرها على مدى سنوات، قبل قبولهم بين الجماعة، كان من الطبيعي أن تُسرّب إلى آذان الكتبة أقوال يسوع وتعاليمه، فتأثّروا بها ظاهريّاً، أي لجهة تركيزها على قيم المحبّة والتسامح والغفران والخلاص. لكنّهم لم يستطيعوا الارتقاء معها إلى المستوى الإنسانيّ العام الذي أراده يسوع، فأبقوها محصورة في بيئتهم الضيّقة لكي يتعاملوا بها معاً، كما أشار عليهم يهوه في وصاياه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الخاتمة

بعد هذه الجولة على أهمّ ما جاء في هذه اللفائف، لا بدّ من التذكير بملاحظات متعدّدة سقناها خلال الدراسة، لكي ترسخ في ذهن القارئ. أولى هذه الملاحظات تدور حول مسألة التشابه لدرجة التطابق بين أساطير العهد القديم وقصصه ومثيلاتها في اللفائف. التركيز ينصبّ دائماً على إله بني إسرائيل وشعبه الخاص. وهذه الحصريّة تنفي عن اليهود التوحيد، لا بل يتّضح لنا مدى إشراكهم وعنصريّتهم التي لا تقبل الآخر. والملاحظة الثانية تدور حول كثرة التنبؤات والأنبياء، وهي ظاهرة فريدة في التاريخ البشري. والفرادة فيها ليست النبوّة بحد ذاتها، بل العدد الهائل من الأنبياء. وهذه الظاهرة، مثلها مثل ظاهرة الكهانة والعرافة، أخذها بنو إسرائيل كعادتهم عن الشعوب التي سبقتهم بأشواط على طريق الحضارة، والتي حضنتهم وسمحت لهم بالترقّي من بربريّتهم من خلال تعلّمهم واستفادتهم من معارفها العلميّة والأدبيّة. والملاحظة الثالثة هي استناد هذه الكتابات إلى الخيال والأحلام، وابتعادها عن الاستناد إلى الحقائق التاريخيّة. والملاحظة الرابعة تكمن في عدم تمكّن الدارسين من إثبات وجود معظم الشخصيّات التوراتيّة التي زاد كتبة المخطوطات على أخبارها قصصاً غير واردة في العهد القديم. وهذا ما حدا بعض الدارسين إلى بدء التساؤل عن معيار الأقدميّة: هل هو للعهد القديم أم للفائف البحر الميت، وخاصّة أنّ كلّ الكتب المتعلّقة بالديانة اليهوديّة تفتقر إلى التأريخ وذكر اسم الكاتب؟ وعلى سبيل المثال ينقل الدكتور عصام سخنيني معلومة عن The Stanford Encyclopedia of Philosophy تقول الآتي: «ربما يكون الفيلسوف الصوريّ (نسبة إلى مدينة صور في الجنوب اللبناني) بورفيري أو بورفيريوس الذي عاش بين 234م و306م، هو أوّل من وجّه نقداً صارماً (إلى الكتاب) (أي التوراة)، برفضه تاريخيّة سفر دانيال، وهو أحد أنبياء (الكتاب) وقد عاش؟؟ في بابل ما بين القرنين السابع والسادس قبل الميلاد بحسب الكرونولوجيا (الكتابيّة)... فقد كان بورفيري يُنكر وجود شخص يحمل هذا الاسم يعود إلى القرن السادس أو الخامس قبل الميلاد»(295). ويتساءل الدكتور سخنيني في موضع آخر من كتابه عن أسبقيّة العهد القديم أم اللفائف، فيقول: «ويطرح هذا التناصّ (أي التشابه في النصوص) ما بين الكتاب ولفيفة قمران سؤالاً على درجة ما من الأهميّة: من أخذ ممّن، محرّر الحكاية الكتابيّة أم منشئ اللفيفة؟»(296). وطرح هذا السؤال جاء على خلفيّة ما جاء في المخطوطتين عن وصف يهوه للهيكل الذي طلب من سليمان أن يبنيه له ليسكن فيه بدلاً من الخيمة. وهذا التساؤل يستدعي تساؤلاً آخر، وهو: لماذا لم تأتِ أيّ وثيقة تاريخيّة قديمة، أمصريّة كانت أم بابليّة - أشوريّة - كنعانيّة أم آراميّة، على ذكر أيّ شخصيّة من شخصيّات التوراة على أهميّة بعضها؟ فإبراهيم أبو الأنبياء لا ذكر له. وقد كتب

أحد البحّاثة في مجلّة ناشيونال جيوغرافيك أنّه حاول اقتفاء أثر إبراهيم من أور الكلدانيين إلى كنعان فمصر، ولم يتمكّن من الوقوف على أثر واحد يعود إليه، في الوقت الذي تكثر آثار من يُفترض أنّه عاصرهم كحمورابي والفرعون المصري، الذي لم يذكر الكاتب اسمه، كذلك الأمر بالنسبة إلى يوسف الذي توصّل، بحسب العهد القديم، إلى أن يصبح وزير الفرعون الأوّل؛ فكيف تذكر التوراة اسم يوسف وتتجاهل اسم الفرعون، وصولاً إلى سليمان الذي تزوّج ابنة الفرعون (من دون اسم) مروراً بموسى الذي أخرج بني إسرائيل من مصر بعدما أنزل بفرعون (من دون اسم) الويلات، ثمّ أغرقه مع جيشه في البحر الأحمر؟ والمذهل أنّ العهد القديم ذكر أسماء ملوك بني إسرائيل وأنبياءهم وأغفل ذكر ملوك الشعوب الأخرى. أمّا تاريخ هذه الشعوب المدوّن بالتفصيل، فقد دوّن اسم ملوك هذه الشعوب وأغفل اسم ملوك إسرائيل وأخبارهم، ما يؤكّد عدم تاريخيّتهم، وأنّ قصصهم المثبتة في العهد القديم ليست سوى تاريخ مُختلق.

إذن أين تكمن قيمة هذه اللفائف - المخطوطات؟ يقول محمود العابدي: «بعد اكتشاف الكهف الأوّل لم يحدث اتفاق بشأن السبب في وضعها (اللفائف) في المغاور مدّة من الزمن. فقد قال سكنيك (أستاذ الآثار في الجامعة العبريّة في ذلك الحين، أي في خمسينات القرن الماضي) منذ البداية إنّ وضع المخطوطات في الجرار لم يكن لقيمتها بل لعدم صلاحيتها للاستعمال. فمخطوط إشعيا للمطران (نسبة إلى المطران الذي وصلت إلى يديه) على وجه التحديد، يختلف عمّا يتضمّنه السفر المعروف لدينا. وبناءً على هذا الرأي، كان يجب أن يُهجر. ولكن من جهة دينيّة، لا يجوز أن تُتلف مخطوطات كهذه، بل جرت العادة أن يطرحوها في مكان يسمى «جُنيزة» تُلحق بكل كنيس عبري، تطرح فيه المخطوطات، ومن وقت إلى آخر باحتفال جنائزي. وهكذا اعتقد سكنيك أنّ كهف قمران كان جُنيزة تجري فيها مثل هذه الاحتفالات، بوضع الكتب والأسفار غير المعترف بها، أو التي فيها تحريف»(297).

وبالاستناد إلى هذا الكلام، يُمكننا أن نقول إنّ الضجة التي رافقت اكتشاف هذه اللفائف كانت مفتعلة من اليهود، الذين درجوا على تضخيم أيّ حدث واستغلاله لمصلحتهم. فإذا كانت هذه المخطوطات لا تختلف بمضمونها عن النصوص التوراتيّة، فلماذا كلّ هذه الضجة التي أثيرت حولها؟ وقبل الجواب عن هذا السؤال، أودّ أن ألفت نظر القارئ إلى ما سقته في متن الكتاب من تكرار لبعض المسائل المهمّة، وقلت يجب علينا اتباع البروباغندا اليهوديّة التي تلجأ إلى التكرار، الذي من شأنه ترسيخ فكرة ما في عقول السامعين أو القرّاء. يذكر رمزي النجّار في كتابه وجهة نظر وسفر تعريفاً لكلمة بروباغندا نقلاً عن قاموس ويبستر، فيقول: «البروباغندا هي فعل نشر المعلومات والشائعات والدعوات التي من شأنها مساعدة سلطة أو حاكم على نشر

وحدانيّة أفكاره وتطبيق العقاب على من يعاكسها»(298). أليس هذا ما تفعله إسرائيل والأبواق الصهيونيّة، التي تغسل أدمغة الناس ببثّ سمومها صباح مساء بشأن مسألة ما، فتجد بعد فترة أنّها حديث الناس في مشارق الأرض ومغاربها؟ يتابع النجّار قائلاً: «تسخّر البروباغندا ما نصطلح على تسميّته «سيكولوجيا الجماعة»، والمقصود أنّها ترمي في بؤر الغرائز والعقد الإنسانيّة والنفسيّة، ومركّبات النقص وطموحات التفوّق والتسلّط، الكثير من السموم بقصد الإثارة وإشعال ما يهجع في اللاوعي البشريّ لكي ينام العقل وتستيقظ الغريزة»(299). إنّه توصيف رائع وواقعي للبروباغندا اليهوديّة، التي عرفت كيف تدرس طبائع الناس في كلّ أمّة، وتتوجّه إلى كلّ مجموعة بطريقة تناسب نفسيّتها ودرجة وعي أبنائها. من هنا نجدها اليوم، بواسطة إعلامها وأزلامها، تركّز على الإرهاب الإيرانيّ وعلى تدخّل إيران في شؤون الدول الأخرى، مسلّطة الضوء على مذهبيّة النظام الإيرانيّ الذي «يتناقض» مع مذهبيّة الأنظمة العربيّة، فأنست هذه الأنظمة عداءها لإسرائيل، حيث نقلت هذا العداء إلى الشيعيّة الإيرانيّة. وهذه الوضعية يصح فيها ما كتبه النجّار ملاحظاً: «أنّ البروباغندا، ومن دون تعميم، وأتباعها ينجحون غالباً حيث يفشل خصومهم، وذلك لأنّهم يكرّرون الأقوال نفسها والكذب نفسه والوعود نفسها، على مدى طويل من الزمن، فتترسّخ صورتهم «المثاليّة» في رؤوس البسطاء»(300).

وانطلاقاً من هذا التعريف العلميّ للبروباغندا نجد أنّها تنطبق بحذافيرها على إسرائيل والصهيونيّة، التي لا تترك تصريحاً لأحد، يُشتمّ منه ليس العداء لإسرائيل بل مجرّد الانتقاد لسياستها، إلّا وتهاجم صاحبه وتتهمه بمعاداة الساميّة، وتستنهض كلّ الوسائل الإعلاميّة المطيعة لها لمهاجمته وإسكاته.

أمّا في ما يخصّ المخطوطات، فقد أدّت البروباغندا دورها بإتقان، إذ صوّرت اكتشاف هذه المخطوطات في كهوف قمران بأنّه حدث تاريخيّ لا يعادله أيّ حدث آخر. وكان التأخير في نشر هذه المخطوطات والسماح بنشرها ودرسها جزءاً لا يتجزّأ من البروباغندا، لأنّ هذا التأخير، وكما ذكرت سابقاً، جعل الجميع يضغط للإسراع في نشرها، وبالتالي الانكباب على ترجمتها ونشرها ودراستها. وأكملت البروباغندا عملها عندما جيّشت الكثير من الدارسين للإشادة بمضمون هذه المخطوطات وفرضها على الناس كاستمرار للإبداع اليهوديّ اللاهوتيّ. وهذا ما دفعني إلى وضع هذه الدراسة، التي أظهرت خلالها مدى سخافة هذه الكتابات، سواء على الصعيد الدينيّ أو حتّى على الصعيد الأدبيّ، وأثبتت أنّها لا تختلف بشيء عن نصوص العهد القديم، وأنّ الزيادات التي وردت فيها وهي ليست موجودة في العهد القديم ليست سوى إضافات خياليّة ساهمت في إضفاء صفة الأسطوريّة عليها، هذه الصفة التي ميّزت كتابات العهد القديم باعتراف معظم الدارسين الموضوعيين.

يبقى أن أقول إنّ القيمة الوحيدة لهذه المخطوطات تكمن في أقدميّتها الزمنيّة فقط لا غير. فأن تصل إلى أيدينا مخطوطة مكتوبة باليد، وقد مضى عليها ما يزيد على ألفيتين، لهو بحدّ ذاته شأن مهمّ بغضّ النظر عن المضمون الذي لا يتوقّع أيّ دارس عقلانيّ وموضوعيّ أن يكون خارج سياق التفكير اليهوديّ لواقع مُتخيّل لا يمتّ إلى الحقيقة التاريخيّة بصلة. ولا بدّ من التذكير بأنّ آلاف الرُقم الطينيّة حفظها لنا باطن الأرض في بلاد ما بين النهرين، وبلاد الشام ومصر، كشفت زيف ما ورد في العهد القديم والمخطوطات على السواء، ولم تسلّط عليها الأضواء كما حدث مع العهد القديم أو اللفائف، وما ذلك إلّا لسببين: السبب الأوّل يكمن في عدم تغليفها بغلاف دينيّ إلهيّ مقدّس. والسبب الثاني هو أنّ الشعوب التي أنتجت هذا الإبداع وما زالت تعيش في هذه البيئة المميّزة هي من الرقي الحضاري بمكان يجعلها بعيدة عن الاستغلال الرخيص لإبداعات الأسلاف. فهذا المأزق الحضاريّ مسؤولة عنه الصهيونيّة العنصريّة المدمّرة من جهة، وانسياقنا الأعمى وراء ما يُسمّى المسلّمات الدينيّة التي تمنع مناقشتها. ومن هذا المنطلق أدعو المثقفين، أينما وُجدوا، إلى استشراف الخطر الناتج من الخوف من مقاربة الأفكار الدينيّة اللاهوتيّة، لأنّها من وضع الإنسان وإبداع عقله، الذي ما زال ينمو حتى اليوم، ومع هذا النمو تتطوّر نظرته إلى الأمور وتتّسع آفاق تفكيره، ما يؤدّي إلى تمسّكه بما يتناسب مع العقل وإسقاط كلّ ما يخالفه.

القلعة 20-5-2019

وجدي نجيب المصري

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

المراجع

أ. د. عصام سخنيني: تهافت التأريخ التوراتي - الأهلية للنشر والتوزيع - عمّان.

الأب الدكتور يوسف يميّن: المسيح وُلد في لبنان لا في اليهوديّة منشورات الجمعية الكونيّة، الطبعة الثانية 1999.

إبراهيم ناصر: التوراة بين الحقيقة والأسطورة والخيال، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، - الطبعة الأولى 2009.

ابن منظور: لسان العرب، دار صادر.

أحمد المشعل: الإمارات الآرامية في منطقة الفرات الأوسط، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام - الطبعة الأولى 2017.

أرنولد توينبي: تاريخ البشريّة، الأهلية للنشر والتوزيع، الطبعة الخامسة 2010.

أسامة العيسة: مخطوطات البحر الميت (قصّة الاكتشاف) - قدمس للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2003.

أسد الأشقر: الخطوط الكبرى في تاريخ سورية ونشوء العالم العربي. مؤسسة الفكر للأبحاث والنشر - الطبعة الأولى 1982.

أسعد زيدان: الناس والتاريخ، 2005.

أنطون سعادة: المحاضرات العشر، 1975.

أنطون سعادة: نشوء الأمم، الكتاب الأوّل، الطبعة الثانية، دمشق 1951.

أنطون شلحت: أسطورة التكوين: الثقافة الإسرائيليّة الملفّقة، رياض الريّس للكتب والنشر، - الطبعة الأولى 1991.

أنيس فريحة: ملاحم وأساطير من رأس شمرا، دار النهار للنشر 1980.

البروفسور سيّد حسن تقي زاده: الديانات الشرقيّة القديمة: الزرداشتية - المانوية.

البروفسور محمد محمدي ملايري: المركز الأكاديمي للأبحاث، الطبعة الأولى 2014.

تاريخ ابن خلدون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 2010.

التوراة: كتابات ما بين العهدين، مخطوطات قمران، البحر الميت

حُقِّقت بإشراف: أندريه دوبون - سومر ومارك فيلوننكو، دار الطليعة الجديدة، دمشق، الطبعة الأولى 1998.

توماس ل. طومسون: التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، بيسان للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 1995.

جميل خرطبيل: نقد الدين اليهودي، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، الطبعة الثانية.

جيمس هنري برستد: سجلات تاريخيّة من مصر القديمة، دار سنابل للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى 2009.

حنا حنا: الحكم والأمثال السورية القديمة وصداها في الأدب العالمي أحيقار نموذجاً، البيت السوري، الطبعة الثانية 2017.

حنا حنا: دراسات توراتيّة، البيت السوري، الطبعة الرابعة 2017.

خزعل الماجدي: الدين السومري، دار الشروق للنشر والتوزيع الطبعة العربية الأولى، الإصدار الثاني، 2009.

خزعل الماجدي: علم الأديان: تاريخه، مكوّناته، مناهجه، أعلامه، حاضره، مستقبله، مؤمنون بلا حدود للدراسات والنشر.

خزعل الماجدي: كتاب أنكي، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى 2013.

خزعل الماجدي: كشف الحلقة المفقودة بين أديان التعدّد والتوحيد، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 2014.

د. آ. كوهين: التلمود: عرض شامل للتلمود وتعاليم الحاخاميين، دار الخيّال للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة السادسة 2009.

د. بشار خليف: نشوء فكرة الألوهة: مقاربة تاريخيّة فكرية، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، 2011.

د. كارم محمود عزيز: أساطير التوراة الكبرى وتراث الشرق الأدنى القديم، دار الحصاد للنشر والتوزيع والطباعة، دمشق، الطبعة الأولى 1999.

د. نسيم جوزف شلهوب: العهد القديم بين حقيقة مقدّسة وأسطورة مسيّسة، دار سائر المشرق، الطبعة الأولى، 2016.

الدكتور سامي سعيد الأحمد: المعتقدات الدينية في العراق القديم، المركز الأكاديمي للأبحاث، الطبعة الأولى 2013.

الدكتور عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهوديّة والصهيونية، دار المشرق، القاهرة، الطبعة السادسة 2010.

الدكتور فؤاد أبو زكي: الأمير السيّد جمال الدين عبد اللَّه التنوخي، الطبعة الأولى، نيسان 1997.

الديانات في الماضي والحاضر، مؤسسة غازي جرادة الثقافية، بيروت - لبنان، 2005.

دونالد ريدفورد: مصر وكنعان وإسرائيل في العصور القديمة، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الثانية، 2015.

رسائل إخوان الصفاء، دار صادر، بيروت.

رمزي ج. النجّار: وجهة نظر وسفر، دار النهار، الطبعة الأولى، 2012.

زياد منى: مقدّمة في تاريخ فلسطين القديم، بيسان، الطبعة الأولى 2000.

سلسلة الأساطير السورية: ديانات الشرق الأوسط، نقلها إلى العربية مفيد عرنوق، منشورات دار علاء الدين، دمشق، الطبعة الأولى 2000.

سهيل التغبلي: الصهيونيّة تحرّف الإنجيل، الطبعة الأولى 1999.

سهيل قاشا: أحيقار: حكيم من نينوى وأثره في الآداب العالمية القديمة، بيان للنشر والتوزيع والإعلام، الطبعة الأولى، 2005.

سهيل قاشا: التوراة البابلية، الفرات للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2003.

سهيل قاشا: بابل والتوراة، دار أبعاد، الفرات للنشر والتوزيع الطبعة الأولى 2011.

سوزان غرينفيلد: تغيّر العقل، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2017.

سيغموند فرويد: موسى والتوحيد، دار الطليعة، الطبعة السادسة 2009.

شلومو ساند: اختراع أرض إسرائيل، الأهلية للنشر والتوزيع 2014.

شهاب الدين ياقوت بن عبد اللَّه الحموي: معجم البلدان، المكتبة العصريّة، الطبعة الأولى 2014.

العهد الجديد، دار الكتاب المقدّس في العالم العربي.

العهد القديم، دار الكتاب المقدّس في العالم العربي.

فراس السوّاح: آرام دمشق وإسرائيل، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، الطبعة الخامسة 2002.

فراس السوّاح: تاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، الطبعة الثالثة 2009.

فراس السوّاح: دين الإنسان، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، الطبعة الرابعة 2002.

فراس السوّاح: مغامرة العقل الأولى، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، الطبعة الثالثة عشرة 2002.

فراس السوّاح: موسوعة تاريخ الأديان، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، الطبعة الثانية 2007.

فكري أندراوس: الإنجيل العبري ومصر القديمة، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، الطبعة الأولى 2018.

فؤاد جميل: الطوفان في المصادر: السومرية - البابلية - الآشورية - العبرانية، المركز الأكاديمي للأبحاث، الطبعة الأولى 2014.

فيليب حتي: خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى، الدار المتحدة للنشر، الطبعة الأولى 1975.

القرآن الكريم، دار القرآن الكريم، بيروت.

كولن تشابمن: أرض الميعاد لمن؟ الصراع الفسطيني الإسرائيلي المستمر، الشركة العالمية للكتاب، الطبعة الأولى 2004.

مانيتون السمنودي: الجبتانا: أسفار التكوين المصريّة، تحقيق علي علي الألفي، روافد للتوزيع والنشر، القاهرة، طبعة ثانية 2011.

محمود العابدي: مخطوطات البحر الميت، دار نون ومنشورات الأدهم، الطبعة الأولى 2009.

المطران يوسف الدبس: تاريخ سورية الدنيوي والديني، دار نظير عبود 1994.

معجم اللاهوت الكتابي، دار المشرق، بيروت، الطبعة الرابعة 1999.

معروف الرصافي: كتاب الشخصيّة المحمدية، منشورات الجمل، الطبعة الأولى 2002.

المنجد في اللغة والإعلام، دار المشرق (المطبعة الكاثوليكية)، الطبعة العشرون.

موريس بوكاي: القرآن والتوراة والإنجيل: دراسة في ضوء العلم الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان، الطبعة الثانية 2015.

موسوعة علم الأديان، نوبيليس، الطبعة الثالثة، 2008.

ناجح المعموري: الأصول المصرية لتابوت العهد، دار تموز: طباعة - نشر - توزيع، دمشق، الطبعة الأولى 2014.

هنري فورد: اليهودي العالمي، منشورات المكتب التجاري، بيروت.

ويل وايريل ديورانت: قصّة الحضارة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع 2010.

يوسف زيدان: اللاهوت العربي وأصول العنف الديني، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثانية 2010.

James Vanderkam & Peter Fluit: The meaning of the Dead Sea scrolls - Harper San Francisco (A Devision of Harper collins Publishers).

John J. collins and Robert A. Kugler: Religion in the Dead Sea scrolls - William B. Erdmans Publishing Company) ED 2000.

Kenneth Hanson, P.H.D: Dead Sea scrolls - The untold story Council Oak books - Tulsa - 1st ed. 1997.

Lawrence H. Schiffrman: Reclaiming the Dead Sea scrolls Yale University Press New Haven and London 2009.

الهوامش:

(1) رسائل إخوان الصفاء، الجزء الثالث، ص 232.

(2) الدكتور فؤاد أبو زكي: الأمير السيّد: سيرته وأدبه، ص 441.

(3) تاريخ ابن خلدون، الجزء الأوّل، ص 13.

(4) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثالث، ص 195.

(5) خزعل الماجدي: علم الأديان، ص 82.

(6) المصدر نفسه، ص 109.

(7) المصدر نفسه، ص 131.

(8) الأب سهيل قاشا: بابل والتوراة، ص 180.

(9) توماس ل.طومسون: التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ص 14.

(10) سوزان غرينفيلد: تغيّر العقل، ص 11.

(11) أرنولد توينبي، تاريخ البشريّة، ص 43، 44.

(12) ول ديورانت: قصة الحضارة، الجزء الثاني، ص 250، 251.

(13) خزعل الماجدي: الدين السومري، ص 164.

(14) جيمس هنري برستد: سجلات تاريخيّة من مصر القديمة، المجلد الثاني، ص 528.

(15) كتاب أنكي، الأدب في وادي الرافدين، الدكتور خزعل الماجدي، ص 246.

(16) المصدر نفسه، ص 250.

(17) فراس السواح: مغامرة العقل الأوّلى، ص 45، 46.

(18) أسعد زيدان: الناس والتاريخ، ص 160.

(19) أرنولد توينبي: تاريخ البشريّة، ص 61.

(20) د.بشار خليف: نشوء فكرة الألوهة، ص 37.

(21) المصدر نفسه، ص 38.

(22) أنطون سعادة: نشوء الأمم، ص 73.

(23) بشار خليف: نشوء فكرة الألوهة، ص 13.

(24) بشار خليف: نشوء فكرة الألوهة، ص 14.

(25) الجبتانا: أسفار التكوين المصريّة، مانيتون السمنودي، ص 11.

(26) د.بشار خليف: نشوء فكرة الألوهة، ص 17.

(27) المصدر نفسه، ص 18، 19.

(28) د.بشار خليف: نشوء فكرة الألوهة، ص 20.

(29) إبراهيم ناصر: التوراة بين الحقيقة والأسطورة والخيال، ص 34.

(30) ول ديورانت: قصّة الحضارة، ص 124.

(31) د.بشار خليف: نشوء فكرة الألوهة، ص 41-42.

(32) خزعل الماجدي: الدين السومري، ص 7 و9.

(33) المصدر نفسه، ص 32.

(34) د.بشار خليف: نشوء فكرة الألوهة، ص 50، 51.

(35) المصدر نفسه، ص 122.

(36) فراس السواح: دين الإنسان، ص 26.

(37) جيمس هنري برستد: سجلّات تاريخيّة من مصر القديمة، التصدير.

(38) علم الآثار في العراق، ويكيبيديا، الموسوعة الحرّة.

(39) الأب سهيل قاشا: بابل والتوراة، ص 89.

(40) جريدة النهار اللبنانيّة، العدد الصادر بتاريخ 4-12-2011.

(41) الأب سهيل قاشا: بابل والتوراة، ص 119.

(42) فراس السوّاح: تاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود، ص 32.

(43) ويكيبيديا.

(44) موقع غوغل، مجلة العربيّ، سعاد مكرم «التنقيب الأثريّ في سوريا تاريخ من الاستيلاء والنهب والتهريب أيضاً».

(45) ويكيبيديا.

(46) أسامة العيسة: مخطوطات البحر الميت (قصة الاكتشاف)، ص 17.

(47) المصدر نفسه، ص 19.

(48) التوراة: كتابات ما بين العهدين، تحقيق أندريه دوبون - سومر ومارك فيلوننكو، الجزء الأوّل، ص 25.

(49) المصدر نفسه، الجزء الأول، ص 24.

(50) أسامة العيسة: محفوظات البحر الميت (قصة الاكتشاف)، ص40.

(51) نقله موقع CNN بالعربيّة: صحة وتكنولوجيا.

(52) د.جوزيف زيتون، المدوّنة الرسميّة والوحيدة.

(53) أسامة العيسة: محفوظات البحر الميت (قصة الاكتشاف)، ص96.

(54) الدكتور عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهوديّة والصهيونيّة، المجلد الثاني، ص 123.

(55) الدكتور عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهوديّة والصهيونيّة، المجلد الثاني، ص 123.

(56) خزعل الماجدي: علم الأديان، ص 466.

(57) خزعل الماجدي: كشف الحلقة المفقودة بين أديان التعدّد والتوحيد، ص 289.

(58)Lawrence H.Schiffman و Reclaiming the dead sea scrolls - p:xxii - xx-xix

(59) مدوّنة مكتبة المهتدين الإسلاميّة لمقارنة الأديان.

(60)James Vanderkam & Peter Flint - The meaning of the dead sea scrolls, page 20

(61)James Vanderkam & Peter Flint - The meaning of the dead sea scrolls, page 20

(62)James Vanderkam & Peter Flint - The meaning of the dead sea scrolls, page 22, 23, 24, 26, 29

(63)Kenneth Hanson: Dead Sea scrolls - the untold story, PH.D.,page 118

(64) المصدر نفسه، ص 31.

(65) محمود العابدي: مخطوطات البحر الميت، ص 96.

(66) المصدر نفسه، ص 151.

(67) ول ديورانت: قصّة الحضارة، الجزء الثاني، ص 328.

(68) المصدر نفسه، ص 329.

(69) أسامة العيسة: مخطوطات البحر الميت (قصة الاكتشاف)، ص 84.

(70) فيليب حتي: خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى، المجلّد الأوّل، ص 125، 126.

(71) التلمود، آ.كوهين، ترجمة جاك مرتي.ص 37.

(72) الدكتور إبراهيم الحفني: التوراة: تاريخاً - أثريّاً - ديناً، ص 51.

(73) المصدر نفسه، ص 300.

(74) المصدر نفسه، ص 358.

(75) محمود العابدي: مخطوطات البحر الميت، ص 9.

(76) موقع مكتبة المهتدين الإسلاميّة لمقارنة الأديان.

(77) التوراة: كتابات ما بين العهدين، ص 28.

(78) المصدر نفسه، ص 32.

(79) أسامة العيسة: مخطوطات البحر الميت (قصة الاكتشاف)، ص 40.

(80) Kermeth Hanson: Dead sea scrolls- the untold story, p.35

(81) فراس السوّاح: موسوعة تاريخ الأديان، الكتاب الأوّل، ص 17.

(82) د.بشار خليف: نشوء فكرة الألوهة، ص 118.

(83) أرنولد توينبي: تاريخ البشريّة، ص 180.

(84) د.بشار خليف: نشوء فكرة الألوهة، ص 120.

(85) دونالد ريدفورد: مصر وكنعان وإسرائيل في العصور القديمة، ص 606.

(86) سهيل التغلبي: اليهودية - الصهيونيّة تحرّف الكتاب المقدّس، ص 67.

(87) سهيل التغلبي: اليهودية - الصهيونيّة تحرّف الكتاب المقدّس، ص 55.

(88) المصدر نفسه، ص 59.

(89) المصدر نفسه، ص 64.

(90) سيغموند فرويد: موسى والتوحيد، ص 68.

(91) خزعل الماجدي: كشف الحلقة المفقودة بين أديان التعدّد والتوحيد، ص 78.

(92) خزعل الماجدي: علم الأديان، ص 412

(93) معروف الرصافي: كتاب الشخصيّة المحمديّة - حديث متواتر، ص 277.

(94)Kenneth Hanson - Dead sea scrolls - the untold story, p106

(95) محمود العابدي: مخطوطات البحر الميت، ص 202.

(96) موسوعة عالم الأديان، نوبيلس، الجزء الأوّل، ص 134.

(97) محمود العابدي: مخطوطات البحر الميت، ص 11.

(98) زياد منى: مقدّمة في تاريخ فلسطين القديم، ص 28.

(99) يوسف زيدان: اللاهوت العربيّ وأصول العنف الدينيّ، ص 54.

(100) دونالد ريدفورد: مصر كنعان وإسرائيل في العصور القديمة، ص 462.

(101) توماس ل.طومسون: التاريخ القديم للشعب الإسرائيليّ، ص 12-14.

(102) شلومو ساند: اختراع أرض إسرائيل، ص 98.

(103) توماس ل.طومسون: التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي؛ ص 80.

(104) المصدر نفسه، ص 217.

(105) خزعل الماجدي: علم الأديان، ص 504، 507.

(106) الدكتور جوزف زيتون: المدوّنة الرسميّة والوحيدة.

(107) قاموس الكتاب المقدّس، دائرة المعارف الكتابيّة المسيحيّة، غوغل.

(108) التوراة، كتابات ما بين العهدين، الكتب الأسّينية، الجزء الأوّل، ص 114.

(109) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الكتب الأسّينية، ص 127.

(110) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الكتب الأسّينية، ص 28، 29.

(111) التوراة، كتابات ما بين العهدين، مدرج الهيكل، ص 129.

(112) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأول، ص 157.

(113) التوراة: كتابات ما بين العهدين، مدرج الهيكل، ص 129.

(114) محمود العابدي: مخطوطات البحر الميت، ص 155.

(115) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأول، ص 187.

(116) فراس السوّاح: آرام دمشق وإسرائيل، ص 128-130.

(117) أسد الأشقر: الخطوط الكبرى في تاريخ سوريا ونشوء العالم العربي، ص 217.

(118) شهاب الدين ياقوت الحموي: معجم البلدان، الجزء الثاني، ص 22.

(119) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 192.

(120) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 192.

(121) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 193، 194.

(122) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 203.

(123) التوراة: كتابات ما بين النهرين، الجزء الأوّل، ص 203.

(124) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 209.

(125) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 213.

(126) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 213.

(127) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 215، 216.

(128) سهيل قاشا: التوراة البابليّة، ص 137.

(129) موقع المدونة الرسمية والوحيدة للدكتور جوزيف زيتون.

(130) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 218.

(131) المصدر نفسه، ص 219.

(132) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 219.

(133) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 220.

(134) محمود العابدي: مخطوطات البحر الميت، ص 39.

(135) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 221.

(136) محمود العابدي: مخطوطات البحر الميت، ص 39.

(137) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 241.

(138) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 242.

(139) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 244، 245.

(140) التوراة: كتابات ما بين النهرين، الجزء الأوّل، ص 248.

(141) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 250.

(142) المصدر نفسه، ص 253.

(143) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 253.

(144) هنري فورد: اليهودي العالمي، ص 14.

(145) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 256، 257.

(146) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 258.

(147) أنطون سعادة: المحاضرات العشر، ص 60.

(148) أنطون سعادة: نشوء الأمم، الكتاب الأوّل، ص 166.

(149) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 261.

(150) المصدر نفسه، ص 262.

(151) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 265.

(152) المنجد، قسم في الأعلام، ص 183.

(153) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 284.

(154) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، شرح حبقوق: ص 283.

(155) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 289.

(156) المصدر نفسه.

(157) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 301.

(158) المطران يوسف الدبس: تاريخ سورية، المجلّد الثاني، ص 399.

(159) المصدر نفسه.

(160) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 313.

(161) خزعل الماجدي: علم الأديان، ص 69 - 70.

(162) المصدر نفسه، ص 74.

(163) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 329.

(164) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 332.

(165) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 332، 333.

(166) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 334، 335.

(167) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 337.

(168) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 341، 342.

(169) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 343.

(170) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 344، 345.

(171) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 351 و353.

(172) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 368.

(173) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 408، 409.

(174) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 414.

(175) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 415-416.

(176) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 437.

(177) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 439.

(178) المصدر نفسه.

(179) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 439.

(180) جميل خرطبيل: نقد الدين اليهوديّ، ص 41.

(181) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 477.

(182) محمود العابدي: مخطوطات البحر الميت، ص 39.

(183) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 479.

(184) المصدر نفسه، ص 480.

(185) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 489.

(186) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 498.

(187) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 5.

(188) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 6.

(189) المصدر نفسه، ص 7.

(190) المصدر نفسه.

(191) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 7.

(192) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 24.

(193) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 28.

(194) جورج قرم: تعدّد الأديان وأنظمة الحكم، ص 18، الهامش.

(195) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 28، 29.

(196) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 35.

(197) المصدر نفسه.

(198) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 37.

(199) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 49.

(200) المصدر نفسه، ص 57، 58.

(201) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 79.

(202) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 95.

(203) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 101، 102.

(204) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 106.

(205) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 116.

(206) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 13.

(207) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأول، ص 13.

(208) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأول، ص 13.

(209) جورجي كنعان: محمد واليهوديّة، ص 192، 193.

(210) التلمود، آ.كوهين، ترجمة جاك مارتي، تعريب د.سليم طنوس ص 37.

(211) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 14.

(212) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 14.

(213) المصدر نفسه، ص 171.

(214) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 172.

(215) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 173.

(216) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 173.

(217) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 176.

(218) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 177.

(219) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 181.

(220) المصدر نفسه.

(221) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 181.

(222) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 182.

(223) ويكيبيديا.

(224) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 188.

(225) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 191.

(226) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 192.

(227) المصدر نفسه، ص 192، 193.

(228) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 199، 200.

(229) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 200.

(230) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 203، 204.

(231) المصدر نفسه، ص 212.

(232) د.نسيم جوزف شلهوب: العهد القديم بين حقيقة مقدّسة وأسطورة مسيّسة، ص 54.

(233) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 215، 216.

(234) المصدر نفسه، ص219.

(235) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 236.

(236) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 243.
(237) آ.كوهين: التلمود، ص 185.
(238) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 315.
(239) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 316.
(240) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 326.
(241) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 337.
(242) المصدر نفسه، ص 338.
(243) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 338.
(244) المصدر نفسه، ص 340، 341.
(245) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 359.
(246) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 379، 380.
(247) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 409.
(248) المصدر نفسه.
(249) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 425.
(250) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 426.
(251) المصدر نفسه، ص 438.
(252) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 438.
(253) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 446.
(254) المصدر نفسه، ص 448.
(255) سهيل قاشا: أحيقار: حكيم من نينوى، ص11.
(256) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثالث، ص 17.
(257) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 503.
(258) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 503.
(259) المصدر نفسه، ص 507.
(260) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 521.

(261) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 521.

(262) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثاني، ص 521.

(263) المصدر نفسه، ص 526.

(264) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثالث، ص 5.

(265) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثالث، ص 5.

(266) المصدر نفسه.

(267) ابن منظور: لسان العرب.

(268) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثالث، ص 40.

(269) المصدر نفسه، ص 126.

(270) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الثالث، ص 17.

(271) حنا حنا: الحكم والأمثال السوريّة القديمة: أحيقار نموذجاً، ص 12.

(272) صدر عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت - لبنان، 2013.

(273) محمود العابدي: مخطوطات البحر الميت، ص 123 و314.

(274) المصدر نفسه، ص 317.

(275) الأب الدكتور يوسف يمين: المسيح وُلد في لبنان لا في اليهودية، ص 276.

(276) المصدر نفسه، ص 336.

(277) الأب الدكتور يوسف يمين: المسيح وُلد في لبنان لا في اليهودية، ص 370.

(278) المصدر نفسه، ص 369 و370.

(279) معجم اللاهوت الكتابيّ، ص 14.

(280) خزعل الماجدي: كشف الحلقة المفقودة بين أديان التعدّد والتوحيد، ص 311.

(281) كولن تشابمن: أرض الميعاد لمن؟ ص 421.

(282) المصدر نفسه، ص 281.

(283) المصدر نفسه، ص 273، 274.

(284) سهيل التغلبي: اليهوديّة - الصهيونيّة تحرّف الكتاب المقدّس، ص 42.

(285) سهيل التغلبي: اليهوديّة - الصهيونيّة تحرّف الكتاب المقدّس، ص 316.

(286)- Kenneth Hanson, PH.D :Dead sea scrolls- The untold story page: 124

(287)- Lawrence H.Schiffman- Reclaiming The Dead sea scrolls pages xxi - xiii

John J.Collins and Robert A.Kugler: Religion in The Dead sea scrolls- page 9.

(288) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 44.

(289) المصدر نفسه.

(290) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 44..

(291) المصدر نفسه، ص 45.

(292) المصدر نفسه، ص 63.

(293) التوراة: كتابات ما بين العهدين، الجزء الأوّل، ص 64.

(294) خزعل الماجدي: كشف الحلقة المفقودة بين أديان التعدّد والتوحيد، ص 350.

(295) د.عصام سخنيني: تهافت التأريخ التوراتي، ص 20.

(296) المصدر نفسه، ص 167.

(297) محمود العابدي: مخطوطات البحر الميت، ص 204.

(298) رمزي ج.النجار: وجهة نظر وسفر، ص 22.

(299) رمزي ج.النجار: وجهة نظر وسفر، ص 23.

(300) المصدر نفسه، ص 32.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الكتاب..

إهداءٌ خاص

تقديم.. بقلم ملحم الرياشي..

مقدّمة
مدخل
الفصل الأول
الباب الأوّل
أضواء على الاكتشاف وعلى كتبة هذه المخطوطات وتاريخ كتابتها
الباب الثاني
كتبة المخطوطات
الباب الثالث
تاريخ وضع المخطوطات
الباب الرابع
اللغة: الترجمة والتعريب-النشر وردود الفعل
الفصل الثاني
بشأن مسألة الأنبياء وصحّة تنبؤاتهم
الفصل الثالث
مناقشة موضوعية لمحتوى المخطوطات
الباب الأوّل
حول نسبة المخطوطات إلى الأسّينيين
الباب الثاني
دستور الجماعة
الباب الثّالث
كتاب دمشق
الباب الرابع
القوانين
الباب الخامس
تنظيم الحرب
الباب السادس
شروح حول بعض الأسفار
الباب السابع
شرح ناحوم

الباب الثامن
شرح المزمور رقم 37
الباب التاسع
الأناشيد
الباب العاشر
مدرج المزامير المنحولة لداود
الباب الحادي عشر
مختارات
الفصل الرابع
الخمسينيات
الباب الأوّل
الباب الثاني
كتاب أخنوخ
الفصل الخامس
الباب الأوّل
الباب الثاني
التطابق والاختلاف مع العهد القديم
الباب الثالث
قسمة الأرض
الفصل السادس
وصايا الشيوخ الاثني عشر
الباب الأوّل
الباب الثاني
الوصايا
الفصل السابع
مزامير سليمان
الفصل الثامن
وصيّة موسى واستشهاد إشعيا
الفصل التاسع
التوارة المنحول
الفصل العاشر
محاولة الربط بين المذهب الأسّيني والمسيحيّة
الخاتمة
المراجع
الهوامش: